ف. تشويكوف
مارشال الاتحاد السوفياتي

ستالينغراد

مَلحمَة العَصر

ترجمة: محمّد عدنان مراد

مراجعة وتدقيق الدكتور
ماجد علاء الدين

ف. تشويكوف
مارشال الاتحاد السوفياتي

ستالينغراد

ملحمة العصر

ترجمة
محمد عدنان مراد

مراجعة وتدقيق الدكتور
ماجد علاء الدين

ف . تشويكوف *V . Tchouikov*

مؤلف هذا الكتاب فاسيلي إيفانونوفيتش تشويكوف . ماريشال الاتحاد السوفيتي ، اشترك في الحرب الأهلية (١٩١٨ـ١٩٢٠) . والحرب الوطنية الكبرى ١٩٤١ـ١٩٤٥ . ولد في عائلة فلاحية في قرية *Serebrianyé proudy* (منطقة موسكو) . قاد الجيش ٦٢ الذي لعب دوراً مشرفاً في الدفاع البطولي عن ستالينغراد . وفي معركة الدنيبر . وعمليات تحرير أوكرانيا ، وبولونيا الغربية . وفي المعارك داخل المانيا واحتلال برلين . أصبح بعد الحرب القائد الأعلى للقوات السوفيتية في المانيا . ثم قائداً لقوات منطقة كييف العسكرية . ثم قائداً للقوات البرية ، فقائد الدفاع المدني في الاتحاد السوفيتي .

وفي الأيام الأخيرة ، أصبح مفتشاً عاماً لوزارة الدفاع في الاتحاد السوفيتي . فاز مرتين بلقب بطل الاتحاد السوفيتي نظراً لجدارته القتالية ولكونه قائداً عسكرياً فذاً .



مقـــدمـــــة

لا أعلم إذا كان في عالمنا المعاصر إنسان، لم يسمع باسم تلك المدينة الخالدة «ستالينغراد» التي قدم أهلوها، والمدافعون عنها من الجيوش السوفييتية أسمى التضحيات دفاعاً عن الحق والعدالة وحرمة وقدسية الأرض الأم . وسجلوا بذلك صفحة خالدة في تاريخ حركة التحرر الوطني العالمية .

كانت ستالينغراد وستبقى رمزاً للصمود الإنساني ، وتعبيراً عن الإرادة الحرة لكل مواطن شريف يدافع عن حقه أمام قوى البغي والعدوان .

من خلال هذا الكتاب «ستالينغراد ملحمة العصر» لمؤلفه ف. تشويكوف يتعرف القارىء على الكثير من المعلومات القيمة عن أحداث الحرب العالمية الثانية، وعلى وجه الخصوص، يتعرف على أهم الأحداث التي دارت حول مدينة ستالينغراد، التي كتبت عنها الصحيفة الأمريكية نيويورك هيرالد تريبيون، واصفة وضع المدينة كما يلي: «في هذه الأنقاض، التي لا يمكن تخيلها بسبب الحرائق المتتابعة ، وغيوم الدخان الكثيف ، بسبب الانفجارات ، وتدمير المباني ، والجثث المبقرة . كان المدافعون يقاتلون من أجل مدينتهم بصلابة مذهلة ليس عن طريق الموت ، إذا كان ضرورياً ، وليس بالدفاع الذي كان عليهم القيام به ، ولكن عن طريق الهجوم ، كلما كان ممكناً ، دون النظر للتضحيات من أجلهم ، ومن أجل أصدقائهم ، ومن أجل مدينتهم ، مثل هذه المعارك لا تنشب بحسابات استراتيجية ، ولكنها كانت تدور بحقد عارم ، وتفانٍ لم تعرفه لندن ، حتى في أصعب أيامها ، وخلال أعنف الغارات الجوية الألمانية ، وبمثل هذه المعارك تكسب الحرب» .

وكتبت صحيفة رينولدز نيوز البريطانية في ٢٩ أيلول ١٩٤٢ ، ما يلي :
«مرتين في جيل واحد ، تصبح ستالينغراد رمزاً لإرادة الحياة للشعب الروسي ، فقبل أربع وعشرين عاماً ، كان المناهضون يريدون تدمير الجمهورية السوفييتية الفتية ، ولكنهم هم الذين أبيدوا على ضفاف الفولغا ، واليوم تشهد أسوأ طغيان فاشي . التضحيات الدموية في شوارع تلك المدينة التي تتحمل أكبر معركة عملاقة في تاريخ الحروب ، وستظل ملحمة ستالينغراد خالدة على مر الزمن ...

إن بسالة الشعب الروسي العظيم ، وأهلية القادة الروس ، جذبت إعجاب كل العالم الحر ، ولنا الحق أن نفتخر ببطولات ستالينغراد » .

ومهما كتب المؤرخون عن أحداث تلك المعارك العنيفة ، فإن الأقلام عاجزة عن وصف البطولات والتضحيات التي قام بها المدافعون عن ستالينغراد ، ومن هذه التضحيات يسرد تشويكوف ما يلي :

«اندفعت دبابات العدو في مواضع قتال الفوج السوفييتي ، واتجهت بعض المدرعات نحو الخندق ، الذي كان فيه البحار ميخائيل بانيكافا ، وهي تطلق النار من مدافعها ورشاشاتها .

كان صوت صرير السلاسل مميزاً دائماً من بين أصوات الرمايات وانفجار القذائف ، وحتى من داخل الخندق . وفي اللحظة التي اقتربت فيها الدبابات استنفذ الجندي ميخائيل كل قنابله ، ولم يبق لديه سوى زجاجتين حارقتين ، وفي نفس اللحظة ، التي كانت فيها الزجاجة فوق رأسه ليقذفها ، انفجرت بفعل إحدى الطلقات عليه ، وإثر ذلك تحول الجندي إلى شعلة حقيقية تحترق ، ولكن الألم المريع لم يفقده وعيه ، فتناول الزجاجة الثانية وهو يشتعل ، واندفع نحو إحدى الدبابات العدوة التي أصبحت قريبة منه جداً . كان الجميع يشاهدون الجندي الذي أصبح كحاجز ناري متحرك ، يخرج من الخندق مندفعاً نحو تلك الدبابة ، وركض حتى وصلها ، ورمى الزجاجة في شبكة ثقوب التمويه للمحرك ، وبعد لحظة خرجت حزمة من اللهب والدخان ، وغاب البطل والدبابة المحترقة عن النظر » .

ويقص أحد القادة العسكريين بطولة شاب يدعى فانيا ، وقع في حصار الأعداء ، وعمره لم يتجاوز ستة عشر عاماً ، فتصرف كالتالي : «كانت اليد اليمنى للفتى فانيا تتدلى إلى جانبه دون حركة ، كما استأصلت شظية قنبلة

يده الأخرى من الذراع . ودبابتان أخريان كانتا تقتربان من المدفع ، عندها خرج الشاب من خندقه ، وهو مضرج بالدماء ، ويداه الاثنتان لا نفع منهما ، ولم يعد لديه إلا أسنانه التي كانت تمسك بقنبلة مضادة للدبابات ، ولم يلبث أن قذف بنفسه تحت سلاسل إحدى الدبابات ، فدوى الانفجار » .

ولم يكن دور المرأة في الحرب بأقل أهمية من دور الرجل ، إذ كانت إلى جانبه في أعنف المعارك ، وها هو المؤلف يتوقف عند دور إحداهن واصفاً بطولتها : «وصلت في ظلام الليل الدامس إلى مواقعنا امرأة ، دون خوف على حياتها من القطاع المحتل ، وأعطتنا معلومات قيمة عن مواضع الوحدات المعادية ، وإني أتذكرها ، اسمها ماريا فيدينيفا ...

ويشير المؤلف إلى خدمات المرأة في مجال تضميد جروح المصابين من الجنود ، إذ يقول عن إحداهن : «أذكر الممرضة ليوبا نستيرنيكو التي كانت تحتضر ، والدم يسيل بغزارة من جرح في صدرها ، وفي يدها ضمادة ، ورغم قربها من الموت حاولت مساعدة أحد الرفاق ، وتضميد جراحه ، ولكن لم يسمح لها الوقت للقيام بذلك ، ولقيت مصرعها » .

استمرت المعارك التي يصفها المؤلف في هذا الكتاب خير وصف بين أعظم قوتين ، وتمكنت القوات السوفييتية فك الحصار عن مدينة ستالينغراد ، ودحرت القوات الفاشية الألمانية ، ولاحقتها حتى عقر دارها برلين ، التي أعلنت عن استسلامها في أيار ١٩٤٥ .

وتجدر الإشارة إلى أن مترجم هذا الكتاب العميد المتقاعد عدنان مراد قد اعتمد على الدقة والأمانة في الترجمة عن اللغة الفرنسية ، تبيَن لي ذلك من خلال المقارنة مع النص الروسي الأصلي .

نتمنى ، ونحن نقدم هذا العمل الهام إلى القراء العرب أن ينال إعجابهم ، ويساهم مساهمة فعالة في تربية روح الإقدام والتضحية في الدفاع عن الوطن وقضاياه المصيرية . ويتسم هذا العمل بأهمية خاصة في وقت أصبحت فيه الشهادة والتضحية رمزاً حقيقياً للكفاح العربي ضد المؤامرات الامبريالية والصهيونية .

● د . ماجد علاء الدين

نبذة عن حياتي

ولدت في روسيا في قرية «سيربرياني برود» . وهي حالياً مركز ناحية في منطقة موسكو . خدمت قرابة ستين عاماً في الجيش السوفيتي ، وحاربت من أجل الوطن في الأرض السيبيرية ، وفي أوكرانيا وروسيا البيضاء في وسط البلاد . ولكن في هذه الأرض الروسية الواسعة ، مدينة وهبتها قلبي ، وارتبطت حياتي بها برباط أبدي ، لا تنفصم عراه ، هي المدينة القائمة على نهر الفولغا ، والتي دخلت في التاريخ باسم ستالينغراد .

في ستالينغراد ولدت مرة ثانية ـ إذا صح التعبير ـ فقد خرجت حياً من هذه المعمعة النارية ، بمصادفة سعيدة . وفي ستالينغراد أدركت لماذا يستحق الإنسان أن يعيش هذه الحياة . ولماذا كان علينا أن نتثقف ، وماذا أعدت الحياة والقدر لي .

لقد شدتني الذاكرة بقوة للأيام المريرة من القتال الضاري الذي عانيناه من أجل الدفاع عن هذه المدينة ، وأني أرى كل شيء من جديد ماثلاً أمامي ، لذلك لا يسعني الصمت ، ولا يمكنني إلا أن أتكلم قبل أن أفارق هذه الحياة . كيف دافع جيلنا عن ستالينغراد ، وكيف تحملت تلك الأماكن الضربات القاتلة التي وجهها لها الفاشيون .

أصبحت المدينة في هذه الأيام محج ملايين الأشخاص من كل القارات، يأتون إليها ، ليحنوا رؤوسهم أمام المآثر البطولية للمحاربين السوفييت . والذين لم يدافعوا عن المدينة فحسب،بل دافعوا عن الحضارة العالمية .

لقد أشاد الشعب على مرتفع « كورغان »[1] ماماييف نصب الأبطال ،

---

(١) الكورغان في اللغة الروسية هو المرتفع الذي يحتوي على مقبرة الشهداء ، ويقوم عليه الآن عدد من التماثيل التي تخلد هؤلاء الشهداء .

وعلى أقدام هذا النصب . يؤدي الجنود الشباب القسم العسكري ، ويتلقون بطاقات الكومسمول ، حتى الأزواج الجدد الذين يخرجون إلى مقر السعادة ، لا يفوتهم مطلقاً التوقف أمام النصب ، ونثر الزهور هناك . والذي يصعد قمة كورغان ماماييف ، وينظر من قمته نحو الشرق ، نحو الفولغا ، الذي يبدو له وكأنه في متناول يده ، يعرف الناظر كيف كانت مجيدة بسالة المحاربين السوفييت الذين أوقفوا هجوم الفاشيين .

لقد استمر القتال على مشارف المدينة وفي ضواحيها ، وفي الأحياء السكنية ١٨٠ نهاراً مع ١٨٠ ليلة ، لم يتوقف خلالها ، ولا دقيقة واحدة ، رعد المدافع ، وضجيج رمايات البنادق والرشاشات والمتفجرات وأنين الجرحى . كم من الجنود الفاشيين سقطوا هنا وهم يسيرون باتجاه الفولغا ؟ وكم سقط في المدينة وأمام الفولغا من المحاربين السوفييت ، وهم يدافعون عن هذا الحيز الضيق من الأرض ؟

كانت المدينة تحترق ، وكان يغطيها دخان أسود وغبار الحجر المطحون ومن فوق قمة الكورغان الذي حدد علي خرائطنا التكتيكية بالمرتفع ١٠٢,٠ ، كنا لا نرى سوى هياكل بعض الأبنية والأنقاض ، وأكوام الطوب والحجارة التي لم تقاوم ، رغم أن الرجال قاوموا حتى النهاية . كان كل ركام ، وكل هيكل بناء ، كل بئر ، وكل كتلة من الطوب موقعاً دفاعياً ، كنا نناضل من أجل بضعة أمتار . وليس من أجل الشوارع والأزقة فقط ، بل ومن أجل الأبنية وشققها كل واحدة ، على حده .

كان كورغان ماماييف النقطة التي دارت حولها أشد المعارك ضرواة . وقد أحصينا بعد الحرب ، أن كل متر مربع من أرض الكورغان ، تلقى أكثر من ألف شظية لغم أو قذيفة ، لقد عجن التراب بالحديد والرصاص .

وتمضي الأيام ، ومدينة جديدة ترتفع مكان الأنقاض ، مدينة أنيقة ذات شوارع فسيحة ، تمتاز بفنها المعماري الخاص . لقد أعيد بناء المصانع وبنيت مصانع أخرى جديدة ، وارتفع المركز الكهربائي الضخم . كما وصلت قناة لينين مياه الأم الصغيرة الفولغا بمياه الدون الهادىء . لقد عاد للمدينة سكانها القدامى ، وتبعهم آخرون ، وعادت الحياة لها . ولكن لا أحد ينسى أنها بنيت فوق قبور الأبطال،وعلى التراب المروي بدمائهم،لذلك فهذه الأرض غالية جداً علينا إلى ما لا نهاية .

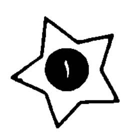
كثيراً ما ترددت إلى تلك الأماكن ، وفي كل مرة كان قلبي يخفق بسرعة عندما كنت أقترب من المدينة ، فالماضي الذي يغلفني كان يعيدني إلى لهب البترول المتصاعد وإلى الأنقاض والحرائق ..

أريد على قدر امكانياتي أن أروي أحداث ملحمة الفولغا الكبري ، ولكن قبل ذلك يجب علي أن ألفت نظر القارىء إلى أن ما أرويه ليس تقريراً تاريخياً ، بل ذكريات مرتبطة بتلك الأحداث الواقعة فحسب .

عندما بدأت معركة ستالينغراد كنت معاون قائد الجيش ٦٤ ، وفي بداية المعارك سميت قائداً للجيش ٦٢ . وإني الآن أنحني إجلالاً أمام بسالة جنود وضباط جيش الحرس الأول والجيوش ٢٤ ، و ٦٦ الذين أشعلوا نار المعركة فوراً أمام ستالنيغراد بعد سيرهم مسافة ٥٠ كيلومتراً ، ودون انتظار التجمع الكامل لفرق مشاتهم ومدفعيتهم ، كما أعبر عن احترامي للدور البطولي للجيش ٦٤ ، الذي تقاسم مع الجيش ٦٢ فخر المهمة الثقيلة ، التي أوكلت إليها بالدفاع عن ستالينغراد . وإني أكرر مرة ثانية أن كتابي ليس مؤلفاً تاريخياً ، ولكنه ذكريات لأحد المشاركين في ملحمة ستالينغراد والذي يروي بشكل رئيسي الأحداث ، التي كان فيها شاهد عيان ، أو مشتركاً فيها مباشرة ، والتي تركت في ذاكرته آثاراً لا تمحى .

المؤلف

عودة الى الماضي القريب



في بداية الحرب كنت بعيداً عن وطني ، في الصين . إذ كنت في ذلك الوقت المستشار العسكري الأول للماريشال الصيني « تشان ـ كاي شك » . كما كنت أيضاً الملحق العسكري السوفيتي في تشونغ ـ كينغ ، وكان تشان ـ كاي ـ شك في ذلك الوقت ، القائد الأعلى للجيوش الصينية .

كانت أوروبا عندما ذهبت إلى الصين غارقة في خضم الحرب . فقد استعبدت بولونيا ، وسقطت النرويج وهولندا وفرنسا ، وظهر واضحاً أن عقيدة الحرب المكشوفة كانت ، هي المنتصرة . وكنا نترقب الغزو الفاشي لبريطانيا ، وكان الطيارون الانكليز البواسل ، يصدون الغارات الجوية الكثيفة ، التي كان يقوم بها الأسطول الجوي الفاشي على المدن المسالمة ، فلندن تحترق ، وكوفنتري أصبحت أطلالاً .

تبين بعد الحرب ـ عندما اصبح بالامكان الاطلاع على الأرشيف الهتلري ـ أن هتلر منذ خريف عام ١٩٤٠ ، عدل عن فكرة اجتياز المانش . حيث اختلطت بشكل واضح ـ اعتبارات ذات صبغة سياسية في المخططات الاستراتيجية والتكتيكية ، ظهرت لنا ولغيرنا من العسكريين بسرعة ما يفيد، أن تأجيل اجتياز المانش إلى ربيع ١٩٤١ كان بقرار وأمر القيادة الهتلرية .

أما الموقف الدقيق ، الذي وجدت عليه بريطانيا عشية «دنكرك» فقد أخذ بالتحسن ، بعد أن نجحت القوات البريطانية ، التي كانت في فرنسا بالنجاة رغم الصعوبات الكبيرة . ولم تستطع الغارات الكثيفة أن تجعل الشعب البريطاني يركع على ركبتيه ، فنسبة القوى الجوية بين الطرفين أصبحت متعادلة ، والصناعة الأمريكية ، التي كانت نوعاً ما بطيئة في بادىء الأمر ، أخذت تتحول لانتاج مختلف أنواع الأسلحة ، وبذلك حصلت بريطانيا على فترة راحة لتتسلح

وتستعد للرد. وعلم هتلر منذ البداية أن معركة بريطانيا بالنسبة له ستكون خاسرة . لقد استكملت بريطانيا قواها ، وأصبحت علاقات المانيا واليابان مع الولايات المتحدة متوترة ، وكانت اليابان تنتظر الفرصة الملائمة للدخول في الحرب لاقتسام العالم وتوسيع ممتلكاتها في حوض المحيط الكبير ، والمناطق الأخرى .

فهل يمكننا في مثل هذه الظروف اعتبار ميثاق عدم الاعتداء الذي عقد مع المانيا في آب ١٩٣٩ ضمانة لأمننا .

كان من الممكن للأحداث أن تأخذ مجرى ليس في صالحنا . فباستطاعة هتلر أن يوقع اتفاقية مع اليابان ، تستهدف القيام بعمل مشترك ضد الاتحاد السوفيتي من الغرب والشرق .

وهكذا ، كان يدخل في نطاق مهمتي في الصين ، الاستيضاح عن موقف اليابان ، وأين ستوجه عزمها ؟ نحو الشمال أو نحو الجنوب ، وهل ستوجه ضربتها إلى الشرق السوفيتي أو تشتبك مع الولايات المتحدة بصراع لاقتسام آسيا الجنوبية الشرقية ؟

هناك نقاط كثيرة غامضة في الموقف الياباني . فمواردها الخاصة من المواد الأولية قد أوشكت على النفاذ ، بسبب متابعتها دائماً لسياسة القوة العسكرية ، وبالتأكيد كان عليها توسيع حدود اعتداءاتها . ولكن إلى أين ؟ وكان هذا هو السؤال المطروح . وصحيح أنها كانت تحتل المراكز الحيوية في الصين ، إلا أنها لم تكن تسيطر عليها سيطرة كاملة .

كانت ترد الى موسكو من مختلف الأقنية ، وعن طريق مختلف المصادر ، المعلومات التي تؤكد أن هتلر يعد نفسه لمعركة باتجاه الشرق ، في نهاية الربيع أو في الصيف ، وأن الاعتداء على الاتحاد السوفيتي لا بد أن يحصل ، وقد وصلتني وأنا في الصين معلومات بهذا الخصوص .

كان من المناسب في ربيع عام ١٩٤١ أن نستقبل بحذر شديد هذه المعلومات،وبخاصة المتعلقة بموضوع الاستعدادات الألمانية للاعتداء علينا ، وليس سراً أن تحويل الضربة باتجاه الشرق ، سيبعد هتلر عن تهديد بريطانيا بشكل جدي ، قد يمتد هذا لبضع سنين ، على الأقل . ولم يكن يخلو الماضي ، وبخاصة في ذلك الوقت من عام ١٩٤١ ، من أناس يرغبون في تحويل الاعتداء الهتلري نحو الاتحاد السوفيتي . في حين كانت الدبلوماسية السوفيتية تبذل

قصارىٰ جهدها ، وتعمل لتتجنب الحرب . وأصبحت المهمة الرئيسية للسياسة الخارجية السوفيتية كسب سنة أو سنتين على الأقل للانتهاء من إعادة تسليح الجيش الأحمر .

كان لدى الصناعة الجوية السوفيتية في ذلك الوقت نماذج قيد الانتاج لطائرات تفوق بميزاتها العسكرية الطائرات الالمانية،وبوشر بانتاجها على نطاق واسع . وشكلت في الجيش الأحمر جيوش ميكانيكية،وأخذت الصناعة الحربية تنتج على نطاق واسع الدبابات السوفيتية المعروفة ت ٣٤ ودبابات (K . V) (كيم فورشيلوف) . والجدير بالذكر أن هذه النماذج من الدبابات كانت متفوقة في ذلك الوقت على كل الدبابات الألمانية الموجودة قيد العمل، واشتهرت بخواصها وميزاتها القتالية كما بدىء في الوقت نفسه بانتاج نماذج جديدة من أسلحة المشاة وغيرها على نطاق واسع جداً .

نحن حالياً على يقين بأن معلومات كثيرة كانت متوفرة لدى القيادة السوفيتية تؤكد على وجود حشود كبرى للقوات الألمانية بالقرب من حدود الدولة السوفيتية قادمة من الغرب ، وأخبر عنها حراس الحدود السوفييت ، وحددوا حتى أماكن تمركزها وتجمعها ، وستالين نفسه كان يعرف ذلك . ولكنه كان مع الحكومة السوفيتية ، يبذلان قصارى جهدهما وامكاناتهما لتأخير بداية القتال ويعملان على تجنب كل ما هو ممكن لاثارة العدو بحركات غير مدروسة ، تجعله يقوم بهجومه قبل أوانه . كما أن الاتحاد السوفيتي اضطر لابقاء مجموعة قوية من قواته كستارة دفاعية على حدوده في الشرق الاقصى .

قام هتلر في ذلك الوقت بلعبة سياسية ماكرة . فعبر مختلف الاقنية وبواسطة أشخاص عاديين ، أخذ يتحرىٰ موقف الحكومة البريطانية من السلام ، وفيما إذا كانت تفتش عنه فهذا يسهل له عدوانه على الاتحاد السوفيتي .

رغم خيبة أمله ، وفي غضون ذلك ، أخذ هتلر يستعد للشروع بغزو الاتحاد السوفيتي ، واندلعت الحرب على جبهتين .

شعرت بالحزن والأسى . وأنا في الصين خلال تلك الأيام . كنت قلقاً على بيتي وعلى رفاقي الذين كانوا يدافعون عن الوطن ، ولكن مهمتي حتى ذلك الوقت كانت قد استكملت .

كان الموقف خطراً على الجبهة طيلة صيف ١٩٤١ ، فقد سقطت منسك ، واحتل العدو سمولنسك . واجتاز الحواجز الدفاعية التي كنا قد أقمناها ، واتجه

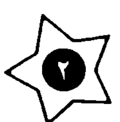
نحو موسكو ، واقترب من لينينغراد . وسقطت كييف .

أما خطر التدخل الياباني فأخذ يتزايد ، وكان يبدو أن العسكرية اليابانية ، لن تترك اللحظة المناسبة تفوتها ، لتقوم بالهجوم على الشرق الأقصى السوفيتي . ولكن الدلائل التي أخذت تظهر في الأفق منذ الخريف ، تشير إلى أن اليابان ستوجه ضربتها نحو الجنوب،أي ضد الولايات المتحدة مستفيدة من الوضع المتعب الذي كانت عليه بريطانيا .

ساعدت المعلومات ، التي زودنا بها القيادة العليا ، أن تتوجه في الوقت المناسب وتسحب قسماً من فرقها في الشرق الأقصى خلال الأيام العصيبة لمعركة موسكو .

وفي السابع من كانون الثاني ١٩٤١ قامت اليابان بهجومها على القاعدة البحرية الأمريكية في بيرل هاربر ، وفي الثامن من الشهر نفسه أعلنت الولايات المتحدة الحرب على اليابان .

وقد ساعدني هذا على العودة في بداية آذار ١٩٤٢ إلى موسكو ، طالباً إرسالي للجبهة .



كان الموقف على الجبهة في ربيع ١٩٤٢ قد استكان بشكل ملحوظ ، فقد مضى خريف ١٩٤١ الصعب ، وأمام موسكو دفنت أسطورة الجيوش الهتلرية التي لا تقهر ، حيث حطم الجيش الأحمر آمال المجموعة العسكرية التي كانت تعلقها على الحرب المكشوفة وبانتصار سريع على الاتحاد السوفيتي . ولكن القادة الفاشيون الذين كانت تسيطر عليهم روح المغامرة المجنونة ، كانوا يستعدون لشن هجوم جديد على الجبهة الروسية - الألمانية .

كان من المفروض حسب خطة القيادة الألمانية أن يكون عام ١٩٤٢ عاماً حاسماً في الحرب ، فهتلر كان مقتنعاً بأن الأمريكيين والانكليز لن ينزلوا قواتهم في أوروبا في ذلك العام ، مما يجعله يحتفظ - كما كان الحال في السابق- بيديه حرة للعمل في الشرق .

ولكن كان لا بد للألمان من أن يشعروا بهزيمتهم أمام موسكو ، وكذلك بالخسائر التي كبدها لهم الجيش الأحمر خلال صيف ١٩٤١ .

سجل الجنرال «هالدر» رئيس هيئة الأركان الهتلرية للقوات البرية في مذكراته هذه الحاشية التي تستحق الذكر : « كانت خسائرنا في الأول من شهر مايس ١٩٤٢ هي ٣١٨ ألف جندي ، في الشرق ، وفي مايس اقترح ارسال ٢٤٠ ألف جندي للجيش في الشرق . وكان لدينا في تلك الفترة مابين مايس وايلول (٩٦٠) الف شاب مستدعى كاحتياط . وبعد تشرين أول لم يبق منهم أحد ».

كانت هناك وثيقة أكثر دقة ، حررت من قبل الأركان العامة لادارة عمليات القيادة العليا للقوات المسلحة ، وصنفت فيها الحالة العامة للجيوش الهتلرية ، ظهرت فيما بعد وفي التقرير العسكري المرفوع الى هتلر في ذلك الوقت جاء ما يلي: « إن القيمة القتالية للقوات المسلحة هي في مجموعها العام أدنى حالياً مما كانت عليه في ربيع عام ١٩٤١ ، ويعود ذلك الى عدم امكانية التعويض عن النقص في الأشخاص والعتاد والوسائط ».

نجح هتلر رغم ذلك خلال صيف ١٩٤٢ بتجميع قوات قوية لا يستهان بها سيزج بها ضدنا على الجبهة الشرقية .

فلديه على الجبهة السوفيتية ـ الألمانية جيش جرار تعداده ستة ملايين جندي ، لديهم حوالي (٤٣٠٠٠) مدفع وهاون ، وأكثر من ثلاثة آلاف دبابة ، وحتى ٣٥٠٠ طائرة ، علماً أن القوات الهتلرية كانت أقل من هذا العدد عندما بدأت الحرب .

صحيح أن جبهة الهجوم تقلصت هذه المرة ، إلا أن كل القوى التي جمعت استعداداً للضربة الجديدة وجهت إلى الجناح الجنوبي للجبهة الألمانية ـ السوفيتية .

لقد شرع هتلر بحملة القوقاز بهدف احتلال أحواض البترول ، والنفوذ على الحدود الايرانية من جهة والوصول الى الفولغا من جهة اخرى ، وكان يعتمد بالطبع على التقدير ، بأن القدرة القتالية للجيوش السوفيتية لن تكون فعالة في تلك الأرجاء البعيدة عن مركز البلاد .

كما كان هتلر يأمل بوصوله إلى القوقاز جر تركيا للحرب معه ، وهذا يضيف إلى قوته من ٢٠ الى ٣٠ فرقة تركية في حين سيجر وصوله إلى الفولغا والحدود الايرانية اليابان لدخول الحرب ضد الاتحاد السوفيتي . فدخول تركيا واليابان الحرب كان آخر أمل لهتلر في نجاح حربه ضد الاتحاد السوفيتي .

مما تقدم نستطيع أن نفسر أهداف الضجة الاعلامية التي رافقت صدور الأمر التوجيهي رقم ٤١ الموجه للقوات الالمانية حول أهداف حملتي الربيع والصيف عام ١٩٤٢ . وجاء في أمر هتلر هذا ما يلي : « وصلت حملة الشتاء في روسيا إلى نهايتها المحتومة ، وتكللت معركتنا الدفاعية التي خاضتها قواتنا ضد العدو بالنصر المؤزر ، بفضل البسالة الرائعة التي أظهرتها جميع قوات الجبهة الشرقية ، واستعدادها للتضحية . وتكبد العدو خسائر فادحة في الرجال والعتاد . حيث استنفذ في هذا الشتاء بسبب سعيه لاستثمار الانتصارات الأولية التي خدع بها ، قسماً كبيراً من احتياطاته ، والتي كان يعدها للمعارك القادمة » .

نستنتج ـ مما تقدم ـ كخلاصة عامة واضحة أن القيادة العليا الألمانية ، كانت تقدر بشكل غير واقعي تماماً قوات الجيش الأحمر ، وكانت تسعى لتصوير هزيمتها أمام موسكو كأنها نصر عسكري مؤزر . وبقدر ما كان هتلر يحاول الاقلال من قيمة قوات الاتحاد السوفيتي ، كان يمجد بقواته،ويقدم لها أكاليل الغار .

ونتيجة لتلك الانتصارات المزعومة والتي لا أساس لها ، وضعت القيادة الألمانية أهدافاً جديدة غير واقعية يجب الوصول اليها في الحملات القادمة . ولنتابع ما جاء في الأمر التوجيهي رقم ٤١ المذكور آنفاً:« ويقتضي الهدف ابادة القوات التي لا تزال لدى السوفييت ابادة كاملة ، وحرمانهم بكل الوسائل الممكنة من مراكزهم السياسية والاقتصادية الرئيسية . وتجمع في المقام الأول كل القوى الضرورية والمتوفرة لتنفيذ العمليات الرئيسية في القطاع الجنوبي ، التي تستهدف تدمير العدو إلى الغرب من الدون . وبالتالي الاندفاع نحو الجنوب لاحتلال آبار البترول في القوقاز واجتياز سلاسل الجبال القوقازية » .

تبع التوجيه السابق مباشرة ، تحفظ فيما يخص القتال باتجاه لينينغراد ، حيث تم تأجيل إحكام الطوق عليها:« يؤجل إحكام الطوق على لينينغراد واحتلالها إلى فرصة أخرى ، وحتى الوقت الذي يحدث فيه تغيير حساس في قطاع جبهة التطويق . أو تحرير قوات جديدة ،من أماكن أخرى كافية ، تؤدي إلى خلق الامكانيات المناسبة لمعاودة القتال هناك ».

أظهر هذا التحفظ ، أن هتلر رغم كل ما كان لديه من قوى تفوق التي كانت لديه في بدء العمليات ضد الاتحاد السوفيتي ، لم يقرر القيام بعمليات على مجمل قطاعات الجبهة كما حدث في السابق ، بل إنه هنا ، وفي هذه المرحلة ، ركز

كل امكاناته واهتمامه ، ووجهها نحو الجنوب .
وجهت الضربة الجديدة الألمانية نحو قطاع كيرتش ، وحاصرت القوات الألمانية سيباستبول التي صمدت حتى نهاية حزيران ، بالرغم من كل الجهود التي بذلها الغزاة وهجماتهم المتواصلة . واستطاع الألمان تحقيق السيطرة على شبه جزيرة القرم،ولكنهم تكبدوا خسائر فادحة . وبسيطرتهم على شبه جزيرة القرم أمنوا جناح هجومهم على القوقاز والفولغا ، وأصبح الباب مفتوحاً أمامهم .
وساعد على نجاح هذا الهجوم عدد من الظروف الملائمة لهم .
في ١٢ مايس ١٩٤٢ ، انتقلت القوات السوفييتية الموجودة في الجنوب الغربي من الجبهة إلى الهجوم ، ووجهت ضربتين على محورين متلاقيين، فوجه محور الجهد الرئيسي اعتباراً من قلعة بارفنكوف، وتم تجاوز مدينة خاركوف من الجنوب الشرقي ، أما محور الجهد الثانوي للهجوم ، فقد وجه اعتباراً من قطاع فولتشانك .
وتطورت هذه العملية الهجومية الكبيرة . ونجحت في بادىء الأمر ، ولكنها انتهت بهزيمة مأساوية للجيوش السوفيتية بسبب استعداد الألمان الضخم للهجوم على الفولغا . وفورونيج ، والقوقاز لذلك تجمعت على محاور الهجوم قوات المانية كبيرة . واستغلت القيادة الألمانية بنجاح وضعها المتفوق ، وحول هذا الهجوم كتب الجنرال الهتلري كورت تيبلكريش : « لم تكن محاولة السوفييت لاقامة الحواجز أمامنا بالنسبة للهجوم ، الذي كانت القيادة الألمانية تعد له سوى بداية جيدة ، تستجيب لرغباتنا ، فلم يكن من السهل الحصول على امكانية إضعاف القوى الدفاعية الروسية بهذه السهولة ـ كما حدث ـ وإضعافها سيساعد كثيراً على نجاح عملياتنا الهجومية الأولى . ورغم هذا النجاح السهل ، كان علينا القيام باستعدادات جديدة شغلتنا لمدة شهر، وقبل أن تتمكن الجيوش الألمانية من إعادة تجميعها واستكمال كل ما هو ضروري للقيام بالهجوم »
وقد أكملت القيادة الهتلرية في نهاية حزيران تحضيرات الهجوم المقرر ، إذ جزئت مجموعة جيوش الجنوب الألمانية العاملة على الجناح الجنوبي للجبهة السوفيتية الالمانية إلى قسمين : القسم الأول ، ويتشكل من مجموعة الجيوش (A) وكانت مهمتها القيام بعمليات هجومية باتجاه القوقاز،أما القسم الثاني فكان يتشكل من مجموعة الجيوش B والتي كان عليها توجيه ضرباتها نحو ستالينغراد ، لذلك فعلى عاتق هاتين المجموعتين كان يقع عبء تدمير القوات

السوفيتية الموجودة غرب الدون .

كان على مجموعة الجيوش B تطويق القوات السوفيتية الموجودة غرب الدون ، والعمل على الاتصال مع مجموعة الجيوش (A) في قطاع ستالينغراد وعلى كل الأحوال كان عليها أن تجرب النفوذ في عمق الأراضي السوفيتية حتى ستالينغراد ، لكي تتمكن القوات المهاجمة ، على طول مجرى الدون أن تحقق اتصالها في قطاع ستالينغراد مع القوات التي تعمل اعتباراً من قطاع تاغانا روف ارتموفسك ، وهذا ما نص عليه التوجيه رقم ٤١ .

في البداية توزعت قوى المجموعة A و B على الشكل التالي :

مجموعة الجيوش A بقيادة الفيلد ماريشال «ليست» وتتألف من الجيش المدرع الأول ، وجيشي الميدان الألمانيين السابع عشر والحادي عشر ثم الجيش الايطالي الثامن .

مجموعة الجيوش B بقيادة الفيلد ماريشال «فون بوك» ، وتتشكل من الجيش الرابع المدرع جيشي الميدان الثاني والسادس الألمانيين والجيش الهنغاري الثامن ، وكان من المتوقع أن ينضم للمجموعة B الجيشان الرومانيان الثالث والرابع القادمان من أقصى المؤخرات عند وصولهما إلى المنطقة .

حشد العدو في المنطقة الممتدة من مدينة كورسك حتى مدينة تاغاناروغ ما مجموعه (٩٠٠) ألف جندي وضابط مع ١٢٦٠ دبابة ، وأكثر من سبعة عشر ألف مدفع وقذاف و ١٦٤٠ طائرة قتال . وكانت هذه القوات تمثل حوالي ٥٠٪ من مجموع الوحدات المدرعة والآلية العدوة ، التي كانت موجودة على الجبهة السوفيتية ـ الألمانية وتمثل ٣٥٪ من قطعات المشاة .

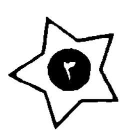
وأمام هذه القوات الألمانية والتي كانت تمثل القوة الصدامية لدى العدو ، تقف في الطرف المقابل قوات جبهة بريانسك السوفيتية ، وجبهتي جنوب ـ غرب ، وجبهة الجنوب وتضم قوى هذه الجبهات الثلاث (٦٥٥) الف رجل مع ٧٤٠ دبابة و ١٤٢٠٠ مدفع وقذاف وأكثر من ألف طائرة قتال .

ومن هذه المقارنة في القوات نرى أن العدو كان يتمتع بالتفوق بشكل عام في الجنوب ، كما أنه نجح في تعزيز محاور الجهد الرئيسية ، التي ستعمل عليها قواته .

في صباح الثامن والعشرين من شهر حزيران ، بدأ كل من جيش الميدان الثانى والجيش المدرع الرابع الألمانيين هجومهما ، وكذلك الجيش الهنغاري

الثاني على الجناح الأيسر لجبهة بريانسك السوفيتية،اما الجيش السادس الألماني فقد بدأ هجومه في ٣٠ تموز .

كانت ستالينغراد في هذه المرحلة من القتال لا تزال بعيدة وكان الألمان يسيرون نحو فورونيج . ويمكن القول بأن حملة عام ١٩٤٢ قد بدأت ، وأخذت في جذب الأعداد المتزايدة من القوى ومن الطرفين الى رحاها الدموية .



استلمت في شهر مايس قيادة جيش من الاحتياط ، كان يتمركز في قطاع (تولا) . وخلال أشهر مايس وحزيران وبداية تموز خضع هذا الجيش إلى تمرينات قتالية مكثفة .

وأخيراً وصل في بداية شهر تموز الأمر من مقر القيادة العليا « الستافكا » . ويقتضي بتغيير اسم جيشنا من جيش الاحتياط إلى الجيش الرابع والستين،وحدد مكان انتشاره على نهر الدون .

كانت الجبهة في ذلك الوقت ، أي جبهة جنوب -غرب تتراجع نحو الشرق تحت ضربات الجيوش الغازية الألمانية ، والمعارك الضارية تدور في قطاع روستوف بالقرب من لوغانسك ، وتستهدف احتلال فورونيج ، وكان على جيشنا أن يكون على أهبة الاستعداد للقتال ضد المعتدين الفاشيين الألمان ، في مكان ما على الدون أو بين الدون والفولغا .

واخيراً جاء اليوم ، الذي ركبت فيه وحدات جيشنا القطارات بسرعة واتجهت نحو القطاع الذي حدد لها كمكان تجمع والواقع بين الدون والفولغا .

ركبت أنا أيضا القطار مع أركاني حتى بالاشيف ، ولكي أكون على اطلاع واسع وسريع على الموقف في الجبهة والتحدث مع المحاربين ، تركت القطار وركبت السيارة مع عضو المجلس العسكري للجبهة كونستانتين كريليوفيتش ابراموف .

مررنا ونحن في طريقنا على جميع المحطات الكبيرة لكي نتابع حركة قوافل جيشنا . وكانت القاذفات الفاشية في ذلك الوقت تقوم بغارات دورية على محطات السكة الحديدية وعلى القطارات السائرة . وقد التقيت في محطة فرولوف بأركان الجيش الواحد والعشرين . ولكن رئيس الأركان رغم رغبته

الصادقة لم يستطع أن يعطينا أية معلومات عن الموقف . أين يمر خط الجبهة ؟ وأين يوجد الجيران ؟ وأين مكان العدو ؟ لم يكن يعرف شيئاً والشيء الوحيد الذي استخلصته من حديثه ، أن أركان قيادة الجبهة جنوب ـ غرب ، كانوا حتى ذلك الوقت لا يزالون على الفولغا في ستالينغراد .

كان الموقف يتغير بقدر اقترابنا من نهر الفولغا . ولم يكن سكان القرى والمزارع يتوقعون وصول العدو إلى بلادهم . وكانوا يأملون بصد الهجوم وتوقفه . لذلك لم يفكر أحد منهم بتحضير إخلاء بيته أو مزرعته . وظلت حياتهم طبيعية ومتتابعة كأنها في زمن السلم . وكانوا يزاولون أعمالهم كالمعتاد يحصدون ويرعون قطعانهم ، والسينما تعمل في المحلات السكنية ، التي كانت تحيط بمحطات السكة الحديدية . ولم يكن يعكر صفاء وهدوء الليل سوى طلقات المدفعية المضادة للطائرات ، التي كانت تطلق نيرانها على طائرات العدو المنفردة التي تحوم طوال الليل .

وصلنا في ١٦ تموز ١٩٤٢ الى مقر أركان جبهة ستالينغراد . علمنا أن عناصر الاستطلاع ، التي كانت ترسلها مقدمات العدو ، قد أشرفت على الخط تشيرنيشيكايا ـ مورزوفسكي ـ تشيرنياكوفسكي . واضطرت للتوقف بعد أن تعرضت إليها مفارز ومقدمات الجيش ٦٢ .

كان الجيش ٦٢ ـ في ذلك الوقت ـ يحضر دفاعه على الخط الممتد من كليتسكايا ـ كالميكوف ـ سورفيكينو ـ باستشيرسكايا ـ سوفوروفسكي . وكان مقره في مزرعة كاميش التي كانت تقع على الطرف الشرقي من الدون على بعد ٦٠ ـ ٨٠ كم من جبهة القتال .

بدأت قوات الجيش ٦٤ تترجل من عربات السكة الحديدية في المحطات القريبة . فنزلت الفرقة ١١٤ في محطة دونسكايا ، موزكاريتشكوف . أما الفرقة ٢٩ فقد نزلت في محطة جوتوفر . كما ترجلت بقية عناصرها على شاطىء الفولغا على بعد ١٢٠ ـ ١٥٠ كم من خط الدفاع الذي حدد لنا من قبل أركان الجبهة .

وبعد أن انتقل مقر أركان الجبهة إلى ستالينغراد . أصبح الاتصال معها مضطرباً ومتقطعاً في بعض الأحيان ، مما كان يعرقل بشكل كبير إدارة القوات ، والسيطرة عليها ، لذلك لم أستطع أن أعلم أركاني أين أنا ؟ ومتى وصلت أنساق الجيش ؟ وأين نزلت ؟ وأين تجمعت ؟ وكم عدد الوحدات التي وصلت إلى

الخطوط الأمامية ؟ وماذا تعمل ؟

وصلنا في ١٧ تموز توجيه من قيادة جبهة ستالينغراد جاء فيه :« أمر إلى الجيش ٦٤ المؤلف من فرق المشاة ٢٢٩ ـ ٢١٤ ـ ٢٩ ـ ١١٢ . ومن فرقة مشاة البحرية ٦٦ ـ ١٥٤ والألوية المدرعة ٤٠ ـ ١٣٧ ، اتخاذ مواضعها الدفاعية في ليل ١٩ تموز على جبهة ، سوروفيكينو ـ نيجنه سولانوفسكي ـ بيشتشرسكي ـ سوفوروفسكي ـ بوتيمنيسكايا ـ فيرخنه كورموسكايا . وتحصين هذا الخط بدفاع منيع يقف امام كل اختراق يفكر به العدو باتجاه ستالينغراد . ترسل كل فرقة كنسق مقدمة ، أمامها لواء مشاة مع مدفعيته وتتمركز على مجرى نهر تسيملا »

كانت المهمة المحددة في هذا التوجيه ـ كما تبدو لنا ـ غير قابلة للتنفيذ لأن الفرق التابعة للجيش وأقسامه ، كانت لا تزال حتى ذلك الوقت في حالة ترجل من عربات السكة الحديدية والسير نحو الدون بأرتال المسير العادي ، وليس بأرتال القتال حسب التشكيلة التي كانت موجودة عليها خلال تنقلها بالقطارات . ورغم أن بعض عناصر المقدمة التابعة لبعض الفرق كانت تقترب من الدون ، إلا أن عناصر المؤخرة ، كانت لا تزال موجودة على ضفة الفولغا أو في القطارات.أما تشكيلات مؤخرة الجيش واحتياطه ، فكان القسم الأكبر منها ، لا يزال موجوداً في قطاع تولا تنتظر نقلها بالسكة الحديدية .

ولم تكن أمامنا فقط مهمة تجميع قوات الجيش المترجلة من قطاراتها،ولكن كان علينا اجتياز نهر الدون أيضاً ، فالخط المحدد بموجب توجيه الجبهة كان موجوداً على بعد مسيرة يوم من معابر الدون ، في فيرخنة تشيرسكايا ونجنه تشيرسكايا على بعد ١٢٠ ـ ١٥٠ كم من محطات الانزال . كما أن الخط الذي يجب أن تصل إليه انساق المقدمات على نهر تسيملا كان هو الآخر يقع على بعد ٤٠ كم من خط الدفاع الرئيسي للجيش ، وبذلك كان على القطعات المترجلة من القطارات أن تسير على أقدامها مسافة مائة إلى مائتي كيلومتر .

لذلك قمت بزيارة رئيس مكتب عمليات أركان الجبهة العقيد « روخله » ، وبعد أن بينت له عدم امكانية تنفيذ ما جاء في توجيه الجبهة ، في الوقت المحدد من قبلها ، طلبت منه أن يبلغ المجلس العسكري للجبهة بأن الجيش ٦٤ لا يستطيع احتلال خطه الدفاعي المحدد قبل ٢٣ تموز . ولهذا السبب فقد مددت المهلة المحددة حتى ١٩ ـ ٢١ تموز ، ومع ذلك حتى ٢١ تموز،لم تستطع أية

وحدة من وحدات الجيش ٦٤ احتلال الخط الدفاعي المحدد من قبل قيادة الجبهة .

بعد ذلك قمت بزيارة لأركان الجيش ٦٢ فور تجمع قواتي التي كانت تحت السير بعد ترجلها في السهوب باتجاه الغرب نحو الدون . وقد أُطلعني قائد الجيش ٦٢ ميجر جنرال ف . كولباكتشي على الموقف ، وكان هذا الضابط طويل القامة معتزاً بنفسه ، وكان حاضراً عضو المجلس العسكري ، وقوميسار الغرفة غوروف ذو الأهداب السوداء الطويلة والرأس الحليق .

كانت المواضع الدفاعية التي حددتها قيادة الجبهة لقوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ تتبع الخط كليتكايا ، سوروفينكو - فيرخنه سولونوفسكي - سوفوروفسكي - كورموديارسكايا . وحدد لمفارز المقدمات التي كانت بتعداد فوج معزز أو لواء الانتشار على خط نهر تسوتسكان ، ونهر تشير وكذلك على نهر تشيرنياكوفسكي - وإلى أبعد من ذلك على نهر تسيمالا .

وحسب كل ما جاء في الكتب العسكرية والتعليمات الصادرة فكل من يتخذ موقف الدفاع ، عليه قبل كل شيء تقدير قوة العدو ودراسة الأرض التي عليها قرار قبول القتال ضد العدو . كما عليه أن ينشر قواته في أفضل موقع مناسب وأن يجعل من الأرض حليفاً له ، تقدم له ميزات تكتيكية ملائمة للقيام بالهجمات المعاكسة وتحقق استخدام كل وسائط النيران وتؤمن التمويه الجيد . ويجب أن تكون هذه الأرض وبنفس الوقت ، تشكل حاجزاً أمام تحركات ومناورات العدو الهجومية . وبفضل أعمال التحصين التي تقوم بها وحدات المهندسين تصبح غير صالحة لمرور الدبابات . فلا يتمكن المهاجم حماية تقرب قواته ، ولا تستطيع قواته البقاء أطول مدة ممكنة تحت رحمة نيران الدفاع .

اختير خط دفاع الجيش ٦٢ دون النظر الى كل هذه المتطلبات . ولم يكن لدينا الوقت الكافي لاستخدام العوارض الطبيعية من أنهار وسواق ومنحدرات يمكن تحويلها بسهوله.وباعمال هندسية إلى عوائق صعبة الاجتياز على المهاجمين ، كانت المواقع الدفاعية موجودة في السهوب العشبية الواسعة والعارية . لذلك كانت مكشوفة أمام مراقبة واستطلاع العدو أرضاً وجواً . وكان هناك عدد من الثغرات المفتوحة بين الوحدات والأقسام الموجودة في الخط الدفاعي وبخاصة على الجناح الأيمن . مما يعطي العدو الفرصة وامكانية الالتفاف حول المواقع الدفاعية وضربها من الخلف .

كانت تحتل الجبهة الدفاعية غرب الدون أُربع فرق من النسق الأول للجيش ٦٢ بعرض (٩٠) كيلومتراً,وبفرقتين ولواء من الجيش ٦٤ بعرض ٥٠ كم . وعلى الجناح الأيمن ، كانت فرقة المشاة ١٩٢ تنتشر على مسافة واسعة كما أن ثلث أو ربع فرق مشاة النسق الأول ، قد الحقت بالمفارز المتقدمة على مسافة ٤٠ـ٥٠ كم من القوى الرئيسية ، دون دعم مدفعي أو حماية جوية . وكان هذا الوضع يضعف المنطقة الدفاعية الرئيسية ، كما يقلل إلى أقصى حد القوات الواجب توفرها في الأنساق الثانية الخلفية ويضعف احتياط فرق النسق الأول .

في نفس الوقت كانت فرق النسق الأول تفرز إضافة لعناصر المقدمات أيضاً مخافر أمامية،لها تبعد عنها مسافة ٢٠ ـ ٢٥ كم من خط الدفاع الأول مما يجعل هذه المخافر بعيدة عن دعم المدفعية واسنادها ولو كانت لديها مواقع بعيدة المدى ، لقد نسق الدفاع على أربع خطوط متتالية :فمفارز المقدمات كانت موجودة على بعد ٥٠ كم والمخافر الأمامية كانت موجودة على بعد ٢٠ ـ ٢٥ كم ثم تأتي في النسق الثالث المنطقة الدفاعية الرئيسية ووراءها النسق الرابع ، حيث تتجمع قوات الاحتياط التابعة لفرق الجيش،وتتمركز على آخر موضع من هذا الترتيب القتالي .

تمركزت هيئة أركان جبهة ستالينغراد في مدينة ستالينغراد على بعد ١٥٠ـ٢٠٠ كم من الجبهة كخط مستقيم ، أما أركان الجيش ٦٢ فكانت تتمركز على بعد ٦٠ـ٨٠ كم من الخطوط الأولى وراء الدون وعلى ضفته الشرقية . وكذلك أركان الجيش ٦٤ فكانت هي الأخرى تتمركز على مسافة ٣٠ـ٤٠ كم من الخطوط الأولى . وعلى هذه الصورة كان يصعب إدارة هذه القوات المنتشرة على هذه المسافات البعيدة ، وبالوسائل غير المتطورة التي كانت لدينا في ذلك الوقت .

كانت معنويات أركان الجيش ٦٢ عالية ، وقد أبلغني الجنرال كولباكتشي قائد الجيش أنه سيقوم في الأيام القادمة بسبر غور قوات العدو الموجودة أمامه .

استطعت تحقيق الاتصال مع جاري الأيمن ، ولكن لم تكن لدي أية معلومات عن الجانب الأيسر، فلم أكن أعرف سوى الخط الفاصل بيني وبينه وهو الذي كان مرسوماً على خريطة عمليات أركان الجبهة .

كان عليَّ بصفتي معاون قائد الجيش ٦٤ أن أتخذ بدلاً عنه عدة قرارات تتعلق بتنظيم الدفاع . لذلك وحال اطلاعي على الموقف ، وبعد مقابلتها مع

المعلومات التي حصلت عليها من وحدات الجيش ٦٢ ووفق توجيهات قيادة الجبهة اتخذت بتاريخ ٢/١٧ القرارات التالية : تحتل الضفة الغربية للدون الفرقة ٢٢٩ ـ ٢١٤ ـ لواء مشاة البحرية ١٥٤ ـ اللواء المدرع ١١٢ ، اعتباراً من سوردفيكينو ـ حتى ستانيتا ـ سوفورسكايا .وعلى الفرقة ٢٩ تأمين الدفاع عن القطاع الأيسر للجبهة على الخط « بوتيملكايا ـفيرخنه كومورسكايا » .وتنتشر فرق المشاة ١١٢ واللواء المدرع ١٣٧ في النسق الثاني على نهر تشير في نقطة اتصال الجيشين ٦٤ ـ ٦٢ .ويتمركز لواء طلاب المدارس العسكرية في النسق الثاني في قطاع القرى المأهولة على مجرى نهر ميشكوفكا . وقد وافقت قيادة الجبهة على هذه القرارات .

من المفروض ان تكون على يمين الجيش ٦٤ وعلى مجرى الدون جنوب فيرخنه ـ كوروموياسكايا وحدات من الجبهة المجاورة،قد اتخذت مواقعها الدفاعية ولكن لم يكن للجيش ٦٤ أي اتصال معها .

في مساء التاسع عشر من تموز وصل إلى أركان الجيش ٦٤ الجنرال ف . غوردوف ، الذي عين قائداً للجيش ٦٤ ، وقد بقيت مساعداً له ، وكان برتبة ميجر جنرال ، وكان غوردوف ذا شعر جعدي املح عيونه رمادية ونظرته متعبة .

اطلع غوردوف ، حال وصوله على قراراتي ، ولم يجر فيما يتعلق بالترتيب القتالي للنسق الأول تغييرات هامة ، ووقع القرارات وأمر بتنفيذها فوراً بكاملها.اما ما يتعلق بالنسق الثاني فقد أجرى تغييرات هامة وجيدة . فقد أمر بنشر فرقة المشاة ١١٢ ليس على نقطة اتصال الجيشين ٦٢ و ٦٤ ولكن على الخطوط الدفاعية الخارجية لستالينغراد على نهر ميشكوفكا ، اعتباراً من مزرعة لوغوفسكايا حتى غروموسلافكا . ونقل لواء مشاة البحرية ٦٦ واللواء المدرع ١٣٧ ، ولواء طلاب المدارس العسكرية الى خط نهر أكسايا ، أي على جناح الجيش الأيسر .

وبموجب هذا القرار وضع غوردوف كل احتياط الجيش على الطرف الشرقي للدون وبذلك أصبح الترتيب القتالي الدفاعي للجيش ٦٤ الموجود غرب الدون ، دون نسق ثانٍ ولا احتياط .

قمت في صباح ٢١ بزيارة الخط الدفاعي الثاني غرب الدون،وعملت خلال يومين مع قادة الفرق لاستطلاع الأرض واختيار المواضع الدفاعية . وحتى ذلك

الوقت كانت الفرق والألوية لا تزال بحالة المسير من محطات الانزال،ولم تصل إلى مواضعها الدفاعية كاملة كما وصلت متأخرة .

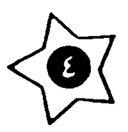
مما لا شك فيه أن وصول عناصر ووحدات الجيش ٦٤ إلى خطها الدفاعي خلال تلك الايام كان مراقباً من قبل العدو . وكانت طائرات استطلاعه المعروفة «الفوكه ـ ولف» تحلق طويلاً فوق مواقعنا ولم يكن بامكاننا الاشتباك معها فجيشنا لم يكن لديه دفاع ضد الطائرات ، والطائرات المطاردة التابعة للجيش ، كانت مشغولة بقطاع آخر من الجبهة .

لم يكن الرتل الاداري للجيش ٦٤ على مستوى الجيش وعناصر التموين لا تزال في عرباتها منتشرة من تولا حتى ستالينغراد . ولهذا فالجيش ٦٤ لم يكن لديه عملياً عناصر مؤخرة خاصة به وحتى أحمال التموين الفرقية قد أنزلت من العربات بشكل توزعت معه في عدة محطات بين الفولغا والدون وعلى أرصفة العبور على الفولغا .

أما الرتل الاداري للجيش ٦٢ فكان بمجموعه عادياً فالقطاع الذي تشكل فيه الجيش كان على الفولغا في ضواحي ستالينغراد . وإدارة اركان المؤخرة بقيادة الجنرال لوبوف . كانت موجودة في المحطة الزراعية «سوفيتسكي» ، وتبعد فقط ٨٠ ـ ١٢٠ كم من منطقة الدفاع الرئيسية .

مما تقدم نرى أن جبهة ستالينغراد قد شكلت على عجل ، فلم يكن هناك الوقت الكافي لتأمين وتنظيم تموين للجيوش ، بشكل جيد وبخاصة تموين الذخيرة ومعدات الهندسة .

وكان من حظنا أن الجيشين المعاديين الرابع والمدرع والجيش السادس أخذا اعتباراً من منتصف تموز يتلقيان الضربات الشديدة على محاور تموينهما بالمحروقات ، مما أدى الى إبطاء حركة بعض الفرق المدرعة ووسائط الدعم التابعة لهما .



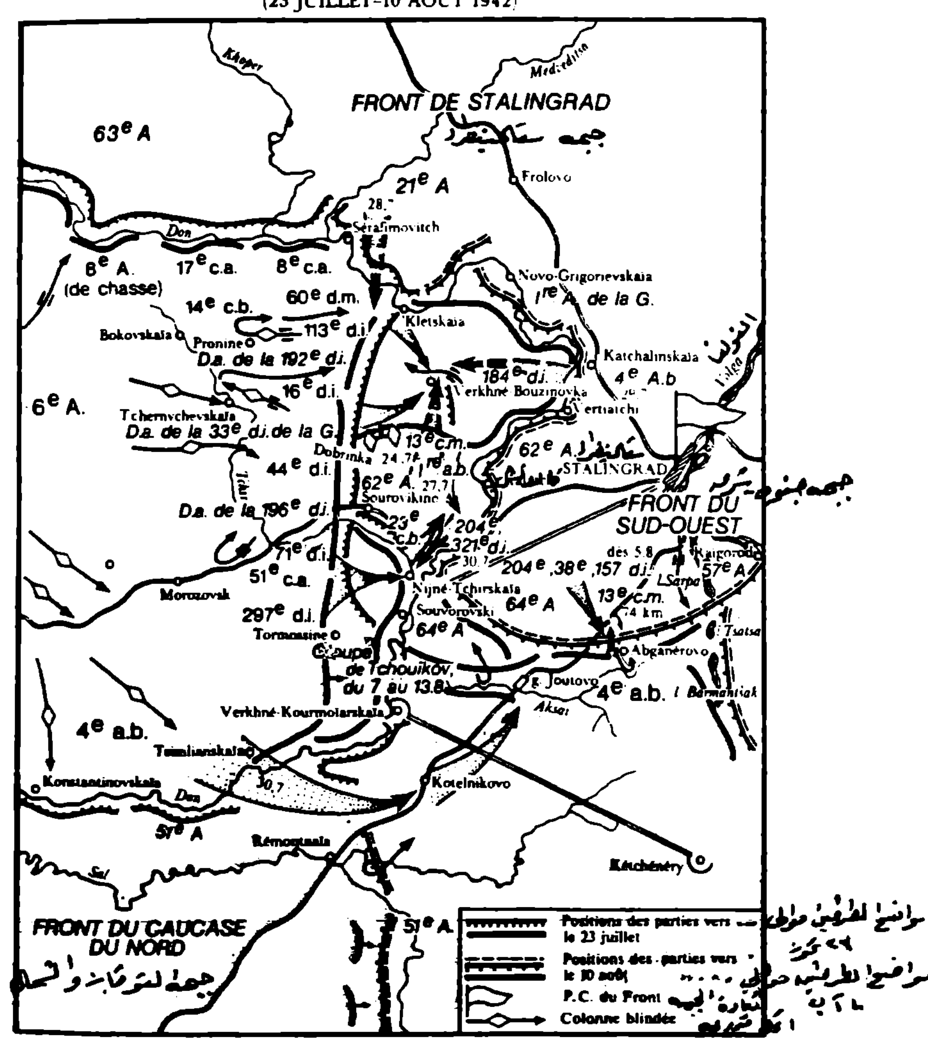
عندما نتحدث عن معركة منحنى الدون الكبير (مخطط رقم (١)) التي دارت على المشارف البعيدة لستالينغراد ، من الصعب فصل الأعمال الحربية لكل من الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، فقد كان الجيشان يعملان بموجب مخطط الجبهة

مخطط رقم (١)

المعارك الدفاعية على المشارف البعيدة لستالينغراد

٢٣ تموز حتى ١٠ آب ١٩٤٢

LES COMBATS DÉFENSIFS AUX APPROCHES ÉLOIGNÉS DE STALINGRAD
(23 JUILLET-10 AOÛT 1942)



نفسه . وكانا يقاتلان ضد مجموعة الجيوش (B) المعادية ، وبخاصة ضد الهجمات التي كان يشنها جيش الميدان السادس بقيادة « فون باولوس » والجيش المدرع الرابع بقيادة « هوت » .

بدأت مقدمات الجيش ٦٤ اعتباراً من ١٧ تموز تصمد في المعارك التي نشبت ضد العدو والتي كانت تتلاحق بشدة،دون كلل أو انخفاض في حدتها حتى ٢٢ تموز ضمناً .

شن العدو في ٢٣ تموز هجوما بقواته الرئيسية ضد منطقة دفاع الجيش ٦٢ الرئيسية،كما شن هجومه اعتباراً من ٢٥ تموز ضد الجيش ٦٤ .

في حوزتنا حالياً الوثيقة التي كانت تحدد آنذاك أهداف هجوم العدو الجديد . وهي تتعلق بالتوجيه رقم ٤٥ بعد أن أجرى هتلر بعض التصحيحات على التوجيه رقم (٤١) .

لقد أعطي الأمر في التوجيه رقم (٤٥) لمجموعة الجيوش (A) للانتقال بهجومها باتجاه الجنوب ، إلى ما وراء نهر الدون وذلك لاحتلال القوقاز ومنابع بتروله . كما أعطي الأمر لمجموعة الجيوش (B) بالهجوم على ستالينغراد . وتدمير مجموعة الجيوش المعادية المتمركزة هناك ، واحتلال المدينة ، وبالتالي قطع شبه الجزيرة بين الدون والفولغا .

وبينما كان هتلر يتكلم في بداية معركة الصيف عن العمليات العسكرية بألفاظ عامة ، ويتوقع هجوماً منسقاً باتجاهه تقوم به مجموعتا الجيوش A , B في قطاع ستالينغراد ، إلا أن الانتصارات التي كانت قد أحرزتها جيوشه في شهري مايس وحزيران ، شجعته ودفعته لأن يفصل مجموعتي الجيوش A , B عن بعضهما،معتمداً على أن الجيش الألماني لديه القوى الكافية للعمل في عدة اتجاهات مختلفة .

وباصراره على الوصول بأسرع ما يمكن إلى القوقاز لم يعد يعطي الأهمية الكافية لوصول قواتنا الجديدة الى منحنى الدون الكبير ، لذلك نقل الجيش الرابع المدرع بقيادة هوت عبر التشكيل القتالي للجيش السادس بقيادة فون باولوس ، إلى جناحه الأيمن باتجاه ستانيتسا تسيليافكايا،والحق بمجموعة الجيوش (A) .

كما تم تشكيل مجموعتي جيوش بهدف احتلال مدينة ستالينغراد ، من قوى الجيش السادس الألماني والجيوش الرومانية .

كانت مجموعة الشمال المؤلفة من أربع فرق مشاة وفرقتين مدرعتين وفرقتين

آليتين ، قد بدأت منذ ٢٣ تموز بشن هجومها اعتباراً من قطاع غولوفسكي ـ بيريلزوفسكي على طول الضفة اليمنى لنهر الدون باتجاه فيرخنه ـ بوزينوفكا ومالو ـ فاباتوفسكي ، وكان الهدف الذي أعطي لها هو احتلال كالاتش .

أما المجموعة الوسطى والتي كانت مشكلة من فرقتي مشاة وفرقة مدرعة من الفيلق الواحد والخمسين فقد بدأت هجومها في ٢٥ تموز اعتباراً من قطاع اوبلفسكايا ـ فيرخنه اكينوفسكي مستهدفة خرق الجبهة جنوب سوروفيكينو ، والوصول إلى كلاتش من الجنوب عن طريق ستارومكسيموفسكي .

كانت هاتان المجموعتان تشكلان قسماً من الجيش السادس الذي كانت مهمته تطويق وتدمير القوات الرئيسية السوفيتية في منحنى الدون،ثم اجتياز النهر والسير نحو ستالينغراد .

كما شكلت مجموعة ثالثة وهي الجنوبية من فرقتي مشاة وفرقتين مدرعتين وفرقة آلية من الجيش المدرع الرابع ، وأربع فرق مشاة رومانية ، وكان على هذه المجموعة بعد عبورها نهر الدون في ٢١ تموز واحتلال رأس جسر ، أن تكون مستعدة إما لشن هجوم على المدينة من الجهة الجنوبية على طول الخط الحديدي بين كونلنسكوفو وستالينغراد ، أو نحو الجنوب باتجاه القوقاز .

ومن تحليل هذا الموقف يظهر لنا بكل وضوح أن كل الاعمال الهجومية للجيوش الفاشية ، وبخاصة مجموعة جيوش الوسط كانت موجهة ضد الخط الدفاعي للجيشين ٦٢ و ٦٤ الذي هُيىء على عجل . فلم يكن يخفى على استطلاع العدو الجوي الدائم اقتراب أرتالنا ولا أعمال التحصين الدفاعية التي تقوم بها وحداتنا ، لذلك كان على علم بكل ما كان يحدث في قطاع الجيشين ٦٢ و ٦٤ .

ومن المناسب هنا اعتبار بداية معركة ستالينغراد ، في ١٧ تموز ١٩٤٢ وهو اليوم الذي دخلت فيه مفارز مقدمات الجيشين ٦٢ و ٦٤ بتماس مع عناصر العدو . وقد أظهرت هذه المقدمات من كلا الجيشين مقاومة حامية حتى ١٩ تموز ، ولكنها بعد ذلك التاريخ لم يعد بإمكانها احتواء اندفاع كتلة القوى الألمانية المتجهة نحوها .

وبهذا ابتدأت أكبر معركة في تاريخ الحرب العالمية الثانية .

● تقسم ملحمة ستالينغراد الكبرى إلى مرحلتين ، وفي كل مرحلة كانت تتعمق مختلف جوانب الخطة الستراتيجية العامة التي وضعتها القيادة السوفيتية والتي

كانت تستهدف إلحاق الهزيمة بالعدو .

دامت المرحلة الأولى وهي الدفاعية من ١٧ تموز وحتى ١٩ تشرين الثاني حيث نشبت فيها المعارك على المشارف البعيدة والقريبة لمدينة ستالينغراد،وبعد ذلك ضمن الدفاعات الداخلية في المدينة نفسها .

أما المرحلة الثانية من ملحمة ستالينغراد فقد بدأت في ١٩ و ٢٠ تشرين الثاني بهجوم معاكس قوي شنته الجبهات : جنوب ـ غرب وجبهة الدون وجبهة ستالينغراد ، كما تلقى كل من الجيشين ٦٢ و ٦٤ الأمر بشن الهجوم لتدمير العدو المحاصر في ستالينغراد وضمن المدينة .

لم نكن نعرف في ذلك الوقت ماذا ستكون عليه هذه الملحمة ، وما هي نتائجها.وحتى لم نكن نستطيع أن نخمن جوانبها الستراتيجية والتكتيكية .

لقد أنهينا مهمتنا المباشرة في قطاع دفاعنا .

شعرت عندما كنا ننتظر أول لقاء لنا ضد الجيوش الفاشية بأنه لم تكن لدي الخبرة للقتال مع عدو قوي بهذا الشكل، ومتمرس من خلال تجاربه. وكان عليَّ قبل كل شيء دراسة تكتيكاته ونقاط ضعفه وقوته،وقد تحادثت مع عدد من الضباط الذين قاتلوا قبلي حول هذا الموضوع .

ثمة أمر وضعته باعتباري ، هو أنه لا يمكن أن أجد لدىٰ أركان الجيش ما أستطيع أن أتعلمه وأعرفه عن العدو ، ونتيجة لذلك سعيت قدر ما استطيع أن أظل بين القوات لأتعلم بجانب رؤساء مجربين . وأستفيد أيضاً من تجارب الجنود وملاحظاتهم .

بعد عودتي إلى أركان الجيش ٦٤ في ٢٢ تموز علمت أن غوردوف قد أُستدعي أثناء غيابي الى موسكو . وقد عاد بعد أربع وعشرين ساعة قائداً لجبهة ستالينغراد .

وصل إلى أركان الجيش ٦٤ أمراً من قيادة الجبهة ينص على وضع اللواء ٦٦ لمشاة البحرية واللواء المدرع ١٣٧ على طول الضفة الغربية للدون نحو ستانتسيا تسيمليا نكايا بمهمة ضرب العدة من الجانب والمؤخرة وتدمير مجموعة العدو ، التي كانت تقوم بالعبور في هذه النقطة على الدون . وبأمر من الجنرال غوردوف ، تمركزت قواتنا في ليل ٢٣ تموز في ستانيتسا سوفوردسكايا، ولكن دبابات اللواء المدرع الثقيلة ، لم تتمكن من عبور الدون ، لأن جسر فيرخنه ـ تشيرسكايا ، لا يتحمل وزنها الثقيل ، لذلك ضعفت مساهمة هذا اللواء

المدرع في التشكيلة القتالية إلى مستوى فوج مشاة مدرع مع خمس عشرة دبابة ت ٦٠ خفيفة .

علمنا فيما بعد حجم القوات العدوة الرهيبة ، التي نفذت إلى قطاع تسيليانسكايا ، ولكن عندما وقع أمر ارسال اللواء لم يكن لدى أركان الجبهة - مع الأسف-المعلومات الأكيدة عن ضخامتها وامكانياتها لكي ترسل هذه المفرزة التي لا معنى لارسالها ضد فيلق الدبابات الألماني ٤٨ التابع للجيش المدرع الرابع ، وكذلك ضد الفيلق الرابع الألماني،والجيش السادس الروماني في قطاع جارنا الجيش ٥١ التابع لجبهة الجنوب .

لم يستطع استطلاع الجيش ٦٤ الإستيضاح مطلقاً عن الموقف . وقد قدمت اعتراضاتي على تجزئة قواتنا ، ولكن غوردوف لم يلغ أمره وكان عليَّ أن أذهب بالطائرة OU - 2 إلى سوفوروفسكي لأسهر على تنفيذه .

بدأت المفرزة سيرها في الساعة العاشرة من يوم ٢٣ تموز إلى أماكن تمركزها باتجاه ستانتسيا تسيمليانسكايا . وبعد إنتهاء مهمتي قررت العودة عن طريق الجو بالطائرة OU - 2 والطيران فوق جبهة الجيش لأشرف على مواقعنا من الجو . وعندما وصلنا إلى الجهة الجنوبية الغربية من سوروفيكينو صادفتنا طائرة فاشية من نوع JU - 88 ، ولم يلبث قائدها عندما شاهدنا أن عاد باتجاهنا،بعد أن دار دورة وأخذ بمهاجمتنا . وكانت طائرتنا OU - 2 خالية من الأسلحة في حين كان لدى «الجونكرز ٨٨ » مدافع ورشاشات . وهنا بدأت لعبة القطة والفأرة بيننا ، فقام القرصان الفاشي بعشر هجمات علينا . وكان يبدو لنا أن طائرتنا ستتمزق في الجو لا محالة بسبب طلقات المدافع والرشاشات التي أصيبت بها. وكان من غير الممكن أن نهبط في السهوب المكشوفة لأننا بذلك سنوفر للطائرة العدوة هدفاً ثابتاً يمكن تدميره بواسطة مدفع الطائرة . وكان طيارنا يتجه نحو الشرق،أي جهة الشمس مفتشا على الأقل عن قرى أو بيوت أو مجموعة أشجار يمكن أن يختفي بها مؤقتاً من هذا النازي الملعون،ولكن السهوب كانت عارية تماماً وعلى امتداد النظر . لا أتذكر كيف جرى الحادث ولا متى . ففي المرور الثامن أو التاسع لطائرة العدو بقربنا تحطمت طائرتنا وهوت على الأرض بعد أن انشطرت إلى قسمين . وبسبب أننا كنا نحلق على مستوى منخفض جداً سقطنا بظروف ملائمة نسبياً لكلينا . وقد خرجنا من قمرة الطائرة أنا والطيار سالمين عدا بعض الجروح العميقة في ركبنا .

عندما رأى الطيار المعادي القذر طائرتنا تشتعل قام بحركة دائرية واتجه رأساً نحو الغرب واختفى وراء الأفق ، معتقداً أنه قضى علينا .

وقد وصل إلينا حالاً ضابط من مكتب عمليات الجيش ٦٢ النقيب أ . سيمكوف ، الذي أصبح فيما بعد بطل الاتحاد السوفيتي . ونقلنا من السهل بالسيارة خارج المنطقة الخطرة .

كانت تدور خلال ذلك الوقت معارك طاحنة على الجناح الأيمن للجيش ٦٢ مع المجموعة الشمالية العدوة والتي كانت أقوى المجموعات ، وقد استطاعت هذه المجموعة أن تنفذ في مساء ٢٢ تموز على المنطقة الرئيسية للجيش ٦٢ .

وبالرغم من البطولة الصلبة التي أظهرها رجال المفارز المتقدمة التابعة للجيش ٦٢ استطاع العدو رغم الخسائر التي تكبدها أن يواصل تقدمه . وكان رجالنا يقاتلون ببسالة وهم يتراجعون نحو قواعدهم . وكان تراجعهم صعباً بسبب السهوب المكشوفة التي كانوا يسيرون فيها وتحت ضغط القوى المعادية ، وبخاصة أن العدو كان متفوقاً عليهم . مما أدى إلى وقوع خسائر فادحة في صفوفنا .

استطاع العدو تجاوز مفارز المقدمات التابعة للجيش ٦٤ ، التي لم تستطع النفوذ على نهر «تسيما توسين » حتى ٢٣ تموز وكان الفيلق ٥١ الهتلري يضغط عليها بكل قوته .

وقبل أن أستعرض مجرى العمليات العسكرية في منحنى الدون الكبير سأذكر بعض الكلمات عن عمل الحزب في الجيشين ٦٢ و ٦٤ .

كانت المنظمات السياسية والحزب في الجيش ٦٤ حتى ذلك الوقت مشتتة في قوافل السكة الحديدية ونقاط المراحل للأرتال المختلفة التي كانت تسير منفردة نحو خط الدفاع .

ولكن الموقف بالنسبة للجيش ٦٢ كان أفضل بشكل ملحوظ . فعندما تلقت قيادة الجيش أمر القيادة (الستافكا) لأخذ مواقع الدفاع في منحنى الدون الكبير أرسل المجلس العسكري للجيش ٦٢ بقيادة عضو اللجنة المركزية للحزب غوروف ، وقوميسار اللواء ١ ـ فاسيليف إلى مختلف النواحي ، العاملين في الحزب لتأمين وصول القوات بسرعة إلى مواقعها الدفاعية . وتنظيم المناطق الدفاعية وجعلها صعبة المنال على العدو .

كما أرسل ضباطاً من هيئة أركان القسم السياسي للجيش لأقسام ووحدات

الجيش لتأمين وتنظيم عمل الحزب مع الالتزام الدقيق بمهمة القتال .

لقد وجه المجلس العسكري انتباهاً خاصاً لدعم فعالية منظمات الحزب والكومسمول (منظمة الشبيبة) في سرايا المشاة والمدفعية . ويمكن أن نحصي في ٢٠ تموز ١٩٤٢ بين قوات الجيش ٣٢٥٥ عضواً و ١٧٤٤ مرشحاً للحزب الشيوعي وكذلك ١٦٤٢٥ من الشبيبة، أي بنسبة ٢٥٪ من تعداد الجيش.

كان عمل الحزب في الجيش ٦٤ يعظم بمقدار ، وحسب وصول عناصر الجيش ووحداته للجبهة . وكان ضباط الأركان الشيوعيون والموجهون السياسيون يمضون جل وقتهم في الخطوط الدفاعية الأولى على الطرف الغربي للدون ، ويستقبلون الاقسام والوحدات التابعة للجيش منذ وصولها ، ويضعونها في مكانها ، وفي القطاع المخصص لها ، وينسقون العمل التوجيهي والمعنوي لتهيئة دفاع صلب .

هاجم العدو صباح يوم ٢٣ بقوات متفوقة القطاعات الضعيفة في التشكيل القتالي للجيشين ٦٤ و ٦٢ . وكانت هذه منتشرة على جبهة واسعة مع ضعف في تنظيمها . فتعقد موقف قواتنا في هذا القطاع بشكل أن الفرقة ١٩٢ وفرقة مشاة الحرس ٣٣ كانتا تدافعان عن مواقعهما دون نسقٍ ثانٍ ، ودون دبابات المرافقة التي تدخل عادة في تشكيل أفواج المقدمة . وكانت المنطقة الدفاعية زيادة على ذلك تحوي على ثغرات كبيرة بين مراكز مقاومة الأفواج .

استطاع العدو في ٢٤ تموز اختراق الجناح الدفاعي للجيش ٦٢ على جبهة كليتسكايا ايفسترا كوفسكي ـ كالميكوف ، ثم زج بوحدات جديدة مطوراً هجومه نحو مانولين ـ مايروفسكي ـ ومن بلاتونوف نحو فيرخنه ـ بوزينوفكا . وفي نهاية يوم ٢٤ وصلت رؤوس وحدات الفرق الآلية العدوة ٣ و ٦٠ إلى الدون في قطاع غولوبينسكايا وقطاع سكفورين .

بعد التقدم الذي أحرزه العدو قرر قائد الجيش ٦٢ كولباكتشي الشروع بهجوم معاكس مع الأخذ بالاعتبار صعوبة الموقف . وتشترك في هذا الهجوم قوات الفيلق المدرع الثالث عشر ، ووحدات من فرقة الحرس المدرعة ٣٣ وذلك لتثبيت الموقف في المنطقة الدفاعية لفرقة مشاة الحرس ٣٣ ثم الهجوم على طول الجناح الأيمن للجيش ، وقد حدد تاريخ البدء بالهجوم المعاكس الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي . لذلك لم يكن هناك سوى خمس ساعات للتحضير .

على كل الأحوال ، كانت تلك مبادرة شجاعة من قبل قائد الجيش ٦٢ لإيقاف

تقدم عدد متفوق بالقوى ، ونظراً للسرعة التي تقرر فيها الهجوم لم يكن لدىٰ صحافة الجيش الوقت ، بعد أن علمت متأخرة بالهجوم لنشر وإظهار بعض الأمثلة - كما جرت العادة قبل أي هجوم - عن بطولات المحاربين وبثها بين الجنود لرفع معنوياتهم ، ودفعهم لمحاكاتها . وكانت التقارير السياسية والنشرات والبلاغات عن بطولات الأفراد والضباط تصل بواسطة أجهزة الاعلام إلى كل المحاربين . كما كانت تشرح لهم عن الخسائر الفادحة التي تكبدتها القوات الفاشية . وأنه من الممكن التغلب على العدو وإبادته بالقتال الصلب وحسن التصرف في المعركة .

قام أربعة رماة ضد الدبابات بمأثرة بطولية كان لها دوي وصدى في كل الجبهة وهم بيوتر بولوتو- غريغوري ساموبليف- الكسندر بيليكوف ثم إيفان البنيكوف ، فقد اتخذ هؤلاء الأبطال مواقع لهم على هضبة عالية ، بالقرب من كلبتسكايا وحفروا فيها مخابىء وخنادق هُيئت بشكل جيد واستعدوا للقتال ، ودب السرور بينهم عندما شاهدوا سحابة ترابية تتجه نحوهم،ثم ظهرت الآليات فأخذوا يعدون الدبابات المتجهة نحوهم فعد بيليكوف ثلاثين دبابة ، أي سبعة دبابات حصة كل رامٍ ، مع زيادة دبابتين للجميع .

كانت الدبابات تنتشر بتشكيلة الهجوم ، وتتقدم الجميع دبابة نموذج (راني ميتلى) تحيط بها من كل جهة دبابتان طراز ت ٣ ، ثم دبابة خفيفة طراز ت ٢ تسد الطريق ويقف سدنة الدبابات بأرديتهم السوداء منتصبين في أبواب وفتحات الدبابات المفتوحة دون مبالاة ، وكما اتضح أنهم حتى ذلك الوقت لم يكتشفوا وجود جنودنا على الهضبة .

لاحظ بيوتر بولوتو الصليب الحديدي ذا الحاشية البيضاء بشكل واضح على الدبابات ثم أحكم مقياس التسديد . وضغط على زناد بندقيته المضادة للدبابات فأصاب الدبابة راني ميتلي واشتعلت فيها النيران مما جعلها تبطيء في سيرها وأخيراً توقفت . ثم فتحت نوافذها ، وأخذ سدنتها يغادرونها ، ثم أطلق الكسندر بيلكوف على دبابة خفيفة (ت ٢) فاشتعلت هي الأخرى بالنيران ، ويبدو أن الطلقة المضادة أصابت مستودع الوقود فيها وبعد بضع ثوان ، أخذ بولوتو وبيلكوف يصوبون بدقة على الأهداف فأصابوا دبابتين من طراز ت٣. ولم يحصوا عدد الطلقات التي أصابتها . ولكن الدبابتين توقفتا بعد أن اشتعلت فيهما النيران . وتتابعت المعركة حتى المساء ، أي حتى اللحظة التي توقف فيها

الفاشيون عن الهجوم وغيروا اتجاه دباباتهم . وكانت هناك عشر دبابات تشتعل حول الهضبة، وعلى هذا الشكل أنهى الأبطال الأربعة معركتهم الأولى. وهذه المأثرة البطولية لم تكن الأولى ولا الأخيرة في الجبهة .

ومع أن وحدات الجيش ٦٤ قد أخذت في هذه الفترة مواقعها الدفاعية المحددة لها في الجبهة ، إلا أن هذه الوحدات لم تكن كاملة . عدا الفرقة ٢١٤ مشاة بقيادة الجنرال ن . بيركوف ولواء مشاة البحرية سميرنوف، فكانتا في وضع أحسن ووصلتا بكاملهما ولديهما ثلاثة أيام لتحصين دفاعهما ، أما فرقة المشاة ٢٢٩ فلا تزال تتابع طريقها نحو خط الجبهة .

وبتنقل كل من اللواءين ٦٦ مشاة البحرية و ١٣٧ المدرع بأمر قيادة الجبهة اعتباراً من سوفوروسكوي باتجاه تسيمليانسكايا ، فقد أصبح بإمكان العدو-حسب تقديري-أن يأخذهما من الجانب .

لذلك ، وبعد أن علمت بأن العدو عاود الهجوم على جبهة الجيش ٦٢ وعلى المواقع القتالية للمفارز المتقدمة للجيش ٦٤ ، رجوت قيادة الجبهة باصرار إعادة الألوية المذكورة إلى مواقعها الأولية، وقبل غوردوف اقتراحي، ولهذا غيرت تلك الالوية طريقها واتجهت نحو فيرخنه ـ تشيرسكايا في الساعة السابعة عشرة من الرابع والعشرين من تموز .

كما أنني عزمت أيضاً على نقل فرقة المشاة رقم ١١٢ إلى الطرف الأيمن لنهر الدون ، وإقامة موقع دفاعي نهري على المجرى الأسفل لنهر تشير في نقطة اتصال الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، وقد أقرت قيادة الجبهة مباشرة هذا الاقتراح .

لم يؤد الهجوم المعاكس الذي شن في الرابع والعشرين من تموز حسب القرار الذي اتخذه قائد الجيش ٦٢ الجنرال كولباكتشي بقوى الفيلق المدرع الثالث عشر (١٥ دبابة) ولواء مشاة مع فوج من الدبابات مع دعم ثلاثة ألوية مدفعية إلى أية نتيجة إيجابية . وكان السبب في هذا الاحباط هو أن الفيلق المدرع ١٣ المشكل حديثاً ، لم يكن مستعداً للمعركة ، فلم يكن لديه الوقت الكافي لتنظيم التعاون مع الوحدات الأخرى والطيران .

وفي الوقت الذي استثمر فيه العدو في الرابع والعشرين من تموز تفوقه بالطائرات والدبابات،وتابع تطوير هجومه استطاعت الفرقة المدرعة السادسة عشرة ، وفرقة المشاة العدوة أن تحققا الخرق في قطاع كاتشا لينسكايا ونفذت إلى نهر ليسكا .

نجح العدو في نهاية النهار وبدعم الفرق الآلية ٣ و ٦٠ من تدمير أركانات فرق المشاة ١٨٤ ـ ١٩٢ في قطاع فيرخنه بوزينوفكا ، وتحقيق الخرق في قطاع كلوبينسكوي ، ومالوناباتوفكا إلى تهديد وحدات الجناح الأيمن للجيش ٦٢ بالتطويق .

عزم قائد الجيش ٦٢ في صباح ٢٥ تموز على القيام بهجوم معاكس جديد على الغزاة الذين اخترقوا مؤخرات الجيش ، ولتنفيذ هذا المشروع تقرر أن يشترك في الهجوم الفيلق المدرع ١٣ ووحدات من فرقة المشاة ٣٣ للحرس . وفرقة المشاة ١٩ المعززة بفوج مدرع ٦٤٩ كما استدعيت الفرقة ١٩٦ ، والتي بحسب هذا القرار ، كان عليها أن تترك منطقة دفاعها ، خلال الليل وتقوم بمسير ليلي لمسافة ٧٥ كم وأن تقوم بالهجوم الساعة السادسة صباحاً من يوم ٢٦ تموز باتجاه سكيفورين ـ سوخانوفسكي ـ فيرخنه بوزينوفكا . وبدأت الفرقة سيرها يوم ٢٥ ولكن لم يصل منها في نهاية يوم ٢٦ سوى عناصرها المتقدمة . التي وصلت إلى قطاع سكفورين ، أما قوتها الرئيسية فلم تصل حتى يوم ٢٧ .

وهنا استطاعت الفرقة المدرعة العاشرة العدوة من تحقيق إتصالها مع الفرقة المدرعة ٢٦ في نهاية ذلك اليوم في قطاع سوخانوفسكي ، ونتيجة لذلك وجدت فرق المشاة السوفيتية ١٨٤ ـ ١٩٢ وألوية المشاة ٨٤ ـ ٨٨ وفرقة مشاة الحرس ٣٣ واللواء المدرع ٤٠ والفوج المدرع ٦٤٤ وثلاثة ألوية مدفعية دعم ، وجدت نفسها محاصرة من قبل العدو .

اضطرت مجموعة من الضباط وعلى رأسهم العقيد (جوارفليف) رئيس مكتب عمليات الجبهة للهبوط بالمظلات في القطاع المحاصر لتأمين قيادة القطعات هناك . وقد تم تنظيم دفاع دائري على خط بلاكونوف ـ انيسترانوفسكي ـ كالميكوف ـ دماريوفسكي تحت قيادة هؤلاء الضباط .

أما وحدات الجيش ٦٢ فقد صمدت طوال يوم ٢٦ تموز في المعارك الحامية ضد العدو ، الذي استطاع فيما بعد اختراق الجناح الأيمن للجيش .

تجمعت خلال تلك الفترة قوات هامة تحت تصرف أركان الجبهة ، وقد تم وصول احتياط من القيادة العليا (الستافكا) وكان مؤلفاً من الجيشين المدرعين الأول والرابع ، وكل واحد منهما كان مؤلفاً من أربعة فيالق بتعداد ٦٠٠ دبابة ، كما وصلت فرق المشاة ١٢٦ ـ ٢٠٤ ـ ٣٢١ ـ ٣٩٩ ووحدات أخرى .

كانت (ستافكا) القيادة العليا وستالين شخصياً يلحان ليس على إيقاف العدو ،

بل على إبعاده إلى الضفة الأخرى لنهر تشير .
تلقيت في يوم ٢٥ تموز ١٩٤٢ عمادة النار:
كان العدو يوجه جهده الرئيسي ضد فرقة المشاة ٢٢٩ ، بقوى فرقتي مشاة وفرقة مدرعة عدوة . وكانت الفرقة ٢٢٩ تشكل جناحنا الأيمن . وكانت تحتل خطاً دفاعياً بطول ١٥ كيلومتر من الجبهة بخمسة أفواج فقط ، أما الأفواج الاربعة الباقية التابعة للفرقة فكانت لا تزال في الطريق وضمن تشكيل قتال الفرقة،وفي العمق كان اللواء المدرع ١٢١ موجوداً وكان لديه خمس دبابات ثقيلة وتسع دبابات ت ٣٤ وعشرون دبابة ت ٦٠ .
وعقب بزوغ الفجر نشبت المعركة المرتقبة :
قام العدو في البداية بالهجوم بفرقة مشاة مع الدبابات على وسط دفاع فرقة المشاة ٢٢٩ حيث كان اللواء ١٨٣،وبالرغم من التفوق المعادي ، صدت أفواجنا بعنف هجمات مشاة العدو ودباباته . وقد دمر له تسع دبابات وقتل أكثر من ٦٠٠ هتلري في قطاع اللواء ٧٨٣ .
استطاع العدو بعد الظهر أن يتسرب إلى خطوط دفاعنا . وأخذ رماته يهاجمون مقر قيادة الفرقة مما أجبر قائدها على الانسحاب بسرعة . وأدى ذلك لانقطاع الاتصال مع لواء المشاة ٧٨٣ ، والفوج الثاني من لواء المشاة ٨٠٤ ، وقد أرسل ضابط داخل دبابة إلى تلك الوحدات ولكنه لم يعد ، فقد قتل بدون شك. وعلى هذه الصورة أنهيت أول يوم قتال لي . ولم يكن لدينا في يوم ٢٥ تموز شيء لدعم فرقة المشاة ٢٢٩ فقد كان جميع الاحتياط موجوداً إلى الشرق من الدون .
دفع العدو في يوم ٢٦ تموز الساعة الخامسة صباحاً وبهجوم جديد بمشاركة دباباته وبعد تمهيد المدفعية وغارات الطائرات. ومن مرصدي الواقع على بعد عشرة كيلو مترات شمال غرب نيجنه تشيرسكايا ، شاهدت أكثر من ثمانين دبابة عدوة تتقدم الهجمة وتحت نيران المدفعية والهاون ، وقد وجه الجهد الرئيسي للعدو ضد منطقة دفاع لواء المشاة ٧٨٣ .
كنت أشاهد دبابات العدو التي كانت تحميها الطائرات تتغلغل ضمن دفاعنا . وقد اصطدمت مجموعة منها بدباباتنا الثقيلة من نوع ك . ف (كيم فورشيلوف) ، وبدأت المعركة ، فصدت دباباتنا الثقيلة دبابات العدو ، ولكن دباباتنا الخفيفة ت ٦٠ تكبدت خسائر فادحة . وتشتتت في الوديان حالاً ، وقد قتل قائد لواء المشاة ٧٨٣ كما جرح الموجه السياسي،وأخذت قوات اللواء تقاتل

وتتراجع نحو الشرق .

زج قائد الفرقة بالمعركة حالاً بفوجين من لواء ٨٠٤ التي كانت قد وصلت لتوها ، وذلك في محاولة للحد من هجوم العدو . ولكن كانت الفرصة قد فاتت . لذلك وقعت هذه الأفواج تحت رحمة نيران الدبابات الألمانية ، فاضطرت للتشبث بالأرض . وبعد بضع ساعات من هجمات الدبابات والمشاة العدوة . ودون أن يترك لها الفرصة لحفر خنادق لها ، لم تتمكن من الصمود طويلاً فاضطرت للتراجع نحو قرية سافنيسكي على الضفة اليمنى لنهر تشير لتحمي جناح الجيش ٦٢ ، وقد كبدت هاونات الحرس ومدفعية الفرقة ٢١٤ العدو خسائر فادحة ، حيث كانت تصب نيرانها على تجمعات الهتلريين في هذا القطاع ، ورغم الخسائر الفادحة تابعت الوحدات العدوة السير قدماً الى الأمام ، وقد زج العدو في هذه المعمعة ظهراً مجموعتين من الدبابات: واحدة منها كانت تعد حوالي أربعين دبابة ، أخذت تلاحق الأفواج المتراجعة نحو نهر تشير ، بينما كانت المجموعة الأخرى تتجه صوب «نيجنة تشيرسكايا» .

ظهر بوضوح حوالي منتصف النهار أن دفاعنا في قطاع فرقة المشاة ٢٢٩ تم اختراقه على جناحه الأيمن . واندفع العدو نحو نهر تشير لكي يسيطر على نقطة إتصال الجيشين ٦٤ و ٦٢ ، ولم يكن لدى جيشنا أي احتياط على الشاطىء الغربي لنهر الدون ، فلواء مشاة البحرية ٦٦ ، وقسم من قوى اللواء المدرع ١٣٧ الذي كنت قد أعدته إلى (تسيمليانسكايا)، توجها نحو نيجنة تشيرنكايا ، وكان سير البحارة بطيئاً بسبب الانهاك الذي أصابهم من جراء قيامهم بمسير طويل غير مجد . كما استنفذ هذا المسير محروقات الدبابات . وحتى أعيد الإتصال بين الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، وأزيل تأثير اختراق العدو ، اتخذت القرار التالي : دفع فرقة المشاة ١١٢ لعبور الدون عن طريق جسر سكة الحديد . وكانت هذه الفرقة حتى ذلك الوقت في وضع جيد ، وكان عليها السير ليلاً مع عشر دبابات ك . ف التابعة للواء المدرع ١٣٧ ، بمهمة احتلال خط دفاعي اعتباراً من ستاروماكسيموفسكي . وعلى طول نهر تشير حتى مصبه، والتحصن في مواقع ملائمة . كما كان عليها أيضا تأمين إتصال مباشر وقوي بين الجيشين ٦٤ و ٦٢ . وعدم السماح للعدو بالهجوم من جانب ومؤخرة الجيش ٦٢ .

نجحت هذه المناورة : في مساء ٢٦ تموز اجتازت فرقة المشاة ١١٢ النهر

وسارت على خط سكة الحديد ريتشكوفسكي - ستار وماكسيموفسكي ، حيث تم الاتصال مع فرقة المشاة ٢٢٩،ونجحنا أيضا بنقل قسم من قوات لواء مشاة البحرية ٦٦ ، ومجموعة مدفعية الى الشمال الغربي من نيجنه تشيرسكايا إلى النسق الثاني ، خلف فرقة المشاة ٢٢٩ . وبالمقابل لم تستطع الدبابات الخفيفة التابعة للواء المدرع ١٣٧ من الوصول إلى نيجنه تشيرسكايا بسبب نفاذ وقودها ، وكان علينا نقله من الضفة الشرقية لنهر الدون . ومن أجل تحقيق الإتصال بين الفرق ٢١٤ - ٢٢٩ أُجبرنا على تقديم أفواج من اللواء ٦٦ من الرماة البحرية مع مدفعيتهم عوضاً عن الدبابات . ولكن هذه الوحدات هوجمت حالاً من الجو . ثم من أمواج الدبابات الألمانية فاضطر البحارة للاحتماء بالأرض وحفر الخنادق وأخذوا في صد الهجمات المعادية .

كان القطاع المتجه نحو نيجنة تشيرنسكايا أكثر القطاعات خطورة . فاذا استطاعت دبابات العدو النفوذ من هذه الجهة فبامكانه احتلال معابر الدون وممرات نهر تشير بنفس الوقت . ولم يكن لدى جيشنا أسلحة مضادة للدبابات . ودبابات اللواء المدرع ١٣٧ الخفيفة دون وقود . والأمل الوحيد الذي كان لدينا هو الاعتماد على مجموعة المدفعية التابعة للواء مشاة البحرية ٦٦ والتي كانت مدافعها تجرها الخيول . كانت هذه منهكة جداً وأصبحت بحالة ضعف شديد ورغم ذلك فبامكان هذه المجموعة أن تنتقل قدر الامكان .

تلقى النقيب نوفيكوف قائد الفرقة في حوالي الساعة ١٤ من يوم السادس والعشرين من تموز مهمة تقضي الانتشار باتجاه الغرب في شمال غرب مدينة نيجنه تشيرسكايا ، ومنع دبابات العدو من استخدام ممرات نهري الدون والتشير .

نشرت الفرقة بسرعة سرايا المدفعية الثلاث التابعة لها ، واتخذت هذه تشكيلة القتال على جبهة بعرض حوالي ٢ كم،ونشر قادة السرايا وحداتهم « قائد السرية الاولى والثالثة هما الأخوان الملازمان الأولان د . ديفرييف و ب . ديفرييف،أما قائد السرية الثالثة فكان الملازم روجكوف » تحت سماء مكشوفة،فلم يكن لديهم الوقت لحفر المرابض وحمايتها قبل ظهور دبابات العدو ، وبذلك قبل رجال مدفعية الرماة البحرية التحدي واستعدوا للمعركة .

فتحت حوالي خمس وعشرين دبابة عدوة نيران مدافعها عشوائياً ، وعلى بعد كيلومتر ونصف الى كيلومترين على مواقع سرايا المدفعية التى كانت بحالة

الانتشار ، ولكن رجال مدفعيتنا تركوا ببرود وهدوء دبابات العدو تصل إلى بعد ٤٠٠ ـ ٦٠٠ متر وفتحوا عليها نيران كثيفة ، وقد شوهدت دبابتان تشتعل فيهما النيران وهما في مكانهما وابتدأت المبارزة بين رجال الدبابات المعادية ومدفعيي البحرية السوفيتية . كانت الدبابات تتقدم دون النظر للخسائر ، ورغم أنها كانت تحترق كالشعلة الواحدة تلو الأخرى . وقد غطى ستار من الدخان والغبار ساحة المعركة ، ولكن الصراع كان غير متكافىء ، فرجال الدبابات كانوا يحتمون بدروع دباباتهم وبحركة متواصلة ، بينما كانت سرايا مدفعيتنا ثابتة ومكشوفة . ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً ، فالكشافون ورجال الإتصال أخذوا يحلون محل رفاقهم القتلى ، حيث أعطيت الأوامر للكشافين بتحضير القنابل المضادة للدبابات والزجاجات الحارقة .

لم تدم المعركة سوى ساعة من الزمن ، وظهر أن أعصاب رجال مدفعيتنا أكثر صلابة من أعصاب رجال الدبابات العدوة ، فبعد أن خسر هؤلاء ١٢ دبابة عكسوا اتجاه دباباتهم ، ولم تستطع دبابات العدو ومشاته حتى هبوط الليل الاقتراب من نيجنه ـ تشيرسكايا . وقد أدت صلابة رجال المدفعية والرماة من مشاة البحرية إلى أن يعتقد العدو بأنه اصطدم بدفاع محضر مسبقاً ، ولكي يتغلب على هذه المقاومة ، زج العدو بطائراته ضد الرماة ومدفعية لواء المشاة البحرية ٦٦ ، وأخذت أمواج من الطائرات ، تشارك في كل تشكيله من ٢٠ـ٢٥ طائرة تقصف مواقعنا الأمامية ومؤخراتنا ، وكذلك الممرات على الدون والتشير .

أشرت هنا إلى بسالة رجال مدفعية اللواء ٦٦ الذين صدوا هجوم مجموعة قوية من دبابات العدو ، كانت متجهة نحو ستانيتسا . ونيجنه ـ تشيرسكايا ومعابر الدون في ذلك القطاع . فلو استطاع العدو في يوم ٢٦ احتلال نيجنه تشيرسكايا لكان بإمكانه اجتياز نهر تشير في نفس اليوم ، والنفاذ مباشرة إلى جناح ومؤخرات الجيش ٦٢ من الجنوب .

رغم كل شيء ، كان يبدو أنه باستطاعتنا إيقاف العدو ومنعه من الوصول إلى مجرى نهر الدون أو التشير وسد الخرق . ولكن الأخبار التي تناقلتها الأفواج وفي رحبات المدفعية . وقوافل السكة الحديدية ، الموجودة على الطرف الأيمن لنهري الدون والتشير ، والتي تفيدنا بأن الدبابات الألمانية هي على بعد كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات ، لذلك توجه كثير من الأشخاص نحو المعبر

لاجتيازه . وقد أرسلت إلى المعبر ضباط الأركان الذين كانوا بجانبي مع الماجور جنرال المدفعي «ابرود» لإيقاف الأشخاص والطواقم ومنعهم من العبور . ولكن كان ذلك دون نتيجة ، حيث اكتشف العدو بقرب الممر تجمعاً كبيراً للآليات وأخذ في قصفها . وكان الجنرال «ابرود » من جملة القتلى خلال الغارات ، وكذلك رئيس العمليات العقيد سيدورني(رئيس المهندسين في الجيش)، والعقيد بوريلوس وغيرهم من ضباط الأركان . وفي المساء قطع جسر نيجنه . تشيرسكايا على الدون بعد غارات الطيران المعادية عليه ، وبقي في الضفة الشرقية من الدون كل من الوحدات : فرقة المشاة ٢١٤ ، ولوائي مشاة البحرية من الجيش ٦٤ دون معبر .

قام رئيس أركان الجيش العقيد ن . نوفيكوف ، وعضو المجلس العسكري قوميسار الفرقة ك . ابراموف اللذين كانا في المقر الرئيسي للجيش ، وبدون علمي . (كنت حتى ذلك الوقت في نيجنه تشيرسكايا) بمبادرة لا داعي لها . فقد وجهوا أمراً بالراديو إلى فرقة المشاة ٢١٤ ولوائي مشاة البحرية واللواء المدرع ١٣٧ بالانتقال للقتال التراجعي إلى ما وراء الدون ، ولم أعلم بذلك إلا بعد وصولي إلى أركان الجيش في ليل ٢٦ تموز . وكنت أرتجف من التفكير بما يمكن أن يحدث في الليل على النهر . لأنه في ذلك الوقت لم يكن هناك أي ممر صالح للعبور .

وكان من الواجب أن لا ننسحب للضفة الأخرى من الدون،بل من الضروري تنظيم الدفاع على الضفة الغربية ليستند عليه أحد الأجنحة . وقد وجهت كل وسائط الإتصال لايصال هذا القرار إلى الوحدات ، ولا أعلم كيف جرى ذلك ، والمهم أن الأمر وصل للقطعات والتراجع نحو الدون اتصف بالتنظيم نوعاً ما . وجرى العبور إلى الضفة الأخرى بدون خسائر .

لقد تم العبور بعد بذل جهد كبير . لأن وحدات فرقة المشاة ٧١ المعادية كانت تضغط علينا مباشرة ، ولم يكن لدينا تقريباً وسائل للعبور وكان أحد ألوية الفرقة ٢١٤ بقيادة الجنرال ن . بيركوف يغطي الممر . وقد قدم هو والموجه السياسي للفرقة «سوبول» البرهان على ما كانا يتمتعان به من قدرة كبرى في التنظيم والشجاعة الشخصية بقيادتهما لتراجع هذه الفرقة . ولم تكد الوحدات الأخرى بما فيها الفرقة ٢١٤ تعبر الدون،حتى احتلت مواضعها الدفاعية على الضفة الشرقية للدون .

وبفضل الاجراءات التي اتخذت مساء ٢٧ تموز أزيل تأثير الخرق ، الذي حصل على طول جبهة الجيش ٦٤ ، ولم يستطع العدو تطوير هجومه إلى أبعد من ذلك . وأوقف بين مجرى تشير والدون أزيل أيضاً خطر اختراق قطاع نيجنه تشيرسكايا الذي كان يهدد ستالينغراد ، ولم يعد بإمكان العدو القيام بخرق في الجنوب باتجاه المعابر في ضواحي كالاتش .

لم تكن ثلاثة أيام من القتال شيئاً ما ، ولكن بالنسبة لي ، وقد وصلت حديثاً إلى الجبهة كانت هذه الفسحة من الزمن بكل نقاطها ذات أهمية كبيرة .

اضطرت قطعات الجناح الأيمن للجيش ٦٤ أن تقاتل وهي متراجعة . ولكن هذه الصدمة الأولى التي تلقيناها لم تنل من بعضنا وتضعف شجاعتنا . وكنت متأكداً أن الزمن لا بد اتىحيث سيشرب الضباط الهتلريون المزهوون بأنفسهم كأس المرارة من الهزيمة التي سيلحقها بهم الجيش الأحمر .

يعود النجاح الذي أحرزه العدو بقدر كبير إلى أنه شن هجومه في الوقت الذي كانت فيه وحدات جيشنا لم تكتمل بعد من فرق وألوية ، ولو كان لدينا من الوقت يومان أو ثلاثة لتنظيم الدفاع وتجميع الألوية والأفواج ومجموعات المدفعية وحفر الخنادق وإقامة التحصينات وتنسيق النيران والإتصال وإيصال الذخيرة ، وتنظيم التموين ، بشكل اعتيادي ، لما كان بمقدور العدو أن يخرق بسهولة دفاع جبهة الجيش ٦٤

ومن خلال مراقبتي للطريقة التي كان الهتلريون ينفذون بها هجومهم من تحضيرات المدفعية على قطاع فرقة المشاة ٢٢٩ ، لاحظت الجوانب الضعيفة في تكتيكاتهم . فنيران التمهيد بالمدفعية والهاون كانت تعمل منفردة وتوجه إلى الخط الأول فقط دون العمق . ولم نكن نلاحظ أبداً تبادل اطلاق النار على نطاق واسع خلال المعركة .

درست خلال سني الدراسة في الأكاديمية العسكرية « فرونزة » عدداً من عمليات الحرب العالمية الأولى على الجبهة الغربية . وقد أفادتني هذه الدراسات بالاطلاع على رأي القادة الألمان حول دور المدفعية في حرب مقبلة مثل (برنهار دي) ، كما لاحظت كذلك في الأيام الأولى من معركة الدون . وكنت أنتظر من المدفعية العدوة تعاوناً تقليدياً وتنظيماً فعالًا لرمي الحاجز الناري ومناورة سريعة كالبرق بالنار وحركة الوسائط الآلية ، ولكن لم يكن هناك شيء من هذا ، لقد وجدت أمامي طريقة جديدة تماماً ، تقضم الخنادق بالتوالي الواحد

تلو الآخر .

لذلك لو كان لدينا دفاعاً أكثر عمقاً « ليس فقط خمس أفواج ، بل تسعة » احتياطاً ضد الدبابات لكان بإمكاننا ليس فقط احتواء هجوم العدو ، بل تكبيده الخسائر الفادحة .

كانت الدبابات الألمانية لا تتقدم بدون مشاة ودعم من الطيران . ولم نكن نلاحظ في ساحة القتال بسالة سدنة الدبابات الألمانية أو جرأتهم وسرعتهم في الأداء ، والتي كانت تصفهم بها الصحافة الأجنبية .

كانت قوة المشاة الألمان تكمن في فعالية أسلحتهم الأوتوماتيكية ، ولكن لم أشاهد مطلقاً السرعة في حركتهم ولا الضراوة في هجومهم . ولا يقتصد الألمان عادة بطلقاتهم في الهجوم،بل كانوا يرمون غالباً دون هدف .

تجنب المشاة الألمان المعركة عندما قام لواء من الفرقة ١٢٢ في ٢٧ تموز بهجومه المعاكس على مزرعة نوفوماكسيموفسكي ، وأخذوا يقاتلون وهم يتراجعون ، ولكن في اليوم الثاني ، أي ٢٨ تموز عادوا للقتال بعد وصول الوحدات المدرعة ، وأخذوا يهاجمون المواقع التي كانوا قد تركوها دون قتال .

كان الخط الدفاعي الألماني الأول مرئياً بوضوح وبخاصة في الليل ، وكان يستدل عليه من الرمايات الخطاطة والقذائف المختلفة الألوان،التي كانوا يطلقونها ، وربما يعود ذلك إلى الخوف من الظلمة ، أو أنهم كانوا يضجرون عندما لا يرمون ، وكانت تحركات القوات العدوة واضحة جداً بسبب تحركات أرتال سياراتهم في السهوب المكشوفة ومصابيحها مضاءة .

يعتبر الطيران المعادي أفضل أنواع الأسلحة التي كانت تعمل في ساحة القتال . وكان الإتصال بين الطيران والقوات الأرضية منظماً تنظيماً جيداً ، وكنت أشعر بأن الطيارين الألمان يعرفون تكتيكات جيوشهم البرية كما يعرفون تكتيكات عدوهم .

ومنذ أن يتمدد جنود المشاة الألمان تحت تأثير مدفعيتنا ورشاشاتنا على الأرض ، كانت الطائرات المنقضة تظهر بعد عشر دقائق وتشكل دائرة مغلقة وتأخذ في مهاجمة تشكيلاتنا القتالية ، ومواضع الرمي .

تلك كانت أول خلاصاتي حول التعرف على التكتيك المعادي : مراقبة العدو ، دراسة نقاط ضعفه ونقاط قوته ومعرفة عاداته ، وهذا يعني القتال والعيون مفتوحة ، والاستفادة من أخطاء العدو، دون تعريض نقاطنا الضعيفة

لضربة خطرة .

كانت العمليات العسكرية الرئيسية اعتباراً من ٢٦ تموز حتى نهاية الشهر ، تدور على الجناح الأيمن للجيش في قطاع بولشايا اوسينوفكا ، ايرتسكي ، فيرخنه تشيرسكايا . وكان العدو يسعى في هذا القطاع لتحقيق الخرق عبر التشكيل القتالي للفرق ٢٢٩ ـ ١١٢ باتجاه الشمال الشرقي للنفوذ إلى مؤخرات الجيش ٦٢ والى معابر الدون في قطاع لوغوفسكي . وكالاتش .

كنت خلال ذلك الوقت موجوداً دائماً في مركز الرصد (المرصد الواقع على مرتفع شمال الخط الفرعي لسكة حديد رتشكوفسكي) ، وعلى إتصال مباشر مع قادة الفرق ٢٢٩ ، ١١٢ وبالوحدات الأخرى عن طريق أركان الجيش .

كانت المعركة تتابع بين كر وفر ، وخلال بضعة أيام من نشوبها كان العدو يدفع للهجوم بوحدات الفيلق ٥١ المعزز بالدبابات ، وكان العدو يرمي في بعض الأيام بمائة دبابة دفعة واحدة للهجوم . في الوقت الذي لم يكن لدينا سوى عشر دبابات في ذلك القطاع ، وعلى كل الأحوال كانت قواتنا وبخاصة الفرقة ١١٢ تتصدى لهجمات العدو،وتقوم هي أيضا بهجمات معاكسة .

دام هذا الوضع بضعة أيام ، ولكن في ٣١ تموز شنت وحدات الفرقتين ٢٢٩ و ١١٢ صباحاً هجوماً معاكساً تدعمها الدبابات العشر نفسها والطيران . وقذفت بالعدو الى الضفة الأخرى لنهر تشير . واستطعنا في مساء اليوم نفسه التقاط برقية لا سلكية معادية حول هجومنا،جاء فيها « هزمت وحدات الفيلق ٥١ التي اجتازت نهر تشيرسورفيكفو »،وقد أرسل الضابط الذي وقع البرقية باسم (×) البرقية على الشكل المذكور آنفاً إلى أركان مجموعة الجيوش *B* .

عندما أعيد تشكيل الجيش ٦٤ ووضع في الاحتياط ، كان القسم الأكبر من جنوده وضباطه يشتركون لأول مرة في القتال ، ولكنهم عمدوا بالنار في سهوب الدون ، فلم تهن معنوياتهم ، ولم تهز الخسائر الأولية التي تكبدوها ايمانهم بقوتهم . وكانوا يقاتلون وهم يتراجعون وكثيراً ما كانوا يحتوون هجوم العدو ، ولا يخافون قوته الحقيقية ، ومع ذلك لا يمكن طلب المستحيل منهم .

كان التفوق المعادي كبيراً ، ولم يكن بإمكاننا إيقاف هجومه بالقوى التي كانت لدى الجيش ٦٤ في ذلك الوقت ، ولكن جنود وضباط الجيش ٦٤ استطاعوا احتواء الهجوم ، وأحبطوا مخططات الهتلريين التي كانت تستهدف تطويق وتدمير قواتنا الموجودة على الضفة الغربية لنهر الدون .

إني أتذكر بسالة محاربي فرقة المشاة ١١٢ وقادتها ا . سلوغوب ومن بعده ا . ايمولكين ، الذين صمدوا على نهر تشير حتى نهاية تموز ١٩٤٢ ضد الفيلق ٥١ والفرقة المدرعة الألمانية ٢٤ ، دون أن يسمحوا لهذه القوات المتفوقة من النفوذ إلى جناح ومؤخرات القوات الرئيسية للجيش ٦٢ من الجنوب . وهم الذين قاتلوا فيما بعد بين الفولغا والدون ببسالة ، وحتى في نفس مدينة ستالينغراد ، وقاتلوا منذ بداية المعركة الدفاعية حتى نهايتها .

كانت فرقة المشاة (٢٢٩) التي يقودها العقيد ف . ساجين ، هي الفرقة الثانية المتواجدة بجانب الفرقة ١١٢ وتنفذ نفس المهمة وتقاتل نفس العدو ، وكان على هذه الفرقة التي لم تستكمل حتى ذلك الوقت تجمعها ، أن تتلقى الصدمة التي وجهها الفيلق ٥١ والفرقة المدرعة ٢٤ من القوات الفاشية . وعلى خط الدفاع ، استطاعت أقسام ووحدات هذه الفرقة حفر الخنادق وتصدت لهجمات العدو المتكررة والتي كان يقوم بها العدو بدءاً من الجنوب باتجاه الشمال الشرقي نحو الدون . ومدينة كالاتش لكي يحقق إتصاله بمجموعات القوات الرئيسية التي كانت قد نفذت إلى الدون في قطاع غولوبينسكويا .

لا يقع الخطأ على قائد هذه الفرقة التي طوقت فيما بعد مع بعض أقسام تعود إلى فرق مشاة أخرى غرب الدون ، ولكن قسم من هذه الوحدات التابعة للفرقة فتح طريقه نحو الضفة اليسرى لنهر الدون .

كنت أغتنم كل فرصة خلال معارك الدون ، لكي أحقق مع أكبر عدد ممكن من الأسرى الأعداء وسبر معنوياتهم . ويجب أن أعترف بالحقيقة هو أن الأسرى كانوا يلوذون بالصمت . ويمسكون لسانهم ، ويحافظون على قسمهم ولكن لم يكن جميعهم كذلك .

ففي أحد الأيام اقتادوا لي طياراً ، كان قائد طائرة مطاردة اضطر للهبوط الاجباري بعد إصابة طائرته ، وكان محدثاً مدهشاً ، ولم ينزعج مطلقاً بأن يدلنا على مواقع مطاراتهم ، وعبر عن رأيه بصراحة بالنسبة لعتادنا وعتاد بلاده ، كما حاول توضيح نظرته حول مجرى الحرب ، وأعلن صراحة أن القيادة العليا الألمانية تزدري قوة الاتحاد السوفيتي ولا تقدرها حق قدرها ، وحسب قولها إنها « جبار بأقدام من صلصال » كما كانت في الحرب العالمية الأولى ، واوضح أنه لا يستطيع أن يعبر عن رأيه صراحة أمام الجنود ، ولكن الطيارين غالباً ما يتبادلون هذه الآراء فيما بينهم » .

أشار الطيار أيضاً إلى أن القوات البرية أخذت تطلب شيئاً فشيئاً دعم الطيران لنجدتها ، فهي لم تعد قادرة على أن تكون قوية في كل الأمكنة ، وبخاصة في الوقت الحاضر ، حيث اتسعت جبهة الهجوم كما أن الطيران،وبخاصة الطيران المطارد غالباً ما يستخدم خارج مهمته الخاصة وهي التعرض للمطاردات العدوة ويستخدم حالياً ضد الأهداف الأرضية ، وذكر الطيار المذكور ، أن الطيارين الألمان لا يخشون المطاردات السوفيتية،وبخاصة الطائرات السوفيتية من النماذج القديمة . فالتفوق الفنى لطائرات «المسر شميدت» لا غبار عليه حسب قوله.ففيما يخص السرعة تزيد سرعة المسر شميدت ٧٥ كم عن غيرها وتتفوق مرة ونصف بالسلاح ، وكان يبالغ بشكل ظاهر بتفوق المطاردات من طراز مسر شميدت على طائراتنا . ورغم أن طائراتنا المطاردة من نماذج - *YAK 9* *YAK 7 - LA . 5* التي دخلت الخدمة عام ١٩٤٢ لا تجاري المسر شميدت لا من ناحية السرعة ولا التسليح ، ولكن أملنا كبيراً بفعالية وشجاعة طيارينا .

من رأي الطيار أيضا « أن سلاح الحسم في المعركة هو الطيران » وعليه وعلى الطيارين اعتماد القوات الأرضية ، ولم يكن بمقدورنا دون الطيران أن نحرز الانتصارات لا في الشرق ولا في الغرب .

عندما طلبت منه عما يفكر بنهاية الحرب هز كتفيه قائلاً « فيما يخص الروس اخطأ الفوهرر مثل كثير من الألمان ، فلم يكونوا ينتظرون من الروس هذه الصلابة ، لهذا السبب من الصعب الحكم على نهاية الحرب » .

في ذروة معركة الدون أخبرني هاتفياً الجنرال كولباكتشي وأنا في المرصد بقرار المجلس العسكري للجبهة باعفائه من منصبه كقائد للجيش ٦٢ وأن الجنرال أ . لوباتين عين مكانه قائداً لهذا الجيش .

وفي الصباح وصل أيضاً الميجر جنرال م . شوميلوف إلى الأركان ، بعد أن أصبح الجيش ٦٤ تحت قيادته ، وقد تلقينا في نفس الوقت توجيهاً من قيادة الجبهة بتوقيع رئيس أركانها الرائد جنرال د . فيكشيف ، كلف فيه كل من الجيشين ٦٢ و ٦٤ القيام بآن واحد بعمل مشترك لتدمير مجموعتي العدو في قطاع فيرخنه ، بوزينوفكا وعلى نهر التشير ، بعد تعزيز الجيش ٦٤ بفرقة المشاة ٢٠٤ والفيلق المدرع ٢٣ .

وصل التوجيه (الأمر) بتاريخ ٢٨ تموز الساعة ١٤،وحدد فيه بداية الهجوم في الساعة الثانية صباحاً من تاريخ ٢٩ تموز ، أي خلال مهلة قدرها

اثنتا عشرة ساعة .

وقد ألقي على عاتقنا أنا وشوميلوف مهمة إيجاد الفرقة ٢٠٤ والفيلق المدرع ٢٣ مباشرة ، ولم يكن لدينا أي فكرة عن مكانهما ، فأين نجدهما ؟ عندما سألنا عنهما ، كان جواب الأركان:« فتشوا عليهما بين نهري الدون وليسكا »

سرنا طوال الليل وحتى الصباح في السهوب للتفتيش عن الوحدات التي أعطيت لنا كتعزيز للجيش ٦٤ ولكننا لم نستطع إيجادهما ، إلا في منتصف نهار ٢٩ تموز . حيث وجدنا لواء من الفيلق ٢٣ في قطاع جيركوف . ولم يكن قائد اللواء يعرف شيئاً عن مهمته الجديدة ، كما انه لم يكن مهيئاً للهجوم .

وخلال تفتيشنا عن أركان الفيلق ٢٣ مررنا بالقرية التي كانت قيادة الجيش ٦٢ تتمركز فيها .

كان الجنرال لوباتين رجلاً بدينا ، أشقر الوجه ، ذا مظهر هادىء . وجدناه يستعد للغذاء ، وقد قال لنا بأن الجيش ٦٢ لا يستطيع تنفيذ توجيه أركان الجبهة لأن وحداته غير مستعدة ، ولم تصلها الذخيرة ، كما أن الأمر غير موقع من قبل المجلس العسكري للجبهة .

شرح لنا الجنرال لوباتين ما يفترض من الأسباب التي جعلت المجلس العسكري ، لا يوقع قرار أركان الجبهة ، وهي أن الجيشين الأول والرابع كان عليهما القيام بالهجوم المعاكس على الغزاة ، وكان على الجيشين ٦٢ و ٦٤ القيام بهجوم لاستثمار جهد الجيوش المدرعة ، ولكن أياً من الجيشين الأول والرابع لم يستطع إيقاف العدو أو هزيمته .

وقد أخبرنا لوباتين أيضاً أن الجيش الأول المدرع لم ينسق ساعة هجومه المعاكس مع الهجوم المعاكس الذي قام به الجيش الرابع . فهذا الجيش نفسه كان في موقف حرج جداً ، لأن الطيران المعادي كان يمتلك ناصية الجو دون منازع ، كما فشل تجمع قطعات وعناصر الجيش المدرع الرابع وعبورها الدون ، لذلك فالهجوم المعاكس الذي كان الجيشان سيقومان به لم ينجح .

أدركت فيما بعد أنه لم يكن الهجوم المعاكس قد توصل إلى تدمير مجموعة جيوش العدو ، التي خرقت الجبهة حتى الدون ، إلا أن الأحداث القادمة أظهرت بأن هذا الهجوم أحبط مشروع العدو بتطويق وإبادة الجيش ٦٢ الذي لعب هو والجيش ٦٤ الدور الرئيسي في الدفاع عن ستالينغراد .

أوقفت التفتيش عن الفرقة ٢٠٤ والفيلق ٢٣ المدرع ، وكان عليَّ العودة لمقر

الأركان .

استدعيت في الثلاثين من تموز إلى مقر أركان جبهة ستالينغراد من قبل قائد الجبهة غوردوف ، حيث أصبحت ستالينغراد في تلك الأيام مدينة جبهة،ولكن المدينة لم تكن تشعر بأي قلق واضح ، أو بحاجة للاستعداد للخطر القادم ، والذي أخذ يقترب ويفسر ذلك بجزء كبير منه بتصرف السكان وصعوبة تصورهم،بأن مدينتهم ستصبح بين عشية وضحاها ساحة معركة شرسة ، وتغيير اعتقادهم بأن الجيش الأحمر لن يستطيع إيقاف الألمان على نهر الدون .

استقبلني قائد الجبهة غوردوف في الأول من آب ، ثم قدم إليه بحضوري تقرير، أفاد قائد الجيش الأول غريوكين، بمعرفة تغلغل العدو في مواقعنا الدفاعية ، وعلق غوردوف على ذلك بأنه من الممكن الآن تدمير العدو بضربة واحدة .

حاولت استبعاد هذه القناعة من تفكير غوردوف، ولكنه قاطعني قائلاً : «لا أعرف أسوأ مما تعرف عن المواقع في الجبهة التي نشغلها وأنني استدعيتك لأجل أن تفسر لي الأسباب التي أدت بجناح الجيش ٦٤ الأيمن للانسحاب وراء نهر التشير .

وقد أجبته بأن التراجع كان اضطراريا،ولم يكن لدينا الوقت لنشر الجيش كليا، فلم يكن لدى الفرقة ٢٢٩ سوى نصف قوتها في الموضع الدفاعي الذي تحتله .

ولكن غوردوف قاطعني: «أرسل لي تقريراً مكتوباً»، وأعاد كلمة «مكتوباً» ، وكررها،لذلك لم يبق لي شيء لأقوله سوى الطلب منه بالسماح لي بالذهاب لمقر الجيش لكتابة تقرير مسهب يستند على الخرائط والوثائق .

علمت حال عودتي من ستالينغراد بأن قوة كبيرة من العدو ، عادوت الهجوم في ٣١ تموز اعتباراً من القطاع تسيمليا نسكايا على طول الخط الحديدي تينمورسك - ستالينغراد باتجاه كوتلنكوفو،مخترقة مؤخرات الجيش ٦٤ وكل جبهة ستالينغراد .

اضطر هتلر بعد اصطدام جيوشه بالمقاومة الضارية للقوات السوفيتية في نقطة الدون الكبرى أن يعيد كتابة توجيهه رقم ٤٥ ، ويعيد تجمع قواته ويسحب من مجموعة الجيوش (A) التي كنت متجهة نحو القوقاز الجيش الرابع المدرع بقيادة الجنرال هوت . ووضع تحت تصرف مجموعة الجيوش B وقد كلفت هذه

المجموعة باحتلال المدينة بضربة واحدة من الجنوب ، وتطويق جبهة ستالينغراد على شكل كماشة .

في هذه الظروف ظهر في ٢٨ تموز ١٩٤٢ أمر قوميسار الشعب للدفاع رقم ٢٢٧ يصف بوضوح وصراحة تامة تعقد وخطر الموقف إذ قال: «إن العدو يرسل دائما بقوى جديدة ، دون النظر إلى الخسائر الفادحة التي يتكبدها ، ويتجه إلى الأمام ، إلى قلب الاتحاد السوفيتي ، محتلاً قطاعات جديدة . يجتاح ويدمر مدننا وقرانا ، يغتصب ويسلب ويذبح الشعب السوفيتي» .

« ...تدور المعارك في قطاع فورونيج وعلى الدون ، وفي الجنوب . وعلى أبواب القوقاز في الشمال ، ويندفع المحتلون الألمان نحو الفولغا ، نحو ستالينغراد ، ويريدون بكل ثمن احتلال الكوبان وشمال القوقاز ، الغني بموارده من البترول والحبوب ...»

« لقد احتل العدو سابقاً ، فورشيلوفغراد ، سكاروبيليسك ، وسوتشي ، كوبيانك ، فالويكي ، نوفو تشيركاسك ، روستوف على الدون ، نصف فورونيج . وبعد خسارة أوكرانيا وروسيا البيضاء ، بلاد البالطيك والدونباس ومناطق أخرى ، لم يبق لنا الا القليل من الأرض ، وهذا يعني أقل من الرجال . من الحبوب ، من المعادن ، ومن المصانع والمعامل ، لقد خسرنا أكثر من ٢٠ مليون شخص واكثر من ٨٠٠ مليون « بود » من الحبوب و ١٠ مليون طن من المعادن .

« لم يعد بيدنا في الوقت الحاضر التفوق في احتياط الرجال ولا في موارد الحبوب . والتراجع إلى أبعد معناه زيادة في خسارتنا وفي نفس الوقت خسارة وطننا» .

« كل قطعة جديدة نتركها من وطننا ، تدعم قوى العدو . وتضعف في كل ناحية دفاعنا . ووطننا ، ونتيجة لذلك يجب قطع دابر كل كلام يتحدث عن إمكانية تراجع غير محدود ، بحجة أن لدينا أرضاً غنية وواسعة وشعباً كثير العدد ، وسيتوفر لدينا دائما القمح بغزارة .

مثل هذه الأقوال مضرة وكاذبة فهي تضعفنا وتقوي العدو لأنه إذا لم نتوقف عن القتال التراجعي ، سنبقى دون حبوب ، ودون محروقات ، ودون مواد أولية ، ودون مصانع ومعامل ودون سكك حديدية ، ونستنتج من ذلك أنه آن الأوان لإيقاف التراجع نهائياً» .

«شعارنا ـ في الوقت الحاضر ـ يجب الدفاع عن كل موقع بصلابة ، وحتى آخر نقطة من دمائنا ، وعن كل متر من الأرض السوفييتية . تشبثوا بالأرض وفي كل قطعة من أرضنا ودافعوا حتى النهاية » .

« يعيش وطننا أياما عصيبة . يجب أن نوقف ونصد ونهزم العدو مهما كان الثمن ، ليس الألمان أقوياء ، كما يظهر ويتراءى للمتخاذلين . فهم يجمعون آخر ما لديهم من قوة ، احتووا هجومهم الحالي ، خلال الشهور القليلة القادمة ، وبذلك تحققوا النصر » .

« هل يمكننا أن نتحمل صدمة العدو ثم نقذفه للغرب ؟ نعم نستطيع ذلك لأن مصانعنا ومعاملنا تعمل حالياً بطاقات جيدة في الداخل ، وجبهتنا تتلقى المزيد من الطائرات والدبابات والمدافع والهاونات» .

« إذن ما ينقصنا ؟ النظام والانضباط في السرايا والأفواج والألوية والفرق ، وفي الوحدات المدرعة وأجنحة الطيران ليس كما يجب ، وهذا ما كان وحتى الآن عيبنا الرئيسي . يجب أن نقيم النظام في جيشنا ونثبته بأكثر ما يمكن من الدقة مع انضباط حديدي ، فيما إذا أردنا أن ننقذ الموقف ، وندافع عن وطننا ..» .

« يجب أن يستأصل الجبناء والخائفون من الساحة ، ومنذ الآن فصاعداً مطلوب من كل رئيس ، وكل جندي في الجيش الأحمر وكل موجه سياسي اتباع سياسة الانضباط والقبضة الحديدية . وإياكم وخطوة واحدة إلى الوراء دون أمر القيادة العليا » .

وقد عمم هذا الأمر بسرعة من قبل المنظمات السياسية ، وأطلع عليه كل جندي وكل قائد وكان بتوقيع ج . ستالين .

تم اعلان النداء : « إياكم وخطوة واحدة إلى الوراء » ! والواقع انه لم تنشر مطلقاً وحتى الآن ، أمام كل الجبهة ولا بين أعضاء القيادة ، ولا حتى بين أفراد القوات ، وثيقة واحدة تكشف بصراحة كلية عن الوضع الراهن لبلادنا . كان هذا (النداء ـ الأمر) موجهاً إلى كل الشعب السوفيتي ، لأن الجيش الأحمر هو جيش شعبي وهو لحم ودم كل الشعب السوفيتي ، ذي القوميات المتعددة . لقد تكلم الحزب الشيوعي والحكومة السوفيتية بكل صراحة وصدق لشعبنا عن الصعوبات التي نواجهها ، ولا يمكن إلا أن يجد هذا الأمر صدىً قوياً، ولن يمر دون نتيجة ، لقد نفذ إلى قلب كل جندي شعور المسؤولية نحو الحزب والشعب ولم يعد هناك مجال للتراجع .

كان العمل السياسي في الجيش ٦٤ وتشكيلاته منظماً تنظيماً جيداً ، فقد كانت الأخبار السياسية تعمم حتى في أصغر الوحدات ، وكنا نسهر على تطوير منظمات الحزب والكومسمول .

وفي الوقت الذي تلقى فيه الجيش الأمر بالانتقال إلى الدفاع كان الضباط والموجهون السياسيون بجانب الجنود ، مع الذين كانوا في الخط الأول ، ومع الذين كانوا يعبرون السهوب الواسعة ، بسيرهم الحثيث . لقد تلقى الموجهون السياسيون الذين كانوا يشرحون المهمات التي تقع على عاتق الجيش ، ويعرفون الجنود بأساليب محاربة العدو الفاشستي .

لقد سجلت هذه الوثيقة بمجموعها ، مرحلة من مراحل العمل السياسي . فقد أخذ الموجهون السياسيون يشرحون ، حتى لأبسط الجنود حقيقة الموقف الراهن والخطر الداهم ، بكل صراحة ودون مواربة وكانوا يطلبون تنفيذ الأوامر بدقة متناهية ، وقد استوعب الضباط على مختلف الدرجات،وفهموا أن التراجع لم يعد الدواء الشافي لكل المصائب التي نتعرض لها .

ولكن سنكون بسطاء للغاية ، إذا اعتبرنا أن التغيير الجذري للحالة النفسية يعود للأمر وحده،ويمكن القول بأنه كان التعبير عن الواقع الفكري الذي تشكل لدى الجميع منذ بداية معركة الصيف . فدون أن يستيقظ ضمير مئات الآلاف من الرجال ، أمام الخطر الذي يتعرض له الموقف الذي نحن فيه ، لكان هذا الأمر ليس بذي بال . لقد تولد الألم والغضب والسخط في قلوب جنودنا خلال أيام التراجع الرهيبة ، إذ قال لي جنود بسطاء ورتباء :

كنا نعرف الأسباب التي أدت إلى تراجعنا في السنة الماضية ، والتي تعود إلى الهجوم المباغت الذي شن علينا ، فقد خسرنا كثيراً من الطائرات والدبابات ، حتى قبل أن ندخل القتال ، ولكن لدينا الآن الدبابات والطائرات والسلاح الكثير ونستطيع الآن إيقاف العدو ، فلماذا إذن ولأي سبب نحن نتراجع ؟

تلقينا في تلك الأيام وفي مقر الأركان المعلومات حول ردود فعل العدو على الأمر اليومي هذا ، ويبدو أنه لا يمكن لأي شيء ، أن يهز العدو الواثق من قوته وشعوره بالتفوق ، فقد بادر قائد أحد الفيالق الألمانية ببث أمر يومي أكد فيه لجنوده أن أمر ستالين ليس له أهمية أو تأثير على مجرى الأحداث العسكرية . ولكن بعد بضعة أيام عاد نفس الجنرال وأنذر جنوده بأن عليهم أن يتوقعوا مقاومة

متزايدة من قبل الروس .

وكتب الجنرال الهتلري السابق هـ . دوير « يلاحظ ، اعتباراً من ١ آب ضراوة مقاومة العدو » .

وهكذا فشلت محاولات العدو التي كانت تستهدف تطويق كل القوات الموجودة في منحنى الدون الكبير بضربة واحدة واحتلال ستالينغراد . ولقد عبر القادة الألمان في تقاريرهم الموجهة إلى هتلر عن قلقهم من التغيير الذي طرأ على تكتيك القيادة السوفيتية حيث لا تراجع ولا سقوط في الأسر . ولكن القتال حتى آخر طلقة ، ولم يعد احتلال ستالينغراد في الأيام الأولى من شهر آب يبدو للعدو أمراً سهلاً وبسيطاً .

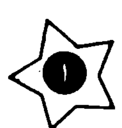
في ذلك الوقت حصلت لدينا تغييرات في قيادة القوات :

جزئت جبهة ستالينغراد الى جبهتين : جبهة ستالينغراد وكذلك جبهة جنوب ـ شرق ، كما وصل احتياط جديد موجهاً من قبل « الستافكا » . ومع ذلك كان من الصعب إيقاف آلة الحرب الهتلرية التي كانت تعمل بسرعة مندفعة إلى الأمام ، معتقدة بأن الجيش الأحمر والشعب السوفيتي سيشرب خلال بضعة أشهر أخرى كأساً مترعة من المرارة والهزائم على الجبهة .

وكان حلفاؤنا في الوقت ذاته لا يستعجلون لفتح الجبهة الثانية في الغرب .



مجموعة الجنوب
(١)



ابتدأت فور وصولي في أول آب لقيادة الجيش ٦٤ بالعمل لوضع تقرير مكتوب حسب أوامر الجنرال غوردوف عن المعارك التي جرت بين ٢٥ ـ ٣٠ تموز. ولكن في صباح ٢ آب اتصلت بالجنرال شوميلوف وقد وجدت لديه اجتماعاً للمجلس العسكري للجيش ، وكانوا يناقشون رئيس الأركان عن الموقف في الجنوب على الجناح الأيسر .

كانت المعلومات مقلقة « فبعد أن اجتاز الجيش المدرع الألماني الرابع بقيادة فون هوت نهر الدون بالقرب من سكانيتسا . تسيمالينسكايا . وبعد أن تجمعت لديه ثماني فرق واحدة منها مدرعة والثانية آلية واصل هجومه ، واخترق دفاع الجيش ٥١ وقطع خط السكة الحديدة بين ستالينغراد وسالك . ويمكن أن نستخلص من ذلك مؤكدين ، بأن العدو سيوجه جهده الرئيسي نحو ستالينغراد اعتباراً من قطاع تسيمليانسكايا ، وذلك لنجدة جيش فون باولوس السادس ، وبهذا يصبح الجناح الأيسر للجيش ٦٤ وكل جبهة ستالينغراد معرضة للاحاطة بها من الجنوب .

اقترح الجنرال شوميلوف عليَّ بالذهاب إلى الجنوب لاستطلاع الموقف ، واتخاذ التدابير الضرورية في ساحة القتال ، فسألتهم :

ـ هل كان المجلس العسكري للجبهة موافقاً على هذا العمل ؟

وكان الرد إيجابياً على سؤالي .

اصطحبت معي في هذه المهمة مرافقاً ووصيفاً ، وفريق إشارة (إتصال) وركبنا ثلاث سيارات واتجهنا نحو الجنوب .

مررت في طريقي على أركان الفرقة ٢١٤ حيث وجدت قائد الفرقة الجنرال ن . بيركوف ، الذي أعطاني صورة واضحة عن الموقف فى القطاع الذي كانت

تحتله فرقته ، حيث يسود هناك هدوء حذر ، فالعدو لم يجرب عبور الدون ولم يقم باستطلاعات نشطة .

كانت فرقة المشاة ٢١٤ واحدة من أفضل فرق الجيش ٦٤ ، صمدت ببسالة ، وصدت هجوم قوات العدو المتفوقة العائدة للفيلق ٥١ . وقد اضطرت الفرقة للانسحاب إلى ما وراء الدون بعد أن تجاوزها العدو من الشمال .

نجح قائد الفرقة ن . بيركوف ومعاونوه في تنظيم الانسحاب في ظروف صعبة وتحت ضغط العدو بشكل أحبط معه كل محاولات العدو لرمي الفرقة في الدون ، وهي الآن تتحصن بقوة على الطرف الشرقي للنهر .

كانت الفرقة خلال المعارك التي تتابعت تحتل أخطر قطاع وأكثرها أهمية في الجبهة . ودافعت عنه بنجاح . وفي مرحلة الهجوم المعاكس ، وجهت الفرقة ٢١٤ ضربات قوية للعدو المهاجم على محور جهده الرئيسي .

وصلنا في ٢ آب إلى مقر أركان فرقة المشاة ٢٩ التي كانت تحتل موضعاً دفاعياً على ضفة نهر لاكسايا . وتتجه جهته نحو الجنوب من بلدة غوردسكوي حتى نوفو اكساياسكويا ، وإلى الشمال من موقعها على الدون كانت تدافع الفرقة ٢١٤ أما من الجنوب اعتباراً من مصب لاكسايا حتى فيرخنه كورمويارسكايا، فكانت تتمركز كتيبة الفرسان المستقلة ٢٥٩ التي كانت تعزز الجيش ٦٤ وعلى الجناح الأيسر للفرقة ٢٢٩ في قطاع نوفوسكايا ، كان يقترب لواء المشاة البحرية ٥٤ باتجاه الجبهة .

وقد علمت أيضاً أن الفرقة ١١٨ تنتشر على خط نهر ميشكوفا وكانت تتركز وتحضر للدفاع قطاعاً محصناً . ولكن هذا كان إلى الشمال من لاكسايا وإلى الخلف .

بعد أن أمضينا ليلة في أركان الفرقة ٢٩ واصلنا الاستطلاع في صباح ٣ آب في اتجاه تونيلنيكوفو ، وقد اصطحبت معي فصيليّ مشاة في سيارتين . ومركز راديو لا سلكي من الفرقة ٢٩ . وكانت الرؤية في السهوب ممتازة وتصل من ٨ ـ ١٠ كيلومترات .

التقينا حال وصولنا إلى الجنوب برتلين من المشاة يعودان لفرقتي المشاة ١٣٨ بقيادة العقيد ا . لودنكوف والفرقة ١٥٧ بقيادة العقيد كوروباتنكو . وكانت هاتان الفرقتان تقاتلان وهما بحالة التراجع نحو الشمال .

كان تعداد الفرقتين غير كامل وهما تشكلان جزءا من الجيش ٥١ بقيادة

الجنرال تروفانوف ، وكانتا قد هوجمتا من قبل العدو في قطاع تسيماليانسكايا ، ريمونتسنايا . وقد تكبدتا خسائر فادحة وقطع اتصالهما مع جيشهما . لذلك قررا الانسحاب باتجاه ستالينغراد ، وكان يرافقهما لوائين من قاذفات الصواريخ العائدة للحرس بقيادة الميجر جنرال ف . ديمترييف ، مساعد قائد مدفعية الجيش .

قررت بعد استلامي لقيادة هاتين الفرقتين توجيههما إلى ما وراء لا كسايا واحتلال وتنظيم مواقع دفاعية ،اعتباراً من ستانيتسا نوفوكسايا إلى المناطق الدفاعية في جوتوفو ، ثم مد جناحهما حتى الخط الحديدي تيخورينسك - ستالينغراد . ووضعت وراءهما كنسق ثان لواء مشاة البحرية ١٥٤ الذي كان يقوده العقيد سميرنوف ، وكان هذا اللواء يشكل في نفس الوقت احتياطاً مضموناً للمجموعة التي استلمتُ قيادتها ثم أنشأت هيئة أركان مختصرة إلى الجنوب من ستانيتسا - فيرخنه كومسكايا . وقد عينت لوفوتسكي ، وهو أحد ضباط أركان الجيش ٥١ رئيسا لأركان المجموعة .

أقمت إتصالاً مع أركان جبهة ستالينغراد ، وعن طريق الضابط المناوب في مكتب العمليات قدمت تقريراً عن الموقف ، وعن القطاع في جنوب الجبهة ، كما أقمت إتصالاً مع أركان الجيش ٦٤ .

اتصل بي أركان الجبهة بعد ذلك وأعلموني أن فرقة مشاة جديدة ، وهي الفرقة ٢٠٨ السيبيرية في حالة ترجل من القطارات في قطاع ستانيتسا - زيليكوف وكوتلنكوفو واقترحوا علي إلحاق هذه الفرقة بمجموعتي .

سألت عن مكان وجود أركان الفرقة ، ولكن لم أتلق أي جواب مفيد .

عندها اتجهت في صباح ٤ آب للاستطلاع باتجاه الجنوب - الغربي وبعد أن أكدت على ليودنكوف وكورباتنكو ، وسميرنوف للاسراع بتحضير خط دفاعي على مجرى لاكسايا في القطاعات المحتلة .

صادفت على طرقات السهوب مقاتلين فرادى ، وعربات عائدة لفرقتي ليودنكوف . وتورباتنكو وقد أدخل وجودهم هناك بعض الهدوء على نفسي من بعض النواحي . فالعدو إذن لم يكن قريبا منا ولكن في فيرخنه لا بلوتشي . أبلغني السكان أنه في قطاع فيرخنه - لابلوتشي كورمويارسكايا توجد جيوش رومانية بعد أن عبرت ليلاً الدون إلى ضفته اليسرى ومن فيرخنه - لابلوتشي انحرفنا فجأة باتجاه الجنوب - الشرقي باتجاه الخط الحديدي تينموربتسكايا -

ستالينغراد .

صادفت مجددا في قطاع غريماتشايا ، رجالاً وعربات . كانت قوتهم تنسحب نحو الجنوب على طول الخط الحديدي . وبعد جهد وجدت ضابطا بين هذا الحشد، حيث قص عليَّ أخباراً محزنة ، ففي محطة كونلنكوفو ، وعندما كانت أعداد من أنساق فرقة المشاة ٢٠٨ تهبط من القطارات في ٣ آب هوجمت فجأة من قبل الطائرات والدبابات العدوة ، فاضطر ما تبقى من الأحياء للانسحاب على طول الخط الحديدي إلى الخلف . وقد سألت عن مكان وجود قائد الفرقة وقادة الألوية والأركانات فلم أتمكن من معرفة مكان وجودهم .

شاهدت بالقرب من الخط الحديدي الفرعي المتجه نحو نيبياكوفسكي ، فوجاً من جنود فرقة المشاة ٢٠٨ ينتشر جبهياً نحو الجنوب ويحفر الخنادق ، وقد أعلمني قائد الفوج أنه تلقى معلومات من المنسحبين من الجنوب عن ظهور الدبابات الألمانية في كوتلنكوفو ، لذلك قرر ببديهته الخاصة أن ننتقل للدفاع ، ولكن أين قائد اللواء ، وقائد الفرقة ؟ كان لا يعرف شيئاً عنهم بل ذكر بأنه ترجل لوحده . وقد أيدت قراره ، وطلبت منه أن يضم كافة الأشخاص المنسحبين إليه ، ووعدته بتحقيق الإتصال بينه وبين أقرب أركان والتي من الممكن أن نجدها في محطة تشيليكوف . وقد شاهدت أثناء الاقتراب من المحطة بضعة قوافل من القوات تقوم بإنزال حمولاتها من القطار،وكانت تعود للفرقة ٢٠٨ وحتى ذلك الوقت لم تصل الأخبار عن تدمير أربع قوافل للعدو في كوتلتكوفو.وكان الأفراد يتجمعون حول الخط الحديدي ، وعربات السكة الحديدية والمطابخ تدخن ، وكانت تشكيلات المؤخرة تقوم بالانتشار .

عندما التقيت باحد قادة القوافل ، شرحت له باختصار الموقف في الجنوب وأمرته بإقامة السدود القوية والحواجز ، والابتعاد عن المحطة هو والوحدات الأخرى ، وأن ينتظر توجيهات قيادة الفرقة أو اللواء .

● أنزلت جهاز الراديو لاجراء إتصال مع أركان الجبهة . وإني أتذكر كلمة النداء « أكوستيك » . كان الوقت ظهراً والسماء خالية من الغيوم . وفي المحطة كان يوجد غيرنا من وحدات الفرقة ٢٠ ، وبعد خمس عشرة دقيقة تقريباً أخبرني معاوني بأن « أكوستيك » أجاب ، وعندما اتجهت نحو مركز الراديو ، شاهدت في السماء ثلاث مجموعات من الطائرات ، تعد كل منهم ثماني طائرات وكانت قادمة من الشمال بخط مستقيم نحونا ، ثم رأيت بشكل واضح أنها طائراتنا من

طراز « الـ (IL) »

فجأة سمعت أصوات الانفجارات . والتفت لأجد أن هذه الطائرات كانت تقصف محطة تشيلكوف والقوات التي كانت بحالة الإنزال . وقد ركضت إلى مركز الراديو وأعطيت الأوامر للعامل بأن ينقل بالشيفرة ما يلي : « طائراتنا تقصف في محطة تشيلكوف انساقنا » . وفيما كنا نتابع نقل إشارة الانذار « أكوستيك » لم ألاحظ أن مجموعة من ثماني طائرات أخرى أخذت تقصف المحلة ثم قامت بعمل دائرة وانقضت علينا وأغرقتنا بالقنابل .

يمكن أن تحدث في الحرب مثل هذه الأخطاء ، ولكن نادراً . ولا يمكن أن يكتشف دائماً الفاعل . لم يكن لدى أركان الجبهة الوقت الكافي لإعادة توجيه قيادة الفرقة ، ولاصلاح السكة الحديدية ، فتركت نقطة الإنزال التي كانت مقررة مسبقاً للفرقة ٢٠٨ هكذا دون تغيير .

لقد قام الطيارون بغاراتهم على هدف ثابت شاهدوه أمامهم ، دون التفكير بأن العدو في ذلك الوقت ، لا يستطيع مطلقاً استخدام السكك الحديدية ، وأن قوافل العدو لا يمكن أن تكون في هذا المكان ، لم يكن هناك مسؤول ، ولكن هذا الخطأ كلفنا غالياً . وضحايا لا لزوم لها .

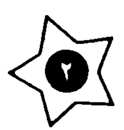
دمر جهاز الراديو أثناء الغارة . وبقيت دون إتصال مع أركان مجموعتي، وأصبح من المستحيل الدخول بتماس مع الفرق . ولكن لا يمكنني أن أترك المكان دون أن أجد قائد الفرقة . العقيد ك . فوسكوبوينيكوف . ولم نتمكن من إيجاده إلا في المساء بالقرب من خط السكة الحديدية الفرعي لبيركوفسكي ، وكان خارجاً عن طوره . وكنا نستطيع فهمه ، فقال :

ـ أيها الرفيق الجنرال « ماذا أقول لقواتي بعد هذه الخسائر التي كانت دون فائدة ؟ ماذا أتكلم معهم ؟ لقد أصبح صعباً علي تجميع قواتي» .

وقد طلبت منه بأن يستقدم قوميسار الفرقة ، ورئيس الأركان ، وقائد الفصيل السياسي ، ونظمنا جميعاً ، وعلى الطبيعة ، خطة عمليات . وعلى خريطة العمليات المنشورة على الطاولة ، أصبح المخطط يأخذ شكله التنظيمي القتالي ، وكان من الواجب حل مشكلة تجميع القوات ليلاً ، وإعادة نشرها في نفس الليلة وراء نهر لاكسايا ، واحتلال منطقة دفاعية اعتباراً من بلدة انطونوف حتى مزرعة جوتوف ، ثم القيام باستطلاع كثيف مباشرة أمام الفرقة ، ومراقبة الموقف وبخاصة على جناحه الأيسر .

والذي أقلقني ما لا حظته بأن الهتلريين لم يحاولوا توجيه ضربات أخرى إلى نقاط الإنزال ، فهل هناك حيلة ما ؟ فهل يعملون على تجاوزنا من شرق خط سكة الحديد ستالينغراد - ساليك بتخوبستكايا ، والسير بخط مستقيم نحو ستالينغراد ؟

كانت المعلومات التي بحوزتي تسمح لي بالافتراض أن الهتلريين، كانوا يتجنبون الدخول في معركة مع وحداتنا على طول السكة الحديدية التي تؤدي إلى كوتيلنكو وإلى الغرب ، وأنهم قرروا القيام بعملية إحاطة بعيدة المدى للنفوذ إلى الفولغا عن طريق قرى بيمارتشيرني بلودوفيتويا تينكولا . وقد تأكد لي فيما بعد أن أرتال دبابات الفيلق ٤٨ المدرع المعادي ، كانت في الواقع تسير في نفس الاتجاه المذكور من قطاع كوتلنكوفو



رجعنا مساء إلى مقر أركاني المصغرة التي شكلتها لمجموعة الجنوب ، وكنا نسير بدون أنوار على ضوء القمر ووضوح السهوب ، وبذلك كنا محظوظين ، وعندما وصلنا إلى مفترق للطرق ، على بعد عشرة كيلومترات جنوب خبرلوفسكي ، شاهدنا دورية خيالة ، فأرسلت زمرة المشاة التي كانت تحمينا في سيارة أمامنا للإتصال بدورية الخيالة .

- قف من يتحرك ؟

كانت الدورية تابعة للواء الخيالة المستقل ٢٥٥ بعد تراجعهم من ستانيتسا - فيرخنه - كور مورسكايا ، وقد علمنا من رئيس الدورية أن قوات كبيرة من العدو أخذت تجتاز الدون . ولم يكن لواء الخيالة المنتشر على مساحة واسعة بحالة يستطيع معها التعرض لعبور العدو .

- أمرت قائد الدورية بأن ينقل لقيادة اللواء الأمر بالقيام بالاستطلاع على جبهة بوتمكنسكايا - فيرخنه - لابلوتشي ، ومراقبة تحركات العدو ، وأن يخبر عن أية قوة تعترض وحداته اعتباراً من قطاع كوتلنكوفو . وأن يبقى بالإتصال معي عن طريق أركان الفرقة ٢٩ الموجودة في بلدة جنرالوفسكي .

علمت عند وصولي لتلك المحلة بأن الفرقة ٢٩ سحبت بموجب أمر أركان الجبهة على جناح السرعة من منطقة الدفاع ، واتجهت نحو الجنوب في قطاع

ستانيتسا ايفانيروفو . وقد اتخذت أركان الجبهة تدابيرها الخاصة بالنظر للخطر القادم من الجنوب ـ الغربي .

كما تم نقل أركان الجيش ٦٤ من جانب زيتا إلى الجنوب الغربي من ستالينغراد . وضمت عناصر هذا الجيش التي كانت تقاتل على الدون إلى الجيش ٦٢ .

أمضينا ليلتنا في جنرالوفسكي بعد أن أنهك التنقل خلال يومين رفاقي .

أيقظتنا في ٥ آب انفجارات القنابل التي كانت تسمع قادمة من السهوب ، التي تقذفها طائرات العدو وهي تنقض على أرتال فرقة المشاة ٢٩ خلال تحركها إلى الشمال الشرقي باتجاه فيرخنه كيومسكي ، دون تغطية جوية أو مطاردات ولا دفاع جوي .

وقد تلقى قائد لواء الخيالة ٢٢٥ في نفس الصباح الأمر بالدفاع عن القطاع الذي انسحبت منه الفرقة ٢٩ ومن الطبيعي أن لا يستطيع لواء الخيالة الدفاع عن أي منطقة ، ولكن لم يكن لدينا وسائل أخرى ، وقد أنقذ جمود العدو وقلة نشاطه الموقف . وهو الذي أعطانا الحق بالافتراض بأنه اختار لهجومه محوراً آخر، فأمام ستار الخيالة لم تنتشر إلا بعض المفارز القليلة العدوة من القوات الرومانية.

علمنا عن طريق كشافينا أن وحدات العدو التي اجتازت الدون في فيرخنه كورويارسكايا ، أخذت تتحرك باتجاه الشمال الشرقي ، ووجهت نحو لا كسايا بعض وحدات التغطية وبذلك أصبحت مناورة العدو مكشوفة . وهي تأمين الجناح الأيسر للقوات الرئيسية (كبد) للجيش الرابع المدرع بقيادة هوت التي انطلقت من كوتيلنكوفو باتجاه ستالينغراد بعد أن تجاوزتها من الجنوب الشرقي.

كما أكد استطلاع الجيش بأن الألمان بعد احتلال كويتلنكوفو لم يسلكوا الطريق القصير على طول خط السكة الحديدية ولكن وجهوا قواتهم الرئيسية نحو ايفانيروفو .

أبلغت أركان الجبهة عن الموقف ، وتلقيت الأمر نظرياً بالتمسك في المواضع على لاكسايا بالقوى المتبقية تحت تصرفي

لم أتلق أي مهمات ولا توجيهات أخرى ولكن علمت من بعض أركان الجبهة ، الذين كانوا يتنقلون في المؤخرات ومن عمال الهاتف ومصادر أخرى والتي نطلق عليها (أقنية النوادي) ، أن خطة مكثفة بدىء بالشروع بها لتجميع القوى في مؤخراتنا .

كنت أنتظر هجوماً من القوات الجرمانية ـ الرومانية ، التي لا يمكن أن تكون جاهلة بتجمعنا ، فضربة واحدة من قبلها باتجاه الشمال اعتباراً من كروجلياكوفو ، ومحطة جوتوف يمكن أن تحبط تحركات الجيش ٦٤ والقوات الأخرى .

بعد أن وصلت القوات التي وضعت تحت إمرتي . شرعت بتحضير دفاع مضاد على خط نهر لاكسايا ، وقد وجهت اهتمامي للتأكد من أهلية هذه القوات من الناحية الدفاعية وإمكانياتها كالمدفعية . ثم أرسلت للاستطلاع في كل الجهات .

في هذه الأثناء بقي لدي في الاحتياط لواء مشاة البحرية ١٥٤ مع لوائين من الكاتيوشا ، موهت في المنخفضات بكل عناية .

ابتدأ هجوم القوات الألمانية ـ الرومانية في ٥ آب مساء على نقطة إتصال فرقتي ليودنكوف وكوروباتنكو . ووجه العدو جهده الرئيسي على جبهة ٨ كم . وقد استطاعت مشاة العدو من عبور نهر لاكسايا بعد أن اخترقت مواضعنا القتالية . ولكن دبابات العدو ظلت حتى ذلك الوقت على الضفة الجنوبية من النهر ومن الواضح أنها كانت تستعد للعبور .

من الجلي كون القوات الألمانية ـ الرومانية استطاعت إقامة رأس جسر على الضفة الشمالية من نهر لاكسايا ، ولا بد أنها كانت طيلة الليل تعمل على تسهيل المعابر لعبور الدبابات وأنها ستبدأ هجومها فجر ٨ آب ، وستزج في المعركة قواتها الرئيسية . لقد قلت من الجلي أن العدو سيعمل هكذا ، وذلك نتيجة لتجربتي الشخصية التي اكتسبتها في معارك الضفة اليمنى للدون . صحيح أنها كانت تجربة صغيرة إلا أنها كانت صحيحة ، فالهتلريون بثقتهم بقوتهم وفعالية طرقهم التكتيكية والتعبوية سيعملون هنا أيضاً بموجب نفس المخطط الذي عملوا به في الجهة الأخرى من الدون : طيران ، نار ، مشاة وأخيراً تأتي الدبابات . وهم لا يعرفون أسلوباً للهجوم غيره وهو اجتياز ممر مائي ، وحتى لو كان قليل الأهمية وقد اكتشف كشافونا والمراقبون مساء ٥ آب أمام جبهة دفاعنا تجمعات للمشاة والمدفعية والآليات وبخاصة في منخفض بوبوف . وبدون تفكير طويل أدركنا أن العدو سيعمل حتماً هكذا ، لذلك قررت فوراً إحباط هذا الهجوم .

كانت خطتي بسيطة ، وتقتضي القيام بقصف مدفعي في وضح النهار على تجمعات العدو ومواقع انطلاقه ، ثم القيام بهجوم معاكس مكثف لقذف العدو إلى

الضفة الآخرى لنهر لاكسايا وعلى هذا لم نقم بأية حركات معقدة ، عدا تقديم لوائي الكاتيوشا إلى مواقع الرمي ، أما المدفع والهاونات فتضرب الأهداف المعلمة سابقاً،وبذلك تكون رماياتها سديدة ، وبعد تمهيد المدفعية لا يبقى للمشاة إلا أن تنطلق للهجوم . لم يكن لدينا دبابات ولم أكن لاعتمد على دعم طيراننا لانني لم أستطع إقامة إتصال معه .

وأقول بصراحة لم يكن قيامي بمناورة ولو كانت بسيطة دون خوف وذلك بقطعات جمعتها خلال تراجعها ، دون معرفة أنها مستعدة للهجوم . لقد فكرت بأنه حتى ولو أن مناورتنا لم تكلل بالنجاح لسبب ما ، فالجبهة الدفاعية ستظل محتلة من قبلنا على كل الأحوال .

كانت الدبابات ـ وهي الخطر الرئيسي الذي يهددنا ـ لا تزال موجودة على الطرف الآخر للنهر ولكنها لو استطاعت اجتياز النهر خلال الليل فهجومنا سيبوء بالفشل ، بسبب أنه لا يوجد لدينا طيران فقط بل حتى ولا دفاع ضد الدبابات ، وحتى القنابل اليدوية لم تكن متوفرة ، فالعمل كله في الواقع معرض للخطر . ولكن عدم القيام بأي عمل يمكن أن يعرضنا لخطر أكبر .

أخذ العدو بحلول الظلام يقوم بأعمال ليلية في ترتيبه القتالي ، فآلياته كانت تسير وأنوارها مضاءة . ودباباته كانت تنتظر فتح الممرات ، فالعدو إذن ، كما تصورت يعمل لإدخال دبابات الصدمة قيد العمل ، في الوقت الذي سيكون فيها طيرانه يحلق فوق رؤوسنا ، وعندما تكون مدفعيته تقصف مواضع رمينا وتتقدم مشاته للأمام . وخلاصة القول أنه يعتمد حسب أسلوبه المعتاد تسوية خنادقنا تحت سلاسل دباباته .

« لن ينجح مطلقاً » .

قمت في الليل بزيارة قائد الفرق ليودنكوف وكوروباتنكو واطلعتهم على خطة العمليات لصباح ٦ آب ، وقد استوعبوا كافة التفاصيل ، وقرروا الاستعداد للهجوم.

كان حسابنا الذي يعتمد على تأثير المباغتة صحيحاً جداً . ففي الفجر فتحت نيران مدفعيتنا نيرانها على تجمعات العدو . وكنا نشاهد مشاته يلتجؤون إلى المنخفضات والأماكن الأخرى المغطاة،وأخذ رجال مدفعيته وكل قواته تهرب بفوضى نحو الجنوب .

أخذت كتل الرجال والآليات تتراجع مذعورة نحو الجنوب إلى ما وراء نهر لا كسايا ، وتعيق مرور الدبابات .

نجحنا تقريباً دون خسارة في إحباط هجوم العدو الذي كان سيشنه في ٦ آب ، ولكن هجومنا على قواته واخراج مشاته من مواقعها التي كانت قد تحصنت بها منذ اليوم السابق حتى المساء ، كان صعباً للغاية .

لقد تكبد العدو في معركة ٦ آب خسائر فادحة في القتلى والجرحى والأسرى، وقد استولينا على ثمانية مدافع وعدداً كبيراً من الرشاشات .

وقد اقتنعت بأن قواتنا لم تفقد قدرتها القتالية وقاتلت بشكل جيد وقامت بهجومها بحماس عام،كما صمدت بشدة ضد العدو دون خوف أو وجل . وهذا هو الجوهري . وهكذا لم نصمد أمام العدو فقط بل لقّناه ضربة جيدة .

علمت عندما كنت أقدم تقريري عن المعارك في نهاية النهار لأركان الجبهة ، أن حشداً كبيراً لقواتنا قد تم خلال هذه الفترة في قطاع ايفانيروفو وتينفوتا ، حيث انتقل أركان الجيش ٦٤ وأخذت تستعد للمقاومة الشديدة ضد العدو .

حدثت تغيرات في قيادة الجبهة أيضاً ، فقد أبعد كل من الجنرال غوردوف ونيكشوف عن قيادتيهما وحل محلهما الكولونيل جنرال أ . ايرمنكو ، وكنت أعرفه شخصياً منذ عام ١٩٣٨ ، عندما كنت أعمل في المنطقة العسكرية لروسيا البيضاء ، والآن عين قائداً للجبهة . قرأنا جميعاً تعليمات القيادة وفي نفس الليلة ، أرسلت برقية قصيرة للقيادة مع بعض المقترحات والتي أطلب فيها عدم وقوفنا عند الدفاع ، بل علينا القيام بالهجوم المعاكس وحتى بمناورات هجومية معاكسة ، وقد اقترحت أيضاً القيام بالقوات المتوفرة لدي بضربة جانبية على جناح العدو .

لم أتلق جواباً على كتابي ، وكنت متأكداً بأنه لم يصل إلى ايرمنكو .

علمت بعد قليل أن مخازن الذخيرة الموجودة على شاطىء الفولغا قد فجرت ، لذلك فالقحط في الخرطوش أخذ يهددنا . وهذا هو الذي حدث ، ففي السابق كنا نتلقى الذخيرة دون حدود بقدر ما كنا نستطيع حمله . أما الآن فبعض سيارات النقل التي ذهبت لجلب القنابل عادت فارغة .

عاد العدو في ٧ آب للهجوم في نفس الاتجاه . وفي منتصف النهار استطاع تحقيق اختراق ستة كيلومترات في دفاعنا .

ولكي نعيد تثبيت الموقف قررنا القيام بهجوم معاكس جديد والغاية من ذلك باختصار : قتال العدو وإعادة قذفه إلى ما وراء لاكسايا . ولكن قررنا أن نقوم

بالهجوم المعاكس قبل غياب الشمس بساعتين ، عندما يسبب ضوء الشمس تشويشاً لطيران العدو ، وعندما تكون مدرعاته أيضاً منفصلة عن مشاته في الطرف الآخر من النهر . وقد فضلنا ذلك على القيام بالهجوم المعاكس نهاراً عندما يكون طيران العدو نشطاً أو في الصباح كما هو الحال في ٦ آب .

كما أننا لم نقم هذه المرة بالهجوم المعاكس جبهياً ولكن من الجانب ، فليودنكوف يقوم بالهجوم من الشمال ـ الغربي باتجاه الجنوب ـ الشرقي ، وكورباتنكو من الشمال ـ الشرقي إلى الجنوب ـ الغربي.

حددت الخطة ولقنت شفهياً مع قادة الفرق ليودنكوف ، كورباتنكو . وكان نصيبها النجاح ، ومرة أخرى هزمنا العدو بقوة وصددناه،وأخذنا بضع عشرات من الأسرى .

قاتلنا حوالي أسبوع في مواقعنا على نهر لاكسايا ، وكانت القوات الألمانية ـ الرومانية تعاود يومياً الهجوم تقريبا وكانوا ينجحون في بعض الأحيان بتحقيق الخرق في مواقعنا الدفاعية ، ولكننا كنا نقوم مباشرة بهجوم معاكس ونعيد العدو إلى الوراء .

لقد طبقنا خلال هذه المعارك طرقاً وأساليب تكتيكية خاصة :

يقوم العدو عادة بهجومه بين الساعة العاشرة صباحاً حتى الظهر ، وعليه صرف ساعة أو ساعتين لاجتياز لاكسايا والاقتراب من خطنا الأول المعزز بمخافر أمامية قتالية . ويُسند هجوم المشاة على العموم بنيران المدفعية وبقليل من الطيران مجموعتين أو ثلاث ، وكل مجموعة تتشكل من تسع طائرات .

كانت مخافرنا الأمامية تصمد للمعركة بنيرانها . وتحت تغطية من نيران المدفعية واسنادها تنسحب هذه المخافر ببطء نحو الخط الرئيسي للدفاع ، لذلك فضمن هذه الظروف لا يستطيع العدو مطلقاً اختيار لحظة الهجوم . وعليه أيضاً أن يبقى ساعتين أو ثلاث ساعات للاقتراب من مواضعنا الرئيسية . وكان يضطر للوقوف في محاولة لتحضيّر اختراق في صفوفنا . ويقدم قواته إلى الأمام وكذلك وسائط إتصاله لتأمين قيادة المعركة ، وكذلك وسائط نيرانه ، بشكل يجعل المهاجمين لا يستطيعون الشروع بمحاولة الخرق في دفاعنا قبل هبوط الليل . ولم يكن العدو معتاداً على القتال الليلي . وكنا نحضر مباشرة هجوماً معاكساً نقوم به في المساء أو الفجر،عندما يكون طيران العدو لا يزال في مطاراته . وكانت مدفعيتنا وهاوناتنا تصب نيرانا كثيفة وقصيرة على العدو،وبعد

ذلك كنا نقوم بالهجوم المعاكس على أضعف نقطة في ترتيب العدو ونعيده إلى مواضع انطلاقه.

لقد تكرر هذا العمل مرات كثيرة.

انضمت إلى مجموعة الجنوب بأمر من أركان الجبهة في ١٢ آب منطقة التحصينات في ستالينغراد ولواء مشاة البحرية ٦٦ .

كثفت هذه القوى التي وضعت تحت تصرفي نوعاً ما ، مواقعها الدفاعية الهشة وبخاصة في الجناح الأيمن لمجموعة الجنوب ، وباستخدام الموانع الطبيعية من أنهار ومنخفضات وقيعان ،وبهذا نظمنا دفاعاً متيناً .

في نفس الوقت كانت وحدات الجيش ٦٦ تعززها قوات الفيلق المدرع بقيادة تاناستاشيشين تخوض معارك دفاعية ضارية ضد الجيش المدرع الرابع المعادي الذي كان يهاجم من الجنوب في قطاع بلودوفيتويا ، ايفانيروفو.

ولو كان الوضع يسمح بتكتيل فرقتين أو ثلاث فرق مشاة ولوائي مدرعات في قطاع فيرخنه كومسكايا - جوتوف ، كان بالامكان الشروع بهجوم بهذه القوى على طول لاكسايا نحو الشرق للنفوذ إلى جناح ومؤخرات الجيش الرابع المدرع بقيادة هوت مما يجعل وضعه حرجاً جداً .

في السابع عشر من آب تلقينا أمراً من أركان الجبهة بالتراجع إلى نهر ميشكوفا وفوراً بدأ أركان مجموعة الجنوب بتنظيم خطة التراجع .

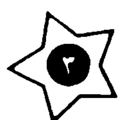
كنت مقتنعاً بأن مجموعة الجنوب استطاعت ، أن تصمد للعدو ، وأن تتراجع دون خسائر حتى مواضعها الجديدة . وبعد اعطائي لآخر التعليمات ذهبت للنوم لكي التحق في الصباح الباكر بالقوات التي ستتحرك في منتصف الليل .

وصل إليَّ في منتصف الليل ليوتنان جنرال فيليب غوليكوف مساعد قائد الجبهة ، وبعد أن اطلع على خطة تنظيم التراجع لقوات مجموعة الجنوب ، حدد لي على الخريطة الخط الدفاعي الجديد ، وبعد تأكده من أننا اتخذنا كافة التدابير الضرورية لمواجهة الحالة فيما إذا جرب العدو اللحاق بقواتنا المتراجعة ، نام هو الآخر ليأخذ قسطاً من الراحة .

لقد تأخر العدو طويلاً ليكتشف خطتنا ، فطائرات استطلاعه لم تظهر الا ليل ٨ آب فوق ميشكوفا ، ولكنه لم يجرب مهاجمة قواتنا في مواقعها الجديدة . ومن المحتمل انه لم يجد المناسبة لذلك ، وفي نفس الوقت كانت أحداث حاسمة تدور في الاتجاهات الأخرى فبرتياتشي - ستالينغراد ، وعلى الجناح الأيمن للجيش ٦٢

والجيش الرابع المدرع اللذين كانا يدافعان عن رأس الجسر في منحنى الدون الصغير ، وكذلك على الجناح الأيسر للجيش ٦٤ في قطاع بلودوفيتويا - توندوتوفر - ستالينغراد . لقد اشتركت في هذه الاتجاهات بشكل عام قوات ووسائط أكثر مما اشترك في اتجاه مجموعة الجنوب على لاكسايا . فالجيش ٦٤ بقيادة شوميلوف ، كان يستند على دفاع قوي ونشيط في قطاع بلودو فيتويا ايفانيروفو،فشن على العدو سلسلة من الهجمات المعاكسة الشديدة ، وأجبره في كثير من الأحيان على إيقاف هجومه .

سحبت قوات مجموعة الجنوب حسب توجيهات قيادة الجبهة من الجناح الأيمن . ولتكثيف ترتيباتنا القتالية وجهت قوات المجموعة على المحور الرئيسي لجهد الجيش المدرع الرابع المعادي . وقد احتلت فرقة ليودنكوف مواضعها الدفاعية على الخط الفرعي في الكيلومتر ٧٤ وأما فرقة كورباتنكو فقد احتلت القطاع فاسيليفكا - ابجانيروف .



بعد أن أرغم الجيش السادس الألماني (فون باولوس) باتجاه ستالينغراد قوات الجيش ٦٢ على التراجع بين ٨ - ١٠ آب ، وصد الهجمات المعاكسة التي قام بها الجيش المدرع الأول ضمن منحنى الدون الكبير ، لم يحاول الجيش السادس اجتياز نهر الدون منتظراً وصول الجيش المدرع الألماني الرابع فون هوت ، الذي كان يتجه صعداً نحو جنوب ستالينغراد ، وبعد أن احتل ايفانيروخو وصل إلى مشارف محطة تينفوفا .

وبذلك لم يعد فون باولوس يخشى شيئا وعبر الدون مباشرة واتجه بقواته نحو ستالينغراد من الغرب ، تاركاً وراءه في منحنى الدون الكبير ست فرق مشاة من الجيش ٦٢ مع وسائط دعمها في قطاع سورفوكينو - فولودفسكي - بولاشايا - وأسينوفكا ، وكذلك وحدات الجيش المدرع الرابع بقيادة الجنرال كريوتشتكين الموجودة في دائرة المنحنى الصغير .

لقد وجدت فرق المشاة الستة التابعة للجيش ٦٢ نفسها مطوقة بين ٨ - ١٠ آب من قبل الفيلق ١١ و ٥١ وكذلك من قبل الفيالق المدرعة ١٤ و ٢٤ العدوة . وكان قائد الجيش ٦٢ يتوقع مثل هذا الموقف ، لذلك طلب الاذن لسحب فرقه

الست إلى الضفة اليسرى لنهر الدون ، ولكن ومع الأسف لم تتخذ أركان الجبهة ولا الستافكا قرارهما في الوقت المناسب بالنسبة لهذا الاقتراح ، مما أدى إلى وقوع هذه الفرق الست في التطويق وتكبدت خسائر فادحة . وثمة قوات قليلة منها لا أهمية لها استطاعت الخروج من التطويق ليلاً . وأرسلت إلى المؤخرات البعيدة لإعادة تشكيلها .

وفي الخامس عشر من آب قام الجيش السادس فون باولوس بعد تجميع قواته الرئيسية ، بالهجوم على الجيش المدرع الرابع كريوتشكين،واحتل في ١٦ آب منحنى الدون الصغير ، عدا رأس جسر تمسكت به وحدات جيش الحرس الأول ، ولم يشرع فون باولوس بعبور نهر الدون في نيجنه أكاتوف وفي فيرتياتشي إلا بعد أن أصبح سيد منحنى الدون الصغير .

قرر قائد الجبهة أ . ايرمنكو بسبب هذا الموقف أن يزج في المعركة قوات جديدة ودفعها في ١٧ آب بهجوم معاكس بهدف تدمير العدو ، الذي كان متجهاً إلى الأمام،وتثبيت الوضع إلى ما كان عليه قبل ١٣ آب في منحنى الدون الصغير ، وقد خصصت أربع فرق للاشتراك بهذه العملية ، على الجناح الأيمن للجيش المدرع الرابع . وعلى الجناح الأيسر خصصت ثلاث فرق من المشاة للقيام بالهجوم المعاكس ، كانت تابعة لجيش الحرس الأول الذي وصل قبل قليل والفيلق المدرع ٢٢ .

كما وضعت الفرقة ٩٨ المشاة من احتياط الجبهة تحت تصرف الجيش ٦٢ وعززت باللواء المدرع ١٩٣ ، ولواء الهاونات الخامس التابع للحرس ، وكان عليها عبور الدون على ارتفاع فيرتياتشي في ليل ١٦ آب . وكان على هذه القوات بعد العبور توجيه ضربة على رودينوفو بالتنسيق مع الجيش المدرع الرابع ، وهزيمة وحدات الجيش الأيمن للعدو التي كانت تسير على الضفة اليسرى للدون نحو تريخوستروفسكايا .

تلقى قائد الجيش ٢١ مهمة عبور الدون في مالوكليتسكايا مع الفرقة ٦٣ مشاة والسير صباحاً نحو اورخوفسكي .

كانت خطة الهجوم المعاكس من أربع جهات تبدو جذابة ، ولكن لا يمكن ظاهرياً لا في المكان ولا الزمان أن تكون منسقة، لأن تكتيل مثل هذه القوى خلال أربع وعشرين ساعة يبدو مستحيلاً ، حيث تجتاز نهر الدون وتنظم التعاون للهجوم المعاكس .

كرس فون باولوس جهد قواته الرئيسية اعتباراً من ١٧ آب صباحاً لعبور الدون وتوسيع رأس الجسر الذي أقامه في قطاع نيجنه اوكاتوف ، وقد نجح فون باولوس بين ١٧ ـ ٢٠ آب بعد تكبد خسائر فادحة إحداث خرق في المواضع الدفاعية لقوات الجيش المدرع الرابع ، وقذف إلى الشرق فرقة الحرس ٣٩ وفرقتي المشاة ١٨ و ١٨٤ ولواء المشاة الآلية ٢٢ ، وأحدث ثغرة في المنطقة التي تفصل الجيش المدرع الرابع والجيش ٦٢ وقد باءت بالفشل كل المحاولات التي قامت بها قوات هذين الجيشين لطرد العدو .

لم ننجح في إيقاف العدو الذي كان ينساب على الطرقات المؤدية للفولغا وعلى كل الأحوال استطعنا بث الاضطراب في توقيت هجومه ، وإبطاء تقدمه . كما أخذت الروح القتالية لقواتنا تزداد يوماً بعد يوم .

لقد كنا نتراجع ، ولكن على كل موضع دفاعي كان العدو يصطدم بمقاومة ضارية ، حيث غطت جثث قتلاه الأرض الروسية . وتعلمنا خلال تراجعنا كيف نقاتل العدو .

● لي الحق أن أتكلم عن الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، ففي هذين الجيشين شهدت مولد بطولات جماهير ستالينغراد ، وأصبح الجيشان بطلي هذه الجماهير .

وفي تلك الأيام خلّد ستة عشر من جنود لواء مشاة الحرس مع قائدهم الملازم الأول الشيوعي كوتشنيكوف عملًا عسكرياً مجيداً ، فقد تلقى هؤلاء الأمر بالتمركز على أحد المرتفعات في قطاع كليتسكايا ، وكانوا يعلمون بأنهم قبل وصول التعزيزات سيخوضون معركة صعبة لذلك وعد كل منهم الآخر بعدم التراجع ولو خطوة واحدة .

هوجمت هذه الحفنة من المقاتلين في البداية أربع مرات من مفرزة صغيرة تابعة لمشاة العدو دون جدوى ، ثم دفع الهتلريون بسرية من حملة المسدسات الرشاشة ، وقد أحبطوا هذا الهجوم أيضاً .

في صباح اليوم الثاني تقدمت ضد هؤلاء الرجال اثنتا عشرة دبابة فاشية . ولم يكن لدى أي منهم بندقية ضد الدبابات وعدد منهم كان جريحاً ، حتى رئيسهم أصيب بجروح خطيرة .

نشبت معركة دامية حتى الموت ، وقذف أحد جنود الحرس بنفسه بعد أن ربط نفسه بنطاق من القنابل تحت سلاسل إحدى الدبابات التي لم تلبث أن اشتعلت فيها النيران . كما قام بنفس العمل بطل آخر ثم ثالث ورابع وبهذا

احترقت أربع دبابات في ساحة المعركة ، وأدت هذه المقاومة البطولية لانهيار أعصاب سدنة الدبابات « الرجال الذين يعملون في الدبابات » الهتلريين وعكس بعضهم طريقه وعاد الى قاعدة انطلاقه ، ولكن مسخين (يقصد دبابتين) من الصلب واصلا طريقهما إلى الأمام بعناد .

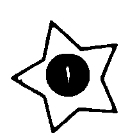
بقي على قيد الحياة من أصل ستة عشر من أبطال الحرس أربعة فقط : تشيركوف ـ ستيفاتنكو ـ شوكماتوف والملازم كاتشيكوف . وكان بإمكانهم الاختفاء في أحد الخنادق،أو النجاة بأنفسهم من خلال أحد المنخفضات , ولكن هذا يعني بالنسبة إليهم ترك موقعهم للعدو ، وبذلك يُفتح الطريق نحو الفولغا ، وبعد أن وضع الأحياء قائدهم القتيل في مكان خفي،حمل كل من ستيفاتنكو ، وشكماتوف سلسلة من القنابل واندفعوا نحو الدبابات الألمانية ، وهم يصرخون لن تأسرونا ورموا أنفسهم تحتها ودمروها .

عندما وصلت التعزيزات للموقع الذي كان يدافع عنه هؤلاء الأبطال من الحرس ، شاهدوا على سفح المرتفع حطام ست دبابات وهي تشتعل . لقد قبل هؤلاء القتال ضد عدو يفوقهم عدداً وعدة ، وقضوا نحبهم دون أن يتراجعوا خطوة واحدة إلى الوراء .

وقد علمت بعد الحرب أن واحداً من هؤلاء الستة عشر بقي على قيد الحياة وهو ب ـ بوردين وكانت جراحه خطيرة حيث نقل للمستشفى ، ثم عاد إلى القتال ووصل إلى برلين مع القوات السوفييتية المنتصرة .



المعركة بين الدون والفولغا



انتقلت المعركة من أجل ستالينغراد اعتباراً من ٢٠ آب إلى الشرق ، في شبه الجزيرة بين نهري الفولغا والدون ، بعد أن توجهت نحو ستالينغراد القوات الرئيسية للجيشين الألمانيين ، الجيش السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع فون هوت ، وأخذت عمليات هذين الجيشين مع وسائط دعمهما ، تتناسق في الزمان ، والمكان ، نحو هدف واحد ، وقد انتشرت أمامهما قوات جبهتي ستالينغراد وجنوب ـ شرق ، حيث توزعتا في ٢٣ آب حتى الفولغا .

ذهبت في ٢٤ آب بطلب من شوميلوف إلى قطاع فاسيليفكا ، حيث دارت رحى معركة طاحنة مع المهاجمين حسب تقرير قائد الوحدة التي كانت هناك .

وجدت في شمال القرية المذكورة « مرصد » قائد لواء المدفعية التابع لفرقة كوروباتنكو،وكانت دبابات ومشاة العدو تحاول الاختراق من هذه الجبهة ولكن لواء المدفعية ظل ساكناً دون سبب .

ـ لماذا لا ترمي بمدافعك على المهاجمين ؟ سألت قائد لواء المدفعية.

أجابني القائد المذكور وهو بحالة مضطربة :

ـ قاربت ذخيرتنا على النضوب .

عادة يكون هذا جواب ، من يحضر نفسه للقتال التراجعي .

ـ إني آمرك بأن تدخّر مدفعيتك وتطلق النيران مباشرة .

ـ على أية مجموعة ؟

ـ على احتياط العدو .

من المرصد كنا نرى تشكيلة قوية من مشاة العدو تتقدم نحو قطاع قرية برزوفوي .

رشقة من النيران دوت ، ثم تبعتها رشقة أخرى، فإذا باحتياط العدو

المتقدم يتبعثر في المنخفضات التي التجأ إليها آخرون غيرهم من أشخاص وعربات وسيارات ، ولم يكن هذا الرمي المحكم بكثير على الفاشيين ..

ولم يلبث أن ظهر في المرصد قائد الفرقة . ونظمنا مباشرة ضربة كثيفة أخرى بنار المدفعية الفرقية،ثم اندفعت فرقة من المشاة بهجوم معاكس . حيث نشبت معركة دامت ساعتين . عادت بعدها القريتان فاسيليفكا ، وكابينسكايا الى أيدينا ، وأخذ العدو يتراجع نحو الجنوب بفوضى .

وفي اليوم الثاني زرت ما كنا ندعوه مركز قيادة فرقة ليردنكوف ، التي كانت موجودة على خط السكة الفرعي للكيلومتر ٧٤ ، وكان المركز عبارة عن خندق وملجأ بعرض متر ونصف وبطول ستة أمتار ، وقد وجدته ضيقاً ، ورغم دعوتي للنزول من قبل ليودنكوف،لم أسرع لتلبية دعوته .

كانت قذائف مدفعية العدو الثقيلة تنفجر في كل مكان حولنا ، ولكنني لم أكن أستطيع أن أبعد عيني عن ساحة المعركة ، فقد ابتدأ هجوم قواتنا المعاكس .

كانت النواة الرئيسية لهذا الهجوم المعاكس ، فوج مدرع ، ووحدات من المشاة تابعة إلى ليودنكوف . التي بدأت بالاشتباك مع العدو ، وقد رأيت الدبابات والمشاة الالمانية تتراجع تحت ضربات قواتنا . ولكن لم تمض سوى ٣٠ـ٤٠ دقيقة إلا وظهرت طائرات العدو محلقة في الجو،وأخذت تنقض على قواتنا . لذلك توقف سدنة الدبابات والمشاة عن التقدم وأخذت بفتح نيرانها من مكانها ، ثم بدأ تراشق مدفعي بين دباباتنا ، ودبابات العدو ، ولم يجرب أي منهما الاقتراب من الآخر . وظل الوضع على حاله وامتد لبضع ساعات .

وبعد أن بدا الموقف لي في ذلك القطاع مستقراً ، أبلغت شوميلوف ، ثم ذهبت إلى القطاع الذي تحتله الفرقة ٢٩ في السوفخوز الواقع على بعد ١٢ كم إلى الشمال من ايفانيروفو . وفي مقر الفرقة ٢٩ صادفت مرة ثانية معاون قائد الجبهة الجنرال غوليكوف . ورأينا هناك كيف أخذ طيران العدو يقصف مشاته ، وقد حصل هذا بعد رمايات فردية متبادلة قصيرة،أدت إلى تراجع قواتنا بسرعة وبانتظام إلى مواقع جديدة . تاركة للعدو امكانية التقدم السريع ، وهنا أيضاً ظهرت طائرات العدو . تحلق بمجموعات كل منها ٢٠ ـ ٣٠ طائرة وبدأت تقصف قواتها لمدة نصف ساعة تقريباً ، فأخذ رجال الدبابات الألمان يهربون من دباباتهم لانقاذ أنفسهم من قنابل طائراتهم وهم يطلقون الصواريخ البيضاء وهذا يعني « صديق ـ صديق » ، ولكن الطائرات الألمانية ظلت تقصفهم حتى

أنهت حمولتها من الذخيرة والقنابل.

كانت مناورة سهلة ، ولكن يجب أن تتم بنشاط وسرعة ، فتراجع مفاجيء عن مواقع كانت هدفاً لقصف الطائرات العدوة، معناه دعوة سريعة لمشاة العدو لاحتلال الموقع ، ووقوعه تحت نيران طائراتها الخاصة .

قررت في المساء العودة إلى مقر قيادة الجيش التي كانت تتمركز في إحدى المنخفضات على بعد ١٢ كم من قرية زيتا .

عندما مررنا بالقرب من خط سكة الحديد الفرعي للكيلومتر ٧٤ ، وجدت مجموعة كبيرة من جنود الجيش الأحمر تجتاز خط السكة الحديدية وتتراجع شمالاً . ولم نكن نسمع في ذلك الوقت أي طلقات نارية ، ولم نر أحداً من جنود العدو يقوم بالهجوم ، إذن لأي سبب كان هؤلاء الجنود يتراجعون ومن يحاول اقتفاء أثرهم ؟ نزلنا من السيارات الثلاث ، وأوقفنا الجنود وأعدناهم إلى وراء حافة السكة الحديدية ، وهناك أخذوا في حفر الخنادق ، ثم وجدنا مباشرة بعد ذلك قائد الفصيلة ثم قائد السرية العائدة إلى فرقة ليودنكوف ، وأمرت هذا الأخير بالبقاء في مكانه والتمسك في المواضع الدفاعية التي يحتلها . ولم يعد بإمكاننا بعد ذلك متابعة السير حتى فرقة ليودنكوف لهبوط الظلام خوفاً من أن نسقط ليلاً بيد الألمان .

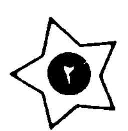
التقيت بالقرب من ممر على مستوى الخط الحديدي بمسؤول كبير من الفصيل السياسي (لم أعد أذكر اسمه) وأخبرني أن شوميلوف وأركان الجيش يتحرون بالهاتف بحثاً عني ، فتذكرت في تلك اللحظة فقط أنني لم أتصل بالهاتف بأركان الجيش منذ حوالي عشر ساعات .

كان الجنرال شوميلوف ومساعديه المباشرين وأعضاء المجلس العسكري للجيش ز . زرديوك ، ك . ابراموف ، ورئيس الأركان لاسكين يقدرونني عالياً، فقد وجدنا بسرعة لغة عمل مشتركة بيننا، وعملنا بتناسق واتفاق تامين، إذ كانت تحركنا دائماً اهتمامات متبادلة،« وظل هذا الجو من الصداقة بيننا حتى آخر يوم لي في الجيش ٦٤ » ولكن .. فجأة فقدت كل شيء .

لم يكن قلقهم في ذلك الوقت دون سبب ، فحالات كثيرة حدثت لقادة تاهوا عن الطريق ولم يعودوا كلياً فهم إما قتلوا أو أسروا .

عندما رآني شوميلوف نزل إلى المخبأ الأرضي ، وصرخ بأعلى صوته ها هو وجدناه ، واتصل هاتفياً برئيس أركان الجبهة وأعلمه عن وصولي ، ثم وصل

أعضاء المجلس العسكري مباشرة للمخبأ وعاتبوني ولاموني على تأخري في الإتصال . وكنت أرى على وجوههم فرحاً لا يمكن إخفاؤه . فبعد إنقطاع أخباري طويلاً عنهم ، أعطوا الأمر لليودنكوف ، ولقادة الوحدات الأخرى للتفتيش عني في ساحة المعركة ، وعلى الأقل إيجاد سيارتي المحطمة ، ولكنهم بعد ذلك وجدوني وسيارتي صحيحاً ومعافىً .



قامت فيالق ثلاثة من أصل خمسة (يتألف منها جيش فون باولوس) بهجوم في ٢٣ اب،بدءاً من رأس الجسر الذي أقيم على الضفة الشرقية للدون . وحسب مخطط فون باولوس : يقوم الفيلق الثامن بالهجوم على كوتكوبان ، وكوزمتشي وايرزوفكا ، وعلى عاتقه تقع كل العمليات التي تنفذ من الجهة الشمالية . يهاجم الفيلق المدرع الرابع عشر من بوركتين الخط الفرعي لسكة الحديد المتجهة من كوني ، باتجاه رينوك ، سبارتانوفكا . أما الفيلق ٥١ فكان عليه السير بخط مستقيم نحو المدينة عن طريق روسوشكي ، غومراك وكذلك يهاجم الفيلق ٢٤ المدرع اعتباراً من قطاع كالاتش عن طريق كاربوفكا ، ويبقى على الطرف الآخر للدون الفيلق ١٧ .

أما الجيش المدرع الرابع لفون هوت، فكان يواصل هجومه موجهاً جهده الرئيسي نحو الجنوب عن طريق توندوتوفو .

ثم دخل الجيشان السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع فون هوت منذ ٢٠ آب بتعاون وثيق على نطاق العمليات الكبرى وعلى مستوى العمليات التكتيكية .

قام في ٢١ آب الفيلق المدرع ٤٨ والفيلق الرابع وبتنسيق وثيق بالهجوم على نقطة إتصال الجيشين ٦٤ و ٥٧ السوفيتين،واستطاع الفيلقان العدوان من إحداث ثغرة بعرض ١٥ كم باتجاه توندوتوفو . ومن هنا نشأ تهديد فون هوت بالاختراق متجهاً إلى الجنوب نحو ستالينغراد والفولغا .

وهنا قام قائد جبهتي ستالينغراد وجنوب ـ شرق أ . ايرمنكو ، ولكي يدعم الدفاع ضد جيش فون هوت الرابع المدرع ، بنقل أربعة ألوية مدفعية ضد الدبابات ، وأربعة ألوية هاون تابعة للحرس واللواء المدرع ٥٦ إلى القطاع

المهدد العائد للجيش ٥٧ جنوب ستالينغراد ، ورغم أن هذه الوحدات ستساعد في إيقاف هجوم جيش فون هوت ،إلا أن نقلها من الدون باتجاه الجنوب كان سيضعف دفاع الجيش ٦٢ والجيش المدرع الرابع بشكل ملحوظ . ففي طريق نقطة إتصال الجيشين السوفيتيين كان الجيش السادس الألماني يستعد للسير من الغرب باتجاه ستالينغراد .

كان الغزاة يفكرون خلال استعداداتهم للنفوذ الى الفولغا في شمال مدينة ستالينغراد في نفس الوقت بالقيام بعملية تجاوز بعيدة المدى للجناح الأيمن للجيش ٦٢ . ومن الواضح أنهم كانوا يسعون بدقة وإتقان تنفيذ مخطط تطويق ، للجيشين ٦٢ و ٦٤ وإغلاق ذراعي الكماشة عليهما من الغرب والجنوب على طول ضفة الفولغا نفسه .

اندفع في ٢٥ آب المجرمون الفاشيست ، حال تلقي أوامر هتلر لاحتلال ستالينغراد ، نحو الفولغا بدون النظر للخسائر ، وكان الثالث والعشرون من آب ١٩٤٢ يوماً مأساوياً بالنسبة للمدينة ، حيث نجحت بعض فرق المشاة ، وفرقة مدرعة عدوة ، من اختراق دفاع الجيش ٦٢ بعد خسائر فادحة في قطاع فيرياتشي - بيسكوفاتكا . ثم دفعت القيادة الألمانية من هذه الفتحة بعدة فرق من المشاة ، وفرقتين آليتين ، وفرقة مدرعة ، والفيلق المدرع ١٤ ، والفيلق الثاني .

ونفذت العناصر المتقدمة ، لهذه القوات ، تدعمها مائة دبابة على الفولغا شمال ضاحية رينوك .

نتج عن ذلك موقف خطير جداً . وكان أقل تشويش أو مظهر من مظاهر الخوف من جهتنا يمكن أن يؤدي إلى كارثة . وكان الهتلريون يعتمدون على ذلك . فإذا ما أحدثوا هذا الرعب ، فإنهم سيستغلونه فوراً ، لدب الفوضى في المدينة ، لذلك وجهوا في ٢٣ آب جيشاً من قاذفات القنابل على ستالينغراد ، قامت بحوالي ألفي مهمة قتال . ولم تصل غاراتهم الجوية ولا مرة واحدة من قبل ، بمثل هذه الكثافة والحدة والعنف . وغرقت المدينة الكبيرة التي تمتد على نهر الفولغا حوالي خمسين كيلومتراً بلجة من اللهب دخل معها الحزن والموت لآلاف العائلات . وأسقط دفاعنا الجوي في ذلك اليوم ٩٠ طائرة عدوة ، ولم يتوقف القصف حتى الليل .

ولكن لم يحدث هذا القصف المرعب ، أي تشوش ، ولم يستطع بذر الفوضى في صفوف المدافعين عن ستالينغراد . ولبى نداء المجلس العسكري للجبهة

ومنظمة الحزب في المدينة جنود ومواطنون بروح عالية وأصبحت المصانع المشهورة « تراكتورني » و « باريكادي » كراسني أكتيابر » والمركز الكهربائي مراجل للدفاع ، كان العمال يصنعون السلاح ويدافعون عن المصانع بجانب القوات المحاربة ، وتوحد الجميع للدفاع عن مدينتهم الغالية : المحاربون القدماء ذوو الشعر الأشيب ممن دافعوا عن المدينة ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، عمال صهر الفولاذ ، بناة الجرارات ، بحارة الفولغا ، عمال الموانىء والمداخن ، عمال بناء السفن،المستخدمون ، الكناسون ، والشيوخ والاطفال..كما وصلت لنجدتهم قوات الجنرال سرابيف وقوات العقداء غوروخوف ، اندريوسنكو والمقدم بولفينو .

وبدأت المعركة تأخذ شيئاً فشيئاً طابع الضراوة الشديدة ، وكان على الهتلريين أن يدفعوا ثمناً باهظاً من خسائرهم لكل خطوة يخطونها ، وبقدر ما كان البرابرة الفاشيون . يقتربون من المدينة ، كانت المعارك تزداد عنفاً وضراوة ، والجنود السوفييت يزدادون بسالة . وليُسمح لي بالمقارنة فدفاعنا في ذلك الوقت يشبه النابض الذي كلما ضغطت عليه ازدادت ردود فعله قوة .

ولنر ما كتب المرافق الأول لجيش فون باولوس عن هذه المعارك:« كانت القوات السوفيتية تقاتل من أجل كل بوصة من الأرض » . وأما تقرير جنرال الجيش المدرع فلترشيم-قائد الفيلق المدرع الرابع عشر-فقد كان يبدو لنا وكأنه شيء لا يصدق يقول الجنرال المذكور:« إن وحدات الجيش الأحمر كانت تقوم بالهجمات المعاكسة القوية بدعم من كل سكان ستالينغراد ، الذين كانوا يظهرون شجاعة نادرة . لقد حمل الشعب جميعه السلاح ، عمال بلباس العمل وجدوا قتلى ممددين في ساحة المعركة ، وغالباً ما كانت أياديهم الصلبة تقبض على بندقية أو مسدس ، قتلى بلباس العمل ظلوا معلقين على جهاز قيادة دبابة محطمة ، ولم نر من قبل شيئاً يماثل هذا مطلقاً » .

تميز في تلك الأيام في قطاع ماليه روسوشكي،على بعد اربعين كيلومتراً إلى الغرب من ستالينغراد ٣٣ جندياً من لواء المشاة ١٣٧٩ من الجيش ٦٢ ، وعلى رأسهم الموجه السياسي الكومسمولي ليونيد كافياليف: لقد حوصر هؤلاء تماماً ولكنهم لم يتراجعوا ، وحاولت سبعون دبابة أنقضاض احتلال موقعهم الدفاعي ، وكان احتياطهم من الغذاء قد نفذ ولم يعد لديهم قطرة ماء في جو حار جداً ، ولكنهم لم يهنوا مطلقاً ، وأحرقوا في المعركة ٢٥ دبابة ، وقتلوا حوالي ١٥٠ جندياً

فاشياً .

لذلك عندما صادفت القيادة الهتلرية هذه المقاومة الحية على مشارف ستالينغراد، أخذت في تعزيز قواتها ، وبدأت المعركة تأخذ أبعاداً متزايدة .

لقد وصل الهتلريون في ٢٣ آب إلى الفولغا ، ولكنهم لم يستطيعوا تعريض الثغرة التي أحدثوها ، واحتلال القسم الشمالي من ستالينغراد ، رينوك ، سبارتانوفكا ، اورلوفكا . فقد نظم الدفاع عن هذه المناطق في الوقت المناسب ، وارتفع أمام الهتلريين حاجز لا يمكن اجتيازه . وفي المعارك التي دارت في الضواحي الشمالية للمدينة كان هناك مئات من العمال ومحاربو الدفاع المضاد للطائرات يقاتلون جنباً إلى جنب مع جنود الجيش ٦٢ وهنا أيضاً لم يستطع الفاشستيون اختراق المدينة .

لم يستطع الهتلريون أيضاً في الجنوب في قطاع الجيش ٦٤ إحداث أي خرق باتجاه الفولغا ، ويعود ذلك للهجمات المعاكسة التي كانت تقوم بها قواتنا .

أكثر النقاط ضعفاً في دفاعنا كانت موجودة في قطاع محطة كوتلوبان . وخط سكة الحديد ، في كونوي ، على الجناح الأيمن للجيش ٦٢ ، ولو توجه الغزاة من خط السكة الحديدية الفرعي في كونوي لن يجدوا أمامهم سوى فرقتين ، على طول الخط الحديدي ، وكان بإمكانهم الوصول بسهولة للى الفولغا في محطة نوردبونوف ، في مؤخرات الجيشين ٦٢ و ٦٤ وقطعهما عن المدينة.

كان الجنرالات الهتلريين على ما يبدو يريدون قتل عنزتين بضربة واحدة أي كانوا يريدون احتلال المدينة وتطويق كل قوات الجيشين ٦٤ و ٦٢ ، ومما لا شك فيه أن مثل هذه الخطة تبدو جذابة تماماً ، فيما إذا لم يلاحظوا العناد المتزايد للقوات السوفيتية المدافعة . واتساع جبهة الهجوم . وطول خطوط المواصلات ، وقد أحبطت تماماً خطتهم التي كانت مبنية على دب الذعر، وإضعاف الحالة النفسية ، التي كانوا يأملون بأن تسري بعد غاراتهم الوحشية ، لقد صمد سكان المدينة بشدة لهذه الضربة المخيفة .

امتدت في نهاية تموز الجبهة الدفاعية للجيشين ٦٢ و ٦٤ اعتباراً من رينوك ، اورلوفكا مزرعة سوفيتسكي . ليباتشيف وإلى الوراء باتجاه الجنوب - الشرقي على طول مجاري الأنهار ايريك ، ميشكوفكا حتى فاسيليفكا ، ثم من سوفخوز لوركين على طول الخط الحديدي حتى محطة توندوتوفو .

كانت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ موجودة في الواقع ضمن كيس قعره موجوداً

على ضفة الدون بالقرب من قرية ليابتشليف . وجوانبه في الشمال بالقرب من ريفوك على الفولغا وإلى الجنوب من محطة توندوتوفو ، وكان على الجيش المدرع الرابع فون هوت أن يجتاز ١٥ كيلومتر طيران الطائر لكي يستطيع أن يحقق أيضاً الاختراق من الجنوب باتجاه الفولغا من كراسنو آراميسك .

لقد أصبح الموقف ملائماً بالنسبة لاعتقاد أركان هتلر ، فستالينغراد وضواحيها أصبحتا قاب قوسين أو أدنى . لذلك ألح هتلر على قائده فون باولوس وطلب منه احتلال ستالينغراد في ٢٥ آب في حين كانت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ في موقف حرج جداً .

إن القتال الحازم والضاري من قبل الجميع من أصغر جندي إلى قائد الجبهة هما فقط يمكنهما إنقاذ قواتنا . نحن نعرف قرار الستافكا من ستالين شخصياً وقد ألزمنا بالنضال بكل قوانا من أجل المدينة . وكنا نعلم أن مصير ونتائج كل معركة ١٩٤٢ قد تقرر هنا على الفولغا .

أصبحت ستالينغراد عام ١٩٤٢ مثل موسكو ١٩٤١ النقطة التي تلتقي عندها كل الأهداف والمقاصد الاستراتيجية ، والسياسية ، والاقتصادية . ولقد جذبت المعارك على الفولغا في ١٩٤٢ انتباه العالم قاطبة ، والاحترام والمحبة من قبل سكان العالم .

وبالرغم من حراجة الموقف كانت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ لا تركن إلى الدفاع فقط بل كانت تشن هجمات معاكسة عنيفة على القوات الرئيسية العدوة .

كان من المهم في نهاية العشر الأخير من آب إيقاف نفوذ العدو بخاصة . فمن الجنوب أخذ بالسير من كوتلنكوفو باتجاه الفولغا عن طريق محطة توندوتوفو . وكان تقدمه يهدد بالتطويق لكل قواتنا في قطاع ستالينغراد .

كانت (ستافكا) القيادة العليا تعزز باستمرار قوات جبهتي ستالينغراد وجنوب ـ شرق ، فمن الأول إلى ٢٠ آب وجهت إلى هناك ١٥ فرقة مشاة وثلاثة فيالق مدرعة ولكن وصولها كان يتأخر بسبب إمكانيات خطوط السكة الحديدية المحدودة فمن مجموع هذه الفرق وصلت خمس فرق مشاة في ٢٠ آب إلى قطاع كتشالينسكا ولم يكن بإمكان الفيالق المدرعة الوصول قبل ٢٣ ـ ٢٤ آب إلى أمام ستالينغراد . ولكن بسبب تدهور الموقف بين الدون والفولغا اضطرت قيادة الجبهة لزج هذه الفرق الجديدة ، والتي ما تكاد تترجل حتى ترسل إلى الجبهة بسرعة ، دون توجيه وبدون تحضير واستعداد للقتال .

فالفرقة ٣١٥ مشاة كانت قد رفعت من احتياط القيادة (ستافكا) وأخذت طريقها في ٢٣ آب بمسير مديد في قطاع غورودیشتشة لكي تحتل مواقعها على النطاق الداخلي للدفاع ، وبعد ظهر اليوم نفسه هوجمت هذه الفرقة التي كانت بحالة المسير من قبل الطيران،ثم من قبل دبابات العدو التي أحدثت خرقاً في قطاع فيرتياتشي .

أما الفرقة ٣٥ من مشاة الحرس بقيادة ماجور جنرال كلاسكوف فكان عليها احتلال مواضعها في النطاق الأوسط للدفاع ، ولكن مفارزها المتقدمة لم تصل إلى خط الدفاع إلا في ليل ٢٣. وصمدت عناصر متقدمة من الفرقة (بقيادة النقيب ا.ستولياروف) في جنوب محطة كوتلوبان ضد قوى عدوة كبيرة من المدرعات والمشاة الآلية ، وقد قام الفاشيون خمس مرات بهجوم على مواقع المجموعة ولكنهم في كل مرة كانوا يرتدون على أعقابهم مع الخسائر وفي ذروة العمل أخرج النقيب ا . ستولياروف من المعركة وحل محله النقيب روبن رويز ایبارودي.وهذا الأخير جرح هو الآخر جرحاً مميتاً وخرج من المعركة .

منح النقيب روبن رويز ايبارودي لقباً فريداً كبطل للاتحاد السوفيتي . ولا تزال رفاته في المدينة البطلة ستالينغراد ، وكل عام في ذكرى موت روبن ايبارودي يمكن رؤية امرأة طويلة القامة بشعر أبيض تضع الزهور على قبر البطل . إنها والدته دولوريس ايبارودي ، زعيمة الحزب الشيوعي الإسباني .

وقد هوجمت الفرقة ٣٥ لمشاة الحرس من قبل قوة عدوة متفوقة بالعدد فلم تتمكن من احتلال خط دفاعها المحدد لها ، فاضطرت للتراجع في قطاع ساموخالوفكا .

لذلك شكلت قواتنا مجموعتي صدمة لسد الاختراق الذي أحدثه العدو على الفولغا ، وكانت المجموعة الأولى بقيادة معاون قائد جبهة ستالينغراد الرائد جنرال كوفالنكو ، وتتألف من فيلقين مدرعين وثلاث فرق مشاة ، مهمتها الهجوم في صباح ٢٥ آب ، باتجاه سوخايا - ميتشليتكا . أما المجموعة الثانية فكانت بقيادة الملازم جنرال أ . شتيفلييف قائد القوات المدرعة والآلية لجبهة ستالينغراد وتتألف من فيلقين مدرعين ومهمتها الهجوم من اورلوفكا باتجاه عام نحو لايرزوفكا . وكانت مهمة هاتين المجموعتين ، وبجهد مشترك ، تطويق وتدمير مجموعة العدو التي كانت قد أحدثت الاختراق باتجاه الفولغا في القطاع الواقع شمال ستالينغراد . ولتثبيت الجبهة الدفاعية على الضفة اليسرى للدون أعطي

الأمر للجناح الأيسر للجيش المدرع توجيه ضرباته من الشمال باتجاه فيرتياتشي مع فرقتي مشاة ، وبعد التغلب على مقاومة العدو . النفوذ على الضفة اليسرى للفولغا في قطاع نيجنه ـ جينلوفسكي ـ فيرتياتشي ، كما كلف الجناح الأيمن للجيش ٦٢ ، بالتعاون مع فرقة الحرس ٣٥ والفرقة المدرعة ١٦٩ التي ألحقت بالجيش ٦٢ بالقيام بهجوم على بيسكوفانكا . وعندما يصبح هذا سيد الموقف في نهاية النهار ـ ويصل إلى الخط فيرتياتشي ـ بوسكوفا ، يتوجب العمل على تحقيق الإتصال مع الجيش المدرع الرابع في الضفة اليسرى للدون .

ظل مقر أركان جبهة ستالينغراد دائماً في المدينة . لتسهيل إدارة العمليات وأقيم مركز مساعد للجبهة في ٢٦ آب في قطاع مالايا ايفانوفا ، يستقر فيه قائد الجبهة الرائد جنرال كوفالينكو ورئيس أركان الجبهة الرائد جنرال نيكيشوف .

أدت الضربات التي وجهتها مجموعتا الجنرال كوفالنكو وشتيفيلييف إلى وضع الفيلق المدرع ١٤ المعادي في وضع لا يحسد عليه . وقلصت الثغرة في ٢٦ آب ، وأصبح عرضها أربعة كيلومترات عوضاً عن ١٥ واضطر فون باولوس لتموين هذا الفيلق جواً .

نجح العدو خلال ذلك في تنظيم جهاز قوي للرمي ضد المشاة والدبابات ، كما أظهرت طائراته في تلك الأيام نشاطاً مكثفاً ، وكانت هذه الطائرات ، تقصف دورياً قواتنا وترميها برشاشاتها،وبخاصة قواتنا التي كانت تسير باتجاه الجبهة مما جعل سيرها هذا مستحيلاً خلال النهار ناهيك عن زجها في القتال بعد تحضيرها بشكل منظم .

أما الهجمات المعاكسة التي قام بها الجناح الأيسر للجيش الرابع المدرع ، وكذلك الجناح الأيمن للجيش ٦٢ بقصد السيطرة على الضفة اليسرى للدون في قطاع نيجنه ـ جينولوفسكي ، فيرياتشي ، بيسكوفانكا ، فقد ظلت دون نجاح مؤثر .

لم يصل احتياط (الستافكا) الموجه للجبهة إلا في يوم ٢٣ آب إلى محطات الإنزال في فرولوفو لوغ على بعد ١٠٠ كم من مسرح العمليات،ولم يكن هناك الوقت ليشترك في أدق وأحرج مرحلة من مراحل المعركة .

ومن المناسب هنا أن نورد بعض كلمات ، وبخاصة حول عمل الإشارة (الإتصال) .

في تلك الأيام كانت الإتصالات عندنا ضعيفة حتى في السنة الثانية للحرب ،

في الوقت الذي كان فيه الهتلريون يستخدمون أجهزة الراديو في الإتصال على مختلف الأنساق . وكانت الإتصالات الهاتفية عن طريق الأسلاك هي السائدة لدينا . ولكنها غالباً ما تكون معطلة ومقطوعة . لذلك كان من الضروري إرسال ضباط الإشارة للإتصال المباشر في مختلف الاتجاهات ، مما يجعل قيادة القوات صعبة للغاية ، خاصة انتشارها في هذه المساحات الشاسعة من السهوب ، لذلك ولكي يتم إيصال تعليمات قيادة الجبهة بالسرعة الممكنة إلى المنفذين،كانت تنقصنا الامكانيات والوقت ، وينطبق ذلك على المعلومات التي كنا نحصل عليها من الخطوط الأولى التي كانت تصل متأخرة ويعود ذلك للإتصالات السيئة .

وتتطلب الحركة الآلية أكثر ما يمكن من حركية وسرعة في قيادة القوات على مختلف الأنساق أكثر من التي في حوزتنا في ذلك الوقت .

كنا ننسحب تحت ضغط عدو أقوى منا ، فالأوامر التي كانت تحمل هذه الكلمة الصغيرة (فوراً)،غالباً ما كانت تصل لوحدة ما بعد أن تكون المحلات المأهولة الواردة في تلك الأوامر ، قد أخليت،وأحيانا تصل عندما تكون مفارز وأقسام الجنود التي يقع عليها عبء تنفيذ الأمر لم يعد لها وجود كوحدة محاربة .

كانت منظمة الحزب في تلك الأيام العصيبة تعمل بكثافة خاصة . وقد تحولت لجنة الدفاع عن المدينة (ستالينغراد) ، تحت قيادة السكرتير الأول للجنة القطرية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ا . تشويانوف إلى منظمة مقاتلة بيد المجلس العسكري للجبهة . وتشكلت في أحياء المصانع أفواج عمالية للدفاع عن المصانع مؤلفة من عمال مصانع « تراكتورني »،« كراسني أوكتيبار »، باريكادي والمؤسسات الأخرى التي ارتفعت كسور للدفاع عن المدينة.

قامت منظمات الحزب في المدينة والأطراف وفي الجيش تحت قيادة المجلس العسكري للجبهة بعمل جبار ، دون كلل أو ملل بين الجماهير لإلحاق الهزيمة بالعدو بأسرع ما يمكن، فمئات من الشيوعيين ذهبوا إلى الجبهة، إلى الخطوط الاولى . وفي نفس الوقت شنت هذه المنظمات حملة لا مثيل لها ضد كل مظاهر الرعب والجبن . كان الشيوعيون دائماً في المقدمة . وفي أكثر القطاعات خطورة والتي تتطلب تحمل المسؤولية الكاملة .

وسأعرض فيما يلي الوثيقة التي كانت ذات أهمية كبرى بالنسبة للمدينة .

✶ نـــــداء لجنة الدفاع عن المدينة ✶

أيها الرفاق الأعزاء ! أعزاءنا الستالينغراديين ، من جديد كما هو الحال قبل أربعة وعشرين عاما تعيش مدينتنا أياماً عصيبة ، فالهتلريون الملطخة أيديهم بالدماء يتجهون نحو ستالينغراد ويحلمون بشمس الفولغا ، النهر الروسي العظيم ، أيها الستالينغراديون!لن نترك الألمان يدنسون مدينتنا العزيزة ، لنقف كلنا كرجل واحد ، لندافع عن بلدتنا الحبيبة مسقط رأسنا ولندافع عن عائلاتنا ، غطوا كل الشوارع بالحواجز التي لا يمكن المرور منها ، اجعلوا كل بيت وكل حي وكل شارع قلعة حصينة انهضوا جميعاً لبناء الحواجز ، ضعوها في كل شارع . لقد دافع آباؤكم عام ١٩١٨ عن مدينة تسارستين ، وسندافع نحن عام ١٩٤٢ عن ستالينغراد الحمراء .

هبوا جميعا لإقامة السدود،وعلى كل الذين باستطاعتهم حمل السلاح أن يتقدموا للدفاع عن المدينة .

✫ ✫ ✫

أخذت مفارز الدفاع الجوي في الأحياء الملتهبة تكشف عن بطولاتها هي والوحدات الصحية وفرق الإنذار،وتم نقل النساء اللواتي كن لا يعملن في الانتاج وكذلك الأطفال والشيوخ إلى الضفة الأخرى من الفولغا ، وظلت مراكب الموانىء النهرية تعمل مع مراكب أسطول الفولغا الحربي (بالرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدتها بسبب الغارات الجوية) ، تقوم بعملية الإخلاء تحت نيران العدو ، وتعود من الضفة اليسرى إلى الضفة اليمنى حاملة معها الامدادات بالقوى والعتاد ، كما كانت مراكب الأسطول الحربي النهري تطلق نيرانها الكثيفة على العدو الذي استطاع إحداث ثغرة في النطاق الشمالي للمدينة .

أنجزت منظمات الحزب في المدينة والأطراف عملاً سياسياً رائعاً فأنشأت التنظيمات بين القوات التي وصلت حديثاً،حيث استغلت كل دقيقة وساعة للتوجيه السياسي ، وكانت تنظم وتنسق بشكل عام وضع منظمات الحزب والتعاون التام بين مفارز العمال وسرايا وأفواج ووحدات الجيش الأخرى،بحيث تحولت ستالينغراد المحاصرة الى مدينة « قلعة » مقاتلة ، عُبىء تحت قيادة أجهزة ومنظمات الحزب كل شيء لصد العدو ، وكانت الوحدات التي تصل من أقصى البلاد إلى المدينة تجد أمامها تلاحماً وثيقاً بين الجنود والسكان مما أدى إلى دعم

وتعزيز ارادة القتال حتى الموت بين الجميع .

لم تستطع هجماتنا المعاكسة إيقاف آلة الحرب الهتلرية التي اندفعت في العمق داخل منحنى الدون الكبير وكذلك بين الدون والفولغا ، ولكن المهلة التي حددتها خطط الهجوم الهتلرية لاحتلال المدينة لم تنفذ وتخلخلت ، وعبر دخان وحرائق المعارك أخذت تخيم على الجيوش الهتلرية ظلال الهزيمة السوداء .

وبينما كانت قوات الجيشين ٦٢ والجيش المدرع الرابع تقعان بحزم منذ ٢١ آب حتى نهايته أمام هجوم الجيش السادس فون باولوس في غرب ستالينغراد وشمالها في قطاع أكاتوفكا اورلوفكا ، كانت قوات الجيشين ٦٤ و ٥٧ تصمد وتشتبك بمعارك ضارية مع القوات الرئيسية لجيش فون هوت المدرع الرابع .

كان يغطي جناح فون هوت من اليسار الفرق الرومانية التابعة للفيلق الروماني السادس والفيلق المدرع ٤٨ والفيلق الرابع موجهة جهدها الرئيسي على طول الخط الحديدي باتجاه كراسفورراميسك لذلك ركزت هجمات الجيشين ٦٤و ٥٧ المعاكسة إلى هذا المحور كما توضح ميدان القتال : من الغرب بمحطات السكة الحديدية كوندوتوف ، ايفانيروف . ومن الشرق ببحيرات تاسا وساريا ، وكانت تعمل مع العدو حوالي ٢٥٠ دبابة .

نجحت في الرابع والعشرين من اب الفرقتان المدرعتان ١٤ و ٢١ والفرقة الآلية ٢٩ في تحقيق اختراق من الجنوب وحتى بلدة سوليانكا . ولكن هذه القوات لم تستطع التقدم أكثر من ذلك فبسالة دفاعنا . والهجمات المعاكسة التي كنا نقوم بها بفرق المشاة ٤٢٢ و ٢٤٤ وفرقة الحرس ١٥ أوقفت إندفاع جيش فون هوت ، وقد لعبت وحدات الصواريخ التابعة للحرس والتي استدعيت من الدون دورا حساسا وفعالاً حيث أحرقت ودمرت كتل مدفعيتنا حوالي ٦٠ دبابة عدوة ، وتميزت بفعاليتها في هذه المعارك .

هوجمت مواضع أحد فصائل الرمي التابعة للواء مدفعية الحرس ٤٣ ، بعد تمهيد جوي قوي من قبل عشرين دبابة المانية تتبعها عناصر من المشاة من حملة المسدسات الرشاشة ، وقد ترك آمر الفصيلة المساعد م . خفاستاتسيف دبابات العدو تقترب منه وعندما أصبحت على مسافة الرمي الفعال فتح عليها النار ودمر دبابتين بطلقاته الأولى ، أما الدبابة الثالثة فقد عكست اتجاهها وهي تطلق النيران ، وفي الحال قامت الطائرات الألمانية بغارة جوية على تلك الفصيلة تبعها هجوم بالدبابات ، وأخذت هذه تطلق نيرانها وهي سائرة مما أدى

إلى جرح عدد كبير من المدافعين ، تم إخلاؤهم بأمر من خفاستاتسيف ، وبقي هو نفسه مع خمسة جنود ومدفع واحد يطلقون النار ، وبعد عدة طلقات دُمرت دبابة أخرى ، ولكن ذخيرتهم قد نفذت بسرعة ، وأحاطت دبابات العدو بمواقعهم من جهتين،وبعد ذلك أخذ المدفعيون يتساقطون الواحد تلو الآخر ، عندئذ أخذ خفاستاتسيف بندقية ضد الدبابات ، ودمر دبابة بالقرب منه ، وكانت الدبابات الأخرى الباقيات تتقدم على جوانب الدبابة المعطوبة ، وهنا قفز خفاستاتسيف إلى الأعلى ورمى قنبلة على دبابة الرأس ولكن دون نتيجة ، إلا أنه نجح بالخروج من الخندق عندما كادت أن تسحقه إحدى الدبابات تحت سلاسلها ، وعندما تراجعت الدبابة رمى عليها قنبلة دون أن يرى مكان سقوطها ، وهنا حصدته نيران الرشاشات الألمانية .

لقد وصلت أخبار م. خفاستاتسيف وما قدمه للقيادة العليا وللحكومة السوفييتية التي اعترفت بشجاعته وتضحيته فأعطته لقب بطل الاتحاد السوفييتي بعد وفاته.

لم تكن هذه الظاهرة سوى مأثرة من المآثر البطولية التي قام بها رجال مدفعية الحرس والتي يمكن أن نعد مثلها العشرات وحتى المئات .

ظل جيش فون هوت المدرع الرابع يخوض معارك ضارية خلال أسبوع من الزمن دون نتيجة . وقد اضطر بعد تكبده خسائر فادحة في الرجال والعتاد لالغاء متابعة هجومه على كراسنو آرميسك،ومنها إلى الفولغا .

كانت خطة الهجوم التي وضعتها القيادة الالمانية على شكل كماشة ، وبموجبها يقتضي الهدف الوصول إلى الفولغا ثم إغلاق الكماشة على الضفة اليمنى للنهر ، من الشمال إلى الجنوب على ريفوك - سبارتا نوفكا ، مصنع تراكتوري . ومن الجنوب إلى الشمال على كراسنو أرميسك وبيكيتوفكا . ولكن دفاع الجيشين ٦٤ و ٦٢ الموحد والبطولي مع دفاع عمال ستالينغراد كان له أثر كبير في إحباط هذه الخطة .

قامت القيادة الهتلرية في ٢٧-٢٨ آب بإعادة تجميع قواتها سراً ، فمن الجناح الأيمن نحو الوسط في قطاع ايفانيروفو - كابلفسكي ، كانت تعمل الفرقتان المدرعتان ١٤ - ٢٤ والفرقة الآلية ٢٩ وكذلك الفرق الرومانية ٦ و ٢٠ التي وجهت أيضاً إلى نفس القطاع ، وكانت مهمة هذه القوات تحقيق الإتصال مع جيش فون باولوس السادس،وقد ظهر بذلك تهديد حقيقي بتطويق الوحدات التابعة للجيش ٦٢ وفرقتين من الجيش ٦٤ .

ولكن مخابراتنا كشفت في الوقت المناسب هذه المناورة ، لذلك أعطت قيادة الجبهة الأمر للجيشين ٦٢ و ٦٤ بالتراجع إلى خط دفاعي جديد هو : ريفوك ـ اورولوفكا ـ سوفخوز « دنوفايا ـ ناديجدا » بولشايا ـ مالايا ـ روسوشكا ـ الضفة الشرقية لنهر تشيرفلنيايا ـ نوفي روغاتشي ـ ايفانوفكا .

ذهبت في ليل ٢٠ آب مع المهندس الأول في الجيش ٦٤ أ . بوردزيلوفسكي للقيام باستطلاع خط نهر تشيرفلنايا ، وقد شاهدنا في الصباح وحدات من الجيش ٦٢ في قطاع نوفي روغاتشي وهي تتراجع ، بينما كان القتال لا زال دائراً في قطاع كاربوفكا ، ووحدات الجيش ٦٤ كانت لا تزال موجودة على بعد ٣٠ ـ ٥٠ كم من هذا الموضع ، وكنت قلقاً على هذه الوحدات ، لمعرفة فيما اذا كانت تستطيع تنفيذ تراجعها في الوقت المحدد إلى الخط الجديد وتتمكن من فض اشتباكها مع العدو،دون إثارة إنتباهه كما عملت مجموعة الجنوب في ١٧ آب .

التقينا في منتصف النهار ، بالجنرال ف . جوليكوف الذي كان هو الآخر يستطلع هذا الخط بأمر من قيادة الجبهة ، وقد سر بأنه وجد الذي سيكلفه بهذا القطاع ، كما هنأت نفسي بسبب أنه وضع تحت تصرفي في ساحة القتال لواء مدفعية مضادة للمدرعات نقله من احتياطه ، وبفضل هذا اللواء تمكنت من حماية مخاضات تشيرفلينايا على خير وجه .

واكتشف العدو في ٣٠ آب عن طريق طيرانه هذا الموضع،ورمى بعض القنابل على سرايا اللواء م/د .

أخبرت شوميلوف عن الاستطلاع الذي قمت به وعن الموقف على الخط الجديد ، وكذلك بالنسبة لموضوع الجيش ٦٢ المجاور . ولم تغمض أعيننا طوال الليل حتى منتصف نهار ٣١ آب بانتظار قدوم الوحدات المتراجعة إلى الخط الجديد ، وكان من الواضح في صباح ٣١ آب أن وحداتنا لم تستطع أن تتخلص من العدو دون أن يكتشفها .

صادف تراجع وحدات الجيش ٦٤ بداية هجوم جديد من الجيش المدرع الرابع المعادي يدعمه الطيران لذلك بدأت ألوية الجيش ٦٤ انتشارها واحتلال مواضعها الدفاعية حالا بعد أن اجتازت مجرى التشيرفيلينايا ، ثم حقق جناحا الجيشين ٦٢ و ٦٤ إتصالهما بالقرب من نوفي ـ روكاتشي كما حقق الجيش ٦٤ إتصاله مع جيش تولوبفني ٥٧ على جناحه الايسر ، وبذلك لم نعد نخشى العدو من أن يهاجم مواضعنا الجديدة دفعة واحدة .

وقد حقق الجناح الأيمن للجيش السادس فون باولوس في الأول من أيلول إتصاله مع الجناح الأيسر للجيش الرابع المعادي فون هوت في تشيرفلينايا في قطاع ستاري روغاتشي . وتم في ذلك الوقت تراجع قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ الرئيسية نحو الشرق واحتلت مراكزها الدفاعية الجديدة على مجرى روساشكا تشيرفلينايا . لقد نجح العدو في إغلاق فكي كماشته ، ليحاصر كا ستالينغراد ، ولكن ليس على الفولغا ، وإنما إلى غرب المدينة ، وفي هذه الكماشة المغلقة لم يكن هناك وجود لقواتنا .

ومنذ تلك اللحظة وجه الجيشان السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع هوت قواتهما الرئيسية وجهدهما الرئيسي نحو الجزء المركزي من المدينة على طول الخطوط الحديدية كلاتش ـ ستالينغراد وستالينغراد ـ كوتليلنكوفو .

قصفت الطائرات الألمانية في ٢ أيلول بشدة مؤخراتنا ، ومواقع رمي المدفعية ، وعقد المواصلات ومركز إتصالنا الاحتياطي الموجود في منخفض لا غودنايا وأصبح غير صالح للاستعمال ، وبالطبع كان الألمان يعرفون أمكنة مراكز الإتصالات التابعة لنا وحتى مقرات القيادة .

شن الهتلريون هجومهم على طول الجبهة في صباح ٣ أيلول . بعد قصف كثيف وتمهيد مدفعي شديد . وعندما نجح العدو ظهرا على الجناح الأيسر للجيش ٦٤ من اجتياز تشيرفلينيا طلبت القيادة تعديل وتثبيت الموقف فورا ، وأعطي الأمر للجنرال شوميلوف للذهاب إلى الأماكن التي يمكن أن يقود فيها شخصيا الهجوم المعاكس .

في حين بقيت أنا وعضو المجلس العسكري ابراموف مع وسائط الإتصال والقيادة في مقر القيادة الموجود في وادي كرافنكا بالقرب من مزرعة بوبوف . وصل لمقرنا الجنرال جوليكوف في منتصف النهار وبعد أن وضع في حقيقة الموقف ، ونقل إلينا شفويا بعض التعليمات من المجلس العسكري للجبهة ؛ تابع طريقه على طول الجبهة ، وبعد نصف ساعة تقريباً ابتدأ العدو يقصف مواقعنا ، ومن الواضح أن استطلاعه الجوي . قد اكتشف مقر القيادة ، ولم يكن بإمكاننا الانتقال إلى مكان آخر فهنا يوجد الإتصال، ومن هنا تجري إدارة القوات والسيطرة عليها ، كما أنه من غير الممكن التنقل في هذه السهوب المكشوفة تحت القصف .

لهذا كنا مضطرين للعمل والبقاء في الملاجىء التي لم تكن محمية إلا بطبقة

من التراب سمكها خمسة وعشرون سنتيمتراً تحملها شبكة من العوارض الخشبية .

كانت طاولتي الصغيرة التي كنت أعمل خلفها تحمل الهواتف، وتواجه طاولة عضو المجلس العسكري ابراموف ، وكانت مساحة الملجا ستة أمتار مربعة ، تحيط بها جنبات ترابية وسطح منخفض مع جو حار خانق ، وتراب السقف ينخل علينا الغبار عبر العوارض الخشبية ، التي كانت غير مرصوفة بشكل جيد .

تعودنا على الحياة في مثل هذا المكان بعد أن أمضينا بضع ساعات تحت سقفه ، ولم نعد نعير اهتماما لضجيج المحركات وانفجار القنابل .

وفجأة بدا وكأن مخبأنا قد قصف من الجو ، ودوى صوت انفجار يصم الآذان، ولم نشعر أنا وابراموف إلا ونحن ممددان على الأرض، ولا أعرف كيف قلبت الطاولات والكراسي ، وفوقنا ، كانت السماء مغطاة بالغبار وكتل التراب والحجارة تطير في كل اتجاه. وكنا نسمع حولنا صراخاً وأنيناً .

بعد أن خف الغبار قليلاً وجدنا على بعد ستة ـ ثمانية أمتار حفر كبيرة بقطر من ١٢ـ١٥ م تفتح فوهاتها. وحولها كانت بعض الجثث المشوهة ممدة على الارض . كما لاحظنا وجود سيارات نقل كبيرة مقلوبة رأساً على عقب . وقد تعطل جهاز الراديو،كما انقطع الإتصال عبر خط الهاتف .

كان المركز الوسيط للإتصال التابع للجيش موجوداً بالقرب من بلدة (لاغودني) ، على بعد ٢ كم جنوب المقر الرئيسي للقيادة الذي أعيد إلى وضعه ، لذلك قررت إجراء الإتصال عن طريقه مع القطعات .

اتجهت إلى هناك بالسيارة ، وبجانبي مرافقي كليموف . والسائق كاليمولين ، ولكن لم نكد نخرج من المنخفض الصغير حتى أخذت طائرات العدو تقصف مركز القيادة بقنابل ذات أوزان صغيرة . وكنا نرى طائرات الجونكرز ٨٨ (الشتوكا) تمر فوقنا وعلى مستوى منخفض ، وترمي قنابلها من عشرة إلى اثنتي عشرة قنبلة . ثم بدأت تتابع الطائرات المنفردة.وهنا أخذت إحدى طائرات الجونكرز تطاردنا وأني أقول بصراحة، برودة الدم والحساب الدقيق هما اللذان أنقذانا .

دون أن ألفت نظري عن الطائرة التي كانت تلاحقنا ، صرخت بالسائق
ـ سر بخط مستقيم إلى الأمام دون أن تدور .

وعندما رأيت أول قنبلة تسقط من الطائرة ، طلبت من السائق الدوران الحاد نحو اليمين . حرف السائق السيارة بكل سرعتها بما يعادل تسعين درجة ، وقبل أن تصل القنبلة إلى الأرض كنا أصبحنا على بعد مائة متر .

ألقت طائرة «الجونكرز ٨٨» أكثر من اثنتي عشرة قنبلة ، ولكن لم يجرح أحد منا ، ولم تكن هناك سوى شظية قنبلة أصابت السيارة وسببت خروج الزيت من محركها الذي لم يعد يعمل ، وقد حدث هذا جميعه ونحن على بعد ٣٠٠ ـ ٥٠٠ م من مقر القيادة .

صعدت على كومة من الحجارة ، في الوقت الذي كان فيه السائق يحاول إصلاح المحرك ، فرأيت الدبابات الألمانية تتغلغل في قرية تسيبنكو بمعدل اثنتي عشرة دبابة تتبعها أرتال أخرى بتعداد مائة دبابة ووصلت إلى وادي تشيرفلينيانا ، وكانت تشكل رتلاً على طول الطريق رأسه في الشمال باتجاه خط السكة الحديدية الفرعي لباسارغينو .

تبين بعد ذلك أن الدبابات استطاعت التغلب على دفاعنا في قطاع فارفاروفكا ـ تسيبانكو خلال قصف الطيران لقواتنا ولمركز القيادة . وكانت المواضع المذكورة لا تبعد عن مركز قيادتنا سوى ٢ كم في ذلك الوقت ، لم تتأخر مدفعيتنا بفتح نيرانها على العدو ودباباته . لذلك قررت عدم الذهاب إلى مركز الإتصال الوسيط والعودة إلى مقر القيادة المدمر ، حيث وجدت هناك الجنرال جوليكوف الذي أتى بالطبع ليعرف من بقي على قيد الحياة في مركز القيادة .

أعيدت الإتصالات مع أركان الجيش . وعلمنا أن القوات الفاشية ، خرقت جبهة دفاع الجيش ٦٤ ، ليس فقط في تسيبانكو ، ولكن أيضاً في ناريمان .

بقيت في مقر القيادة حتى هبوط الليل ، ثم استدعانا شوميلوف كلنا إلى مركز جديد للقيادة على بعد خمسة كيلومترات للغرب من (بيكيتوفكا) في وسط الغابة .

لقد تحملت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ خسائر فادحة ، وتراجعت إلى آخر مواقعها نحو ستالينغراد .

كانت هناك امواج بشرية لا تنقطع ، تنساب على كل الطرقات ، كولخوزيون ، سوفخوزيون ، كانوا يسيرون مع عوائلهم كاملة . في محاولة للوصول إلى معابر الفولغا ، وكانوا يدفعون أمامهم قطعان ماشيتهم ، ويحملون معهم أدواتهم الزراعية ، وكل ما هو ثمين لئلا يبقى شيء للعدو .

وسأورد هنا بعض المقطتفات من مذكرات مدير « سوفخوز » لتربية الماشية ديمتري ايفانوفيتش سولوفييف ، (كان رتل سوفخوزه قد أجلي من ضواحي خاركوف) وتوقف لبعض الوقت من محطة برودبوي في حقول كولخوز مارينوفسكي على بعد ٧٥ كم غرب الفولغا :

« .. ولكي أكون على اطلاع على مجرى الأحداث في الجبهة - كتب سولوفييف - حاولنا الإتصال بالوحدات العسكرية لسؤالها فيما إذا كنا لسنا مهددين بخطر الوقوع في أيدي العدو الفاشي مع سوفخوزنا ، ولكننا لم نعرف إلى أين ذهبت أركان الفرقة المدرعة التي كنا على صلة بها . وكانت الطائرات الفاشية تحصدنا بالقنابل والمناشير ، كما كانت تطلق نيران رشاشاتها على الأشخاص وعلى مستوى منخفض » .

« ترك رتل السوفخوز برودبوي في ليل ٢٨ آب ، ولم يكن على الطرقات أي شخص . ولم يكن من الممكن معرفة حقيقة الموقف » .

« بعد محطة برودبوي صادفنا قائد إحدى سرايا الهندسة « كاربنكو » ، وكان عليه لغم الطريق والجسور بعد مرور وحداتنا ، وقد علمت منه أنه لا يوجد طريق حر إلا الذي يقود إلى سوفخوز روغاتشينسكي . ولكن ليالي الصيف قصيرة ، لذلك لم يتقدم رتل السوفخوز حتى الفجر سوى خمسة عشر كيلو متراً ، وكنا نختبىء طيلة النهار بالقرب من أكوام القمح غير المدروس ، وأكوام الشوفان وفي المنخفضات . ولكن طائرات العدو لم تتركنا للعودة للمسير ، بل كانت تقصف قافلتنا ، وأول الضحايا سائق الحيوانات التي كانت معنا (أوسيب سيريكوف) ، الذي كان يرمي للأعلى ببندقية حربية ، وجدها في إحدى الحقول » .

« ذهبت في المساء بدراجتي النارية سالكاً الطرقات الترابية الفرعية لاستطلاع الطريق ، حتى باسارغينو وخط السكة الحديدية الفرعي . فأفادني الفلاحون الذين كنت أصادفهم بأنه لا يوجد ألمان حتى الآن ، وهذا يعني أن المزرعة لم تكن محتلة من قبل العدو » .

« توقفنا صباح ٣٠ آب وراء مزرعة باسارغينو في أحد المنخفضات ، وفقدنا في النهار امرأة وطفلين أصيبا بطلقات الطيران الفاشي » .

« في المساء أخذت القافلة طريقها باتجاه محطة فورونوبوف ، وفي الليل التقيت بسيارة فيها ضباط ، نصحونا بالسرعة إذا أردنا الوصول إلى المدينة » .

« توقف الرتل في فجر الأول من أيلول في غابة في ضواحي المدينة . وقمنا بأعمالنا دون خسائر ، وسررنا لأننا ابتعدنا عن الخطر الكبير » .

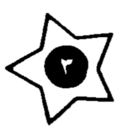
«ذهبت إلى المدينة للاستطلاع مشياً على الأقدام، فكانت تحترق، وطرقاتها ملأى بالأعمدة المنهارة ، والأسلاك الحديدية، وجدران الشقق السكنية والحديقة العامة التي كان الشيوعيون فيها يعقدون اجتماعاتهم قبل الذهاب للجبهة، كانت مفلوحة بفوهات حفر القنابل، ولا توجد فيها شجرة واحدة إلا وكانت متفحمة» .

«صادفت في أحد الملاجىء التي كانت بقرب مصب نهر تسارتيتسا أحد سكان مدينة (خاركوف) ، واسمه دمتشنكو الذي وعد بمساعدتنا على عبور الفولغا و أخذنا نرفع الحواجز من الطريق الذي ستسلكه سيارات النقل التابعة لنا وكذلك الجرارات والعربات، وأخذ منا ذلك أربع وعشرين ساعة» .

« توقف رتلنا حوالي ثلاثة أيام أمام المعبر الرئيسي . قبل أن يتمكن من عبور الفولغا بسبب الغارات الجوية التي تتابعت دون انقطاع، لذلك ظل الجميع مختبئين في الأقبية دون الخروج أبداً» .

«توقف الرتل في ٦ أيلول بالقرب من جسر «سرونار أختوبسكا» . وهناك وجدنا بعض العمال الذين أرسلوا لحراسة قطعان ماشيتنا عائدين يحملون جراحاتهم البليغة ، وقد قصفت القافلة التي كانت مكلفة بنقل المواشي من قبل إحدى الغارات الجوية على الطريق الفرعي لمزرعة سريدفا اختوبا ، وقد قتل أربعة عشر من عمالنا ، وهم يحاولون إنقاذ الماشية كما جرح ثمانية غيرهم » .

تظهر هذه المقتطفات التي أوردناها الموقف الذي كنا عليه،كما تصف الحالة المعنوية للسوفيتيين ، الذين كانوا يقدمون كل ما لديهم من قوة لمساعدة دولتهم في نضالها ضد العدو دون أن يشعروا بتغيير أو صعوبات في حياتهم العادية .



احتل العدو في الثالث من أيلول محطة فوردبونوفو ، ثم زج احتياطه في المعركة ، محاولاً تطوير هجوم مستمر ، بدءاً من محطة سادوفايا ، وازداد خطر هجوم العدو من ذلك الاتجاه لأن هذا المكان يقع على الخط الفاصل بين الجيشين ٦٢ و ٦٤ . ومع مجموعة من ضباط الأركان في الجيش توجهنا إلى قرية بستشنكا البعيدة كيلومترين عن محطة فوروبونوفو ، بمهمة تعزيز

القطاع ، ومن الحدود الشمالية الغربية من بستشنكا ، كنا نرى بشكل جيد محطة فوربونوفو ، حيث كانت تتمركز فيها ، قطع المدفعية المضادة للطائرات والمشاة والدبابات العدوة ، ثم ظهر في الجو رف من ست طائرات إيليوشن السوفيتية ، وهي تنقض على قطع المدفعية المضادة للطائرات العدوة ، وتقصفها بقنابلها وكذلك كانت تنقض على تجمعات دبابات العدو .

وبينما كنا مشغولين بمراقبة المعركة ، لم نلاحظ وصول بعض طائرات «الجونكرز ٨٨» من الجهة الجنوبية التي اكتشفت سياراتنا وأخذت بالهجوم عليها ، وأعترف أننا كنا محظوظين لوجود مخبأ جيد بالقرب منا،حيث التجأنا إليه وكان من الصعب القول كم عدد الطائرات التي قصفت الحدود الغربية لهذه البلدة . وكان يبدو لنا أن كل شيء ينفجر بقربنا ، ودام القصف حوالي عشر دقائق .

وجدنا بعد أن انزاح الغبار أن نصف مخبئنا هدم ، ومن المدهش حقا أن أحداً من مجموعتنا لم يصب بضرر أو أذى من جراء القنابل ولا حتى من جراء سقوط سقف المخبأ الخشبي .

رأينا بخروجنا من المخبأ حوالي خمس وعشرين دبابة تهاجم وتنقض على مواقعنا تتبعها المشاة . فاستقبلتها دباباتنا بنيرانها الحامية من أماكنها المحضرة والمموهة مسبقاً الواقعة في ضواحي فيرخنايا ايشنكا ، وكذلك نيران وحدات المشاة التي تحمي الدبابات .

اشتعلت النار بسبع من هذه الدبابات بعد أول رشقة من نيران دباباتنا . فاضطرت الدبابات الباقية للنجاة بتغيير اتجاهها فجأة،وعادت بسرعة إلى قواعد انطلاقها ، وسأترك هنا الحديث لأحد الذين اشتركوا في هذه المعركة وهو م . كريتشنكو وهو حالياً قائد احتياط في ستالينغراد ، وكان يقود فصيلة من لواء الحرس ١٠١ العائد لفرقة مشاة الحرس ٣٥ .

« بعد معركة ضارية بالقرب من محطة كونكوبان وقرية روسوشكي ، تلقى لواءنا (١٠١ مشاة)الأمر بالتراجع نحو ستالينغراد ، وظلت وحداته تتراجع طيلة الوقت وهي تفتح طريقها عبر ترتيب العدو القتالي الذي تغلغل قبل فترة في مؤخراتنا بمجموعات صغيرة» .

« وصلنا صباح ٥ تموز إلى مقربة من ستالينغراد،حيث تلقى اللواء الأمر بالاتجاه سريعاً إلى قطاع محطة فوروبونوفو ، وإيقاف تقدم مشاة العدو التي

اخترقت الجبهة في ذلك القطاع ووصلت السرية الأولى التي كانت تشكل المخافر الأمامية في البداية للمواقع وأخذت تحفر خنادقها الدفاعية» .

« قبل وصولنا للموقع كان يتمركز فيه لواء مدفعية مجهز بمدافع عيار ٧٦ مم ، وفور وصولنا أخلى اللواء الموقع،وانسحب إلى الأعماق . تلقت سريتنا كغيرها الأمر بالتراجع إلى خلف سكة الحديد التي يتمركز عليها عناصر أخرى من اللواء في مواقعها الدفاعية ، وبموجب أمر قائد السرية ، وضعت فصيلتي في الخنادق التي كانت إحدى سرايا المدفعية قد اخلتها ، وكان المحيط الخارجي الغربي لفيرخنايا ايلشنكا وراءنا . وكانت دباباتنا في الجنوب مموهة عن أنظار العدو في الحدائق» .

ظهرت في تلك اللحظة امام جبهة دفاع السرية ٥ ـ ٣٠ دبابة معادية،وكانت تتجمع في منخفض على بعد ٧٠٠ـ٨٠٠ م وتستعد للهجوم .

ولم نكد خلال هذا الوقت القصير الذي لدينا نحتل مراكزنا الدفاعية حتى بدأت الدبابات الألمانية هجومها علينا تحت تغطية كثيفة من المدفعية . وقد تركناها تقترب ٢٠٠ ـ ٣٠٠ م وأعطي الأمر بالنار وبنفس الوقت فتحت دباباتنا النار أيضاً من مخابئها . فأصيبت خمس دبابات عدوة من الضربة الأولى واشتعلت النار في اثنتين منها،ودبت الفوضى في صفوف العدو بسبب رمينا المدمر والمفاجيء غير المنتظر .

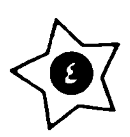
أجبر العدو على الانسحاب بعد خسارة دباباته الخمس وعشرات من رماته إلى المواقع التي انطلق منها وتبع ذلك هدوء مؤقت ، ولكن لم تمض فترة من الزمن حتى شرع العدو بهجوم جديد بالدبابات مع تغطية جوية كثيفة ودعم مدفعي مركز هذه المرة . وظهرت في البداية كالعادة « فرقة الموسيقيين » وهي طائرات تطلق أصواتاً تشبه نفير السيارات ، وتنقض بمحموعات من ثمانية طائرات قاذفة على مواقعنا الواقعة على حدود بلدة فيرخنة ايلشنكا .

« أصبنا بخسائر فادحة ، ولكننا استطعنا صد هذا الهجوم أيضاً . ولم يبق في سريتنا سوى بعض الرجال . كما دمرنا بالتعاون مع سدنة الدبابات أربع دبابات عدوة أخرى اشتعلت فيها النار أمام خنادقنا . ولم يبق في فصيلتي أيضاً سوى سبعة رجال بما فيهم أنا . استنفذنا كل وسائط دفاعنا المضاد للمدرعات ، ولم تعد لدينا الوسائط التي نستطيع بها إيقاف تقدم مدرعات العدو . لذلك قررت التراجع إلى الحدود الغربية لفيرخنة ايلشنكا . ولم أعرف بعد ذلك من خرج حياً

من المعركة لأن العدو كثف نيرانه علينا . وفقدت رشدي وطمرت بالتراب ولم استعد ذاكرتي إلا في الفوج الصحي » .

« صدت جميع هجمات العدو المعاكسة بثمن باهظ من خسائرنا وبخاصة من المشاة وتميز في هذه المعركة سدنة دباباتنا بخاصة ، ولم تخطىء نيرانهم مطلقا ودمروا للعدو خمس عشرة دبابة » .

رأينا خلال مرورنا بسفخوز « غورنايا بولينا » ونحن في طريق العودة إلى الأركان عددا من طائرات«الجونكرز ٨٨»(الشتوكا) المنقضة تشكل دائرة وتنقض على الغابات . ولا شك أنها شاهدت تجمعاً لقواتنا وعرباتنا هناك . وكانت بعض الرشاشات م/ط ذات العيار الكبير تطلق على الطائرات العدوة . وعلى إحدى سيارات النقل استقر أحد الرشاشات الثقيلة،وعندما شاهدته إحدى طائرات «الشتوكا» انفصلت عن مجموعتها وأخذت تهاجم السيارة والسلاح الرشاش ولكن الرماة السوفييت فتحوا على الطائرة النار ولم يجبنوا أمامها ورغم الاصابات التي تلقتها الآلية والثقوب التي فتحت في أطرافها ظل الرشاش يعمل وذهب جهد الطائرة سدى في القضاء عليه ، وبالانقضاض عليه ، وعلى بعد أقل من مئة متر من الرشاش سقطت الطائرة العدوة وتحطمت على الأرض .



اضطررنا للتراجع للبيوت السكنية ، بعد أن اخترق العدو دفاع قواتنا حول النطاق القريب مباشرة منا ، ثم رمى العدو بقوته الرئيسية في نقطة إتصال الجيشين ٦٢ و ٦٤ على طول الخط الحديدي اعتباراً من محطة كاربوفكا،وحتى سادوفايا ساعياً لاحتلال المدينة بضربة واحدة .

كانت القوات المعادية التي تقوم بعملياتها أمام جبهة الجيش ٦٢ والجناح الأيمن للجيش ٦٤ تقدر بعشرة إلى اثنتي عشرة فرقة مشاة وثلاث فرق مدرعة وثلاث فرق آلية . وكان لدى هذه المجموعة ٦٠٠ دبابة تدعمها ألف طائرة من الجيش الجوي الرابع .

ووصل مجموع عدد طلعات الطائرات في هذا القطاع من المعركة إلى ألف طلعة في اليوم الواحد عدا الغارات الجوية على المدينة .

وتفوقت قوات العدو علينا بعدة مرات على جبهة جنوب ـ شرق التي تدافع

عن مدينة ستالينغراد ، وتتألف الجبهة في ذلك الوقت من وحدات أنهكها القتال وأضعفها فلم يبق في بعض الفرق من الجيشين ٦٢ و ٦٤ سوى ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ رجل ، ولم يبق من عشرة ألوية كانت تعمل في منطقة الجيشين ٦٢ و ٦٤ سوى ١٦٤ رجلاً ، كما كان يلاحظ الزيادة في التفوق العددي أمام منطقة الجيش ٦٢ أيضاً كما هو مبين في اللائحة أدناه .

نسبة القوى بين الجيش ٦٢ والعدو :

	الجيش ٦٢	العــدو	نسبة القوى
الأشـــخاص	٤٥,٠٠٠	٨,٠٠٠	١,٨ـ١
مدافع عيار ٧٦ مم وما فوق	٨٥	٦٣٠	٧,٥ـ١
ســـلاح م/د	٢٦٠	٤٩٠	١,٩ـ١
مدافع هاون ٨٢ مم وما فوق	١٥٠	٧٦٠	٥,٠ـ١
دبــابــات	١٠٨	٣٦٠	٣,٦ـ١

طلبت السافكا نظراً لجدية الموقف وخطورته حول ستالينغراد من ممثلها الماريشال ج.جوكوف بموجب توجيهها الصادر في ٣ أيلول القيام بأعمال ذات فعالية ،أوضحت فيه ما يلي « تدهور الموقف أمام ستالينغراد ، وأصبح العدو على بعد ثلاثة فراسخ من المدينة ، ومن المحتمل أن تسقط المدينة بين يوم و آخر، فيما لم تقدم مجموعة جيوش الشمال المساعدة الفورية للمدافعين عنها. أطلبوا من قادة القوات المتمركزة في الشمال والشمال الغربي من ستالينغراد بمهاجمة العدو فوراً والتأخير يعتبر جريمة » .

كانت تتمركز في ذلك الوقت ثلاثة جيوش في شمال المدينة وهي الجيش ٢٤ تحت قيادة ماجور جنرال د . كوزلوف ، ويتألف من خمس فرق مشاة ولواء دبابات بالإضافة إلى جيش الحرس الأول بعد أن استكمل تعداده وتجمعه بقيادة

الجنرال موسكالينكو ، ويتألف من ثماني فرق مشاة وثلاثة فيالق مدرعة (٤ ، ٧ ، ١٦) ثم الجيش ٦٦ بقيادة ليوتنان جنرال مالينوفسكي ، ويتألف من ست فرق مشاة وأربعة ألوية مدرعة وكلها كانت قريبة .

وبموجب توجيه الجبهة ، الحق الجيش الجوي ١٦ بطائراته المئة بجبهة ستالينغراد لدعم القوات التي ستقوم بالهجوم المعاكس من الشمال والشمال الغربي .

قرر قائد جبهة ستالينغراد أن يستخدم للهجوم المعاكس قوات الجناح الأيسر للجيش الرابع المدرع بالإضافة إلى الجيوش المذكورة سابقاً لتنفيذ المهمة التي حددتها الستافكا ، كما تلقى الجيشان الجويان ٨ و ١٦ الأمر لتغطية قوات الجبهة خلال مدة تجمعها ، وتأمين هجومها وذلك بتوجيه الضربات إلى أشخاص وعتاد العدو .

كان الهدف من الهجوم المعاكس ، تدمير القوات المعادية بين الدون والفولغا ، وتحقيق نفوذ قواتنا على الضفة الشرقية للدون ونهر«دونكايا تاريستا».

كما كان لدينا معلومات عن قوات قوية تتجمع في شمال ستالينغراد بين الفولغا والدون للقيام بهجوم معاكس يستهدف قطع الممر الذي شكله العدو بين فيرتاتشي والفولغا واخراج الألمان من المدينة،وتحقيق الإتصال مع قوات الجيش ٦٢ .

ومما يجدر ذكره أنه في نفس الوقت،ورغم نفوذ القوات الألمانية على الأنهار روسوشكا ، وتشيرفالينا على النطاق الداخلي ، إلا أن تقدمها أخذ يفقد وتيرته ويفتر تدريجياً .

كان العدو يعد عدته للانقضاض على المدينة .

وكنا نفترض ، نحن المدافعين عن المدينة أن ستافكا القيادة العليا ، وقيادة الجبهة ستغتنمان الفرصة المناسبة لمهاجمة جناح المجموعة الألمانية ، عندما يتورط جيش فون باولوس في قتال الشوارع .

كلنا يعرف حالياً ماذا جرى شمال ستالينغراد :

حدد هجوم جيش الحرس الأول موسكلينكو مبدئياً في (٢) أيلول . ولكن كان من المستحيل وصول قوات الحرس في ذلك التاريخ إلى مواقع الانطلاق .

كان يمثل الستافكا على جبهة ستالينغراد ج . جوكوف الذي كان بصفته معاون القائد الأعلى يتمتع بكافة الصلاحيات،ويضطلع بكافة المسؤوليات ،

وكانت الستافكا تطلب منه إدخال الجيوش الثلاثة في العمل باستمرار .

وقد دون جوكوف في مذكراته المناقشة التلفونية التي جرت بينه وبين القائد الأعلى رداً على طلبه بتأجيل الهجوم المعاكس إلى مهلة ضرورية ، لانهاء كافة تحضيرات وتجميع القوى ووسائط الدعم ، وقد أجابه ستالين :

هل تظن أن العدو سينتظرك حتى تضربه ، وقد أكد ايرمنكو أن العدو يمكن أن يأخذ ستالينغراد من أول ضربة ، إذا لم نهاجم من الشمال .

وقد كتب جوكوف فيما بعد حول هذا الموضوع :

« أجبته بأنني لا أشاطر ايرمنكو وجهة نظره هذه ، وطلبت السماح بتنفيذ الهجوم في ٥ أيلول كما حُدد لاحقاً ، وفيما يخص الطيران سأعطي الأوامر منذ الآن بمهاجمة العدو بكل قواه »

كنت في ذلك الوقت بعيداً عن معرفة ماذا جرى خلال مثل هذه المحادثات مع القيادة العليا ونشاط هيئة الأركان العليا ، ولكنني أوافق كلياً على صحة ووجهة نظر ج . جوكوف ، فقد أوقف العدو على النطاق الداخلي ، وأصبحت وتيرة هجومه بطيئة وغير دقيقة،فإحداث خرق في المدنية،يختلف عن احتلال المدينة وكانت قواتنا في ضواحيها تقاتل بضراوة ، ولا يمكن أن يواصل العدو تورطه في حرب الشوارع .

ولكن الستافكا كانت تصر على موقفها وتضغط لتنفيذ الهجوم .

انتقل جيش الحرس الأول للهجوم في ٣ أيلول ، ولكنه زج في المعركة دون تمهيد ودعم كافيين من المدفعية أو الطيران ، وحتى قبل أن يستجمع كافة قواه على مواضع وقواعد الانطلاق . لذلك فشل الهجوم منذ الدقائق الأولى تحت ضربات نيران مدفعية العدو وغاراته الجوية .

وخلال هذه الفترة بدأ العدو يستجمع قواه على النطاق الداخلي ، ولم يعد يهاجم المدينة ، وظل الوضع على حالته الراهنة بالنسبة إلينا حتى ٥ أيلول . كما قام جيش الحرس الأول بأمر الستافكا بالهجوم أيضاً مع الجيوش ٢٤ و ٦٦ ، وفي هذه المرة أيضاً لم يكن التحضير كافياً . وقد كتب عن ذلك ج . جوكوف ، وذكر بأن كثافة نيران المدفعية لم تكن كافية لأبطال وسائط نار العدو ، ولم تعط النتائج المنتظرة،لذلك أوقفت الجيوش المذكورة هجومها .

وفي شمال المدينة كانت المعارك الطاحنة تتتابع حتى ١٥ أيلول ، وقد زجت القوات جميعها دفعة واحدة بعد مسير خمسين كيلومترا ، ولكنها لم تستطع إزاحة

العدو عن مواقعه أو تحقيق خرق في الجنوب باتجاه المدينة .

وقد أرسل في الثاني عشر من أيلول كلٍ من معاون القائد الأعلى ج . جوكوف ، وممثل لجنة الدولة للدفاع ج . مالينكوف الوثيقة التالية«للستافكا»:

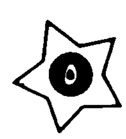
مؤسكو إلى الرفيق ستالين :

نحن نتابع دون توقف هجوم جيش الدفاع الأول والجيوش ٢٤ و ٦٤ ونفوذه دون كلل،وقد أشركنا كما ذكرنا لكم كل القوى والوسائط المتوفرة .

لم يكن بالامكان تحقيق الإتصال مع المدافعين عن ستالينغراد ، فقد وجدنا أنفسنا أضعف من العدو في المدفعية والطيران ، حيث زج جيش الحرس الأول بالهجوم ، دون أن يكون لديه حتى لواء مدفعية لدعمه ولا لواء ضد الدبابات أو الطائرات .

أجبرنا الموقف أمام ستالينغراد لزج الجيشين ٢٤ و ٦٦ في ٩/٥ دون إبطاء ودون انتظار وصول مدفعية الدعم،وقد دخلت فرق المشاة في القتال فوراً بعد مسيرة خمسين كيلومتراً ، وزُجت جيوشي في المعركة بمجموعات صغيرة دون وسائل الدعم مما جعل(على الرغم من ذلك)من المستحيل اختراق دفاع العدو وتحقيق الإتصال مع قوات ستالينغراد ، وبالمقابل فقد أجبر هجومنا المباغت العدو لأن يحول عن ستالينغراد ضغط قواته الرئيسية إلى مجموعتنا . وخف ضغطه عن مواقع المدافعين عن ستالينغراد ، وبدون هذا العمل كانت ستالينغراد ستسقط بيد العدو لا محالة »

وأني أعتقد أنه في تلك الأيام لا يستطيع جوكوف ولا مالينكوف،بسبب غياب المعطيات الكاملة تقدير الموقف تقديراً صحيحاً،وبخاصة عن أهمية القوات التي حولها فون باولوس لمواجهة هجومنا ، ولهذا فكلمة (كبدت) التي ظهرت في الوثيقة والتي نقلت عن معارك ستالينغراد ليست دقيقة . ونحن نعلم الآن بشكل مؤكد بواسطة مصادرنا والمصادر الألمانية أن فون باولوس لم يسحب من مجموع القوات سوى فرقتين من المشارف الشمالية الشرقية للمدينة، ولكن أمام ستالينغراد كانت تتمركز عشر فرق عدوة تعد نفسها للهجوم علينا .



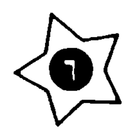
بعد أن صد العدو الهجمات المعاكسة التي قامت بها جبهة ستالينغراد اعتباراً

من الشمال ، وجه بآن واحد جهده الرئيسي مباشرة من الغرب على المدينة . وكان يقصف في ثلاثة اتجاهات . الضربة الأولى كانت بقوى الفيلق ٥١ على غومارك ، غروديشتشة أما الضربة الثانية وهي الأقوى فكانت بقوى الفيلق المدرع ٤٨ باتجاه كاريوفكا ، فوروبونوف ، توبروستوي . أي على نقطة إتصال الجيشين ٦٢ و ٣٤ ، أما الضربة الثالثة فبقوات الفيلق الرابع ووجهت على بيكيتوفكا للنفوذ إلى الفولغا . اضطرت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ للتراجع ببطء نحو النطاق الداخلي للدفاع بعد صمودها خلال عشرة أيام أمام هجمات العدو ، قاتلت جسماً لجسم . حيث أبيدت بعض الوحدات عن آخرها ،دون أن نسمح للعدو باحتلال مواقعها الدفاعية .

وللوقاية من خطر اختراق العدو إلى الفولغا وعبوره النهر ، اتخذ قائد الجبهة كل الاحتياطات للدفاع عن ضفة النهر اليسرى في قطاع«سريدنه ، بوغروموبه ، شفيتلي»، وانتشر في هذا القطاع خمسة ألوية من الفيلق المدرع الثاني ، ولكن لم يكن لدى هذه الألوية دبابات

شكل قائد الجبهة ـ بالإضافة إلى ذلك ـ على الضفة اليسرى مجموعة مدفعية قسمت إلى أربعة مجموعات صغرى ، المجموعة المدفعية الشمالية كانت تضم ٨٦ مدفعاً وهاوناً لدعم الجيش ٦٢ ، أما المجموعة الجنوبية ، فكان لديها ٦٤ مدفعاً وهاوناً لدعم الجيش ٦٤ . كما تضم المجموعة الثالثة أسطول «الفولغا» الحربي مع ١٦ مدفعاً تشكل مجموعة مناورة على الفولغا . أما المجموعة الرابعة فتضم مجموعة المدفعية المضادة للطائرات .

اضطرت قوات الجيشين ٦٢ و ٦٤ للتراجع في ١٢ أيلول إلى نطاق دفاعات المدينة رغم البسالة التي كانت تبديها ، تحت ضغط قوات العدو المتفوقة بالعدد ، وقد استطاع العدو في هذه الفترة الوصول إلى الفولغا في قطاع كوبروسنوي ، وعزل الجيش ٦٢ عن القوات الأخرى التابعة للجبهة . وقد تلقى الجيش ٦٢ مهمة الدفاع عن مركز المدينة ومناطق المصانع ، وبذلك أصبحت جبهته الدفاعية تمتد من الضفة اليمنى للفولغا بالقرب من ريفوك . وتمر من اورلوفكا وإلى الشرق من غروديشتشة ، ورازغوليفكايا ، ثم محطة التجارب ـ محطة السكة الحديدية « سادوفيا كوبروسنويا». أما أقصى مسافة بين ضفة الفولغا حتى اورلوفكا فكانت حوالي ١٠ كم ، وهكذا بدأت المعارك من أجل المدينة اعتباراً من (٣) أيلول .



لقد تعلمت من حياتي كمحارب خلال شهر ونصف من القتال الشيء الكثير وأصبح لدي الامكانية لدراسة العدو في المعركة ، وخططه التكتيكية والعملياتية .

كانت القاعدة الأساسية لكل المناهج التكتيكية والعملياتية التي يعمل بموجبها القادة الألمان تستند على تحقيق اختراقات متلاقية في العمق على هدف موحد ، لذلك كانوا بفضل تفوقهم بالطائرات والدبابات يستطيعون التغلب بسهولة نسبية على دفاعنا وينفذون على نقطة واحدة ، ثم يقومون بمظاهر تدل على أنهم يحاولون تطويق قواتنا مما يضطرها للانسحاب ، ولكن كان يكفي إيقاف أو تدمير أحد أذرع الكماشة بمقاومة صلبة أو القيام بهجوم معاكس عليها ، مما يجعل ذراع الاختراق الثاني (للكماشة) يرتبك ويفتش عن دعم له .

وهذا ما حدث وراء نهر الدون فعندما أوقفت رأس الحربة التي رمى بها الفيلق ٥١ الألماني على نهر التشير اضطرت مجموعة الصدمة الثانية للمراوحة في قطاع فيرخنة بوزينوفكا . وحدث مثل ذلك أيضاً في الجنوب ، وذلك عندما صدت قوات الجيشين ٦٤ ـ ٥٧ في آب الهجمات العدوة القادمة من الجنوب والجنوب الغربي، فتوقفت المجموعة الثانية العدوة التي استطاعت الاختراق باتجاه الفولغا . وظلت أكثر من أسبوع تقف دون حركة .

يظل تكتيك العدو في كثير من الحالات منهجياً ، فالمشاة لم تكن تسير بقناعة للهجوم إلا بعد أن تصبح الدبابات فوق هدف الهجوم . والدبابات لم تكن تقوم بالهجوم عادة إلا عندما تحلق الطائرات على رؤوس قواتنا . ويكفي أن يخل بهذا النظام حتى يتوقف هجوم العدو وتتراجع قواته إلى الخلف .

وهذا ما حدث أيضاً في الدون عندما صدت الفرقة ١١٢ بنجاح ، ودحرت لمدة أربعة أيام هجمات العدو في قطاع « فيرخنه ـ تشيرسكايا» ونوفوماكسيموفسكي ، فقد امتنع طيران العدو من التحليق فوق قواتنا لوجود مجموعة قوية من الدفاع ضد الطائرات ، كانت متمركزة قريباً لحماية جسر سكة حديد الدون . وهذا ما حدث أيضاً على نهر لاكسايا عندما لم يتسن للدبابات أن تدعم المشاة وأدى إلى صد هجوم المشاة .

تكرر نفس الموقف في بلودفيني ، ايفانيروفو ، وقطاعات أخرى .

كان الغزاة لا يصمدون لهجماتنا المفاجئة،وبخاصة التي كنا نقوم بها بالمدفعية ، وقاذفات الألغام . وكان يكفينا تنظيم ضربات متلاحقة من المدفعية على تجمعات العدو حتى نرى الهتلريين يتشتتون ويهربون برعب .

كانوا لا يتحملون القتال القريب ، فيطلقون نيران أسلحتهم الآلية على بعد كيلومتر وأكثر في حين أن طلقاتهم لا تصل إلى نصف هذه المسافة . وكانوا يطلقون النار لرفع معنوياتهم ويجربون تخويف قواتنا ، ولا يصمدون تقريباً للهجوم المعاكس ، فيختبؤون مباشرة ، بلوكانوا ينسحبون . كان لديهم إتصال منظم بين مشاتهم ودباباتهم وطيرانهم ، وبخاصة بمساعدة الشهب والطيران، وكانوا يستقبلون طيرانهم الخاص بعشرات ومئات الشهب ، بينما كانوا يخفون أنوفهم وجباههم ، وقد تعلم جنودنا وضباطنا مدلول هذه الاشارات ، وأخذوا يستعملونها مما سبب للعدو الوقوع في الأخطاء مرات عديدة .

بعد تحليل هذه المناهج التكتيكية والعملياتية التي كان يستخدمها العدو ، أخذت أجرب استنتاج طرق معاكسة ، وكنت أفكر كثيراً في الوسائط التي تساعدنا على إزالة أو تخفيف تأثير التفوق الجوي في ساحة المعركة على معنويات جنودنا ، وكنت أعود بالذاكرة لقتالنا ضد الحرس الأبيض في أعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ ، كذلك مع البولونيين البيض خلال الحرب الأهلية . عندما كنا نقوم بالهجوم تحت نيران الرشاشات والمدافع دون دعم المدفعية ، كنا نقترب من العدو بسرعة كبيرة وكأننا في سباق دون أن نترك للعدو الفرصة لاستخدام المدفعية ، وتغيير نظام رميها من الرمي الثابت إلى الرمي على أهداف متحركة وسريعة ، وبصرخة «هورا» التي كانت تطلقها أية مجموعة قررت الهجوم ، كان من المستحيل إيقاف هجومنا .

لقد توصلت إلى خلاصة عامة هي أن أفضل طريقة للنضال ضد الغزاة هي القتال القريب في الليل أو النهار بمختلف جوانبه ، لذلك من الواجب أن نكون أقرب ما يمكن من العدو لكي لا يستطيع طيرانه مهاجمة خطوطنا الأولى ، أو خنادقنا المتقدمة ، ومن الواجب أن تجعل كل جندي ألماني يشعر بأنه هدف لسلاح روسي مستعد دائماً أن يلقمه بسرعة رصاصاً قاتلاً .

عرضت لي هذه الخواطر في الساعات التي كنت أفكر فيها بمصير المدينة ، والتي من أجلها تجري معارك عنيفة . وكان يبدو لي أنه من الممكن في المعارك التي ندافع فيها عن المدينة ، أن نفرض على العدو أسلوب القتال القريب وأن

تسقط من يده ورقته الرابحة الرئيسية وهي الطيران .

استدعيت في ١١ أيلول من قبل المجلس العسكري للجبهة ، وكان مشتركاً بين جبهتي ستالينغراد وجنوب شرق وبعد أن استأذنت شوميلوف وأبراموف والرفاق الآخرين، ذهبت إلى أركان الجبهة في «لامي» ، على الضفة اليسرى لنهر الفولغا .

كان الطريق في مؤخرة الجبهة مليئاً بالعقبات ، فالطرق العرضانية والطولانية كانت مزدحمة بالقوات المتراجعة وباللاجئين . وكان طيران العدو يقوم بغارات القراصنة على المدنيين الذين كانوا متجهين نحو الشرق ، وقد تكتلت على المعابر والممرات المائية مجموعات بشرية وشكلت سدادات تنتظر العبور ، وكانت مراكب الفولغا تجتاز فروعه على دفعات.وعندما كانت تترك ضفة النهر اليمنى،تكون مملوءة بحمولة تفوق طاقتها .

كانت تتجمع على شاطىء الفولغا العربات وسيارات النقل الغاصة بالجرحى وكان المشهد يحز في القلب ، ولم يكن بإمكاني أن أقدم أية مساعدة . ولكن عندما كانوا يرون إشارتي كجنرال يطرحون علي الأسئلة:« كيف حال الوضع في المدينة؟ هل سنعود إلى ستالينغراد؟ متى يتوقف التراجع؟

لم يكن مخطط الستافكا والجبهة معروفا في ذلك الوقت ، ولكنني كنت أترك لديهم انطباعا بأننا سندافع عن ستالينغراد بكل قوانا . وكنت أؤكد للجرحى،بأننا لن نترك ستالينغراد مطلقا،ولا يوجد مكان نتراجع إليه .

ولكن عندما كانوا يسألونني متى تأتي سيارات النقل لحملهم؟ ومتى سيعالجون ؟ لم أكن أستطيع الإجابة .

كان الجرحى ممددين في العراء ، وضماداتهم مملوءة بالدم والغبار ، يشبهون جرادة الزيز فوق المبقعة ، وكان لا يصلهم من الغذاء إلا القليل . أما الأطباء والممرضون فيكادون يسقطون إعياءً .

كان مستشفى الميدان مفتوحا بالقرب من أحد المعابر . وقد دخلت إلى غرفة العمليات . حيث كانوا يعالجون جنديا مصابا في ليته بشظايا أحد الألغام . وكانت وجوه الجراحين والممرضين صفراء أكثر من ستراتهم البيضاء ، جميع الرجال كانوا منهكين من كثرة العمل والأرق ، والجرحى كانوا يئنون . وأمام أحد الطاولات كان هناك وعاء مملوء بخليط من قطع لحمية ، وبعد أن ألقى الطبيب الجراح عليّ نظرة قصيرة ، تابع عمله . أنهى الآن عملية،وعليه الانتقال إلى

عملية أخرى ، كم رقمها يا ترى اليوم ؟

على طاولة أخرى ، كان هناك جندي آخر جريح في رأسه ، يهذي بكلمات متقطعة ، وقد قصوا له ضماده ، ولا شك أن ألماً لا يحتمل كان يتعرض له ، ولكنه كان يئن فقط دون صراخ ونفس الشيء على طاولات أخزى ، وكنت أشعر بأنني أكاد أختنق بآخر نقطة لعاب في فمي،فهنا صورة ثانية لجبهة القتال .

استطعت في الليل عبور نهر الفولغا :

كنت أرى النار تلتهم الضفة الغربية ، ولهب الحرائق يضيء صفحة النهر وضفته الشرقية ولم نكن بحاجة لاشعال الأنوار ، والطريق المائي المتعرج كاد يرميني مراراً في الماء . كانت هناك قذائف ألمانية تمر أحياناً فوق المدينه وتعبر النهر وتنفجر فوق الضفة اليسرى . وكان الفاشيون يطلقون مدافعهم بشكل دوري على الطرقات المتجهة نحو الشرق إلى المدينة ، ويمكن أن يبدو لرجل غيري ، ليس له معرفة بما يجري من قتال في تلك المدينة الملتهبة ، أنه لا يوجد أثر للحياة فيها ، فقد دمر كل شيء واحترق ، ولكني كنت على علم بأنه في الطرف الآخر تدور المعارك الضارية بين قواتنا المدافعة ،وقوات الفاشية الغازية .

وصلنا ليلاً إلى قرية لامي ، أو بالأحرىٰ وجدنا المكان الذي كانت فيه منذ فترة قصيرة مدينة ، لقد دمرها العدو كلياً بمدفعيته بعيدة المدى ، وبغاراته الجوية الكثيفة ، وأكملت قواتنا وأجهزت على ما تبقى منها لاستخدامها في بناء الملاجىء والمخابىء ، ومع دلك لم اجد أركان الجبهة ، ولم أجد أحداً يدلني،أين هي موجودة حالياً ؟

بعد دوران دام حوالي ساعتين عثرت أخيراً وقبل الصباح على مخبأ قائد مؤخرات الجيش ٦٤ الجنرال الكسندروف ، وهو الذي دلني على أركان الجبهة .

كان مقر أركان الجبهة موجوداً في أحد المخابىء المخفية تحت الأرض ، وهو مغطى من الأعلى ببعض الأعشاب وقد علمت من الضابط المناوب أن أعضاء المجلس العسكري ، قد ذهبوا جميعهم قبل برهة لأخذ قسط من الراحة ، ولم يكن معروفاً سبب استدعائي للأركان . وقد اقترحوا علي الذهاب للنوم أنا الآخر حتى الصباح ، ولم يعد هناك ما يجعلني انتظر ، لذلك عدت إلى مقر الجنرال الكسندروف لقضاء الليل عنده ، ولأول مرة منذ بداية المعارك نمت نوماً

هادئاً ، فالمعركة كانت تدور بعيداً عني ٨ ـ ١٠ كم،والعدو على الضفة الأخرى للفولغا لذلك لم يكن هناك أي خوف من المفاجآت .

وصلت إلى مقر أركان الجبهة في الوقت المحدد وهو الساعة العاشرة من يوم ١٢ أيلول . وقد استقبلت مباشرة من قبل قائد الجبهة الجنرال إيرمنكو وعضو المجلس العسكري ن. خروتشوف .

أعلموني بأنني عَينت قائداً للجيش ٦٢ ووضعوني في صورة مهمتي .

كان تسلسل التعليمات كما يلي : لقد قرر الألمان أخذ المدينة مهما كان الثمن ، ولا يمكن اعطاؤهم ستالينغراد ، ولم يعد بالامكان التراجع أبداً ، وقائد الجيش ٦٢ الجنرال لوباتين قال ، بأن جيشه لا يستطيع الحفاظ على المدينة .

وأخيراً سألني قائد الجبهة :

ـ كيف ترى مهمتك يا رفيق تشويكوف ؟

لم أكن أنتظر مثل هذا السؤال ، فكل شيء واضح،لذلك أجبته حالاً :

ـ لا يمكن ترك المدينة للعدو فهي لنا ، ولكل الشعب السوفيتي ، وهي غالية جداً علينا . وفقدانها يحطم معنويات الشعب . لن أطلب شيئاً في الوقت الحاضر ، ولكن بعد دراسة الموقف في المدينة ، سأرسل للمجلس العسكري طلبات المساعدة ، وسأتخذ كافة التدابير الضرورية للتمسك بالمدينة ، وأقسم أن لا أتركها وسندافع عنها،أو نموت دون ذلك .

وهنا قال قائد الجبهة ، ووافقه جميع المجلس العسكري ، بانني فهمت أبعاد مهمتي على خير وجه .

طلبت الأذن للانصراف . وكنت أريد أن أبقى وحدي ؛ أفكر فيما إذا كنت مبالغاً في تقدير نفسي وقوتي . وشعرت بأكثر مالدي من وفاء بالواجب وشعور بالمسؤولية ، التي ألقيت على عاتقي منذ الآن فصاعداً ، فالمهمة صعبة وشاقة والعدو فعلاً على حدود المدينة .

لقد أمرت مرافقي (رينولد) بالبقاء في الضفة اليسرى ، وأن يفتش لي عن إدارة مؤخرة الجيش ٦٢ وأن يضعني بتماس معها ، فنظر إليَّ رينولد بعينين ذابلتين ، ورأيت في نظرته أنه لم يفهم شيئاً مما قلته .

ـ ماذا جرى هناك ؟ـ طلبت منه بحزم .

لم يجاوبني رينولد أبداً وبدا كل شيء واضحاً ، وعاد إلى ذهني كيف أصبح رينولد مرافقاً لي .

● رينولد شاب صغير عمره ست عشرة سنة وهو ابن المقدم يومنيه سيدورين ، الذي كنت قد تعرفت عليه قبل الحرب كضابط عمليات أركان المنطقة العسكرية لبيلوروسيا . ثم وجدت سيدورين على جبهة ستالينغراد أثناء الحرب ، كرئيس لعمليات الجيش ٦٤ ، وفي ٢٦ تموز ١٩٤٢ قتل المقدم سيدورين بالقرب من معبر للدون ، وكنت أرى دائماً سيدورين الأب والابن معاً،وكانا لا يفارقان بعضهما ، كما أنهما متشابهان جداً ، وفي مساء ٢٩ تموز اقترب مني سيدورين الابن في مقر القيادة وقدم لي تقريره :

ـ الرفيق القائد ! لقد عدت بجثمان المقدم سيدورين الذي قتل قبل قليل .

ومع علمي بأن رينولد هو ابن القتيل ، لم أعثر في ذهني على إجابة له ، ولكن عضو المجلس العسكري ، الموجه السياسي قوميسار الفرقة كونستانتين كيريكوفتش ابراموف أجابه مربتاً فوق كتفه :

ـ قدم الجثمان لقائد مقر الأركان لكي يهيء له قبراً ويستدعي فرقة الموسيقا ويعمل ما هو ضروري لدفن الجثمان . كان جواب ابراموف جافاً أيضاً ، فلم يكن يعرف رينولد ، ولم يكن يقدر مدى تحمل هذا الشاب ، ولكن بعد أن تركنا رينولد التفت إلى ابراموف ، وقلت له :

ـ هذا الشاب هو ابن المقدم سيدورين .

فنظر ابراموف اليَّ بعينين جاحظتين وأخذ يتمتم :

ـ آه ! نعم ، لا ، وركض فوراً وراء رينولد .

كان رينولد هذا الشاب ، قد التمس من والده أن يصحبه معه للجبهة ، وقد أدخله والده كجندي في سرية حرس أركان الجيش ، وامتاز رينولد بجرأته وبرمايته الجيدة على الرشاش . وكان ينفذ مهمته دائماً بدقة .

دفن المقدم سيدورين بغيابي . وفي اليوم الثاني ، عندما كنت أهمُ بالذهاب لمركز القيادة وفي اللحظة التي كنت أصعد فيها إلى سيارتي . رأيت رينولد نائماً على الأرض ، وقد انحنى كتفه من كثرة النحيب ، وبدون تفكير صرخت :

ـ الجندي سيدورين إلى السيارة مباشرة ! تعال معي . اُحمل بندقيتك الرشاشة ، واحمل أكثر ما تستطيع من الطلقات .

انتصب رينولد واقفاً ، وأصلح من هندامه ، وجرى كالسهم لتنفيذ الأمر بسرعة ، وصعد إلى السيارة بهدوء ، وقد علمت منه أثناء الطريق أن والدته قد انتقلت إلى مكان ما في سيبيريا ، فسألته بحذر فيما إذا كان يريد الذهاب

للالتحاق بها . وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع ، وفهمت منه بأني كنت مخطئاً في إيقاظ جروحه ، وأصر على البقاء قائلاً :

ـ لا،إلا إذا كنت تريد طردي ، ومع ذلك لن أترك الجبهة سأثأر منهم لوالدي وللآخرين .

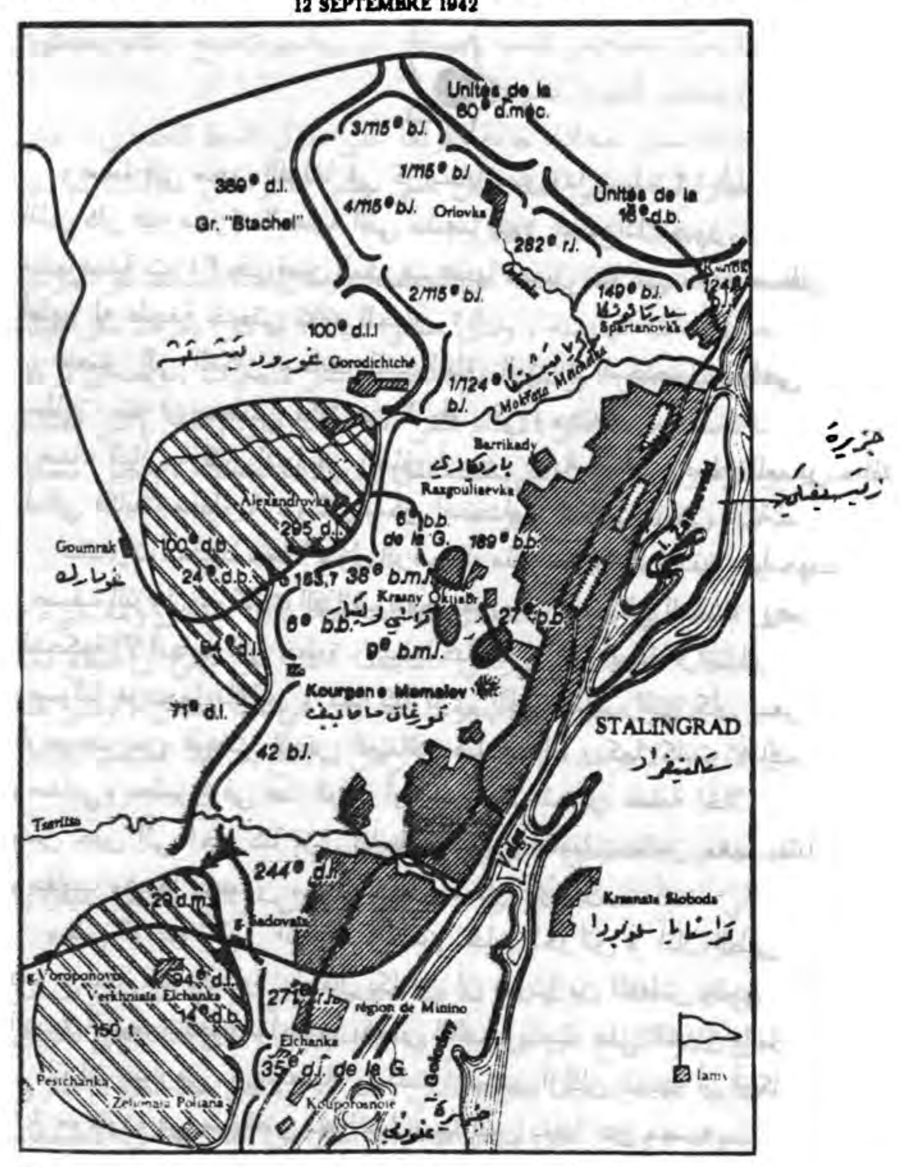
منذ ذلك الوقت لم يتركني سيدورين ولا دقيقة واحدة وعدت به للمدينة ، وكان هادئاً في المعركة وحتى مرحا ، ولم يكن يخشى شيئاً ، ولكنه كان يبدو في بعض الأحيان حزينا وبخاصة في المساء ، ويبكي والده في سره .

وبقي رينولد سيدورين فترة طويلة في صفوف القوات السوفيتية حتى أصبح مقدماً ، وأبلى بلاءً حسناً طيلة خدمته العسكرية،خلال الحرب الوطنية الكبرى في مقارعة الأعداء .



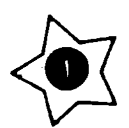
مواضع قوات الطرفين في المنطقة الدفاعية للجيش ٦٢
١٢ ايلول ١٩٤٢

POSITIONS DES PARTIES DANS LA ZONE DE DÉFENSE DE LA 62° ARMÉE.
12 SEPTEMBRE 1942



كورغان ماماييف

(١)



وصلنا إلى معبر الفولغا في كراسنايا سلوبودا مساء ١٢ أيلول في الوقت الذي كان فيه محرك المعدية التي ستنقلنا يدور استعداداً للعبور ، وتحمل على متنها دبابة ت ٣٤ وقد رفض المشرف عليها تحميل سيارتي ، مما اضطرني لأن أظهر له طبيعة خدمتي كقائد للجيش ٦٢ .

حضر إلى المكان مساعد قائد الفيلق المدرع المختص بالنواحي الفنية ، وطلبت منه أن يعطيني فكرة عن الموقف في وحدته .

- مساء البارحة كان لدينا في الفيلق أربعين دبابة نصفها يصلح للمسير ، أما الباقي فكانت معطوبة . ولكن يمكن استخدامها كمراكز رمي ثابتة .

استدارت معديتنا شمالاً حول الرأس الرملي لجزيرة غولودني ، واتجهت نحو رصيف النزول ، وكانت القذائف تنفجر من وقت لآخر في الماء ، ورغم رمايتها المحكمة إلا أنها لم تكن خطرة . وبينما كنا نقترب من الضفة رأينا الرصيف عند وصولنا مزدحماً بالناس ، كما كنا نرى آثار القنابل التي كان يتعرض لها الرصيف من فوهات الحفر المتناثرة هنا وهناك ، كما كانت هناك ممرات ومخابىء مطمورة في هذا الوقت أيضاً ، كانت تجري عملية إخلاء الجرحى . ومن حين إلى آخر كنا نرى أناساً يظهرون أمامنا يحملون معهم بقايا ألبسة وحقائب وغيرها يحتمون من القذائف بانتظار الرحيل .

وعلى الوجوه تظهر آثار السواد من دخان الحرائق و آثار الطين اليابس . دموع ممزوجة بالغبار . أطفال يكادون أن يموتوا من العطش والجوع . يمدون أيديهم الصغيرة نحو الماء،مما يقبض القلب ويبعث على الحزن والمرارة .

أنزلت سيارتي من المعدية . وكنت أعلم من أركان الجبهة أن أركان الجيش ٦٢ موجودة في منخفض نهر تساريستا ليس بعيداً عن مصبه.

كانت شوارع المدينة خالية كالصحراء . ولم يكن على الأشجار أي غصن أخضر ، فكلها كانت متفحمة بسبب الحرائق . ولم يبق من البيوت سوى قواعدها أو ممراتها، أنابيب مياه ، مدافىء ، وحطام كثير من المنازل الحجرية ، التي أصبحت دون نوافذ وأبواب ، وأثاثها أصبح أسمالاً بالية . كنا نصادف في بعض الأحيان ، أبنية تعج بالسكان ، الذين كانوا يخرجون منها حاملين كل ما يمكن حمله من ألبسة وسماوارات . وأجهزة طبخ . كانوا يحملون كل ذلك إلى رصيف العبور على النهر .

كانت سيارتنا تسير بمحاذاة حافة الفولغا على طول الخط الحديدي ، حتى مصب نهر تساريتسا ثم إلى المنخفض حتى جسر استراخان . ولكننا لم نجد مقر القيادة . ولم يلبث أن حل الظلام .

صادفت أحد الضباط ليس بعيداً عن المحطة ، وكان هذا الضابط هو الموجه السياسي لأحد وحدات الهندسة ، وكان حظي جيداً ، إذ كان يعرف مقر قيادة الجيش . وقد حملته معي . وقادني حتى أسفل كورغان مامايف . وبعد أن تركنا السيارة أخذنا نصعد مشياً على الأقدام حتى سفح الكورغان (التل) في الظلام الدامس . وكنا ندوس بأقدامنا على الحشائش والأسلاك الشائكة ، وأخيراً سمعنا صرخة طويلة ، إنه صوت الخفير :

- قف من يتحرك ؟

كان مقر القيادة عبارة عن منخفض حفرت فيه حديثاً خنادق وملاجىء . وتحصينات ميدانية ، هذا هو كورغان مامايف هل كان عليّ أن أتوقع بأنه سيصبح مسرحاً لأكثر معارك ستالينغراد ضراوة . في هذا المكان . وعلى هذا المرتفع من الأرض لا يوجد أي شبر من الأرض لم يفلح بقذائف المدفعية وقنابل الطائرات .

تلك كانت النهاية المنتظرة لسفري في ذلك اليوم .

ها أنذا في مخبأ تحت الأرض . خاص برئيس أركان الجيش نيقولاي ايفانوفتش كريلوف .

لم نلتق من قبل مطلقاً . ولم نكن نعرف بعضنا . وفي الواقع كنت أعرف أنه كان أحد الذين قادوا الدفاع عن أوديسا ، وسيباستوبول . كان لقاء على طريق الحرب . وهذا ما كنا نردده أنا وهو ، نلتقي ونفترق . ولكن هذه المرة لم نفترق مطلقاً حتى الموت . وكان عليّ أن أرافقه وهو أكثر من أعتز به من الأصدقاء

وأنه كان أكثرهم إلتصاقاً بي طيلة عمري الطويل. ورافقت نيكولاي ايفانوفتش، مارشال الاتحاد السوفيتي ، القائد الاعلى لقوات الآلات الستراتيجية في اخر رحلة له إلى الساحة الحمراء ، إلى مثواه الأخير .

لم تعمد صداقتنا فقط في معارك ستالينغراد ، ولا في الليالي التي كنا نقضيها جنباً إلى جنب تحت نيران العدو ، ولكنها المرارة المشتركة على فقد أصدقائنا زملاء السلاح .

وماذا بعد ؟ نعم لم نكن نعرف بعضنا ، ولم أكن أعرف فيما إذا كانت طبائعنا تتلاءم في هذا المكان خلال الأحداث .

لم يكن مخبأ كريلوف مخبئاً بالمعنى الصحيح ، فهو خندق عريض مغطى بالأغصان والقش،وفوق هذه كانت هناك تغطية ترابية بسماكة خمسة وعشرين سنتمتراً من التراب . ومن الجانب كان هناك مقعد من التراب أيضاً ، وفي الواجهة سرير وطاولة من تراب ، كان السقف يهتز مع انفجار القنابل ، وكان الألمان يقصفون في ذلك الوقت المدينة بمدفعيتهم بما فيها كورغان ماماييف رمياً دورياً دون هدف محدد ، وكان التراب يتناثر على الخرائط المنشورة على الطاولة .

لم يكن في المخبأ سوى اثنين . الجنرال كريلوف ، وسماعة التلفون بيده وعاملة التلفون التي كانت تعمل نهاراً إيلينا باكريفيتش ، وهي شابة في الثامنة عشر من عمرها ، زرقاء العينين . كان كريلوف يتكلم مع أحدهم بنبرة حادة ، وبصوت حازم ينم عن الغضب . وكانت الفتاة باكريفتيش تجلس عند المدخل وهي تضع سماعة الهاتف على إحدى أذنيها لتجاوب بعضهم :

ـ إنه مشغول على السماعة الثانية .

أخرجت كتاب مهمتي ووضعته أمام كريلوف ، وبدون أن يقطع توبيخه لمن يتكلم معه ، رمى نظرة سريعة على الورقة . ثم أنهى محادثته . وحيينا بعضنا ، وعلى ضوء مصباح الكيروسين النحيل ، رأيت وجهاً حيوياً وقاسياً ، ولكنه في نفس الوقت قريب من القلب .

ـ أنظر أيها الرفيق قائد الجيش ـ قال كريلوف ـ لقد نقل قائد الفيلق المدرع مركز قيادته من المرتفع ١٠٧،٥ إلى شاطىء النهر نفسه ، دون أذني ، ويمكن القول بأن مقر قيادة هذه الوحدة أصبح خلفنا ، إنها فضيحة .

وافقته على قوله ، بأن ذلك يعتبر فضيحة ، وأخذت طريقي للجلوس أمام

الطاولة ، وكان جرس التلفون يرن في كل لحظة ، حيث تنقل له باكريفيتش المكالمة فيعطي تعليماته لليوم الثاني .

أخذت أصغي له ساعياً للنفوذ ومعرفة معنى المحادثة دون ازعاج كريلوف ، ولكني كنت أصغي وأدرس في نفس الوقت خريطة العمل الخاصة بكريلوف ، وكانت الأرقام والأسهم تسجلان الاتجاهات ، وكنت أريد منه أن يطلعني على مجرى الأحداث ، ولكني كنت أشعر أن الوقت ينقصه لكي يستعرض معي الموقف كاملاً ، وكان عليَّ أن أثق بكريلوف بدلاً من أن أعيق عملياته ، ولا أغير في خطته لليوم الثاني ، وعلى كل حال لم يكن باستطاعتي تغيير أي شيء ولو كان ضرورياً .

كان يقال في الزمن القديم « الزمن من فضة » ولكن في مثل هذه الأوقات الحرجة « الزمن هو الدم » ، لأنه من الواجب دفع ثمن الزمن الضائع من دم رجالنا ، ومن الواضح أن كريلوف كان يدرك نواياي ، لذلك فقد أخذ أثناء مناقشاته التلفونية يضع رأس قلمه على القطاع الذي كان يتكلم عنه ، ويشرح بالتفصيل ، ويعيد المهمات لقادة الوحدات وفي نفس الوقت كان يضعني في صورة الموقف ، شعرت بأننا وجدنا لغة مشتركة فيما بيننا .

لم نفترق بعد ذلك أبداً طيلة المعارك التي وقعت في المدينة،وكنا نعيش في نفس الدشمة (البلوكوس) ، أو في نفس الخندق أو الملجأ ، وكنا ننام ونأكل سوية ، وتجرعنا سوية كأس المرارة وكأس السرور .

كان بالنسبة لي رئيس أركان الجيش ، ومساعدي الأول ، تعرفنا جيداً على بعضنا ، وكانت تقديراتنا للأحداث ومهما كان الموقف،لا تختلف إلا قليلاً عن بعضها ، ولكنها كانت متقاربة جداً في أكثر الأحيان .

كنت أقدر بخاصة الخبرة العسكرية التي كانت لدى نيقولاي ايفانوفتش والتي اكتسبها أثناء الدفاع عن أوديسا ، و سيباستوبول . كما كنت أقدر أهليته كمنظم وقدرته على العمل مع الأشخاص ، وكانت أهم الميزات الرئيسية التي يتصف بها الشيوعي نيقولاي ايفانوفتش كريلوف ، هي الاخلاص والشعور بالمودة والصداقة الصميمة والأمانة في تأدية الواجب .

أرسلت برقية للمجلس العسكري للجبهة،أعلمهم فيها عن وصولي إلى مقر عملي واستلامي قيادة الجيش ٦٢ ثم بدأت في العمل ، وأول ما قررته هو الاستيضاح عن الأسباب ، التي جعلت قائد الفيلق المدرع ينقل مقره الخاص إلى

ضفة الفولغا مع أن الأوامر كانت تنص على أن لا خطوة إلى الوراء ، وقد طلبت استدعاءه على الهاتف للتكلم معي .

- قائد الفيلق المدرع على الهاتف - أعلنت باكريفتش وأعطتني السماعة .

بعد أن أعطيته اسمي ، طلبت منه تفسيراً ، عن أسباب تحريك مركز قيادته دون أوامر . فأخذ يشرح لي بأنه أجبر على ذلك بسبب نيران الهاون التي كانت تنصب عليه ، والخسارة في الأشخاص وعدم الانضباط في الوحدات وأسباب مختلفة أخرى ، وكنت مهتماً في معرفة ، فيما إذا كان علي إتصال مع مقر أركان الجيش عندما فكر بهذا القرار فأجاب :

- لا أعرف ، ولكنني أوضح ذلك الآن .

وهنا أعطيت أمري للجنرال بالمجيء فوراً مع قوميساره لمقابلتي في كورغان ماماييف .

في هذه الأثناء دخل إلى الملجأ عضو المجلس العسكري للجيش قوميسار الفرقة كوزما اليموفتش غوروف ، وتبادلنا التحية بالمصافحة بالأيدي وكنا نعرف بعضنا مسبقاً ، فمع الرفيق غوروف عملنا سوية ، كما هو الحال مع كريلوف . صحيح أننا لم نكن في نفس المخبأ ، إلا أن مخبأه كان بعيداً ثلاثة أمتار عنا فقط ، وكنا نلتقي في المرصد ، وخلال تحليلنا للموقف واتخاذ القرارات .

كان موجهاً سياسياً ، ولكنه كان يفهم الموقف العسكري جيداً ، ويعرف ويطلب ويظهر بنفسه كيف يمكن تنفيذ القرارات العسكرية وإدارة العمليات من الوجهة السياسية . وكان يعرف جيداً كل أشخاص الأركان وقيادات الوحدات ، ويعرف ويقترح غالباً الذين من الممكن الثقة بهم أو تكليفهم بالمهمات .

ثم دخل إلى المخبأ رؤساء مكاتب الأركان ومساعديهم وقدموا أنفسهم ، وبعد قليل أخبرت بوصول قائد وقوميسار الفيلق المدرع ، وقد دعوتهم مباشرة للدخول فجسلوا بجانب من كانوا من الأركان في تلك الفترة ،وبعد جلوسهم سألت قائد الفيلق :

- كيف وأنت جنرال سوفيتي ، وقائد قطاع في معركة مصيرية ، تواجه الأمور إذا كان أعوانك ضباطاً ، وأركان حرب ، يتراجعون إلى الخلف ، وبدون أوامرك ، كيف تقدر تصرفك من وجهة نظر تنفيذ الأمر اليومي رقم ٢٢٧ الذي صدر عن قوميسار الشعب للدفاع ، وهو نقل مركز قيادة وحدة دون أمر ، وإلى خلف مقر

قيادة الجيش ؟

لم أتلق جواباً عن سؤالي ، ولكن قائد الفيلق والقوميسار ذابا من الخجل ، وكان يرى ذلك في عينيهما .

ثم بادرتهما بعد ذلك بالكلام بقسوة ، لأني أعتبر عملهما هذا ، ما هو إلا نوع من الهروب من المعركة ، وطلبت منهما العودة ، وأني سأجدهما بتاريخ ١٣ أيلول الساعة الرابعة في مركز قيادتهما على المرتفع ١٠٧،٥

أكد غوروف على قراري بقوله (صح) ، وأمر القوميسار أن يلحق به إلى ملجئه ولا أعرف ماذا تحدثا . ولكن عندما التقيت بغوروف قال لي :

ـ هكذا ستعمل من الآن فصاعداً .

في هذا الوقت وصل إلى مقر القيادة مساعد قائد الجبهة الجنرال ف . جوليكوف ، وكنت سعيداً بلقائه في كورغان ماماييف في الوقت الذي أستلم فيه قيادة الجيش ٦٢ .

كنا نرى بعضنا كثيراً في ساحة القتال ، فقد كان دائم التحرك ، ويعرف بشكل جيد الموقف لدى كل الجيوش ، وكان يأمل دائماً بتحسن الموقف ، وقد شرح لي بصراحة رأيه حول مجرى القتال . وكل المعارك ، وفي هذه المرة نقل إليَّ معلومات قيمة .

تركنا فيليب ايفانوفتش بعد قليل ، وبعد أن وعدني بأن ينقل للمجلس العسكري للجبهة ، ضرورة دعم الجيش ٦٢ ببعض الفرق الجديدة ، وقد وفى بوعده بسرعة ، وفي الوقت المناسب بعد أن ضعفت القدرة القتالية لوحدات وأقسام الجيش ٦٢ بشكل كبير خلال المعارك السابقة ، فبعض الفرق لم يبق في صفوفها سوى مائة أو مائتين من الأفراد ، وكان جوليكوف يعرف أنه بمثل هذه القوى ، من الصعب الدفاع عن المدينة فقد نزف دم الجيش بلا حدود . وتحملت الفرق التي ألحقت بالجيش ٦٢ في تموز وبداية آب خسائر فادحة في المعارك التي دارت في منحنى الدون الكبير ، ولم يبق من فرق المشاة القديمة إلا واحدة هي الفرقة ١١٢ وقسم من فرقة المشاة ١٩٦ وبمراقبتي للطريقة التي يعمل بها كريلوف ، تعرفت إلى كل المساعدين ، وحتى الساعة الثانية صباحاً اطلعت تقريباً على مجرى الأحداث بعمق ، ولكن كانت لا تزال هناك بعض التفاصيل الرئيسية غائبة عني .

كان الموقف حتى نهاية ذلك اليوم كما يلي (انظر الخريطة رقم (٢))

تتألف قوات العدو التي تهاجم وحدات الجيش ٦٢ . من جيش الميدان السادس بقيادة فون باولوس، وبعض فرق الجيش المدرع الرابع بقيادة فون هوت. وقد استطاع قسم من هذه القوات النفوذ إلى الفولغا في الشمال من بلدة (رينوك) وجنوب بلدة كوبوروسنوي . وكان جيشنا محصوراً جبهياً بين الفولغا والعدو ، ومن الجانبين كان محصوراً بين ذراعي كماشة قوية من القوات الألمانية .

كانت قوات الجيش السادس الهتلري تحتل في الشمال القطاع الممتد من لاتشوتكي حتى المرتفع ١٣٤,٤ في جبهة نصف دائرية من الجنوب إلى الشمال : فإلى اليسار كانت الفرقة ٦٠ الآلية العدوة تشكل جبهة باتجاه الجنوب من المرتفع ١٣٥،٤ حتى المرتفع ١٤٧،٦ ، وإلى الأبعد من ذلك باتجاه الشرق ، واعتباراً من المرتفع ١٤٧،٦ مروراً بالمرتفع ١٠٨،٨ حتى المرتفع ١٢٩،١ كانت فرقة مشاة العدو ٣٨٩ تتمسك بالجبهة ، أما فرقة المشاة الخفيفة ١٠٠ فكانت تحتل القطاع اعتباراً من المرتفع ١٢٩،١ بما فيها غورديشتشه .

كانت الفرق الأربعة المعادية تحتل مع وسائط دعمها ، جبهة ممتدة حوالي ٢٥ كيلومتراً . ولكنها لم تكن تظهر أي نشاط خاص ، ومن الواضح أنها تكبدت خسائر فادحة في المعارك السابقة ، وهي بحالة إعادة تنظيمها واستكمال تعدادها ، لذلك وضعها العدو مؤقتاً بحالة الدفاع .

أما في الجنوب ، بما في ذلك غوروديتشتشة - اليكسندروفا - المستشفى فتعمل مجموعة صدام عدوة على جبهة تمتد حوالي ١٠ كم ، وكانت مؤلفة من ثلاث فرق مشاة هي ٢٩٥ ، ٩٤ مع وسائط دعم قوية ثم الفرقة المدرعة ٢٤ ، وكانت تركز جهدها على القطاع من كورغان ماماييف إلى المحطة المركزية باتجاه الميناء النهري الرئيسي

وفي قطاع المرتفع ١٤٧،٠ - ضواحي مينين ، كوبورسنوي تعمل مجموعة الصدام الجنوبية على جبهة ١٠ كم وهي مؤلفة من ثلاث فرق : الفرقة الآلية ٢٩ الفرقة ١٤ الألمانية المدرعة، والفرقة الرومانية ٢٠ مشاة وتتجه بخط مستقيم شرقاً مع مهمة النفوذ على الفولغا .

كان احتياط العدو الأمامي حسب معطيات مخابراتنا موجوداً : في قطاع غومارك ، فرقة واحدة أو فرقتان أو ثلاثة موجودة في فوروبوفوف ، كاربوفكا ، مالايا ، روسوشكا .

كان هذا التجمع مؤلفاً من تسع فرق عدوة مع وسائط دعمها ومجموعة

« ستاهل » وبدعم هذه القوى في هجومها ضد الجيش ٦٢ ، الجيش الجوي الرابع المؤلف من أكثر من ألف طائرة من مختلف الأنواع . والهدف المباشر لهذه القوات الألمانية القوية كان «بسيطاً» وهو الانقضاض على مدينة ستالينغراد واحتلالها والنفوذ على نهر الفولغا . يعني هذا التقدم بقوة وسرعة واجتياز هذه المسافة التي تتراوح ما بين ٥ ـ ١٠ كم ثم قذفنا بالنهر .

لا يعطي عدد الفرق والألوية ، التي كان يتألف منها الجيش ٦٢ فكرة صحيحة ودقيقة عن العدد الحقيقي ولا عن امكانات قواته المذكورة فمثلاً : لواء مدرع كان لديه في صباح ١٤ أيلول دبابة واحدة ودبابتان أخريتان محطمتان تماماً ، نقلتا إلى الضفة اليسرى للفولغا لاصلاحهما بسرعة ، ومفرزة المسير المشكلة من مختلف الألوية والفرق ، كان في صفوفها مساء ١٤ أيلول ٢٠٠ حربة (مقاتل) يعني أقل من فوج قتال نظامي . أما جارتها الفرقة ٢٤٤ مشاة فلا يتجاوز تعدادها ١٥٠٠ شخص ولكن عدد المحاربين فيها لا يتجاوز أيضاً فوج قتال نظامي ، ويعد لواء المشاة ٤٢ بكامله ٦٦٦ شخص ، منهم فقط مائتا مسلح ، وفرقة مشاة الحرس التي تحتل الجناح الأيسر بقيادة ف . دوبيانسكي ، لم يبق فيها سوى ٢٥٠ محارب . وهكذا تعداد بقية الوحدات والأقسام الأخرى في الجيش.أما المدرعات فلم يكن لدى كل ألوية الفيلق المدرع بقيادة الجنرال بوبوف سوى ٤٠ ـ ٥٠ دبابة ثلثها معطوب وتستخدم كمواقع نارية ثابتة . والفرقة الوحيدة بتعدادها الطبيعي ، كانت فرقة العقيد ا . ساراييف وكذلك ثلاثة ألوية مشاة مستقلة .

لم يكن لدى الجيش ٦٢ إتصال مباشر مع جيرانه من اليمين أو اليسار ، بينما كانت أجنحته تستند على ضفاف الفولغا .

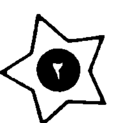
كان للعدو التفوق الجوي الواضح ، وإذا كان الطيران الالماني يستطيع تنفيذ ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ طلعة يومياً فطيراننا لم يكن يستطيع الرد ولا حتى بعشر طلعات أو يقدم لنا الحماية الضرورية ، كما دمر القسم الأكبر من دفاعنا الجوي بفعل العدو ، وتراجع القسم الثاني إلى ما وراء الفولغا ليتمكن من حماية الشريط الأرضي على طول الضفة اليمنى . ولم يبق في هذه الضفة سوى عدد لا أهمية له من سرايا المدفعية . صحيح أنه اعتباراً من ١٣ أيلول أخذت ألوية م/ط ١٠٧٩ ـ ٧٤٨ تشترك في الدفاع الجوي ، وتم تشكيل مجموعة المدفعية بقيادة العقيد ز . ابرشوف ، ولكن لم يكن ذلك كافياً فمنذ هبوط الظلام يبدأ الطيران

الفاشي بالتحليق فوق المدينة وعلى مواقعنا حول الفولغا .

بمراقبتنا لعمل القاذفات العدوة ، كنا نلاحظ أنهم لا يمتازون بدقتهم وكانوا يرفضون الغارة على الخطوط الأولى،إلا في الأمكنة التي توجد فيها أرض محايدة عريضة ، تؤمن مسافة كافية بين مواقعنا المتقدمة ومواقعهم . وقد أوحى لنا تصرفهم إلى تقليل عرض الأرض المحايدة إلى أقصى حد ممكن.

من الواجب قبل كل شيء رفع الروح المعنوية وتقوية القدرة القتالية للجيش ٦٢ ، وحل هذه المشكلة جذريا،فالخسائر التي تكبدتها القوات والانسحاب المتواصل يضاف إلى ذلك النقص في الذخيرة والغذاء وصعوبة التعويض بالأشخاص والعتاد تأثيرات مثبطة لمختلف أقسام الجيش والقوات التابعة له . حتى أنه تولد لدى بعضهم الرغبة بالهروب إلى الضفة اليسرى للابتعاد عن هذا السعير الناري .

بذلت منظمات الحزب والفصائل السياسية قصارى جهدها لدعم الروح القتالية للجنود كما عمل رفاق السلاح والمعاونين والأصدقاء الكثير في هذا الاتجاه ، وعلى رأسهم قوميسار الفرقة غوروف وكل من الجنرالين كريلوف وبوجارسكي وكذلك قوميسار اللواء فاسيلييف ، وآخرون مثلهم ، وقد أدرك جميع القادة والموجهون السياسيون للوحدات أن نضالنا من أجل حماية المدينة سيكون حتى آخر شخص فيهم و آخر طلقة .



جمعنا المجلس العسكري قبل كل شيء وتحاورنا واتخذنا تدابير،كان بدونها من المستحيل الاستمرار في القتال وهي :

١ ـ كان من الضروري بالنسبة إلينا تقوية القناعة لدى القوات بأنه أصبح من المستحيل التراجع إلى الوراء أكثر من ذلك ، ولم يعد أمامنا سوى هزيمة العدو . ويجب أن يجري القتال من أجل المدينة والدفاع عن آخر مواضعنا بحقد وكراهية ضد العدو المهاجم . وعلينا نحن الجنود السوفييت تلبية نداء الحزب ، وأمر الشعب الخاص بالدفاع أو الموت، ولا بديل لنا غيره .

نقل نص الامر اليومي إلى كل المقاتلين ومنظمات الحزب والكومسمول (الشبيبة) عن طريق الضباط والموجهين السياسيين .

٢ ـ قرر المجلس العسكري للجيش تشكيل مفارز مسلحة في كل المؤسسات الكبرى من العمال والموظفين الذين بامكانهم الدفاع عن مصانعهم ومعاملهم بجانب أو بدون وحدات الجيش ، وقد وزعت عليهم الأسلحة والتجهيزات مثل بقية القوات .

وتحت القنابل ، وانفجار القذائف كان العمال والموظفون يعيدون إصلاح العتاد المعطوب أو المدمر الذي يمكن اصلاحه .

كما حولت بعض المفارز المسلحة بموافقة وتحت اشراف تنظيمات الدولة والحزب إلى سرايا وأفواج قتال ودخلت في المعركة .

٣ ـ منع المجلس العسكري كل انسحاب أو تراجع من المواضع المحتلة حالياً دون موافقة قائد الجيش وأركانه .

٤ ـ اتخذ المجلس العسكري القرار التالي : يبقى قائد الجيش والأركان في الضفة اليمنى لستالينغراد،ولا يتركونها بحال من الأحوال إلى الضفة اليسرى أو لاحدى الجزر .

نقل قرار المجلس العسكري إلى علم كل المحاربين ونوقش في اجتماعات تنظيمات الحزب والكومسمول .

كان علينا ايضاً في نفس الوقت إعادة تشكيل بعض وحدات الجيش فلم تكن هناك أية وحدة أو قسم تام التعداد وبعضها لم يكن فيه سوى نصف التعداد من الأشخاص والعتاد ، ولهذا السبب وخلال معارك أيلول نقلت إدارة بعض الفرق والألوية إلى الضفة الشرقية من الفولغا لاعادة تشكيلها . جمعت بعض العناصر المنعزلة وشكلت منها وحدات جديدة ، ولم يكن هذا تراجعاً إلى الضفة اليسرى للفولغا ، ولكنها كانت تدابير أملتها ضرورات عسكرية .

أنهى المجلس العسكري ـ في ١٣ أيلول الساعة الثانية صباحاً ـ خطة عملياته لليومين أو الثلاث أيام التالية .

ـ ربما نأكل لديك بعض الأحيان أم لا ؟ـ سألت كريلوف

ـ نعم هذا ما يحدث معنا من وقت إلى آخر ـ أجاب عنه غوروف .

قدم لنا معاونونا قطعاً من الخبز والمأكولات المحفوظة وشاياً بارداً ، وبعد هذه الوجبة الصغيرة . انفصلنا عن بعضنا ، وذهب كل منا إلى نومه ولديه نفس التفكير : (معرفة ماذا يخبىء لنا اليوم التالي).

قررنا قبل كل شيء حماية معابر الفولغا ضد مدفعية العدو ومن الضروري

الانتقال إلى الدفاع الصلب على الجناحين الأيمن والأيسر . أما في الوسط فالقيام بهجمات جزئية لاحتلال خط السكة الحديدية الفرعي رازغوليفكا والخط الحديدي الذي يتجه نحو الجنوب - الغربي ، حتى التفافه نحو غومارك . وسيسمح لنا هذا تقديم خط الجبهة في الوسط،والاستناد إلى حافة الخط الحديدي كحاجز ضد الدبابات . وبالتالي احتلال غورودیشتشة والكسندروفا . وعهد للفيلق المدرع تعززه وحدات المشاة ، وباسناد كتلة مدفعية الجيش بتنفيذ هذه المهمة ، وكان من الضروري أن ينهي الفيلق المدرع تجمعه في ١٣ أيلول والقيام بالهجوم في ١٤ ، ولكن العدو سبقنا .

استيقظنا في الصباح الباكر على نيران المدفعية وغارات كثيفة من طيران العدو والقنابل تتساقط علينا .

ابتدأ الألمان هجومهم في الساعة السادسة والنصف صباحاً اعتباراً من قطاع رازكوليفكا بفرقة مشاة مع أربعين إلى خمسين دبابة وكان هدفهم كورغان مامايیف من اتجاه افياغورودوك والمحطة المركزية .

اقتصر العدو هجومه على أجنحة جيشنا الاثنين على عمليات تثبيت وقد هاجم من الشمال باتجاه اوزلوفكا بفوج مشاة يعزز على الجناح الأيسر ، كما رمى ببعض الأفواج المنفردة على دفاع ألوية المسير .

دامت المعارك طيلة اليوم في الوسط وعلى الجناح الأيسر . حيث زج العدو بأفواج جديدة من احتياط جديد مطوراً هجومه ، وكان يقصف جانبياً مواقعنا بقذائفه وألغامه الغزيرة بينما شكل طيرانه مظلة دائمة فوق ساحة المعركة .

كنا نرى جيداً من كورغان مامايیف ساحة المعركة والمعارك الجوية ، وتحت نظرنا تحطمت على الأرض عشر طائرات من طيران الفريقين،وأخذت تشتعل فيها النيران ، وبالرغم من المقاومة الصلبة التي أظهرتها قواتنا البرية والطيران السوفيتي تغلب علينا العدو بفضل تفوقه في العدد والعدة .

لم تكن هذه العملية باعتبارنا سوى عملية استطلاعية للجيش ، ومن الواجب انتظار هجوم قوي لقوات العدو الرئيسية خلال يوم أو يومين على أكثر تقدير وهذا ما حدث .

انهال على مقر قيادتنا وعلى قمة كورغان مامايیف وابل من القنابل والألغام وكنت أعمل في نفس المخبأ الموجود فيه كريلوف ، وكنت أخرج من حين إلى آخر لمراقبة سير المعركة بمنظار الميدان العاكس، ودمرت لنا بعض

التحصينات والمراكز ، كما حدثت خسائر بين أفراد الأركان أيضاً .

غالباً ما كانت الخطوط الهاتفية تتقطع ، وكذلك الحال مع مركز الراديو الذي لم يكن يعمل باستمرار لذلك اضطررنا لإرسال كافة عمال الإشارة لإعادة تأمين الإتصال بما فيهم عاملات مقسم الهاتف اللواتي كن يعملن في المخبأ . وغالباً ما كن يتركن أماكنهن وسماعاتهن ويذهبن لاصلاح الخطوط .

استطعت طيلة كل يوم ١٣ أيلول أن أتكلم مرة واحدة مع قائد الجبهة وأقدم له تقريري باختصار عن الموقف ، ورجوته أن يرسل لي خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة فرقتين أو ثلاث فرق جديدة ، وبدون هذه القوى لا يمكن صد العدو .

رغم كل الجهود التي بذلها عمال الإشارة ، قطع الإتصال تقريباً مع كل القوات في الساعة السادسة عشرة .

كان الموقف حتى تلك اللحظة مطمئناً قليلاً ، فالفوج المعادي الذي كان يهاجم من الشمال قادماً من اورولوفكا ، تم تدميره من قبل لواء المشاة ١١٥،وتكبدت وحداتنا في وسط الجيش خسائر،مما اضطرها للانسحاب نحو الشرق إلى الحدود الغربية للغابة الواقعة غرب المدن الصغيرة باريكادي ، كراسني أكتيابر واحتل الفاشيون المرتفع ١٢٦,٣ افياغورودوك والمستشفى وأخليت في الجناح الأيسر للواء الميدان محطة الآليات والجرارات الواقعة غرب محطة السكة الحديدية لسادوفا ، وعلى القطاعات الأخرى استطعنا صد الهجمات الجزئية العدوة ودمرنا ست عشرة دبابة .

كان علي قبل هبوط الظلام اتخاذ القرار . إما تنفيذ بمخطط الدفاع النشيط المحضر والمقرر لهذه الغاية أو الأخذ بعين الاعتبار هجوم العدو الذي يجري والشروع بأعمال اكثر نشاطاً،فمن غير الممكن التمهل لأننا لا نستطيع القيام بتجميع للقوات ، إلا تحت جنح الظلام ، وكذلك من غير الممكن القيام بذلك في وضح النهار بسبب غارات العدو .

لذلك قررنا القيام بالهجوم المعاكس لارجاع العدو . وحددت بداية الهجوم صباح يوم ٤ أيلول ، فقد أخذنا بعين الاعتبار عدم استطاعتنا تجميع قوات هامة للقيام بالهجوم ، ولكن كنا مقتنعين بأن العدو كان يعرف ذلك جيداً ، ولكنه لم يكن ينتظر مطلقاً إمكانية قيامنا بعمليات نشيطة ، وقد تذكرت في ذلك الموقف مبدأ سوفوروف « المباغتة هي النصر » . كنا لا ننتظر نجاحاً فائقاً ولكننا كنا

نستطيع مفاجأة العدو وتشويش خططه.والذي كان يهمنا هو أخذ المبادرة من العدو ، حتى ولو كانت جزئية ومؤمنة وبعمل مباغت .

أرسل أمر الهجوم المعاكس إلى القوات في الساعة ٢٢,٣٠ ، وحددت الأهداف لكل وحدة بدقة .

يقوم بالهجوم باتجاه البلدة الواقعة في الجنوب الشرقي رازغوليفكا ، لواء المشاة الآلية ٣٨ مع سرية مشاة آلية معززة ومجموعة مدفعية ، وأما فرقة سارابيف فتقوم بالهجوم المعاكس بقوة لواء باتجاه المرتفع ١٢٦,٣.ثم إلى المرتفع ١٤٤,٣ .

ويقوم بالهجوم المعاكس لواء المسير المشكل من مختلف أقسام الجيش يعززه لواء مدرع باتجاه افياغورودوك والمرتفع ١٥٣,٧ . ويكون لواء المشاة المشتغل ٢٤ مستعدا للاشتراك بالهجوم المعاكس ضارباً باتجاه المستشفى والمرتفع ١٥٣,٧ .

كان على كافة الوحدات التي ستشترك بالهجوم المعاكس أن تنظم التعاون وتؤمن إتصالها.

أما وحدات الجيش الأخرى فعليها التمسك بشدة بالمواقع المكتسبة .

وقد كلفت باسناد الهجوم المعاكس إلى ثلاثة ألوية مزودة بالدبابات وثلاثة ألوية مدفعية من الاحتياط العام وثلاثة ألوية (كاتيوشا) تابعة للحرس .

أظهر اليوم السابق الذي أمضيناه في كورغان ماماييف أنه من المستحيل تأمين قيادة القوات من هذه النقطة بسبب الانقطاع المستمر للإتصالات التليفونية ، لذلك قررت نقل مركز القيادة إلى منخفض نهر تساريستا ، على أن يبقى مرصد الجيش هناك في كورغان ماماييف ، كما حصلنا قبل يومين على موافقة قيادة الجبهة على هذا التنقل .

ومنذ ذلك الوقت بدأت الأيام العصيبة تمر على قوات الجيش ٦٢ وعلى كل القوات التي كانت تدافع عن ستالينغراد ، فالهجوم المعاكس الموجه من الشمال ، والذي كان مقرراً منذ البداية من ٥ إلى ١٥ أيلول بثلاثة جيوش جبهة ستالينغراد لم يعد ممكناً ، وكان يستهدف إقامة الإتصال مع القوات الموجودة في ستالينغراد والهجوم المعاكس الجديد اعتبارا من قطاع كوتكوبان ، والذي كان له نفس الهدف لم يحضر إلا في ١٨ أيلول أما قوات الجيش ٦٢ فقد كانت منهكة من المعارك السابقة ، ولكي يتم إيقاف العدو وعدم تمكينه من احتلال المدينة ،

فقد أخلي عدد لا بأس به من الأركانات ، والأقسام ، والوحدات التي فقدت كل إمكانية قتالية . وكان من الضروري إرسال التعزيزات من فرق جديدة على جناح السرعة .

سجل تاريخ يوم ١٣ أيلول ١٩٤٢ بداية أشد المراحل ضراوة وأكثرها دموية في هذه المعركة التي دخلت في التاريخ تحت اسم « الدفاع عن ستالينغراد » والتي دامت حتى ١٩ تشرين الثاني،أي حتى بداية الهجوم المعاكس للقوات السوفيتية ، كانت هذه المعركة بالنسبة للمحاربين ، الذين كانوا يدافعون عن ستالينغراد وبخاصة قوات الجيش ٦٢ نضالاً حتى الموت . لم ينقطع ، ولم يكن هناك توقف بين العمليات ولا هدوء ليلي . ولم يكن في دفاع الجيش ٦٢ ولا دقيقة سلبية،بل كان دائماً هجومياً ، ولم يترك أية مهلة للعدو للراحة أو الاستعداد .

كانت المسافة القصوى في ١٣ أيلول بين خطوط العدو والفولغا لا تتجاوز عشرة كيلومترات . مدينة ستالينغراد نفسها ممتدة على طول الفولغا من ٣٥ـ٤٠ كم . وأقصى عرض لها خمس كيلو مترات ، والقسم الجنوبي منها كان كبيراً للغاية وهو حي المصانع ، ولم يكن أمام العدو لاحتلال هذا الجزء من المدينة سوى عشرة كيلومترات . ولكن ما مرة لم يكن العدو ينتظره مطلقاً ، ولم تستطع القوات الفاشية احتلال هذه العشرة كيلومترات ولا اجتيازها مطلقاً ، واضطر هتلر الزج بخيرة قواته المتفوقة عدة مرات في العدد والعدة على القوات ، التي كانت تدافع عن ستالينغراد .

كان العالم يتابع هذه المعركة وهو ممسك أنفاسه ، ويناصر بصلابة المدافعين عن ستالينغراد .

وأورد هنا بعض المقطتفات القصيرة من الصحافة البريطانية والأمريكية .

كتبت الصحيفة الأمريكية نيويورك هيرالدتربيون « **في هذه الأنقاض التي لا يمكن تخيلها بسبب الحرائق المتتابعة ، وغيوم الدخان الكثيف بسبب الانفجارات والمباني التي هدمت والجثث المبعثرة ، كان المدافعون يقاتلون من أجل مدينتهم بصلابة مذهلة ليس عن طريق الموت ، إذا كان ضرورياً وليس بالدفاع الذي كان عليهم القيام به ، ولكن عن طريق الهجوم كلما كان ممكناً دون النظر للتضحيات ، من أجلهم ، ومن أجل أصدقائهم ، ومن أجل مدينتهم . مثل هذه المعارك لا تنشب لحسابات استراتيجية . ولكنها كانت تدور بحقد عارم ، وتفانٍ لم تعرفه لندن ، حتى في أصعب أيامها ، وخلال**

أعنف الغارات الجوية الألمانية ، فبمثل هذه المعارك تكسب الحرب» .

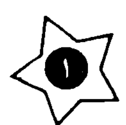
اما الصحيفة الانكليزية رينولدز نيوز فقد كتبت في ٢٩ أيلول ١٩٤٢ ، في موضوع ستالينغراد « مرتين في جيل واحد ، تصبح ستالينغراد رمزاً لإرادة الحياة للشعب الروسي ، فقبل أربع وعشرين عاماً ، كان المناهضون يريدون تدمير الجمهورية السوفيتية الفتية ، ولكنهم هم الذين أبيدوا على ضفاف الفولغا ، واليوم يفرض أسوأ طغيان . التضحيات الدموية في شوارع تلك المدينة التي تتحمل أكبر معركة عملاقة في تاريخ الحروب . وستظل ملحمة ستالينغراد خالدة على مر الزمن ...

إن بسالة الشعب الروسي المسلح وأهلية القادة الروس جذبت إعجاب كل العالم الحر ، ولنا الحق أن نفتخر ببطولات ستالينغراد» .



لا مكان لنا وراء الفولغا

(١)



انتقل في فجر ١٤ أيلول مركز قيادة الجيش إلى ما ندعوه قبو تساريستين . وهو عبارة عن أخدود طويل مغطى ومقسم إلى عشرة أقسام بسقوف وجدران مغطاة بألواح الخشب .

كانت جبهة ستالينغراد تتمركز في هذا القبو في شهر آب الماضي وهو مكسو بتغطية ترابية سمكها يصل إلى عشرة أمتار ، وقنبلة وزنها طن يمكنها فقط اختراقه وليس في كل الأمكنة وللمخبأ مخرجان الأول الأسفل ويقود إلى ضفة نهر تساريفا،والثاني إلى الأعلى وينفذ إلى شارع بوشكين .

تركت كورغان ماماييف مع كريلوف في ١٤ أيلول قبل الفجر أما غوروف فقد ترك الكورغان أبكر من ذلك . وقادنا خلال شوارع البلدة المقدم م . فنيروب مساعد قائد القوى المدرعة والآلية . وكانت الطائرات الألمانية الليلية تحوم في السماء ، وتعلم بواسطة ضوء الحرائق عن الأهداف الواجب قصفها من قبل المدفعية وتباشر على الفور برميها .

كنا نأخذ طريقنا بين الأنقاض وفي الشوارع المدمرة .

على بعد خمسمائة متر من مركز قيادتنا الجديد تعثرت سيارتنا بالخطوط الهاتفية ، والتلغرافية مما جعلنا نقف حوالي ثلاث دقائق في المكان الذي كانت فيه سيارة كريلوف تتعثر بالخطوط أيضاً . وخلال هذه الدقائق الثلاث انفجرت أكثر من عشر قنابل بالقرب منا ومن حسن الحظ لم يصب أحد منا بأذى فقد وصلنا سالمين ومعافين إلى مكاننا .

لم يكن لدي الوقت للنوم . وكان عليَّ أن أتأكد بنفسي من سلامة الإتصال في مقرنا الجديد،ثم تحضيرات القوات للهجوم المعاكس ، وكان كل شيء عادياً حسب كل المظاهر ، فالقوات العدوة حتى الطائرات الليلية كانت بحالة الراحة ،

وتتحضر للعمليات النهارية .

في الساعة الثالثة صباحاً ابتدأت مدفعيتنا التمهيد للهجوم المعاكس وفي الساعة الثالثة والنصف كان الهجوم المعاكس ، اتصلت هاتفياً بقائد الجبهة وأعلمته عن بداية الهجوم وطلبت منه تأمين غطاء جوي في الساعات الأولى لطلوع الشمس . وعدني بذلك وسررت بالمعلومات التي أعطاني إياها ، فقد أمرت الستافكا بتزويدي بفرقة مشاة الحرس ١٣ من احتياطيها العام وستبدأ هذه الفرقة بالتمركز على معابر الفولغا مساء ١٤ في قطاع كراسنايا سلوبودا .

فرحنا كثيراً ، رغم أن ما أعطوه لنا لم يكن سوى فرقة . قمنا في ١٤ أيلول بشن الهجوم المعاكس العام للجيش ، إلا أن هذا الجهد المبذول لم يعطنا الكثير من الآمال فقد كانت وحدات الجيش مبعثرة ومنهكة .

بعد أن أرسلت فوراً إلى كراسنايا سلوبودا العقيد كوبتشيف قائد قوات الهندسة ، ومجموعة من ضباط الأركان لاستقبال فرقة الحرس . عدت وكريلوف للإتصال بالوحدات لنكون على بينة من الموقف .

لقي هجومنا المعاكس في وسط الجيش ، بالبداية بعض النجاح ، ولكن بعد ارتفاع النهار ، زج العدو بطيرانه في المعركة ، وأخذت مجموعات من الطائرات العدوة بين ٥٠ ـ ٦٠ طائرة تقصف بهجماتها المتقطعة وبدون انقطاع تشكيلاتنا القتالية التي اندفعت للهجوم المعاكس مما اضطرها للاحتماء بالأرض والتسمر فيها . وبذلك توقف الهجوم المعاكس في الساعة ١٢ ظهراً . وفي الساعة الثانية عشر زج العدو في المعركة بمجموعات كبيرة من المشاة والدبابات . وبدأ يدفع بقواتنا إلى الوراء ، وقد اتجه ثقل الهجوم نحو المحطة المركزية ونحو كورغان ماماييف .

كانت قوة العدو غير طبيعية ، فبالرغم من الخسائر الفادحة التي كان يتكبدها ، كان جنوده يتقدمون برؤوسهم المنحنية دائماً إلى الأمام . تتبعهم أرتال من المشاة وعلى سيارات النقل والدبابات تتغلغل في شوارع المدينة ، ويبدو أن الهتلريين اعتمدوا على أن سقوط ستالينغراد قد تحتم ، وبدأوا يسعون للوصول إلى الفولغا بأسرع ما يمكن . فوسط المدينة وقع في شبكتهم حسب رأيهم . وكان مقاتلونا من مهرة الرماة وقناصة الدبابات والمدفعيين المختبئين في زوايا الشوارع في الكهوف والتحصينات ، وفي البيوت كانوا يرون النازيين السكارى ، يقفزون من سيارات النقل ، ويلعبون الهارمونيكا ، ويرقصون على الأرصفة ،

ويصرخون صرخات هستيرية،وكأنهم حققوا النصر .

كان الغزاة يتساقطون بالمئات . ولكن احتياطيهم كان ينهال عليهم بأمواج جديدة ، مغرقاً الشوارع بفائض من القوات ، وقد تسرب رماة العدو من حملة المسدسات الرشاشة إلى المدينة نحو الشرق من الخط الحديدي . باتجاه المحطة وبيوت الاختصاصيين .

أصبح الخطر داهماً ، فالمعركة كانت تدور على بعد ٨٠٠ م من مقر قيادة الجيش والأركان.وإذا لم يستطع العدو احتلال المحطة ، فلن يتمكن من قطع الجيش إلى قسمين والوصول إلى المعبر الأوسط للفولغا قبل وصول فرقة مشاة الحرس ١٣ .

وعلى الجناح الأيسر من قطاع ضاحية«مينين»كانت تدور معارك شديدة أيضاً ، فقد كان العدو يعمل على عدم إعطاء أي فرصة لجناحنا الأيمن ، وكان الموقف يتدهور ساعة بعد ساعة .

لم يبق لدي سوى احتياط ضعيف ، لواء وحيد فقط بقي هو لواء مدرع من ست عشرة دبابة كان موجوداً على الجناح الأيسر للجيش بالقرب من الرافعة وعلى الحد الجنوبي للمدينة . وقد طلبت إرسال فوج من الدبابات من هذا اللواء على جناح السرعة إلى مقر قيادة أركان الجيش ، وكان لدى هذا الفوج تسع دبابات لم تصل إلا بعد ساعتين . وفي هذه الفترة شكل الجنرال كريلوف مجموعتين من عناصر الأركان ومن سرية الحرس . عززت الأولى بست دبابات بقيادة مدير مكتب العمليات أ . زاليزوك ، وكلفت بمهمة إقامة الحواجز على الشوارع المؤدية إلى المحطة والميناء ، والمجموعة الثانية مع ثلاث دبابات بقيادة المقدم م . فينروب ، وأرسلت نحو بيوت الاختصاصيين ، حيث كان العدو يكنس الفولغا والميناء بنيران رشاشاته الثقيلة .

شكلت هاتان المجموعتان من ضباط أركان الجيش والموجهين السياسيين الشيوعيين ، الذين كان همهم أن لا يتركوا الهتلريين يصلون إلى الميناء . ويؤمنون التغطية لأول معدية تصل محملة بجنود فرقة الحرس بقيادة روديمتسيف

في الساعة الرابعة عشرة ، قدم لي قائد الفرقة ١٣ بطل الاتحاد السوفيتي العميد اليكسندر ايليّتش روديمتسيف ، وكان مغطىً بالغبار والطين ، ولكي يصل إلى مقر قيادتنا ، اضطر للاختفاء مرات عديدة والتسمر في حفر القنابل ،

والاختباء بالأنقاض ، وكان يختفي عندما كانت طائرات العدو تنقض عليه .

وقد أعلمني روديمتسيف أن الفرقة تامة بما فيه الكفاية من ناحية الرجال،إذ تعد عشرة آلاف جندي . ولكنهم كانوا بحالة سيئة من ناحية السلاح والذخيرة وهناك ألف جندي دون بنادق . وقد أمر المجلس العسكري للجبهة معاون قائد الجبهة الجنرال جوليكوف بتزويد الفرقة بالسلاح والذخيرة ، حتى ساعة متأخرة من ليل ١٤ أيلول وإرسال هذه الفرقة إلى قطاع كراسناياسلوبودا . ولكن ما من أحد يضمن وصولها في الوقت المناسب . وقد أمرت المعاون قائد المؤخرات الذي كان موجوداً على الضفة اليسرى للفولغا أن يعبىء كل الأشخاص ، الذين لديه لجمع السلاح من وحدات المؤخرة ووضعها تحت تصرف جنود الحرس .

كان الجنرال روديمتسيف ، قد اطلع على الموقف على جبهة الجيش . فرئيس الأركان كريلوف كان يعرف كيف يخبر الأشخاص بشكل عفوي وقد وضع الجنرال روديمتسيف على مجرى الموقف .

كانت مهمة روديمتسيف الأولى نقل فرقته إلى الطرف الأيمن للفولغا ليل ١٥ أيلول ، على أن تحتل مدفعية فرقته ـ عدا المدفعية المضادة للدبابات ـ مواضع الرمي على الضفة اليسرى لتدعم من هناك عمل وحدات المشاة التابعة للفرقة أما المدفعية م/د وقاذفات الألغام فتعبر النهر إلى المدينة .

اشتبكت الفرقة فوراً في القتال بعد نزولها على اليابسة ، وقد كلف لواءان من المشاة بتنظيف وسط المدينة من الفاشيين ثم تنظيف بيوت الاختصاصيين أيضاً ، أما اللواء الثالث فقد أوكلت إليه مهمة الدفاع عن مرتفع ماماييف،وبقي فوج مشاة كاحتياط بيد قيادة الجيش .

احتلت قوات الفرقة القطاع الموجود بين عقدة كورغان ماماييف الحديدية من اليمين ، وممري نهر تسايستا ، من اليسار .

اقترحنا على روديمتسيف وضع مركز قيادته على ضفة الفولغا بالقرب من الميناء النهري،حيث توجد مخابىء تحت الأرض محضرة ومجهزة بوسائل الإتصال مسبقاً . وبعد الاجتماع سألته :

ـ والمعنويات؟

أجابني

ـ إنني شيوعي وليس لدي أي فكرة للخروج من هنا ، ولن أحترق .

وقد أضفت حالاً :

- سأضع تحت إمرتك كل العناصر التي تعمل منفردة أو منعزلة في ذلك القطاع . وذلك حين وصول وحدات الفرقة للخطوط الأمامية .

بعد فترة من التفكير ورد الفعل ، قال روديمتسيف ، إنه من العار أن يبقى مركز قيادته وراء مركز قيادة الجيش ، وقد هدأته مؤكداً إنه في حال تنفيذ الفرقة لمهمتها المكلفة بها سنسمح له بتقديم مركز قيادته إلى الأمام .

لقد أشرت آنفاً بأنه ليس من الحكمة الاعتماد على سلبية العدو ، لقد قرر تدمير وأخذ المدينة بأي ثمن ، ولهذا لا نستطيع أن نقف عند حدود الدفاع فقط . ويمكننا الاستفادة من كل فرصة للقيام بهجوم معاكس لفرض إرادتنا على العدو . وإحباط مخططاته بعمليات مباغتة ونشيطة .

كنت بحالة من القلق الشديد ، فقد أصبحت الساعة حوالي السادسة عشرة ، ولم يبق سوى خمس ساعات على بزوغ الفجر، فهل يمكننا بهذه الوحدات والعناصر المشتتة والمهزومة التمسك بالخطوط الدفاعية عشر أو اثنتي عشرة ساعة في الاتجاه الرئيسي ، وهل الجنود والضباط يستطيعون تنفيذ هذه الهجمات التي تبدو أنها فوق طاقاتهم الإنسانية ، فإذا لم نستطع تحقيق ذلك ، فهل ستكون فرقة الحرس ١٣ الموجودة على الطرف الأيسر للفولغا ، (وحتى الآن لم تتمكن من العبور لتعزيز طاقاتنا) ، شاهداً على ما ينتظرنا من مأساة مرعبة يحضرها لنا العدو، دون أن تتمكن من نجدتنا وتقف موقف العاجز ؟

في هذه الفترة وصلتنا الأخبار عن الهجوم المعاكس الذي قام به لواء المسير فقد توقف بعد أن تكبد خسائر فادحة وبخاصة من الضباط وظل دون قيادة . ولم يكن لدينا احتياط ، فالاحتياط الأخير كان حرس المقر العام للجيش وأشخاص الأركان ومع ذلك فكلهم كانوا في المعركة . ومن داخل المخبأ كنا نسمع ضجيج محركات الطائرات الألمانية وانفجارات القنابل .

وسعياً وراء الحصول على بعض الاحتياط ، طلبت من العقيد ا . سارايف الذي كان يتولى مركز قائد حاميةُ ستالينغراد . وكانت فرقته تحتل مراكز دفاعية ، ونقاط استناد محضرة مسبقاً ، وحسب قول الجنرال كريلوف أنه (أي سارايف) يعتبر نفسه مستقلاً . ولا يظهر رغبة جادة لتنفيذ أوامر الجيش فيما إذا كان بإمكانه تزويدنا ببعض العناصر .

وقد قدم لي سارايف تقريراً مفصلاً عن الموقف في فرقته ، والقطاعات الدفاعية التي كانت تحتلها والوضع في المدينة ومدن العمال .

وقد فهمت منه أن مراكزه الدفاعية تتألف بشكل رئيسي من بلوكوسات (دشم ميدانية) مجهزة بنسبة ٢٠ ـ ٣٠٪ من ملاكها فقط ، فهي إذن ذات قدرات ضعيفة على المقاومة الفعالة . وقد رأيت بنفسي بعض هذه التحصينات،وهي لا تستطيع أن تقدم دعماً كافياً في الدفاع أو القتال ضد العدو .

سألت العقيد سارايف فيما إذا كان قد علم بأن وحدته قد ألحقت بالجيش ٦٢ وعليه إطاعة أوامر المجلس العسكري للجيش ، وقد طلبت منه فيما إذا كان يريد أن يخبر المجلس العسكري للجبهة للاستيضاح تماماً عن هذا الأمر . ولكنه أجاب بأنه جندي في الجيش ٦٢ .

وعلى كل حال لا يمكن الاعتماد على أية وحدة من وحداته لتكون كاحتياط لتجنب ضربات العدو ، لعدم امكانية سحبها من نقاط الاستناد ، ولكن بعض المفارز من الحرس المسلح في المصانع والأحياء ، كانت موجودة تحت تصرف سارايف ، وعددها الكامل ، بما فيها المفارز المؤلفة من ميليشيا المدينة ورجال الاطفاء والعمال يصل إلى ١٥٠٠ رجل ، ولكن كان ينقصها السلاح . وقد طلبت من العقيد اختيار البنايات القوية في مركز المدينة لاستخدامها في الدفاع في حدود ٥٠ ـ ١٠٠ رجل ، ووضعها تحت قيادة شيوعيين ، وحفر الخنادق والتمسك بنقاط الاستناد هذه حتى آخر رمق . وقد ذكرته بأن فرقته والمفارز المسلحة تستطيع حالياً تلقي السلاح والذخيرة . وقد رجوت سارايف أن يبقى باتصال دائم مع مركز قيادة الجيش .

وفعلاً ، وضع على مخطط المدينة وبحضوري الأهداف ذات الأهمية الكبرى ، وقد وافقت على اقتراحاته هذه .

كان سارايف باعتباره قائد فرقة،لا بل بصفته قائد الحامية يعرف جيداً المدينة . والإتصال مع الشخصيات الصناعية في البلدة ، وقد ساعدني كثيراً في تنظيم المفارز المسلحة في كثير من المصانع ، وفي الأبنية القوية . وكان سكان المدينة يقاتلون ضد الغزاة جنباً إلى جنب مع جنود الجيش ٦٢ حتى آخر قواهم ، فالوطن وستالينغراد لن تنساهم أبداً .

اصطحب كريلوف سارايف معه لمقره بعد سماعه تلك المحادثة ، وذلك لتنظيم إتصال وثيق وتبادل المعلومات ، وقيادة المعركة .

كانت الإتصالات مع الوحدات غالباً ما تنقطع . ولهذا فغوروف وأنا كنا نخرج مرات عديدة من المخبأ في شارع بوشكين لكي نبلغ الأوامر بأصواتنا لأن

القتال الدائر كان على بعد ٤٠٠ ـ ٥٠٠ م منا .

سجل المؤرخون أن قادة استراتيجيين كباراً ، خسروا بعض المعارك الكبرى لعدم وجود قوات كافية لديهم لإدامة المعركة وتحقيق النصر، والتي لا يمكن أن تتعدى فوجاً أو لواءً . وكنت أفكر أنه كان لدى فون باولوس في ذلك الوقت أكثر من فوج يمكنه أن يقطع الجيش ٦٢ إلى قسمين وينفذ إلى الفولغا ، ولكن بسالة قواتنا أبطلت كل مجهودات العدو .

وصل إلى المقر قائد اللواء المدرع خويكو قبل هبوط الظلام ، وأبلغني أن آخر دباباته أصيبت وهي معطلة بالقرب من المحطة في تقاطع الخط الحديدي .

ـ ما العمل ؟-طلب مني .

درسنا الموقف ، فالدبابة رغم إصابتها تستطيع الرمي إلى جانب وجود حوالي مائتي شخص في اللواء مسلحين بالمسدسات الرشاشة،لذلك قلت له :

ـ عد واجمع رجالك واستلم التقاطع حتى وصول فرقة الحرس ١٣ على الأقل .

استوعب خويكو المهمة مباشرة ودار بعنف وأسرع لتنفيذ الأوامر . وقد نفذ مهمته بكل شرف ـ كما سنرى فيما بعد ـ .

أخذت المعركة تهدأ مع هبوط الليل ، وخففت الطائرات الألمانية من تحليقها الليلي ، وقد أمضيت كثيراً من وقتي ، أستفسر بالهاتف عن وجود وعمل وحدات فرقة الحرس ١٣ وكيف تستعد لعبور النهر ثم مع الذين كانوا يعملون في الأركان،وهذا إجراء إحصائي لنتائج يوم من القتال :

كانت اللائحة مظلمة ، فقد وصل العدو إلى أسفل كورغان ماماييف ، وحتى الخط الحديد الذي يتجه إلى المحطة المركزية التي كنا لا نزال نمسك بها . واستطاع جنود العدو في وسط المدينة من احتلال بعض الأبنية بعد تغلغلهم عبر ترتيبنا القتالي المبعثر ، لم يبق من وحداتنا التي كانت تعمل في وسط جبهة الجيش أحد ، إذ قتلوا جميعهم ، كما دمر مرصد الجيش الموجود على قمة كورغان ماماييف بقنابل الطائرات وقذائف المدفعية .

علمت أن وحداتنا التي كانت تقاتل على الجناح الأيسر للجيش قد صدت هجمات العدو ، ولكن وبما أن العدو كان يكتل قواته ويجمعها ويقوم بالاستطلاع فمعناه أنه يحضر لهجوم جديد .

وعندما ألقيت نظرة عامة على الموقف ووضع القوات ، شعرت بأنه ليس باستطاعتي طلب أية مساعدة من المجلس العسكري للجبهة ، علماً بأنه قدم كل

ما يستطيع لتخفيف الموقف. وفي ليل ١٥ أيلول ، كانت كل المعابر التي على الفولغا مهيأة للعبور ، حيث أخذت فرقة مشاة الحرس تعبر النهر مستخدمة هذه المعابر .

لم يغمض لي جفن،ولا للأشخاص الذين كانوا يعملون في الأركان طيلة الليل ، فبعضهم كان في الخطوط الأولى يساعد في إعادة الوحدات لحالة القتال ، و آخرون كانوا يديرون المعارك بالقرب من بيوت الاختصاصيين وفي المحطة ، ويؤمنون بذلك عبور وحدات فرقة روديمتسيف ، و آخرون غيرهم كانوا في مرفأ النهر المركزي للقاء الأفواج التي كانت تعبر النهر،وتوجيهها عبر الشوارع المزدحمة بالأنقاض إلى الخطوط الأولى .

لم ينجح سوى لواءي ٢٤ و ٤٢ من عبور النهر خلال الليل،وعند ظهور النهار منعت الطائرات العدوة ما تبقى من القوات من عبور النهر .

احتلت الألوية التي عبرت قطاع مركز المدينة اعتباراً من منخفض كروتوي حتى المحطة ، وقد وجه الفوج الأول من اللواء ٤٢ نحو المحطة ، أما كورغان مامايف فكان يدافع عنه فوج من فرقة سارايف وعناصر من فرقة المشاة ١١٢ بقيادة: أ. ايرموكين، وعلى اليسار (في الجنوب الغربي) من المحطة كان يدافع ما تبقى من اللواء المدرع، ولواء المسير ولواء المشاة ٤٢. بقيادة: باتراكوف، أما في القطاعات الأخرى فظلت على حالها دون تغيير .

قام العدو صباح ١٥ أيلول بهجوم على اتجاهين : الاتجاه الأول نحو وسط جبهة الجيش ، وعلى المحطة ، وكورغان مامايف . وكانت تعمل على هذا الاتجاه وحدات العدو التابعة لفرق المشاة ٢٩٥ ـ ٧٦ ـ ٧١ تدعمها الدبابات أما الاتجاه الثاني فكان على الجناح الأيسر للجيش باتجاه ضاحية «أمينين» ، وكانت تعمل على هذا الاتجاه الفرق العدوة ٢٤ ـ ١٤ ـ ٩٤ مشاة . وعلى الجناح الأيمن كان يسود الهدوء ، وسبقت الهجوم غارات جوية عنيفة.وعلى العموم كان الطيران الألماني يحلق بشكل مستديم فوق مواقعنا .

أخذت المعركة في الحال منحى خطراً ، فالوحدات الجديدة التابعة لفرقة روديمتسيف ، والتي نزلت ليلاً لم تجد لديها الوقت الكافي للتوجه أو تحصن نفسها ، وأخذت تتعرض لهجمات القوات المعادية المتفوقة في العدد والعدة في الوقت الذي كانت فيه الطائرات الألمانية تدك الأرض بشدة ، وتضرب كل من تجده في الشوارع .

تميزت المعارك التي دارت في المحطة بضراوتها ، وكذلك المعارك التي وقعت في ضاحية «أمينين »،وقد تبادل الطرفان احتلال المحطة مراراً خلال النهار ، ولكن عند هبوط الظلام كانت بين أيدينا . أما بيوت الاخصائيين ، فبالرغم من هجوم اللواء ٣٤ من فرقة روديميتسيف ودعم دبابات اللواء الثقيل ، ظلت بيد الألمان وتكبد لواء المشاة باتراكوف مع عناصر من فرقة سارابيف خسائر فادحة ، وارتد الطرفان إلى الحدود الغربية للمدينة وإلى الجنوب من تساريستا .

كان من الصعب في مساء ١٥ أيلول معرفة في أي يد كان كورغان ماماييف موجوداً . فقد كانت الأخبار التي تصلنا متناقضة ، كما استطاعت عناصر عدوة من حملة المسدسات الرشاشة التسرب عن طريق مجرى تساريستا حتى جسر السكة الحديدية ، وأخذت توجه رماياتها على مركز قيادة الجيش . وقد زج مجدداً حرس القيادة في المعركة . وبالإضافة إلى ذلك أخذت أعداد متزايدة من الناس تدخل الممرات الأرضية لمخبأ القيادة ، لكي تحتمي من قنابل الطائرات وقصف المدفعية التي لم تنقطع ، رغم وجود الحرس والمراقبة على المداخل ، كما كان رجال الإشارة التابعين للجيش وفوج القيادة وضباط إشارة الوحدات والسائقون ، و آخرون غيرهم يجتازون المداخل بحجة القيام بأعمال مستعجلة أو عاجلة . ويبقون في تلك الأماكن ، وبما أن المخبأ لم يكن مجهزاً بوسائل التهوية ، فقد أصبح جوه الداخلي خانقاً وهواؤه فاسداً ، مما كان يسبب ازعاجاً لنا وبخاصة اثناء الليل ، حتى كنا نكاد أن نفقد الوعي ، لذلك كنا نخرج دورياً إلى الخارج لنستنشق الهواء النقي ، وكانت أحياء المدينة جنوب تساريستا تشتعل بالنيران .

كانت طلقات الرماة الألمان تصفر فوق رؤوسنا وتحت أقدامنا ، ولكن لا شيء يمكن أن يجبرنا على البقاء في هذا المخبأ الخانق .

كان مصير كورغان ماماييف يقلقنا في تلك الليلة ، فإذا استطاع العدو احتلاله فقد ضمن سيطرته على المدينة والفولغا .

أمرت بأن يتم عبور وحدات اللواء ٢٩ بقيادة: آ. ايلين بأي ثمن من الضفة اليسرى لتوجيهها نحو كورغان ماماييف. وأن تتمركز هناك عند طلوع الفجر ، والتمسك بالقمة مهما كان الثمن .

أصبح تأمين قيادة الجيش صعباً من مخبأ مغطى موجود في منخفض . لذلك

أعطيت الأمر للجنرال بوجارسكي لمساعدة قسم من عمال المقاسم ومن الأركان لتنظيم مركز قيادة مساعد على ضفة الفولغا بالقرب من الميناء بمواجهة شاطىء جزيرة رايتسيفسكي الجنوبي ، وكان هذا المركز واسطة إتصال بين أركان الجيش ووحدات الجناح الأيمن .

خسر العدو في المعارك التي وقعت في ١٥ أيلول أكثر من ألفي شخص من القتلى فقط ، وبلغ عدد الجرحى ثلاثة إلى أربعة أضعاف . وقد خسر العدو في يومي ١٤ ـ ١٥ أيلول أكثر من عشرة آلاف رجل وخمسمائة دبابة محترقة . وتكبدت قواتنا هي الأخرى خسائر جسيمة بالرجال والعتاد وتراجعت . وهذا لا يعني مطلقاً أنها تراجعت بنظام من موقع إلى آخر . وما أريد أن أقوله هو أن رجالنا (دون الوحدات والأقسام) كانوا ينجون بأنفسهم ، زاحفين تحت الدبابات « جرحى على الغالب » لكي يصلوا إلى المواضع التي تليهم،حيث كانوا يستقبلون ويعاد تشكيلهم بفصائل ويقدم لهم التموين وبخاصة الذخيرة ويعودون للقتال .

عرف العدو أنه لا يستطيع احتلال المدينة بضربة واحدة . لذلك بدأت عملياتهم تأخذ طابع الحذر ، وأخذوا يحضرون هجماتهم بعناية ، ويسيرون منذ ذلك الوقت فصاعداً إلى القتال دون أكورديون أو أغانٍ هستيرية .

أظهرت معارك ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥ أيلول أنه بالإمكان القضاء على العدو في خرائب المدينة بنجاح أكثر مما كان في السهوب المفتوحة بين الفولغا والدون .

وبالرغم من تفوق قواته الكبير،كان العدو يتكبد خسائر لا تعد ولا تحصى . وأشد خسارة كان يصاب بها عندما كان يهاجم في الشوارع الضيقة وبقايا البيوت الخربة . وغالباً ما كان العدو لا يعرف من أين تصب عليه النيران أو أين ينتظره الموت .

وأصبحت الأرض على ضفاف الفولغا وشوارع المدينة والحدائق العامة والمنزلية ممزوجة كلياً بالدماء والتي كان الهتلريون يتزحلقون عليها وكأنهم على منحدر يقودهم إلى حتفهم ـ هكذا كان المدافعون يقولون .

كان جنودنا وضباطنا يعرفون تماماً أنه لا يوجد مكان يتراجعون إليه وبخاصة أنهم أدركوا أنه يمكن مقاتلة الغزاة . وقد تضاعفت شجاعتهم بعد تجارب القتال المريرة التي أعطت ثمارها . ولم يعد قناصو الدبابات يخشون من ترك الدبابات الألمانية تصل إلى ٥٠ ـ ١٠٠ م حتى يضربونها ضربة محكمة .

تتابعت المعارك في ١٦ و ١٧ بعنف متزايد . وزج العدو باحتياط جديد مهاجماً في الوسط ، ودون توقف ، وحدات الحرس من الفرقة ١٣ ولواء المشاة (باتراكوف) . وتميزت المعارك التي نشبت في قطاع كورغان ماماييف والمحطة بضراوتها الشديدة .

استطاعت القوات التابعة للواء ايلين وأقسام من فرقة المشاة ١١٢ في صباح ١٦ أيلول استرجاع كورغان ماماييف . ولكنهم لم يستطيعوا التقدم أكثر من ذلك . فقد بدأت الهجمات والهجمات المعاكسة المتبادلة ، وجرت المواجهة وجهاً لوجه ، وصراعاً حتى الموت امتد على كورغان ماماييف حتى نهاية كانون الثاني ١٩٤٣.

كان العدو يعلم بأنه عندما يصبح سيداً على كورغان ماماييف سيمتلك المدينة ومدن العمال والفولغا . ولكي يصل إلى غايته لم يبخل لا بالقوات ولا بالوسائط . كما أننا بدورنا صممنا على التمسك بالكورغان مهما كان الثمن . وقد أبيد عدد من الألوية والفرق المدرعة وفرق المشاة عن آخرها ، وأكثر من فرقة من فرقنا صمدت في المعارك الشديدة التي كانت تدور حتى آخر رجل وبضراوة وعنف لا سابقة لهما في التاريخ .

وصل وزن قنابل الطائرات التي كانت تلقى إلى الطن ، وقذائف المدفعية ذات العيار ٢٠٣ مم كانت تقلب الأرض ، ولكن الالتحام وجهاً لوجه ، الذي تدخل فيه لعبة استخدام الحراب والقنابل اليدوية ، كان الطابع الرئيسي والأداة الفعالة والواسطة الحقيقية لهذا الصراع .

ظل كورغان ماماييف أسوداً حتى في أوج موسم الثلج . فقد ذاب الثلج وامتزج بالأرض سريعاً بسبب رمايات المدفعية .

أما المعارك التي دارت حول بيوت الاختصاصيين فكانت تتراوح بين الهادئة والعنيفة وما أن تضعف رماياتنا أو هجماتنا ، حتى يبدأ العدو بضرب المعبر الرئيسي على الفولغا . وكنا مضطرين دائماً للقيام بهجوم لإزالة الرماة من بيوت الاختصاصيين عندما يتجمهون هناك .

وسيشاهد القراء فيما بعد صورة أحد هذه البيوت الذي حول إلى قلعة حصينة . وكان يعرف باسم بيت (بافلوف) . ومن الطبيعي أن لا يكون لاكوف فريدروفتش بافلوف هو صاحب البيت ، ولكن كان يعرف في ذلك الوقت بين الجنود بهذا الاسم ، لقد حول إلى قلعة لكي يضحي الغزاة الألمان ببضع مئات

لاحتلاله ولكنهم لم يتمكنوا مطلقاً ، لا بالهجوم المباشر ولا بالحصار الطويل دارت المعارك من أجل هذا البيت مدة خمسين يوماً.

إلى الشرق من هذا البيت كانت هناك بناية من ثلاث طوابق مع مدخنة معمل نصف محطمة بسبب القنابل . وهذا البيت هو عبارة عن طاحونة قديمة ، كانت ضمن النظام الدفاعي العام تشكل حاجزاً قوياً ، هي وبيت بافلوف أمام تقدم الألمان نحو الفولغا . وبطلب من قدماء المحاربين في معركة ستالينغراد تركت هذه الطاحونة على حالها،كما كانت عليها خلال أيام الدفاع ، بثقوبها وثغراتها المفتوحة كالغربال بسبب القنابل والقذائف والألغام . تركت لتظل شاهداً على المعارك البطولية لعام ١٩٤٢ .

وبالقرب من هذا البيت تم بناء متحف الدفاع عن تساريستين ومعركة ستالينغراد .

تتابع القتال في قطاع المحطة بنجاح متقلب و تبادلت الأيدي المحطة والبيوت حولها من أربع إلى خمس مرات في اليوم ، وفي كل هجوم كان يقع من الطرفين عشرات ومئات الضحايا ، وفي الجهتين كانت القوى تذوب والصفوف تتشتت فالقوة بالنسبة لنا كما هي بالنسبة للعدو إدخال وحدات جديدة وزجها في المعركة، يعني ذلك زج الاحتياط .

أحبطت المقاومة الصلبة لمحاربينا في مركز المدينة وبخاصة التي أُظهرها جنود فرقة الحرس ١٣ ، مخططات وحسابات فون باولوس ، وفي نهاية المطاف رمى في المعركة بكل قوات مجموعة الصدمة الثانية التي كانت متمركزة في قطاع غوروبونوفو ـ بستشنكا ـ سادوفا.

زج العدو على جناحنا الأيسر فرقتين مدرعتين وفرقة آلية وفرقة مشاة بعد إعادة تجهيزها بالسلاح والعتاد والرجال . ولم يكن ذلك الهجوم مفاجئاً لنا ، ولكن لم يكن لدينا القوى الكافية للتصدي لصدمة هذه الكتلة . وكان واضحاً أن العدو أقوى منا على الأقل بعشر مرات ، ولكنه دفع ثُمناً باهظاً لكل خطوة خطاها إلى الأمام.

يعتبر الالتحام في أعلى درجاته في التاريخ العسكري ، عندما يتبادل فيه الطرفان الهدف ـ مدينة أو قرية ـ عدة مرات ، فعلى الحد الجنوبي للمدينة ترتفع حتى الآن البناية الضخمة لصوامع الحبوب . ومن أجلها جرت أعنف المعارك من ١٧ ـ ٢٠ أيلول . وليس في البناء فقط ، بل في مختلف الطوابق والمخازن الموجودة حيث تبادلتها الأيدي عدة مرات . وقد إتصل بي قائد فرقة مشاة

الحرس العقيد دوبيانسكي بالهاتف وأبلغني أن الموقف متغير . فقبلًا كنا نحتل قمة الرافعة والألمان في الأسفل . وقد أخرجناهم حالياً من الأسفل ، ولكنهم وصلوا إلى أعلى والمعركة تدور في الأقسام العلوية للصوامع .

لم يكن هذا الموقع الوحيد الذي تم الدفاع عنه بضراوة خارقة بل كان في المدينة أهداف كثيرة مثله تعد بالعشرات و المئات أيضاً . وكان الصراع يتوالى بنجاح متغير طوال الأسابيع عن كل غرفة وكل ملحق ، وكل درجة في السلالم .

أخطرت المجلس العسكري للجبهة في ١٦ أيلول ، بأنه لم يعد لدينا أي احتياط ، في الوقت الذي كان فيه العدو يرمي بأفواج ووحدات جديدة وفي بضعة أيام أخرى من معارك دموية مثل التي تجري ، لن يبقى لدى الجيش أية قوة وستنزف دماؤنا حتى الأخير ، وطالبت بإرسال فرقتين أو ثلاث فرق جديدة .

كان قائد الجبهة ـ طبعاً ـ يعرف تماماً الموقف في المدينة ويقدر مدى أهمية هذه المعارك التي تدور في الشوارع والتي أثبتت منذ ١٢ ـ ١٦ أيلول أن القوات التي تدافع عن المدينة يمكنها أن تكبد المهاجمين خسائر فادحة ، أكثر من الهجمات المعاكسة التي تقوم بها جيوش كاملة في أرض مفتوحة مثل السهوب ، ولم تتمكن قوات جبهة ستالينغراد وقوات جبهة الدون من اختراق جبهة العدو التي كانت بعرض ثمانية إلى عشر كيلومترات من اجل إقامة إتصال مع قوات الجيش ٦٢ . في حين أن جيش الميدان السادس فون باولوس والجيش المدرع الرابع فون هوت ، لم يتمكنا خلال عدة شهور اجتياز خمسة إلى ستة كيلومترات وهي التي تفصلهما عن نهر الفولغا ، وبالتالي رمي قطعات الجيش ٦٢ المنهكة في النهر .

ولكن أدى هذا الدفاع البطولي في المدينة إلى إنهاك الجيش . لذلك وضعت قيادة الجبهة تحت تصرفه لواء من مشاة البحرية ، ولواء مدرع ، كان لواء مشاة البحرية ٩٢ بتعداد كاف ، كما كان بحارة أسطول البحر الأسود على مستوى عالٍ جداً من الخبرة. وقد أوكلت إليهم مهمة احتلال القطاع الدفاعي الممتد على طول الخط الحديد الذي يحده من الشمال مجرى نهر تساريستا ومن الجنوب المثلث المشكل من الخطوط الحديدية .

أما اللواء المدرع فلم يكن لديه سوى دبابات خفيفة مسلحة بمدافع عيار ٤٥ ملم ، وكان عليه احتلال خطاً دفاعياً دائرياً في قطاع عقدة السكة الحديدية على بعد نصف كيلومتر من كورغان ماماييف ، وعدم ترك العدو يصل إلى الفولغا .

تستحق المعارك التي وقعت جنوب المدينة في قطاع صوامع الحبوب انتباهاً خاصاً فيما يتعلق بصلابة محاربينا ، وأني أورد هنا بعض السطور من رسالة أحد الأشخاص الذين اشتركوا في القتال من أجل المخازن . وهو قائد فصيلة الرشاشات التابعة للواء مشاة البحرية ٩٢ أندريه خوزيانوف،ويعيش حالياً في اورل :

إني أتذكر أنه في مساء ١٨ أيلول ، وبعد معركة حامية استدعيت إلى مقر القيادة وأعطيت هذا الأمر : الوصول مع فصيلة الرشاشات حتى المخازن ومع العناصر المكلفة بالدفاع عن المخازن والتمسك بالبناء مهما كان الثمن . في نفس الليلة وصلنا للنقطة المحددة . وقدمت نفسي لقائد الحامية وكان المدافعون عن المخازن لا يتجاوز عددهم ٣٠ ـ ٣٥ شخص ، بما فيهم الجرحى الذين كانت جراحهم خطيرة . ولم تفسح الظروف لإخلائهم إلى الخلف . وكانوا من جنود فوج مشاة الحرس.

سر جنود الحرس بوصولنا ودب فيهم الفرح والحماس . إذ كان فصيلنا مؤلفاً من ١٨ شخصاً مسلحين تسليحاً جيداً ، كان لدينا رشاشات ثقيلة ورشاش خفيف ، وبندقيتان مضادتان للدبابات ، وثلاثة مسدسات رشاشة ، وجهاز راديو .

في فجر ١٨ ظهرت من الطرف الجنوبي للمخازن دبابات فاشية مع علم أبيض، وماذا حدث؟ خرج شخصان عسكريان من الدبابة: ضابط الماني ومترجم ، طلب منا الضابط بواسطة المترجم الاستسلام إلى الجيش الالماني المتقدم فكل دفاع ضده لا فائدة منه ، ولا يمكننا البقاء طويلاً ، وحثنا الضابط الهتلري على إخلاء الصوامع بأسرع ما يمكن، إذ قال: «لا أمان لكم في حالة الرفض فبعد ساعة سنبدأ بقصف مراكزكم ونسحقكم » . هنا قال زميلي « أنظروا إلى هذا الوسخ ما يقول». وبعد برهة من التفكير أجبنا الملازم هذا الجواب القصير : « أنقل بواسطة الراديو إلى كل الفاشيين للخروج من هنا بسرعة ، أما الشياطين والوسطاء مثلكم فيمكنهم العودة إلى أماكنهم ، ولكن على الأقدام فقط » .

كانت الدبابة تستعد لاطلاق النار علينا ولكننا أوقفناها حالاً بطلقتين من بنادقنا م/د .

وصلت بعد قليل من الجنوب والغرب دبابات عدوة مع مشاتها وتتفوق علينا بعشر مرات وأخذت تهاجم المخازن . استطعنا صد أول هجوم وتبعه

هجوم ثانٍ وثالث . وكانت تحلق في الجو طائرة استطلاع *bi - poutre* وفوق رؤوسنا لإخراس رمايات المدفعية ، وتعطي المعلومات عن الموقف في قطاعنا ، ومع ذلك تمكنا من صد ما مجموعه عشر هجمات في يوم ١٨ أيلول .

كنا نقتصد كثيراً بالذخيرة لعلمنا بصعوبة الحصول عليها بعد قليل .

أخذت الحبوب في المخازن تحترق بفعل نيران المدفعية ، وتبخر الماء الموجود في الصوامع ، وأخذ الجرحى يطلبون الماء للشرب ولكن لا مياه لدينا أو بقربنا . وبقينا على هذه الحالة ندافع ليلاً ونهاراً طيلة ثلاثة أيام . وجعل الدخان والحرارة والعطش أسناننا تصطك لوحدها . وكان كثير منا خلال النهار يصعد إلى قمة الصوامع لاطلاق النار والعودة ، ونجتمع جميعنا ليلاً لنؤمن لأنفسنا دفاعاً دائرياً عن الصوامع . وتعطل جهاز الراديو منذ اليوم الأول ولكننا استطعنا إقامة إتصال خاص مع وحدتنا .

حلَّ يوم العاشر من أيلول، والوقت ظهراً. شاهدنا دبابات تقترب منا من جهتي الجنوب والغرب عددها اثنتا عشرة دبابة . ولكن البندقيتين المضادتين للدبابات أصبحتا دون ذخيرة . ولم يبق معنا سوى قنبلة واحدة ، والدبابات تقترب من طرفي المخازن وتطلق نيرانها من مسافة قريبة علينا،ورغم ذلك لم يصب أحد منا ،.كنا نرمي على مشاة العدو برشاشاتنا ورشيشاتنا دون أن نسمح لهم بالاقتراب أو التسرب ،الى الصوامع . إحدى قذائف العدو عطبت أحد رشاشات مكسيم وقتلت أحد السدنة ، في فصيل آخر انفجرت قنبلة وعطبت غطاء التبريد لرشاش مكسيم آخر فتعطل الرشاش وتعطل المدفع أيضاً،ولم يبق معنا سوى رشاش واحد .

سببت الانفجارات تطاير الاسمنت ، وأصبح كالشظايا كما سبب احتراق الحبوب إنبعاث الدخان الكثيف ، لذلك لم نعد نرى شيئاً ، ولكننا كنا نشجع بعضنا : «هورا الملجأ هناك، إلى الأعلى» .

بعد قليل تدفق جنود العدو من وراء الدبابات بأسلحتهم الآلية وعددهم بين مائة إلى مائة وخمسين أو حوالي مائتي جندي يسيرون بحذر وهم بوضع الانقضاض ، ويرمون القنابل اليدوية أمامهم،حيث توصلنا إلى التقاط بعضها وهي طائرة وأعدناها لهم وكل اقتراب من الفاشيين ، كنا نصرخ كما اتفقنا « هورا إلى الأمام من أجل الوطن » .

نجح الفاشيون في الجهة الغربية من الصوامع،واستطاعوا التسرب إلى البناء

ولكن سرعان ما غطينا برمايتنا الأقسام المحتلة.

أخذت المعركة تضطرم داخل البناء ، وكنا نشعر ونسمع أقدام العدو ولهث أنفاسه ولكن دون رؤيتهم بسبب الدخان ، لذلك كنا نعتمد على الظن والسماع بالأذن .

أحصينا في المساء وبعد هدوء قصير مالدينا من ذخيرة فوجدنا أنه لم يبق منها إلا القليل ، وبخاصة ذخيرة الرشيش،ولم يبق سوى مخزن ونصف لكل رشيشة ٢٥ ـ ٣٠ طلقة ، ولكل بندقية من ٨ ـ ١٠ طلقات .

كنا مطوقين ، ولكن لا يمكن الدفاع بهذا العدد القليل من الذخيرة لذلك قررنا فتح طريق لنا نحو القطاع الجنوبي من جهة بيكيتوفكا على أساس أن رمايات أسلحة العدو ودباباته تتقاطع على الواجهة الشمالية للصوامع .

وفي ليل ٢١ أيلول أخذنا طريقنا تحت حماية الرشاش الوحيد الباقي معنا . وسارت الأمور بشكل جيد في البداية باعتبار عدم وجود عدو ينتظرنا من هذه الجهة . وبعد أن عبرنا المنخفض والسكة الحديدية وقعنا على سرية من هاونات العدو،تحاول التمركز تحت جنح الظلام .

إني أتذكر أننا بضربة واحدة قلبنا ثلاث هاونات وعربة ملأى بالقنابل وأذهلت المفاجأة جنود العدو؛فتشتتوا وتركوا سبعاً منهم في الأرض،ولم يتركو لنا اسلحتهم فقط بل تركوا لنا خبزاً وماءً ، كنا نموت من العطش ، « الشرب . الشرب » هو ما كنا نفكر به وأروينا عطشنا في الظلمة حتى النهاية ، وأكلنا الخبز الذي كسبناه من الألمان ، وتابعنا السير . ولكن مع الأسف لم أعد أعرف ما حل برفاقي لأني على ما يبدو فقدت الذاكرة ولم أستعد ذاكرتي حتى ٢٥ أو ٢٦ أيلول في أحد الكهوف المظلمة الرطبة والتي يبدو أنها نظفت بالمازوت.وبدون القميص البحري ، الذي كنت أرتديه،ودون حذاء في الرجل اليمنى ويداي ورجلاي لا تطاوعان على الحركة، ورأسي يدور » .

علمت في السابع عشر من أيلول أن جبهة ستالينغراد قد انتقلت للهجوم على المواقع بين الدون والفولغا في قطاع اكتوفكا ـ كوزميتشي باتجاه الجنوب بمهمة تدمير العدو والعمل على إقامة الإتصال مع الجيشين ٦٢ و ٦٤ ، اللذين يدافعان عن ستالينغراد . غمرنا الفرح لهذه الأخبار فالجبهة كلها ستقوم بالهجوم ، لذلك بدأ المجلس العسكري فوراً في التفتيش عن أفضل الطرق التي يمكن أن نساعد فيها القوات المهاجمة وإنهاء حصار الجيش ٦٢ بعد أن حشره العدو على

الفولغا . ومن الأهمية بمكان ، إقامة إتصال بينه وبين جيرانه المتمركزين على جناحيه . قررنا في النتيجة رغم الصعوبات ، متابعة الدفاع النشيط في وسط الجيش ومهاجمة جناح العدو الأيمن بلوائي مشاة ولواء من فرقة سارابيف ، والإسراع في إقامة الإتصال مع القوات العاملة شمال المدينة .

أوضح لي الجنرال ايرمنكو في مساء اليوم نفسه ، أن الهجوم سيبدأ دون توقف ، لذلك علينا دعم قوات جيراننا الموجودة على الطرف الأيمن . ومهاجمة العدو الموجود في الجنوب الغربي اعتباراً من قطاع بلدة كراسني اوكتيبار وكورغان ماماييف ، وتجزئة قواته وإبادتها في القسم الغربي من المدينة . ضمت إلينا فرقة المشاة ٩٥٥ بقيادة العقيد ف . غوريشني لتعزيز الجناح الأيمن للجيش بعد تجمعها في ١٨ أيلول على معبر الفولغا .

كان مركز القيادة يتعرض دون انقطاع للقصف المدفعي ، لذلك سمحت لنا القيادة بنقله ضمن قطاع ، يصل إلى كيلومتر شمال ميناء«كراسني أوكتيابر» النهري .

امتدت خطوطنا الدفاعية الأولى مساء ١٧ أيلول على الجناح الأيمن من رينوك حتى كورغان ماماييف دون تغيير ، وصدت كل الهجمات الجزئية في هذا القطاع خلال الأيام الخمسة الماضية . أما في الوسط فيمتد خط الجبهة من كورغان ماماييف والمحطة المركزية التي كانت بأيدينا،ثم منازل الاختصاصيين التي كانت بيد العدو ومنها يرمي على المعبر الأوسط للنهر وامتدت الجبهة على الجناح الأيسر من مجرى تساريستا على طول الخط الحديدي ، وتستند إلى الفولغا بالقرب من خزان المياه .

ضم ما تبقى من لواء المسير مع وصول الوحدات الجديدة إلى لواء المشاة بقيادة م . باتراكوف،كما وزعت كل الوحدات الأخرى في الجناح الجنوبي لفرقة مشاة الحرس دوبيانسكي ، وأرسلت هيئات الأركان إلى الضفة اليسرى لتشكيل وحدات جديدة .

بقي في الجناح الأيسر للجيش لواءا المشاة ٤٢ و ٩٢ وفرقه ، وبذلك أصبحت قيادة الوحدات أكثر سهولة من قبل .

انتقل في ليل ١٨ أيلول مركز قيادة الجيش إلى مكانه الجديد فمنذ هبوط الليل بدأت وسائط الإشارة إنتقالها مع وحدات الخدمة وبعض ضباط الأركان . و آخر من إنتقل كان المجلس العسكري ، ورئيس الأركان وضباط العمليات . ولكن

من الخطر إنتقالهم مع وثائقهم عبر شوارع المدينة الملأى بجنود العدو من الرماة والقناصة وحتى الدبابات ، ومن الممكن أن نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع العدو . لذلك قررنا اجتياز المجموعة الرئيسية لضباط الأركان والمجلس العسكري النهر بالمراكب إلى الضفة اليسرى ، ومنها العودة إلى الضفة اليمنى بمناورة تحرك معقدة جداً اعتباراً من مصب نهر تساريستا نحو الضفة اليسرى للفولغا في كراسناياسلوبودا . ومن هناك بالسيارات نحو الشمال إلى المعبر ٦٢ المواجه لجزيرة زايتسيتسكي لإعادة العبور من هناك بواسطة مركب مصفح لمركز القيادة الجديد رأساً في الضفة اليمنى .

خرجت قافلتنا من المخبأ في منتصف الليل محملة بالوثائق والأوراق والأمتعة الشخصية . وأخذت تتلمس طريقها في الظلام ، وتجمعت عند نقطة الانطلاق دون ازدحام ، رغم القذائف والألغام ، التي تتطاير فوق الرؤوس من وقت إلى آخر .

أضعنا عند وصولنا إلى الضفة اليسرى للفولغا حوالي ساعة في بلدة بوكالدي ، ثم في كراسنايا سلوبودا للتفتيش عن سياراتنا ، التي امتطيناها حال عثورنا عليها . وفي هذه اللحظة التقيت بكوزما اكيموفتش غوروف ، الذي كان يفتش عليَّ ، واقترح أن نذهب إلى مشتل للدولة يبعد خمس كيلومترات عن كراسنايا سلوبودا ، حيث يوجد فصيل خدمة المؤخرة ، وبإمكاننا هناك تناول شيء من الطعام والاستحمام ثم العودة والذهاب مباشرة إلى مركز القيادة الجديد .

نقلنا كريلوف وقيادة رتل الأركان إلى المقر الجديد ، ووعدناه بأن نحمل له معنا شيئاً ما ليأكله .

ذهبت بصحبة غوروف والمرافقين إلى المشتل ، واستقبلنا هناك كالهارب من العالم الآخر ، وبعد حمام البخار قدموا لنا ثياباً نظيفة وغذاءاً شهياً ، ولبسنا سراويل الجنود الصوفية الدافئة . مر الوقت سريعاً ونحن نشرب الشاي حول الطاولة كانت النوافذ مموهة ، لذلك لم نر حلول الفجر . فصعقنا بظهوره لأن معبر النهر لا يعمل إلا ليلاً وخفنا أن نصل متأخرين ، وماذا سيكون تفكير كريلوف وباقي الأركان نحونا ، فيما إذا لم نتمكن من الحضور في ذلك اليوم إلى مركز القيادة الجديد .

قفزنا بسرعة إلى السيارات واتجهنا نحو المعبر ٦٢ ، ولم أكن أعرف الطريق إليه ، وكان دليلنا غوروف في سيارته أمامنا ولكنه أخطأ الطريق فبعد

فترة من الزمن وجدنا أنفسنا في كراسنايا سلوبودا ، أي عكس الاتجاه،وبعد أن أدركنا خطأنا عكسنا طريقنا .

وجدت عند وصولنا للمعبر مركباً مصفحاً واحداً راسياً هناك وكان يبدو أنه يستعد للمسير . ولم ندر إلا وسيارتنا منغرزة في الرمل وكأنه عمل مقصود متعمد . فكرت بسرعة ، إنه إذا كان آخر قارب قد غادر فسنبقى على الضفة اليسرى طوال النهار وفكرت بما سيجري للجيش والمدينة خلال ذلك النهار . أسرعت نحو الرصيف ، في الوقت الذي أخذ فيه المركب يبتعد عن الرصيف . استجمعت كل قواي وقفزت إلى ظهره ونجحت القفزة ، وأصبحت فيه . كما ركض غوروف نحو الرصيف ، وصرخت في الرجل الذي يقف على الدفة :

ـ عد إلى الوراء !

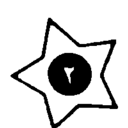
ولكن الرجل أدار رأسه فقط ببطء وسأل:

ـ من تكون أنت ؟

ـ قائد الجيش ٦٢

أعاد المركب إلى الرصيف ، وصعد غوروف مع بقية المرافقين . وعندما أصبحوا على متن المركب بدأ سيره بأقصى سرعته نحو الضفة اليمنى .

اعتذر لي قائد المركب المصفح على أساس أنه لم يعرفني ، وخلال عشر دقائق عدنا مرة ثانية إلى الضفة اليسرى . صافحت الرجل بحرارة وشكرته من كل قلبي .



لم يكن في مركز القيادة الجديد أي مخبأ أو مكان مغطى لنتقي به على الأقل من الشظايا والطلقات والقنابل الصغيرة ، وفوقنا في أعلى المنحدر توجد مستودعات للبترول ، وحوض للمازوت من الاسمنت المسلح ، وعلى الشريط الساحلي الرملي تكدست الآلات والأدوات ومحركات وتجهيزات مصانع محضرة لنقلها إلى الضفة اليسرىٰ ، ولكنها ظلت في مكانها لعدم إمكانية نقلها ، وعلى طول حافة النهر تناثرت القوارب المدمرة والمعطوبة ، وكميات من الخشب العائم .

استقرت قيادة الأركان في إحدى القوارب دون تغطية وفي الهواء الطلق،كما

استقر المجلس العسكري ورئيس الأركان بالقرب من القارب من القارب في خنادق حفرت على جناح السرعة دون تغطية .

شرع رجال الهندسة فوراً ببناء المخابىء المغطاة ، وقيل لنا إن مستودعات البترول الموجودة فوقنا فارغة،ولكننا دفعنا فيما بعد ثمناً غالياً لهذه الثقة ـ كما سيمر معنا .

كانت قوات الجناح الأيمن للجيش تعد نفسها للقيام بالهجوم المعاكس إلى جنوب ـ غرب كورغان ماماييف بالتعاون مع الجيوش الثلاثة التي ستهاجم من الشمال لتجزئة وإبادة القوات العدوة المتجهة نحو ستالينغراد .

ابتدأ يوم ١٨ أيلول كالمعتاد ، فمنذ ارتفاع الشمس ظهر طيران العدو وأخذ يقصف وينقض على مواقعنا موجهاً جهده الرئيسي إلى المحطة وكورغان ماماييف . بعد الطيران ، فتحت المدفعية وهاونات العدو نيرانها ، فردت عليها مدفعيتنا ، وأخذت المعركة تضطرم بعنف متزايد . وفجأة فرغت السماء في الساعة الثامنة مساءً فوق المدينة من قاذفات العدو ، فأدركنا أن قوات جبهة ستالينغراد التي تعمل في شمال المدينة تشتبك مع العدو بقوة ، وكانت هناك بداية لمعركة استطلاعية . وفي الساعة الرابعة عشرة أصبح واضحاً أن المعركة انتهت ، لأن مائتي طائرة جونكرز قاذفة ظهرت مجدداً فوق رؤوسنا وتابعت غاراتها العنيفة على مواقع الجيش ٦٢ والتي بدأتها في الصباح ، وهذا يعني أن القتال في الشمال على ما يبدو توقف ، أو على الأقل،توقف مؤقتاً .

كانت طائرات العدو تعاود غاراتها عند ظهور أية ظاهرة نشطة لقواتنا وبخاصة من الجهة الشمالية ، وكنا نقدر حسب نشاطها ، الموقف على بقية القطاعات لجبهتنا ، ونحن نشكر جيراننا ، لأن ست ساعات من الهدوء قد أتاحت لنا تحسين مواقعنا .

أحرزت قواتنا التي قامت على الجناح الأيمن بهجومها المعاكس مع طلوع الفجر بعض النجاح ، واحتل لواء المشاة بقيادة العقيد غوروف المرتفع رقم ٣٠،٥ ، وكذلك احتل لواء من فرقة سارابيف المرتفع ١٣٥،٤ ، وفي قطاع الفيلق المدرع ، احتل اللواء الآلي كل البستان الواقع في الجنوب الغربي من بلدة كراسني أوكتيابر .

صمدت عناصر من فرقة ا . أيرمولكين ، ولواء الحرس إيلين في المعارك الضارية ، التي دارت على مرتفع كورغان ماماييف ، وفي يوم واحد تقدمت

١٠٠ ـ ١٥٠ م وتحصنت بقوة على القمة . كما تتابعت المعارك في وسط المدينة وعلى الجناح الأيسر للجيش بنفس الضراوة . وبالرغم من التفوق العددي للعدو لم يتمكن من إحراز أي نجاح ، وتمسكت قواتنا بمواقفها بشدة ، عدا المحطة ، فبعد أن تداولتها الأيدي خمس عشرة مرة خلال خمسة أيام من القتال الدموي إحتلها العدو في نهاية يوم ١٨ أيلول .

لم تكن لدينا الامكانيات للقيام بهجوم معاكس لاستعادة المحطة : ففرقة الجنرال روديمتسيف استهلكت بعد أن دخلت المعركة حال اجتيازها الفولغا . وصمدت أمام محور الجهد الرئيسي للقوات الألمانية ، التي كانت تحاول احتلال المدينة بضربة واحدة ، كما تكبد جنود الحرس الآخرين خسائر فادحة ، من المؤكد أن العدو احتل حقيقة بعض أحياء ستالينغراد ، ولكن هذا لم يكن تراجعاً أو انسحاباً ، فلا أحد يفكر بهذه الأمور ، وصمد جنود الحرس حتى الموت . والذي انسحب منهم،إما كان معزولاً عن رفاقه أو أصيب بجروح خطرة . ومن أقوال الجرحى ، والنتائج التي ظهرت فيما بعد تبين أن الألمان تكبدوا خسائر فادحة ، فجنود الحرس الذين تم إتصالهم بالقوة الرئيسية حفروا الخنادق وتمركزوا فرادى أو بمجموعات من اثنين إلى ثلاثة أشخاص في أرض المحطة وفي مركز التبديل والطوابق السفلية للأبنية المجاورة للمحطة أو وراء الممرات التي كانت تعود لخط السكة الحديدية وعربات القطارات ، حيث واصلوا قتالهم رغم إنعزالهم عن بعضهم ، وكانوا يطلقون على الفاشيين من الخلف والجوانب ، ويقضون عليهم ليلاً ونهاراً . وفرضوا على العدو تكتيك حرب الشوارع ، والذي أجبر الضباط الألمان على إبقاء أفواج وسرايا في حالة استعداد طيلة اليوم كله ، وزج قوات جديدة في كل الاتجاهات ضد المقاتلين السوفييت ، الذين كانوا يقاتلون حتى آخر رمق . وهكذا بدأت تتشكل في ذهني الفكرة التي غذيتها منذ أول يوم وصلت فيه إلى الجبهة ، وهي كيف أواجه تكتيك العدو التقليدي والمطبق حالياً في الجبهة بشكل جيد .

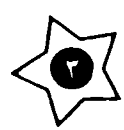
● كان في المقام الأول من تفكيري هو الجندي باعتباره العامل الرئيسي في المعركة ، وعليه يقع عبء الصراع مع العدو ، وجهاً لوجه ، ويعرف أحياناً نفسية الجندي المعادي أكثر من القادة الذين كانت تشغلهم مراقبة تشكيلات العدو القتالية فقط ، وكانوا يدرسون صفات العدو وأشير هنا إلى (كانوا يدرسون) فالطبيعة أعطتهم الفكر والقلب ، وأهلية التفكير دون أن تعطيهم إرادة الرئيس

فهم إرادة رئيسهم . ومعرفتهم عن تقدير الموقف وغايات الخصم ـ دون شك ـ أقل مما يعرفه ضباط الأركان بخصوص القوات العدوة ، فهم ينظرون لساحة المعركة بمنظار عريض مثلنا ، ولكن في حدود جنود العدو الذين يصطدمون بهم في القتال ، كانوا يشعرون بعمق وبحيوية أكثر ، بالقوة المعنوية للعدو . ولا يعرفون ذلك كعموميات ، بل كانوا يشعرون بها في ساحة المعركة ، وهي في النهاية العامل الحاسم لكل معركة .

إن الجندي المدرب جيداً ، ولديه التفوق المعنوي على خصمه لا يخاف من تفوق العدو العددي حتى في أعنف المعارك ، ولهذا فالمحارب السوفيتي رغم جراحه ، كان لا يترك ساحة المعركة ، ويسعى لتسديد ضربة قاتلة للعدو .

بث الحزب الشيوعي في المحاربين السوفييت الحب الجارف للوطن والاخلاص للشعب . وأجادت المنظمات الحزبية للجيش ، ومنظمات الحزب والكومسمول بتنفيذها تعليمات اللجنة المركزية للحزب . ورسخ في ذهن كل جندي الايمان بعدالة قضيتنا ، ومن خلال الأمثلة الحسية التي تواترت في حياة الجبهة ، ومآثر الأبطال ، يتضح أن هذه المنظمات ، قد نمت فيهم الشعور بعمق المسؤولية نحو الوطن ، وحصنت معنوياتهم . كل ذلك في مجموعه العام يجعلني أفكر بصلابة محاربينا ، وعلى هذه القاعدة من الضروري إجراء تغيير جذري في تكتيك وحداتنا الصغرى في ظروف قتال الشوارع : يجب العمل بشكل يصبح فيه في كل بيت ، على الأقل محارب واحد ، كحاجز منيع في طريق العدو . ولا يوجد هناك ما نخشاه ، فيما إذا تمركز الجندي في قبو أو على سطح أو درج وهو مدرك لمهمة الجيش العامة ، أن يبقى وحيداً ينفذ مهمته مستقلاً ، فالجندي في حرب الشوارع هو أحياناً قائد نفسه .

قررنا منذ الأيام الأولى للمعارك حول المحطة ، أنا وعضو المجلس العسكري غوروف ورئيس الأركان كريلوف ، أن نجري تغييراً جذرياً تكتيكياً : تشكيل وحدات تكتيكية جديدة بجانب الفئات والفصائل وفصائل الانقضاض الصغيرة في السرايا والأفواج .



تلقينا في ١٨ أيلول الأمر اليومي الذي أصدرته جبهة (جنوب ـ شرق)

التي كان الجيش ٦٢ ضمن وحداتها في ذلك الوقت وجاء فيه:« تكبد العدو خسائر فادحة على خط كوزميتشي ـ سوخايا ـ ميتشينكا اكاتوفكا من جراء الضربات التي وجهتها إليه جبهة ستالينغراد ، التي قامت بهجومها باتجاه الجنوب؛ واضطر العدو للتصدي لهجوم المجموعة الشمالية من قواتنا ، وأن يسحب بعضاً من الأقسام والوحدات الموجودة في قطاع ستالينغراد ـ فوروبونوف ، ونقلها إلى الشمال نحو غومارك» .

« ولتدمير مجموعة العدو في ستالينغراد والتنسيق مع جبهة ستالينغراد أمر ما يلي :

ـ يشكل قائد الجيش ٦٢ مجموعة صدام في قطاع كورغان ماماييف تتألف مما لا يقل عن ثلاث فرق مشاة ولواء مدرع للقيام بهجوم باتجاه العدو المتمركز على الحدود الشمالية الغربية لستالينغراد ، والهدف من ذلك هو تدمير وإبادة العدو الموجود في تلك المنطقة ، وكمهمة يومية إبادة العدو في المدينة،وتأمين خط رينوك ـ اورلوفكا ، المرتفعات (١٨٢,٠ ـ ٩٨,٩) الحدود الشمالية الغربية والحدود الغربية لستالينغراد .

ـ يقوم قائد مدفعية الجبهة بإسناد قوة الجيش ٦٢ بهجوم مدفعي قوي في المنطقة الممتدة إلى اليمين حتى حدود غورويشتشة ـ غومارك ، وإلى اليسار حتى مجرى نهر تساريستا .

ـ تنضم فرقة غوريشني اعتباراً من الساعة ١٩,٠٠ يوم ١٩٤٢/٩/١٨ ، إلى وحدات الجيش ٦٢ وعلى؛ قائد الجيش ٦٢ نقل القوة الرئيسية لهذه الفرقة إلى ستالينغراد عن طريق المعابر الواقعة في الشمال من قطاع كراسني أوكتيابر قبل الساعة ٥,٠٠ من يوم ٤٢/٩/١٩ واستخدامها بالهجوم اعتبارا من قطاع المرتفع ١٠٢,٠ في المحيط الشمالي الغربي للمدينة»·

تبدأ المشاة هجومها في الساعة ١٢ من يوم ١٩٤٢/٩/١٩

كانت الأهداف التي كلف الجيش ٦٢ بتنفيذها معقدة للغاية ، كما سنرىٰ ، لأن ما جاء في الأمر اليومي حول العدو لم يكن صحيحاً ، فالعدو لم يسحب (عدا الطيران) من المدينة وضواحيها أية وحدة من وحداته ليستخدمها ضد جبهة ستالينغراد المهاجمة .

لقد وجهت مصلحة مخابرات الجيش انتباهاً خاصاً في تلك الأيام لاستنطاق الأسرى ، ودراسة وثائق أركان الحرب المعادية ، التي وقعت في أيدينا خلال

المعارك . وخلال ذلك لم نستطع أن نجد دليلاً واحداً من أي أسير يؤكد طبيعة المعلومات التي أعلنت عنها أركان الجبهةَ بخصوص نقل القوات من ستالينغراد إلى الشمال .

وجاء في الأمر أيضاً ما يشير إلى عبور قوات غوريشني للفولغا واحتلالها لمواقع انطلاقها بين الساعة ١٢,٠٠ إلى ١٨,٠٠ .

كانت معابر الفولغا في ذلك الوقت تعمل في ظروف صعبة جداً والمهمة التي حددت لنا للهجوم لم تكن كافية مطلقاً لعبور القوات المشتركة .

لم يكن عبور فرقة غوريشني سوى مظهر واحد للمشاكل التي تعترضنا لتنفيذ الهجوم . وقد أشير في الأمر اليومي للجبهة إلى وجود ثلاث فرق على الأقل لدى الجيش ٦٢ للقيام بالهجوم المعاكس . ولكن من أين ستأتي هذه الفرق إذا كنا لا نحتفظ بأية فرقة كنسق ثانٍ أو احتياط للجيش ، وجميع القادرين على حمل السلاح يقاتلون في الخطوط الأمامية،وهم مشتبكون مع العدو في قتال الشوارع .

ولكن أمر الجبهة يجب أن ينفذ مهما كان الثمن .

برهنت كل المستويات القيادية في أركان الجيش وأركانات مختلف الفرق والأقسام والوحدات على نفسية عالية في التنظيم ، وفعالية وحماس في التحضير لهذا الهجوم المعاكس .

وقعت في ١٨ أيلول لاتمام أمر الجبهة أمراً للجيش ٦٢ في الساعة ٢٣,٥ ، ذكرت فيه،« بأنه بعد المعركة الدفاعية الضارية وبعد تراجعنا البطيء (ومهما كان نوعه ، كان تراجعاً) تظهر من جديد كلمة هجوم . ويجب على قواتنا ، ولو كانت منهكة ومتعبة أن تتقبل ذلك بترحاب وحماس شديدين فقد بدأت تظهر ثانية الثقة بقواتنا . وإذا كان هناك هجوم معاكس فهذا يعني أن لدينا القوة وسيكون ذلك نهاية الدفاع ، وسيحدد البدء بالهجوم المعاكس في ١٩ أيلول الساعة ١٢ .

كنا نراقب منذ الصباح الباكر بيقظة وانتباه تصرف العدو بغية التقاط أية إشارة تدل على بلبلة ما في معسكره ، ونرصد أية حركة تدل على انسحاب بعض قطعاته أمام قطاعنا في الجبهة . لاحظنا من جديد انخفاض نشاط طيرانه ، ولم تعد تظهر قاذفاته فوق سماء ستالينغراد . وهذا يعني أن قواتنا في الشمال تتابع عملياتها الهجومية .

انطلقت قواتنا بهجومها في الساعة ١٢ تدعمها مجموعة مدفعية الجبهة

وطيراننا . وقد سهل مهمتنا غياب طيران العدو ، رغم أن الطيران في الواقع لا يلعب دوراً حاسماً في معارك الشوارع .

ولكن في الساعة ١٧ عادت الطائرات الألمانية إلى سماء ستالينغراد ، فأدركنا فوراً أن هجومنا على الجناح الشمالي للعدو قد توقف من جديد .

تحول هجوم مجموعة الصدمة التابعة للجيش ٦٢ كما هو الحال على الجناح الأيسر إلى معركة جبهية في الوسط من جبهة قتال الجيش،أما على الجناح الأيسر ظل العدو سلبيا نسبيا .

دارت طيلة نهار ١٩ أيلول معارك طاحنة في قطاع مرتفع ماماييف ، تبادل الطرفان فيها النجاح . واحتل لواء المشاة الآلي المرتفع ١٢٦,٣ ، ونفذ لواء من الفرقة ١١٢ أيرمولكين على منخفض دولفي ، وحقق إتصالاً مباشراً مع اللواء الآلي كما دخلت المعركة فوراً قوات لوائين من فرقة غوريشيني بعد عبورهما النهر في ليل ١٩ أيلول بدون أن يكون لديهما الوقت الكافي للتحضير،وبعد اجتيازهما لهضبة كورغان ماماييف ، وجد اللواءان أنفسهما مشتبكين بمعركة جبهية مع مشاة ودبابات العدو ، التي كانت مندفعة للهجوم . وصدت منذ الصباح الباكر أقسام من فرقة المشاة ١١٢ أيرمولكين هجمات العدو العنيفة ، وتمسكت حتى نهاية النهار بالخط على طول سكة الحديد ، اعتباراً من كورغان ماماييف حتى شوارع بولوتنانيه في إحدى فروع منخفض دولفي ، وجسر سكة الحديد فوق منخفض كروتوي،حتى شارع أريتوفومسكايا .

أمامي رسالة من المقدم الاحتياط ف غوسييف ، عضو الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٣٩ ، والذي قاتل اعتباراً من ١٤ أيلول ١٩٤٢ ، في صفوف فرقة المشاة ١١٢ وألحق في تلك الفرقة من قبل الإدارة السياسية للجبهة حسب طلبه « بأية وحدة من الوحدات التي كانت تقاتل في قطاع مصنع كراسني أوكتيابر . ففي هذا المصنع عمل والدي لمدة ٣٥ عاماً حداداً.ولدت بقرب كورغان ماماييف ، حيث أمضيت طفولتي وشبابي . حارب والدي من أجل الدفاع عن تساريستين،وأنا لا أستطيع بعد حرق مسقط رأسي أن أكون خلاف ذلك » .

وصلت إلى الضفة اليمنى عن طريق المعبر ٦٢ والقصف المدفعي كان يزمجر . وقد خيل اليَّ أن حافة النهر العالية ، كانت درجة مدرعة ضخمة . وفي قطاع مصنع (كراسني أوكتيابر) وجدت مقر قيادة الفرقة ١١٢ وتقدمت إلى

قائد الفرقة أيرمولكين وإلى القوميسار ليكين، فسألني الرفيق أيرمولكين، أين كانت خدمتي قبل ذلك ، فاجبته بأن أول معركة لي كانت في بيريميشي في ٢٢ حزيران ١٩٤١ ، في صفوف فرقة المشاة الآلية السابعة ، وعندما نطقت بهذه الكلمات نظر اليّ أيرمولكين قائلاً : « ألا تعرفني يا غوسييف » ؟ عندها فقط تذكرت أن أيرمولكين كان قائداً للواء ١١٥ الآلي من تلك الفرقة، ووجدنا سوية في الحصار أمام كييف ، وبعد تنظيمنا للمفارز فتحنا طريقنا بالقوة والتحقنا بقواتنا بالقرب من خاركوف .

كان قائد الفرقة أيرمولكين ذا اخلاص لا حد له لمهنته ، ورغم أنه كان في بعض الأحيان عصبي المزاج ، كان يكرس كل جهده لتنفيذ المهام التي يكلف بها،وبنمي التقاليد السيبيرية وتقاليد قائد الفرقة المرحوم سولوغوب .

كانت الفرقة تعد في ذلك الوقت ٨٠٠ حربة (مقاتل) وتتسم باستعداد جيد . وتحتل قطاعا دفاعيا على جبهة واقعة إلى الشرق من غورديشتشة ـ كورغان مامايف ، وألحقت مباشرة بلواء المشاة ٤١٦ وهذا الأخير مع المجموعة المستقلة ١٥٦ المضادة للدبابات التابعة للفرقة ١١٢،كان يحضر للهجوم على كورغان مامايف ، الذي احتله العدو . كان قائد اللواء ٤٦ النقيب آسييف اجتماعياً جداً ووصل برفاقه إلى الحد الذي جعلهم لا يخافون الموت . وكان يعد اللواء لهجوم آخر على كورغان مامايف ، وقادني إلى مجموعته المدفعية المضادة ١٤٦ حيث استقبلت من قبل قوميسار المجموعة ، الموجه السياسي بوريس فيليمنوف .

أرسل فيلينخنوف حالاً عامل إتصال للتفتيش عن القائد ، وهو آمر سرية مدافع ٤٥ الكسي اوتشكين .

كان الأربعة بقيادة النقيب آسييف يدرسون كيفية احتلال كورغان مامايف بأقل ما يمكن من الخسائر .

ابتدأ الهجوم على كورغان مامايف في الصباح الباكر ليوم ١٩ وفي نفس الوقت قامت جبهة ستالينغراد بهجومها المعاكس اعتباراً من الشمال ودام الهجوم يومين ، وصمد مقاتلونا للنار الغزيرة التي أمطرهم بها الفاشيون ، وبالرغم من غارات الطيران الكثيفة ، كان المقاتلون يتقدمون بين أشلاء الجثث ، وكان النقيب آسييف يسير في المقدمة . ثم جرح الملازم اوتشكين في رأسه ووجهه وغرقت وجنتاه بالدم . ولم يكن لدينا الوقت لتضميد جراحه ، وكان هو وجنوده يجرون مدافعهم إلى الأمام،ويغرقون الفاشيست بنيران رشيشاتهم ، ويرمون

القنابل اليدوية على مرابض رمي العدو . وهكذا كان جنود اللواء ٤١٦ والمجموعة ١٦ من قانصات الدبابات يصعدون المنحدر ، الذي أصبح زلقاً من كثرة الدماء ويسيرون بين الجثث . وبعد ذلك تمكنوا من احتلال قمة كورغان ماماييف ، وبالتعاون مع وحدات فرقة المشاة ٩٥ ، تم قذف العدو إلى الجهة الأخرى من منخفض دولفوي .

صمدت فرقة الحرس ١٣ روديمستيف لقتال شديد بصفوفها المبعثرة من المعارك السابقة التي دارت في الشوارع الواقعة في وسط البلدة ، وكنا نشعر أن العدو يريد بكل ثمن أن يسحق هذه الفرقة،لينفذ إلى نهر الفولغا والميناء المركزي ، وليقطع الجيش إلى قسمين .

اشتبك لواءان من المشاة مع بقايا فرقة الحرس ٣٥ واللواء المدرع بقيادة بوبنوف بمعارك الشوارع اعتباراً من مجرى تساريستا حتى شارع فالديسكايا وإلى الأبعد في الجنوب الشرقي حتى ضفة الفولغا .

كانت قواتنا في قطاع كورغان متعادلة مع قوات العدو ، أما في القطاع الذي كانت تحتله فرقة مشاة الحرس ١٣ وإلى الجنوب كان العدو أكثر منا عدداً بخمس مرات .

أظهرت معارك ١٩ أيلول أن الغزاة لم يسحبوا قواتهم لتوجيهها إلى الشمال ، بل إنهم على العكس ازدادوا تصميماً وضراوة لتدمير الجيش ٦٢ .

تراجعنا في كل الاتجاهات نحو الفولغا في الوقت الذي أصبحت معابر الفولغا، ليس فقط تحت رحمة نيران المدفعية،بل أصبحت أيضاً هدفاً لرمايات الهاون . وبعد دراسة المجلس العسكري لهذا الموقف اتخذ سلسلة من القرارات الهامة وبخاصة لتنظيم معابر الفولغا بشكل رئيسي لئلا يقطع إتصالنا وتموينا القادم من الضفة اليسرى .

كانت المهمة صعبة جداً في هذا المجال بعد أن أصبح الفولغا تحت نظر ورمي العدو ، لهذا قررنا تنظيم معابر لكل فرقة حتى ولو كان بمردود ضعيف إضافة للمعبرين الرئيسيين المخصصين مع أرصفتهما للجيش ، فبإمكان هذه المعابر مساعدة الفرق وبخاصة لإخلاء جرحاها وإيصال الامدادات ، بعد ذلك مسحت كافة وسائط العبور، ونظمت ووضعت تحت مراقبة دقيقة .

كما وضع نظام خاص لتطبيق الإتصال الهاتفي والتلغرافي مع الوحدات وتحت اشراف قائد إشارة الجيش العقيد (جنرال فيما بعد) لورين . وكان لدينا

احتياط دائم من الأقنية والخطوط الهاتفية الغارقة في قاع الفولغا . وعندما كان يتعطل نظام منها كنا نلجأ للنظام الآخر ، وبالإضافة إلى ذلك أقيم مركز هاتفي وسيط على الضفة اليسرى ، بطريقة نستطيع معها الإتصال بالفرق الموجودة على الضفة اليمنى ، فالإتصال غالباً ما يقطع بين القوات الموجودة على ضفتنا بعد غارات الطيران الكثيفة وقصف المدفعية .

٤

بذل القادة الألمان خلال تلك الأيام كل ما يستطيعون واتخذوا مختلف التدابير لمنع عبور قوات جديدة للمدينة . فمنذ الصباح حتى سواد الليل والطائرات الألمانية لا تنقطع عن التحليق والدوران فوق الفولغا ، وتنقض على كل هدف يظهر أمامها . وتفتح المدفعية خلال الليل نيرانها على الأرصفة والمعابر التي تبقى خلال أربع وعشرين ساعة من أربع وعشرين ساعة معرضة لرمايات المدفعية والهاون ذي الفوهات الست ، وبهذه الصورة أصبح عبور القوات والعتاد الموجه للجيش ٦٢ صعباً للغاية .

كان على الوحدات التي تنجح في العبور ليلاً إلى الضفة اليمنى الانتشار والتمركز في مواضعها الدفاعية وتوزيع حمولاتها بين القوات فوراً ، وخلال الليلة نفسها ، وإلا ستدمر في اليوم الثاني بغارات العدو . وعلى الضفة اليمنى لم يكن لدينا سيارات ولا خيول ، لذلك كان من الضروري القيام بأعمال التمويه في كل مكان لحماية القطعات والعتاد من الطلقات والقنابل والقذائف والألغام ، وعلينا حمل كل ما يردنا عن طريق الفولغا إلى موقع الرمي على ظهور المحاربين أنفسهم ، وعليهم في الوقت ذاته صد هجمات العدو العنيفة نهاراً ونقل ذخيرتهم ليلاً دون نوم أو راحة بسواعدهم ، بالإضافة إلى نقل غذائهم وعتاد الهندسة المخصص لهم،وهذا يجهد وينهك المدافعين عن المدينة ، ومع ذلك لم يفت بعزيمة الوحدات القتالية ، ولم يدم هذا يوماً أو أسبوعاً ، بل دام كل الوقت الذي طالت فيه المعارك .

كان المقدم سولوكوف يدير في المدينة ،-منذ بداية المعارك حتى نهايتها- مركز توزيع العتاد المخصص للمدفعية في ميناء الشحن ، أما المقدم سباسوف والرائد زينوفيف فكانا مسؤولين عن توزيع الغذاء ، وطيلة هذه الفترة ظل هؤلاء الضباط يعيشون ويعملون بالقرب من صناديق الألغام والقذائف ، التي يمكن أن

تنفجر عليهم في كل لحظة .
وصلت في ١٩ أيلول إلى الضفة الشرقية للفولغا فرقة المشاة ٢٨٤ (ن. باتيوك) ملحقة بالجيش ٦٢ ، وكنا ننتظرها بفارغ الصبر ، وفي ذلك اليوم ظهر امامنا وضع دقيق جداً في مركز المدينة ، حيث يقاتل أحد ألوية فرقة روديمستيف ، وعلى كورغان ماماييف حيث تصمد عناصر من فرقتي المشاة ٩٥ ، ١١٢ . وتحطم المقر المركزي للفولغا ، ولا يمكن لأية قوة من استخدامه .
علمنا في مساء اليوم نفسه أن جبهة ستالينغراد ستقوم من جديد في ٢٠ أيلول بمهاجمة العدو من الشمال ، لهذا قررت متابعة هجومنا المعاكس اعتباراً من قطاع كورغان ماماييف باتجاه الجنوب الغربي ، وظننا أنه بعد الهجوم الفاشل الذي قامت به قوات جبهة ستالينغراد ، سوف تكلل هجمات أخرى بالنجاح .
أعطي الأمر لقوات الجيش ٦٢ بمتابعة الهجوم ليلاً في ٢٠ أيلول بكل الوسائل المتوفرة لدى الجيش ، وطلب المجلس العسكري في هذا الأمر من القطعات أن تنفذ المهمات التي لم تستطع القيام بها حتى الآن .
كما طرأ على قطاع فرقة روديمستيف موقف خطير جداً ، ولم نكن بحالة نستطيع فيها مساعدته حتى ولو بفوج واحد ، والشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو إعادة اللواء ٣٩ الذي أخذ من فرقته في ١٩ أيلول ، وأخذ يقاتل في كورغان ماماييف ، تحت قيادة ايلين . أما ما تبقى من فرقة الحرس ٣٥ بقيادة المقدم دوبيانسكي ، فبعد أسبوع من القتال المرير ، ودون انقطاع ضد عدو متفوق عدة مرات ، دب الضعف في هذه القوات ، ونزفت حتى النهاية ، لذلك قررنا توزيع رجالها وعتادها بين ألوية المشاة ٤٢ ، ٩٢ ونقل أركانها وأركان أخرى إلى الضفة الأخرى من الفولغا ليعاد تشكيلها بعناصر جديدة .
دخلنا في تلك الأيام بنقاش حاد مع قائد مدفعية الجبهة ميجور جنرال ف. ماتفييف حول وضع مدفعية الفرق والألوية . وكان ماتفييف يريد من وحدات المدفعية التابعة للفرق والألوية القادمة لتعزيز الجيش ٦٢ عبور الفولغا مع تشكيلاتها والتمركز في المدينة . ولكننا اعترضنا منذ البداية لدى المجلس العسكري على وصول المدفعية للضفة اليمنى ، فنحن عادة نترك مجموعات المدفعية التابعة لفرق المشاة على الضفة اليسرى ، وتسمح بدورها بعبور النهر للضفة اليمنى إلى مراكز المراقبة وقيادة الرمي . فمن الطرف الأيمن يمكنها قيادة رمي وحداتهما على جبهة عريضة ، ولكننا طلبنا نقل الهاونات والمدفعية

المضادة .

لم يكن لدينا في المدينة إمكانية جر المدفعية بالوسائط الآلية والحيوانية ولا يمكن أي شيء أن يخفي الجرار والسيارة أو الخيل عن نيران العدو ، وكل مناورة بالآليات أو تحرك ممنوع . ومن غير الممكن جر المدافع أو القاذفات بالسواعد عبر خرائب الأبنية السكنية أو الشوارع الملغومة بالقنابل والقذائف . وفي النصف الثاني من شهر أيلول أصبح تحميل القذائف ومعدات المدفعية عبر الفولغا حتى المدينة مهمة صعبة ومتعبة جداً ، وتصبح في بعض الأحيان مستحيلة كلياً ، حيث أصبح العدو منذ ذلك التاريخ يراقب كل أماكن تقربنا من الفولغا في الضفة الشرقية . وعندما وصل العدو اعتباراً من ٢٢ أيلول إلى مشارف الميناء النهري المركزي أخذ يوجه إلى كل زورق رمياً دقيقاً . كما أن الاعتماد على نقل الذخيرة ليلاً خطراً جداً ، لأن العدو يعرف قطاعات عبورنا ، ويضيء الفولغا طوال الليل بالقنابل والصواريخ المضيئة ، لذلك فمن الأسهل علينا نقل الذخيرة إلى الفولغا بطريق طوله مائة كيلومتر من اجتياز ممر مائي بعرض كيلومتر ، وعلى أساس ما تقدم إنضم المجلس العسكري للجبهة إلى وجهة نظرنا،وبقيت المدفعية على الضفه الأخرى الشرقية .

لعب قرار إبقاء المدفعية الفرقية على الطرف الأيسر للفولغا دوراً إيجابياً خلال المعارك الدفاعية والهجومية داخل المدينة ، فببقاء ألوية المدفعية الطويلة والقصيرة في الجهة المقابلة من الفولغا ، أصبح بمقدور كل قائد فرقة أو لواء أن يطلب توجيه نيران مدفعيته نحو أي قطاع من قطاعات الجبهة ، وبإمكان قائد مدفعية الجيش الجنرال بوجارسكي أن يركز في الأوقات الضرورية على قطاع واحد كل مدفعية الألوية والفرق بان واحد .

واعتباراً من ٢٠ أيلول كان يجتمع عندي ، في الساعة الخامسة من كل يوم القادة كريلوف ، بوجارسكي ، غوروف والعقيد غيرمن رئيس مصلحة المخابرات ، وحسب المعلومات التي كانت تردنا من مختلف المصادر كنا نستطيع تحديد المربعات التي يجمع فيها الهتلريون قواتهم استعداداً للهجوم . وفي الليل وقبل ظهور الفجر كنا نفتح على هذه المربعات نيراناً مفاجئة من مدفعيتنا ، ونقصفهم بصليات من الكاتيوشا . ونوجه غارات طيراننا القاذف بعيد المدى ، وفي مثل هذه الحالة فكل قنبلة ، وكل لغم يرمى في مركز تجميع العدو ، كان يسبب من الخسائر والتدمير أكثر من نيران سد ثابت ، أو الرمي

على منطقة وبذلك نحطم ونستنزف موارد العدو من الرجال ونضرب الهتلريين بنيراننا المدفعية . وبعد مثل هذه الغارات الليلية كان الفاشيون يسيرون للهجوم بمعنويات منخفضة أكثر فأكثر .

ابتدأت المعركة في ٢٠ أيلول عند ارتفاع النهار ، وفيما كانت تتوالى على جناحنا الأيمن معارك التثبيت ، كانت تصمد في قطاع كورغان ماماييف فرق المشاة ٩٥ و ١١٢ أمام هجمات قوى عدوة زجت حديثاً في المعركة .

أبلغني في الظهر قائد الفرقة ٩٥ العقيد غوريشني عن الموقف :

ـ عدا بعض التغيرات غير المهمة التي حدثت في الجبهة ـ حوالي مائة متر تقريباً لكل طرف ـ فالموقف في كورغان ماماييف بقي دون تغيير .

أجبته محذراً ومذكراً بأن أي تغيير ، ولو كان مئة متر يمكن أن يؤدي إلى خسارة الكورغان .

ـ سأفنى ، ولن أترك الكورغان يسقط ـ أجاب غوريشني بعد صمت قصير .

كان العقيد فاسيلي آليموفتش غوريشني قائد الفرقة ومعاونه للعمل السياسي إليا أرخيبوفتش فلاسنكو يديرون سير المعركة بدقة وإحكام عميقين،وبعد ذلك ربطت بين الطرفين زمالة السلاح ، ويبدو أن الواحد منهم كان يكمل الآخر . فالأول لم يكن رئيساً فقط ، ولكن كان شيوعياً أيضاً يعطي انتباهاً خاصاً للتربية السياسية للقوات ، وأما الثاني الذي يدير العمل السياسي والحزبي ، فكان يتدخل في مختلف تفاصيل العمليات ، وكان يعرف كيف يتكلم وكيف يناقش كأحسن من أي ضابط اختصاصي .

وعند إصغائي لتقريرهم الهاتفي عن الوضع في جبهة الفرقة لم أكن أشك بالدقة والموضوعية لتقديراتهم ، إن كان الذي يقدم التقرير غوريشني أو فلاسنكو ، فكل منهم كان لديه المعلومات عن الموقف العملياتي،وكانا يعرفان جيداً احتمالات وتصرف العدو .

وصلت فرقة غوريشني هي الأخرى للمدينة بعد فرقة روديستيف ، كما أنها اشتبكت مع العدو مباشرة بعد وصولها عبر الفولغا في القتال من أجل كورغان ماماييف ، ثم في القطاع الذي يحوي مصانع تراكتورني وباريكادي . وسحبت ألوية هذه الفرقة الواحد تلو الآخر بما فيها أركاناتها بالتناوب إلى ما وراء الفولغا للراحة وإعادة إتمام تعداد السرايا ثم العودة للقتال .

وكان الاثنان غوريشني وفلاسنكو موجودين دائماً في المرصد في فترات

أشد المعارك ضراوة يديران من المرصد بهدوء وثبات الهجمات والهجمات المعاكسة .

لم يكن الوصول إلى مركز قيادتهما سهلاً، حتى ولو كان على الأقدام ، فحافة الفولغا والمنخفض الواقعين بين مصانع باريكادي وكراسني أوكتيابر كانا معرضين لنيران رماة العدو ، وفي الأيام الأولى ولكثرة ما سقط من جنودنا هناك أطلقنا عليه اسم منخفض الموت، ولتجنب الخسائر كان من الضروري بناء سد من الحجر عبر المنخفض وبالانحناء والالتصاق بحافته كان بإمكاننا الوصول أحياءً إلى مقر قيادة غوريشني .

كان الموقف في قطاع فرقة مشاة الحرس ١٣ (روديمستيف) يتدهور كثيراً ففي وسط نهار ٢٠ أيلول، تسرب عدد من حملة المسدسات الرشاشة والأسلحة المعادية إلى قطاع المعبر المركزي ، وأصبح مقر القيادة هدفاً لرماياتهم ، وجد قسم من عناصر لواء الحرس ٤٢ التابع للفرقة أنفسهم محاصرين ، وأصبح الإتصال معهم مضطرباً وكل ضباط الإشارة التابعين لأركان الجيش الذين أرسلوا للإتصال بأركان روديمستيف قد قتلوا . كما تأخرت عناصر لواء ايلين المتوجهة نحو المعبر المركزي ، وما كاد طيران العدو يكتشف تحركها حتى ركز عليها غاراته دون انقطاع .

وكان بإمكان الجيش مساعدة هذه الفرقة بنيران المدفعية من الضفة اليسرى ، ولكن ذلك لم يكن كافياً بشكل ملموس .

وعلى يسار فرقة روديمستيف وعلى ضفتي نهر تساريستا . كانت المعارك الشديدة تدور بشكل متواصل ، وفي هذا القطاع كانت أفواج من لواء المشاة ٤٢ باتراكوف تقاتل مع لواء مشاة من بحرية الشرق الأقصى ولواء من فرقة سارابيف . وغالباً ما كان الإتصال مع هذه القوات مقطوعاً ومن الصعب علينا التعرف على الموقف في ذلك القطاع ، ولكن الأشياء كانت واضحة ، فقد أرسل العدو إلى هناك قوات جديدة ، وجرب بكل ثمن النفوذ إلى الفولغا في قلب دفاعنا وتوسيع الثغرة لذلك من الضروري متابعة الهجمات المعاكسة في قطاع كورغان مامايف ، فإذا ضعفت هجماتنا فسيكون العدو طليق اليدين ويندفع بكل قواه على جناحنا الأيسر ، مع سحق وحداتنا التي كانت صامدة بقتال دفاعي في وسط المدينة .

اجتاز الفولغا في ليل ٢٢ أيلول لواء مشاة تابع للفرقة ٢٨٤ (باتيوك)، وعندما

أصبح في المدينة،وضع كاحتياط للجيش في شرق كورغان ماماييف .

إتصل بي هاتفياً في الساعة الثانية صباحاً العقيد الجنرال أيرمنكو قائد الجبهة . وأعلمني أن أحد الألوية المدرعة العائدة لجبهة ستالينغراد ، استطاع خرق جبهة العدو في الشمال ، ولن يتأخر طويلاً في تحقيق إتصال معنا في قطاع اورلوفكا . وقف الجميع على أقدامهم واستقروا بجانب أجهزة الهاتف يفتشون عن ذلك اللواء طيلة الليل ، وهم ينتظرون قدوم أول خبر سار عن اللقاء بين قوات جبهة ستالينغراد والجيش ٦٢ بتاريخ ٢١ أو ٢٢ من الشهر . فقد استطاع العدو رغم خسائره الفادحة أن يقطع جيشنا إلى قسمين لأول مرة ، حيث استطاعت وحدات العدو المتقدمة في قطاع الفرقة ١٣ الوصول إلى الفولغا ودخول المرفأ الرئيسي .

ظلت بعض أقسام الفرقة ١٣ والتي أحيط بها تقاتل حتى آخر طلقة لديها ، كما لم تكن لدينا معلومات تفصيلية عن مصير الفوج الأول من مجموعة لواء إيلين ، لذلك ذكر في كل النشرات ، والصحف التي تحدثت عن معركة ستالينغراد ، أن الفوج المدافع عن المحطة أبيد في ٢١ أيلول ١٩٤٢ ، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى الملازم كوليفانوف .

وهنا أقول بصراحة إنني ما ظننت أبداً وحتى آخر يوم أن الفوج أبيد في ٢١ أيلول ، وكنت أشعر من تصرفات العدو ، أن مقاتلينا لا يزالون يعملون في قطاع المحطة والمنطقة الواقعة على يسارها . وكنت أعتقد بأن العدو يتكبد خسائر فادحة ، ولكن من كان يقاتل هناك وكيف ؟ لا أحد يعرف شيئاً عن مصير هؤلاء الرجال ، وكان هاجسهم يثقل كاهلي ويجثم كحجر على صدري . وبعد نشر مذكراتي « بسالة جموع المحاربين في الجيش » ، وبعد بث بعض المقتطفات منه في الإذاعة وصلتني عدة تحارير ، كان أحدها من رسائل انطون دراغان مشوه الحرب الوطنية الكبرى . كتب لي هذا الجندي القديم بأنه يستطيع أن يقص عليَّ ما حدث لهذا الفوج بعد احتلال الألمان للمحطة ، لذلك أقلقتني هذه الرسالة . وأخيراً وبعد خمسة عشر عاماً أصبح من الممكن الكشف عن مصير هؤلاء الأبطال ، الذين كنت أفكر بهم دائماً ، وما كنت أظن أن الذين قاتلوا بشدة سبعة أيام ضد العدو في هذا القطاع ، يمكن أن يبادوا في ليلة واحدة أو يلقوا بسلاحهم .

● لم أكن مخطئاً أبداً ، ففي صيف ١٩٥٨ وأثناء إحدى العطل قمت بزيارة

مراسل التحرير الذي كان يعيش في قرية ليكوفتشي الواقعة في منطقة تشيرنيكوف.

● بعد التحية والسلام ذكرني انطون كوزميش باليوم الذي تلاقينا فيه لأول مرة:

- «هل تذكر؟ كان ذلك في مساء ١٥ أيلول، بالقرب من الكنيسة في شارع بوشكين. وعندما رأيتني سألتني: أيها الملازم أين هم رجالك؟ إذن ما داموا هنا! فهذه مهمتك وعليك إزالة وتفريغ المحطة من الفاشـــيين، هل هذا واضح؟».

أجبت :

- نعم تذكرت ذلك .

وأظن أني أرىٰ أمامي ثانية بيتاً مهدماً ـ وعلى حافة النهر الملتهبة التي كان الرجال يسيرون عليها مسلحين بالبنادق والمسدسات الرشاشة (رشيش) ، كان هناك ملازم رشيق بقامة صغيرة وعيون حادة يحمل نطاقاً من القنابل اليدوية . كان الملازم هو انطون كوزميتش دراغان ، ويقود في ذلك الوقت السرية الأولى من اللواء ٤٢ من مشاة الحرس التابع لفرقة روديمتسيف . أتذكر ما جرى وكأنه أمامي الآن ، فبعد تلقيه الأمر نشر الضابط الشاب سريته مباشرة،وابتعد معها باتجاه المحطة حيث اختفى في الدخان وظلام الغسق ، وبعد بضع دقائق أخذت تصلنا من هناك أصوات تبادل اطلاق النار الغزير حيث اشتبكت السرية بالعدو .

- اسمح لي أن أقص عليك جميع ما جرى بانتظام . مقترحاً انطون كوزميتش عندما جلسنا سوية على الطاولة وهذه حكايته .

- عندما كنت أقود السرية نحو المحطة وتبادلنا النار مع الفاشيين،لحق بي قائد الفوج تشيرنياكوف وأوضح لي .

- يجب إيقاف الفاشيين واحتواؤهم والتمسك هناك لأطول مدة ممكنة والتزود بالقنابل اليدوية .

نهضت مع السرية في الظلام وقمنا بالالتفاف حول المحطة .

الليل ، وضجيج المعركة يحيطان بنا،تحصن جنودنا بمجموعات صغيرة في البيوت المهدمة ، وأخذوا يحتوون ضغط العدو بصعوبة بالغة، كنت أشعر ساعتها أن المحطة كانت بين أيديهم ، اجتزنا خط السكة الحديدية من اليسار.وفي إحدى تقاطعات السكة وجدت عشرة من سدنة الدبابات يصمدون بالقرب من إحدى دباباتنا المعطوبة . تكتلنا بالقرب من المحطة وسرنا للاشتباك مع العدو جسماً

بجسم . كانت ضربة مباغتة : القنبلة أولاً ثم المحاربين . لاذ الفاشيون بالفرار وهم يطلقون النار على غير هدى .

وهكذا تم احتلال المحطة من قبل السرية قبل أن يعود الهتلريون إلى صوابهم ، ويدركوا بأننا لم نكن سوى سرية واحدة وقد بدأنا بالتحصن للدفاع . قام العدو بعدة هجمات من ثلاثة اتجاهات ، وظل حتى الصباح ولم يستطع استعادة المحطة .

عم نور الصباح يرتفع شيئاً فشيئاً ، وكان صباحاً ثقيلاً في ستالينغراد ، حيث بدأت طائرات العدو منذ الصباح الباكر بالانقضاض علينا ورمي القنابل بالمئات على المحطة.وبعد القصف الجوي أتت نيران المدفعية ، فاشتعلت النيران في المحطة والجدران ، وتناثرت قضبان السكة الحديدية والتوت من الحرارة . أما الرجال أنفسهم فقد واصلوا القتال ، ولم تنثن عزيمتهم .

لم يكن باستطاعة الهتلريين احتلال البناء ، وأدركوا أنهم لا يستطيعون احتلاله بهجوم مباشر ، لذلك فكروا بالالتفاف حولنا ، وعندها نقلنا المعركة إلى ساحة المحطة ، وكانت معركة عنيفة بالقرب من البئر وعلى طول السكة الحديدية . وإني أتذكر هذا المشهد . فقد حاول الألمان أخذنا من الخلف ، وتجمعوا في بناية على الزاوية التي كنا نطلق عليها تجاوزاً «معمل المسامير» وحسب تقارير دورياتنا الاستطلاعية أنه كان يوجد فيها مستودع للمسامير ، كان العدو يستعد لمهاجمتنا من الخلف ، ولكننا تجنبنا مناورته وقمنا بهجوم معاكس . وصلت إلى المحطة في ذلك الوقت سرية الهاون ، بقيادة الملازم سافودون وأخذت تدعمنا بنيرانها ، ولكننا مع ذلك لم ننجح بأن نكون أسياد معمل المسامير ،ولم نخرجهم إلا من مشغل واحد ، وقد بقوا في المشغل المجاور .

دارت بعد ذلك معركة داخل المبنى ، ولم تكن سريتنا لوحدها ، بل كان هناك كل الفوج الذي أصبح في موقف خطير جداً ، فقد جرح قائد الفوج الملازم تشيريناكوف وأخلي إلى الضفة الأخرى من الفولغا ، واستلم مكانه الملازم فيدوسييف .

كان العدو يضغط على الفوج من ثلاث اتجاهات . وأصبح التموين بالذخيرة صعباً جداً . ولم يعد لدينا وقت للنوم أو الغذاء ولكن الشيء الذي أنهكنا هو العطش ، ولكي نحصل على الماء للشرب، وتبريد الرشاش ، ثقبنا إحدى

الأنابيب وأخذ الماء يجري قطرة قطرة .

وما تكاد المعركة في مبنى معمل المسامير تهدأ لبضع لحظات ، حتى تعود إلى حدتها ، وفي هذه الاشتباكات القصيرة كانت السكين والرفش وأخمص البندقية لها دورها الرئيسي في القتال .

زج الهتلريون في الصباح احتياطهم وأخذوا يهاجموننا سرية تلو سرية ، حيث أصبح من المستحيل احتواء هذا الضغط العنيف ، وأبلغت الملازم فيدوسيف قائد الفوج فأرسل لنجدتنا سرية المشاة الثالثة بقيادة الملازم كوليفانوف بقامته الطويلة النحيلة ، وتمكن أن ينجح بالمرور مع عشرين من جنوده والالتحاق بنا ، وعندما وصل كان معطف الجندي الذي يرتديه مغطى بالتراب .

وفي تقريره إلى أركان الفوج كتب : « وصلنا إلى مبنى معمل المسامير والموقف خطير جداً ، ولكن ، مادمت على قيد الحياة لن أترك أحداً من سفلتهم يمر » . دارت معركة حامية طوال الليل مع مجموعة من رماة العدو ومهرة رماته ، التي أخذت تتسرب إلى خلفنا وتختفي في مخازن العلف والأنقاض والأنابيب ، ومن هناك كانوا يقنصوننا .

وبأمر قائد الفوج فيدوسييف ، أرسلت إلى مؤخرات الألمان مجموعة من حملة المسدسات الرشاشة . وإليك ما كتبته في مفكرتي حول هذا الموضوع .

أعطاني أنطون كوزمينتش مفكرته لأقرأها ، وأورد هنا ما جاء فيها بالحرف :

« انصرفت المجموعة في ظلام الليل الحالك ليوم ١٨ أيلول دون ضجة . وذهب أفرادها وهم يعلمون بوضوح عن كل التعقيدات والصعوبات التي ستعترض مهمتهم الصعبة ، وهي التسرب إلى مؤخرات العدو والعمل فرادئ . تلقى كل واحد منهم تموينا بالذخيرة والغذاء لمدة خمسة أيام ، وتعليمات مفصلة وواضحة حول الطريق ، التي سيعملون بموجبها خلف العدو .

لا نعرف ماذا حل بهم ولكن بعد قليل استنفر الدفاع الهتلري ، ولم يستطع هؤلاء الفاشيون معرفة أسباب الانفجارات التي حدثت في سياراتهم ، التي كانت تنقل الذخيرة وكذلك قتل سدنة الرشاشات وقطع المدفعية .

نسف العدو في ليل ١٩ أيلول الحائط الذي يفصل معملنا عن بقية بناء معمل المسامير ، وأخذ أفراد العدو يرمون علينا القنابل اليدوية في الوقت الذي لم يعد

بإمكان محاربي الحرس رمي القنابل اليدوية عبر الشبابيك . ثم جرح الملازم الثاني كوليفانوف بجراح خطيرة بسبب إنفجار إحدى القنابل ، وأخذ جنود الحرس يتساقطون الواحد تلو الآخر .

بعد ذلك حمل بعض الجنود بصعوبة كوليفانوف نحو الفولغا،وما حصل معهم لا أعرف عنه شيئاً » .

ثم سألته : ماذا جرى معكم بعد هذه السطور ؟

- صمدنا في معمل المسامير أربعاً وعشرين ساعة أخرى -تابع انطون حديثه- ووصل لنجدتنا جنود الحرس من سرية الهاون التابعة للملازم زافودوف. فبعد إنتهاء ذخيرة مدافعهم انقلبوا إلى جنود رماة،وتمددوا في الشوارع ووراء الحواجز ، وحفروا الخنادق وأخذوا يطلقون نيرانهم الغزيرة على العدو .

أخبرنا المرصد في ٢٠ أيلول ، أنهم يلاحظون قيام العدو بعملية تجميع نشيطة لقواته ودبابات ومدفعية تتحرك نحو المحطة ، لذلك أنذر آمر الفوج للاستعداد لصد هجوم الدبابات .

شكلنا في السرية عدة مجموعات مسلحة ببنادق مضادة للدبابات وقنابل يدوية وزجاجات حارقة ، ولكن الهجوم لم يقع في ذلك اليوم .

وصلت في ظلام الليل الدامس إلى مواقعنا امرأة ، دون خوف على حياتها من القطاع المحتل ، وأعطتنا معلومات قيمة عن مواضع الوحدات المعادية . وأني أتذكرها ، اسمها ماريا فيدينيفا . وإني أشير هنا إلى أن السكان غالباً ما كانوا يزودوننا بالمعلومات، ويحملون لنا الماء، ولكن ظلت أسماء أولئك الوطنيين مجهولة ، وأني أتذكر أيضاً إحدى الفتيات الكشافات ويطلقون عليها اسم ليزا ، وقد قتلت هذه أثناء إحدى الغارات.

كان يوم ٢١ أيلول أكثر الأيام التي مرت على الفوج رهبة ، فمنذ الصباح أخذ الفاشيون يندفعون بهجوم جنوني تدعمهم الدبابات والمدفعية ، ولكن نيران وحماس محاربينا الأقوياء تجاوز كل التوقعات .

زج الهتلريون بالمعركة بجميع الوسائط التي كانت متوفرة لديهم وبكل الاحتياط الموجود في ذلك القطاع للقضاء على مقاومة الجنود السوفييت في حي المحطة ، ولكنهم لم يتمكنوا من التقدم إلا بعد أن دفعوا ثمناً باهظاً من الأرواح ، ولم يستطيعوا النجاح في قطع الفوج إلى قسمين إلا في نهاية النهار .

عزل قسم من الفوج مع رئيس أركانه في قطاع المخزن العام ، وطوق

الأعداء هذه المجموعة من كل الاتجاهات ثم انقضوا عليها ، واشتبك الطرفان وجهاً لوجه داخل المخزن ، حيث كان أركان الفوج بقيادة الملازم فيدوسييف ، وصمد هؤلاء في معركة غير متكافئة . وقدمت هذه المجموعة حياتها للعدو بثمن غال ، ثم انطلقت أربع مجموعات منا لنجدتهم ، ولكن كان لدى العدو الوقت ليستقدم دباباته ، وبصلية نارية واحدة قضوا على كل من كان حياً هناك ، وهكذا قضى قائد الفوج الأول فيدوسييف ورفاقه الأبطال .

بعد استشهاد فيدوسييف استلمت قيادة ما تبقى من الوحدات. وبدأنا بتجميع قواتنا في قطاع المسامير ، ثم أرسلت تقريراً مفصلاً إلى قائد اللواء العقيد إيلين مع أحد عمال الإتصال الذي لم يعد ولم يره أحد ، ومنذ ذلك الوقت أخذ الفوج يعمل مستقلاً بعد فترة الإتصال مع اللواء .

عزلنا الألمان حتى عن جيراننا . وبذلك قطعوا تموينا بالذخيرة والغذاء وأصبح ثمن كل خرطوشة يعادل وزنها ذهباً ، وأعطيت الأوامر للاقتصاد بالذخيرة وجمع الطلقات من القتلى ومن أسلحة العدو ، وفي المساء جرب الهتلريون مجدداً إزاحتنا وإخماد مقاومتنا . ووصلوا إلى قرب مواقعنا المباشرة وحسب تشتت صفوفنا كنا نضيّق جبهة دفاعنا ، وبدأنا بتراجع بطيء نحو الفولغا محاولين تثبيت العدو أمامنا ، وكنا دائماً نترك أنفسنا على مسافة قريبة من العدو ليصعب عليه استخدام طيرانه ومدفعيته ضدنا .

أخذنا نتراجع من عمارة إلى أخرى ، بعد أن نحولها إلى مركز مقاومة ، وكان المحاربون لا يتركون أماكنهم حتى تحترق الأرض من تحتهم وتصل النار إلى ثيابهم . وبعد ذلك كانوا يزحفون إلى مكان آخر،وطوال اليوم لم ينجح العدو إلا باحتلال حيين من المدينة .

احتللنا في تقاطع شوارع كراسنو بيترسكايا ، وكومسومولسكايا بيتاً يقع في إحدى الزوايا مؤلفاً من طابقين ، ومن هذا البناء كنا نمسك بكل الأماكن القريبة بنيراننا . أصبح هذا البيت آخر موقع لنا حيث أمرت بسد كافة المنافذ وتصليح وفتح الثغرات في الجدران كي نتمكن من استخدام كل الأسلحة التي لدينا وربصنا رشاشاً ثقيلاً في مكان ضيق مع بقية الذخيرة الاحتياطية التي كانت آخر شريط ذخيرة .

صعد للمخازن التي كانت في الطوابق العليا مجموعتان من الجنود ، كل واحدة مؤلفة من ستة أشخاص بمهمة تدمير الجدران التي كانت تفصل النوافذ ،

وتحضير كتل من الحجارة والعوارض لرميها على المهاجمين ، عندما يتمكنون من الوصول إلى قرب البناء ، وخصص مكان في القبور للجرحى الخطرين .
كنا في ذلك الوقت أربعين رجلاً والأيام الرهيبة لم تلبث أن دنت ، فالهجمات العدوة أخذت تتوالى دون انقطاع أو نهاية . وفي كل مرة نصد هجوماً ، كان يبدو لنا أننا لن نتمكن من صد الهجوم القادم . ولكن عندما كان العدو يحضر نفسه للهجوم ، كنا نجد لدينا القوة والامكانيات . ودام الحال على هذه الصورة خمسة أيام بلياليها .

امتلأ الطابق الأرضي بالجرحى ، وبقي لدينا تسعة عشر مقاتلاً دون ماء أو غذاء إلا من بضعة كيلوغرامات من قمح محروق ، لقد قرر الألمان إجبارنا على الاستسلام عن طريق تجويعنا ، فتوقفت هجماتهم،ولكن رمايات رشاشاتهم الثقيلة ظلت تزأر فوق رؤوسنا دون انقطاع ، لم نعد نفكر في الخلاص ، ولكن كنا نفكر كيف نبيع أرواحنا بأغلى ثمن ممكن . لم يكن لدينا أي مخرج . بعض خسائرنا كانت واضحة لا يمكن تجنبها ، وأخيراً ظهر بيننا جبان،فقد إنهار أحد الملازمين ، وقرر تركنا والهرب ليلاً نحو الفولغا . هل كان يعلم بأن ذلك هو خيانة عظمى ؟ نعم كان يعلم ، جر معه في جريمته هذه أحد الجنود الذي كان هو الآخر جباناً مثله وبدون أن يراهم أحد إنزلقوا في ظلمة الليل نحو الفولغا ، وصمما لنفسيهما طوفاً من العوارض الخشبية . وقد أمطرهم العدو الذي كان يحتل الضفة بنيرانه فقتل الجندي ، ولكن الملازم وصل إلى فصيل التموين التابع لفوجنا الذي كان يتمركز في الضفة الأخرى،وأبلغهم أن الفوج أبيد وقال لهم :

- دفنت بيدي دراغان ، بالقرب من الفولغا محاولاً إقناعهم ، ولكن كل هذه الأمور توضحت بعد أسبوع ، فقد أخطأ في دفني قبل ساعتي .

عاد الفاشيون للهجوم ، وكنت أصعد بسرعة للأعلى لأتفقد جنودي فأراهم بوجوههم النحيلة المجللة بالسواد ، وضماداتهم الوسخة المغطاة ببقع الدم المتجمد على جراحهم . ولكن أيديهم كانت دائماً على سلاحهم . ولم يكن في وجوههم أية علامة من علائم الخوف . فالممرضة ليوبا نستيرينكو كانت تحتضر والدم يسيل بغزارة من جرح في صدرها ، وفي يدها ضمادة ، ورغم قربها من الموت حاولت مساعدة أحد الرفاق ، وتضميد جراحه ، ولكن لم يسمح لها الوقت للقيام بذلك .

صد هجوم العدو ، وخلال فترة الهدوء التي كانت تتبعه ، كنا نسمع جلبة المعركة الضارية التي كانت تتتابع من أجل كورغان ماماييف ، ومن أجل المصانع في المدينة .

كيف يمكن مساعدة المدافعين عن الكورغان ؟ وكيف يمكننا سحب قسم من قوات العدو ، التي توقفت عن مهاجمة بيتنا ؟

قررنا رفع العلم الأحمر فوق بيتنا لكي يعرف العدو أننا لم نتوقف عن القتال . ولكن لم يكن لدينا القماش الأحمر إذن ما العمل ؟ وفهم أحد الرفاق الجرحى فكرتنا ، لذلك إنتزع قميصه المضرج بالدماء ، وبعد أن عطّر قميصه بدم جراحاته اعطانا إياه .

في تلك اللحظة أذاع الألمان بمكبرات الصوت .

ـ أيها الروس استسلموا ! أنتم على كل حال ، ستموتون من الجوع !

وهنا ارتفع العلم الأحمر فوق بيتنا .

ـ خسئت أيها الكلب الأجرب ، لدينا ما يكفينا للعيش مدة طويلة ، أجابه عامل الإتصال الجندي كوجوشكو .

صددنا أيضاً الهجوم الذي تلا صراخ الألمان ، بضربات الحجارة وكنا نطلق رصاصاً من حين إلى آخر ورمينا آخر قنابلنا اليدوية . وفجأة سمعنا صرير سلاسل إحدى الدبابات في الطرف الآخر من الحائط الذي كان يختفي عن أنظارنا . لم يكن لدينا أية قنبلة مضادة للدبابات . ولم يعد معنا سوى بندقية مضادة فيها ثلاث طلقات ، أعطيتها لقانص الدبابات بيرديشيف وأرسلته لاستقبال الدبابة ، ورمى طلقة عليها من مسافة قريبة . ولكن الرامي أسر من قبل الألمان ، ولا أعرف ماذا حدثهم بيرديشيف ، ولكني أستطيع أن أفترض أنه غرر بهم وأعطاهم معلومات خاطئة ، لأنهم عاودوا الهجوم بعد ما يقرب من ساعة من الجهة التي كنت وضعت فيها الرشاش الثقيل ، وآخر شريط من الذخيرة معه .

اعتقد الفاشيون هذه المرة أن ذخيرتنا نفذت ، لذلك اندفعوا من مخابئهم يملؤهم الغرور ، ويطلقون الصرخات التي تنم عن عجرفة ، وأخذوا يتقدمون في الشوارع رتلاً،رتلاً .

وعلى هذا الأساس انطلقت إلى موضع الرشاش الثقيل ووضعت فيه آخر شريط . وأودعت المائتي وخمسين رصاصة في هذا الحشد المذعور من ذوي

اللباس الأخضر والرمادي من النازيين . وجرحت في ذراعي ، ولكني لم أترك الرشاش ، وأمام البناء تمددت أكوام من الجثث على الأرض ، أما النازيون الذين ظلوا أحياء ، فقد عادوا بهلع إلى ملجأهم ، وبعد ساعة قادوا جندينا ، قانص الدبابات ، وأوقفوه فوق إحدى الخرائب وأطلقوا عليه الرصاص أمام أعيننا لأنهم كما يبدو قادهم إلى الطريق الذي أدى بهؤلاء ، لأن يقعوا تحت نيران رشاشاتنا .

لم تكن هناك هجمات بل مطر من القذائف والألغام أخذ يتساقط على بيتنا ، وكان العدو المسعور يقصفنا بكل ما لديه من أسلحة ، وكان من المستحيل على أحد منا رفع رأسه .

ومن جديد أخذنا نسمع ضجيج محركات الدبابات ، ومن زاوية مجموعة من البيوت المهدمة فوق بعضها كنا نرى تدفق الدبابات التي لم نكن نشاهد إلا أسفلها . ومن الواضح أن ساعتنا قد حانت وأخذ جنود الحرس يتبادلون الوداع ، وكتب عامل الإتصال بسكينته الفنلندية على الحائط الآجري « هنا قاتل جنود الحرس روديمتسيف وقضوا من أجل الوطن » . أودعنا في حفرة تقع في الزاوية اليسرى من القبو أرشيف الفوج ، مع كيس من أكياس الجنود ، وضعنا فيه هويات الحزب والكومسمول والمدافعين عن البيت ، وقد قطع حبل الصمت أول رشقة من قذائف المدفعية ، وتلتها ضربات عنيفة على البيت الذي أخذ يتمايل ثم إنهار علينا ، وأعود بذاكرتي ، كم من الدقائق مرت عليَّ ، والتي أصبحت فيها لا أتذكر شيئاً ، فكل شيء أصبح سواداً أمامي ، وقوس من الغبار المتصاعد من الآجر كان يملأ الهواء ، وعندما سمعوا أنيني ، قفز عامل الإتصال كوجوشكو نحوي وهز كتفي متسائلاً

ـ هل أنت على قيد الحياة ؟

كان بعض الجنود أيضاً يئنون وهم نصف منحنين على الأرض ، لقد طمرنا ونحن أحياء تحت أنقاض هذا البناء ذي الطابقين . وكان الهواء يخف تدريجياً ، ولم يعد أحد يفكر بالغذاء ولا بالماء ، فالهواء أصبح بالنسبة إلينا ضرورياً للبقاء على قيد الحياة .

ومع ذلك ففي هذا الجو من السواد المخيف ، كنا نرى وجوه بعضنا ونشعر بوجود رفيق بالقرب منا .

قمنا بمجهود كبير للخروج من هذا القبر كنا نعمل بصمت وأجسامنا غارقة

بالعرق البارد اللزج وجروحنا كانت تؤلمنا لسوء التضميد . وكان غبار الآجر يصطك تحت أسناننا ، وأصبح تنفسنا صعباً شيئاً فشيئاً . ولكن لم يكن هناك أنين أو تأوه .

خلال بضع ساعات وعن طريق إحدى الفجوات التي حفرناها رأينا النجوم اللامعة ، ودخلت علينا طراوة نسيم تشرين الأول .

أخذ الجنود الذين وصلوا إلى حد الإعياء يمرون الواحد تلو الآخر أمام الفجوة ليستنشقوا نسيم الخريف الطري . وحالاً أصبحت الفجوة عريضة وكافية لمرور شخص منها . ولم تكن جراح كوجوشكو شديدة لذلك ذهب للاستطلاع وعاد بعد ساعة يقول :

أيها الرفيق الملازم يحيط بنا الألمان من كل جانب . وهم يلغمون حافة النهر ، وعلى طول ضفة النهر تمر دورياتهم بالقرب منا .

وأخيراً اتخذنا قراراً بالعمل على الوصول إلى جماعتنا . وقد فشلت أول تجربة لنا بالمرور خلف الألمان . فقد اصطدمنا بمفرزة قوية من الرماة حاملي البنادق الرشاشة ، ولم نستطع الاختفاء عن أنظارهم إلا بشق النفس . ووصلنا إلى قبونا . وانتظرنا حتى تخفي الغيوم القمر تحتها ويحل الظلام .

تركنا مخبأنا زحفاً واتجهنا بحذر نحو الفولغا . كنا نسير ويسند الواحد منا الآخر . كنا نضغط على أسناننا خوفاً من التأوه بسبب الآلام ، التي كانت تسببها لنا جروحنا ، لم يتبق منا سوى ستة ، كلنا جرحى ، وكان كوجوشكو يسير في المقدمة فهو الآن قائدنا الأمامي وقوتنا الضاربة الرئيسية . المدينة كانت غارقة بالدخان ، وحتى الأنقاض أخذت تتلف . وعلى شاطىء الفولغا كانت تشتعل مستودعات البترول وعربات السكة الحديدية كانت متفحمة على طول الخط الحديدي . وعلى اليسار كانت تعصف ضجة معركة ضارية لا تتوقف ، رغم الانفجارات ، النار الاصطناعية المتعددة الألوان . رشات من الطلقات الخطاطة تسقط كالمطر والهواء العبق برائحة البارود النتنة . كان مصير المدينة يقرر هناك . وأمامنا على شاطىء الفولغا كنا نرى الدوريات الألمانية على ضوء القذائف المضيئة .

كنا نتقدم زحفاً واخترنا المكان الذي سنخترقه ، والمهم هو القضاء على الدورية التي تصادفنا دون ضجة ، لاحظنا أن الألمان كانوا يقتربون بين فترة وأخرى من عربة قطار منفردة ومقلوبة ، وكان باستطاعتنا الاقتراب منها .

إنزلق الجندي كوجوشكو نحو العربة وسكينه في فمه . رأينا أحد الفاشيين يقترب من العربة من جديد ، وبضربة قصيرة سقط دون أن يصرخ .

عراه كوجوشكو من معطفه بسرعة ولبسه ... واتجه نحو الآخر الذي اقترب منه دون التشكك بأمره . استطاع كوجوشكو إزالة أثر الجندي الآخر . واجتزنا الخط الحديدي أيضاً بسرعة بقدر ما تسمح لنا به جراحنا وكشريط من الهنود ، اجتزنا دون حادث حقل الألغام . هذا هو الفولغا إنحنينا على مائه البارد الذي تصطك منه الأسنان ، وأخذنا نشرب دون ارتواء . صنعنا بعد تعب شديد طوفاً مائياً من العوارض وبقايا الخشب الموجودة في النهر ، ودون مجاذيف ، ركبنا الطوف ، وأخذنا نجذف بأيدينا لنضع الطوافات في مجرى تيار النهر . الذي قذفنا في الصباح إلى لسان رملي يحتله بعض رجال الدفاع المضاد للطائرات . أخذوا ينظرون بدهشة إلى ثيابنا الرثة ـ ووجوهنا الشاحبة الضعيفة ، وبصعوبة وثقوا بأننا منهم ، ثم أعطونا مواداً غذائية من البسكويت وحساء السمك . وكان هذا أول طعام لنا منذ ثلاثة أيام . وأرسلنا فريق م/ط في نفس اليوم إلى الفوج الصحي ».

وعلى هذه الصورة أعلاه ختم كوزميتش دراغان حديثه . هنا بالذات وجدت إيضاحاً لمصير الفوج الأول من لواء الحرس ٤٢ وكذلك وجدت شاهداً على تضحيات وبسالة الجنود السوفييت ، فقد عملوا مستقلين في حامياتهم المعزولة بمجموعات صغيرة ، كانوا يقاتلون من أجل كل بيت حتى النفس الأخير ويكبدون العدو الخسائر الفادحة .

في نفس ذلك اليوم وهناك اخترقت مجموعة من حاملي المسدسات الرشاشة الألمان مع دباباتهم المنطقة ووصلت حتى الميناء الرئيسي للنهر ، وبذلك عزل عن القوة الرئيسية للجيش لواءان من المشاة ولواء من فرقة ساراييف ، التي كانت تقاتل في قطاع شوارع كورسكايا ، كفكارسكايا ، كراسنوبولسكايا . وعدا أن فون باولوس لم يعد يأمل بأنه سيكون سيد المدينة بكاملها في الزمن الذي حدده وهو ٢١ أيلول ، ولا حتى المعبر الرئيسي للنهر . فالمعارك الطاحنة ظلت تجري لمدة طويلة ، وتأخذ أبعاداً مختلفة .

لاحظ المراقبون في مساء ٢١ أيلول في قطاع درارغورا تجمعاً معادياً قوياً من المشاة والدبابات ، وبعد قليل وتحت تغطية إعصار من نيران المدفعية والهاون إندفع الألمان إلى الأمام ، وبدا وكأنهم يحاولون اختراق خطوطنا

بضربة واحدة للوصول إلى الضفة اليسرى لنهر تساريستا، وقد استقبل هذا الهجوم بنيران حاميه من مدفعيتنا المتمركزة على الضفة الأخرى من النهر . وقد اضطر قسم من دبابات ومشاة العدو للتراجع وهم يقاتلون إلى قواعد انطلاقهم الأولى ، وقد أنهي محاربو اللواء باتراكوف بطل الاتحاد السوفيتي المعركة لصالحهم ، وكان أكثر أفراد هذا اللواء من البحارة ، وهذا ما قصه علينا الملازم ف . جوكوف عن هذه المعركة التي اشترك هو فيها على رأس مجموعة من سبعة عشر بحاراً .

استقبل جنود الفصيلة التي كانت بقيادة قائدها الثاني بوريسوغليبسكي بنيرانهم الغزيرة دبابات ومشاة العدو من حملة المسدسات الرشاشة ، الذين نفذوا عملية فتح الثغرة وعطب قائد الفصيلة نفسه الدبابة المعادية الأولى بطلقة محكمة من بندقيته م/د ثم صوب على الآلية الثانية التي كانت وراءها ودمرها أيضاً . ولكن الدبابات الأخرى ظلت تتقدم وترمي على مواضع البحارة دون توقف ثم أعطب بوريسوغليبسكي دبابة أخرى ، فلم يصمد العدو أمام هذه النيران الغزيرة والدقيقة فاضطر للتراجع ليحمي نفسه من رماياتنا . ولكن الهجوم تجدد فجأة وهنا أطلق البحار بالاتسين هو الآخر نيرانه على الدبابات العدوة بالإضافة إلى بوريسوغليبسكي . وكان ينتظر بهدوء اللحظة المناسبة ليضرب الهدف بطلقة مدمرة ، وفي تلك اللحظة أعارت الدبابة جانبها مما سمح للبحار بالاستين أن يطلق عليها ألسنة من اللهب الذهبي ، الذي أخذ يتراقص على صفيح الدبابة العدوة . كما أن دبابة معادية أخرى وضعت خارج المعركة بطلقتين محكمتين ، أما رامي الرشاش البحار كودريفاتي فقد حصد بنيران رشاشه مشاة العدو المهاجمة بعد أن تركهم يقتربون ويصلون إلى مسافة ستين متراً .

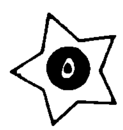
وعلى هذه الصورة تمكن البحارة من صد ست هجمات . ولم يكونوا سوى ستة عشر بحاراً . كبدوا العدو في هذا القطاع ثماني دبابات وحوالي ثلاثمائة جندي وضابط . إن رماة البحارة السوفييت لا يتراجعون خطوة واحدة في القتال .

جرب العدو في اليوم الثاني ، وفي مركز المدينة عزل فرقة روديمتسيف عن قوة الجيش الرئيسية ، وقد تتابعت الهجمات بالمشاة والدبابات على مواقع قوات روديمتسيف ساعة بعد ساعة ، وظل الوضع على هذا الشكل حتى المساء ، عندما استقدم العدو التعزيزات لمشاته ودباباته وطائراته واستطاع دفع محاربي الحرس إلى الوراء قليلاً ، كما استطاعت مفارز العدو المتقدمة النفوذ على

الفولغا عن طريق شارع موسكوفكايا . وفي نفس الوقت استطاع لواء مشاة معادٍ ، إحداث خرق عن طريق شوارع كييفسكايا - تورسكايا في حي بيوت الاختصاصيين ، ورغم كل ذلك ورغم التفوق العددي لم يتمكن الهتلريون مطلقاً من عزل فرقة روديمتسيف عن قوة الجيش الرئيسية ، وقد انسحب جنود الحرس قليلاً إلى الوراء نحو الشمال من المعبر المركزي على الفولغا ولكنهم ظلوا متمسكين بمركز المدينة ، وفي يوم واحد ، أي يوم ٢٢ أيلول صدوا اثني عشر هجوماً للعدو ، ودمروا له ٣٢ دبابة . ولم يستطع العدو أن يتقدم خطوة واحدة إلى الأمام .

حصلت بعض الأقسام التي وجهت إلى هناك من فرقة غوريشني على بعض النجاح ونفذت في ٢١ أيلول على المدخل الشمالي لمنخفض دولجوي ، ودخلت بتماس مع وحدة مدرعة عدوة ، انسحبت هذه الأقسام في نفس يوم ٢٢ بعد هجمات العدو المتعددة عليها ، واتخذت لها مواقع دفاعية على المنحدرات الجنوبية الغربية لكورغان ماماييف .

عندما وصلت معركة العشرة أيام في المدينة إلى نهايتها كان تاريخ ١٥ أيلول الذي حدده هتلر لاحتلال المدينة قد مر ومضى على مروره مدة طويلة . اضطرت الأركان العامة للقوى البرية في الجيش الألماني (الفيرماخت) لمتابعة زج احتياطها طيلة هذه المدة في أتون ستالينغراد ، وقد أفادت مصلحة مخابراتنا بأن العدو يرسل يومياً الامدادات بالرجال والعتاد نحو ستالينغراد .



أصبح بامكان العدو مراقبة مؤخرة جيشنا ونهر الفولغا بعد أن تمكن من الاشراف على البناء المركزي النهري ، كما أصبح بإمكانه قطع طريق تموييننا . لذلك أعطيت الأوامر لمعاوني في المؤخرات لإقامة ثلاثة معابر على النهر . كان المعبر الأول في قطاع فيخنايا اختوبا ، أما المعبر الثاني فهو الذي كان في سكودريا ، أما المعبر الثالث فهو من توماك . ومن هذه النقاط كانت تأخذ الحمولات طريقها ليلاً على المراكب والسفن التابعة لأسطول الفولغا ، ثم من هناك بالزوارق الصغيرة ، أي الى رصيف معمل كراسني أوكتيابر ، وضاحية سبارتاكانوفكا .

أقيم أيضاً ممر عائم للمشاة من الأعمدة والصفائح الحديدية ، بدءاً من مصنع باريكادي حتى جزيرة زايتسيفسكي . وبين الجزيرة والضفة اليسرى من النهر بالمراكب وقد وزعت كل المراكب والزوراق التي كانت بحوزة الجيش بين الفرق والألوية وقد نظم في كل فرقة ممر عن طريق المراكب وعلى مسؤولية قائد الفرقة وتحت مراقبته، أما وحدات المشاة التي كانت تعمل في الجنوب في تساريستا، فكانت تتمون مستقلة اعتباراً من جزيرة غولودني وبالمراكب .

كان من الواضح بالنسبة إلينا أن العدو بعد أن نفذ إلى الفولغا ، سيطور هجومه على طول الشاطىء نحو الشمال والجنوب من أجل فصل وحداتنا عن النهر ومعابره . ومن أجل إحباط خطة العدو ، قرر المجلس العسكري في ٢٣ أيلول ودون إيقاف الهجوم في قطاع كورغان ماماييف ، زج فرقة (باتيوك) في المعركة وكانت هذه قد عبرت النهر خلال الليل ووصلت بكاملها إلى المدينة . وكانت مهمة ألوية هذه الفرقة هي التالية : تدمير العدو في قطاع المرفأ المركزي ، ومنع العدو من الوصول إلى وادي تساريستا .

نصحت قائد الفرقة عندما كنت أعطيه مهمته ، بأن يسفيد من تجربة قتال الشوارع بالمجموعات الصغيرة . وقد بدا لي في بادىء الأمر ، أنه لم يفهم أهمية حضائر الانقضاض وعملياتها . فلم يكن من السهل إلغاء التشكيلات القتالية التقليدية للسرايا والفصائل التي تعلمها منذ تشكيلها على هذا الشكل الذي يتطلب فن قيادة المعركة . ولكن باتيوك الذي كان مقدماً في ذلك الوقت،كان رجلاً نبيهاً وعلى مستوى عالٍ من الخبرة، نظر إليَّ بعينيه وقال :

ايها الرفيق القائد ! لقد أتيت لأقاتل الفاشيين ، ولم أحضر للاستعراض ، وفي ألويتي يوجد السيبيريون ...

علم باتيوك عندما كان في الطرف الآخر من الفولغا من ضباط الإتصال التابعين لنا أنه في الجيش ٦٢ يطبقون طرقاً تكتيكية جديدة . وأمر قادة الألوية والأفواج دراسة تجارب القتال في المدينة ، ومضاعفة كميات الطلقات والقنابل اليدوية ورقائق ت . ن . ت المخصصة لكل جندي .

خلال هذه المحادثة القصيرة تأكدت من أن محاربي فرقة باتيوك سيقاتلون بحماس ضد العدو ، ولن يتراجعوا إلى ما وراء الفولغا ، وفي نفس الساعة شنت هذه الفرقة هجوماً معاكساً لدعم فرقة روديمتسييف على طول ضفة الفولغا باتجاه الجنوب نحو المرفأ المركزي ، كما أن تعزيزات من حوالي ألف رجل أرسلت

إليه بنفس الوقت . كنا نأمل بهذا الهجوم المعاكس ليس فقط إيقاف العدو من الجهة الجنوبية ، ولكن تدمير الوحدات العدوة التي نفذت إلى الفولغا .

بدأ الهجوم المعاكس في الساعة العاشرة من ٢٣ أيلول ، وخلال يومين نشبت معارك عنيفة وكثيراً ما كان القتال يجري وجهاً لوجه ، كما أن هجوم العدو الموجه من قطاع الميناء المركزي نحو الشمال توقف . ولكن لم نستطع إبادة قوات العدو التي نفذت إلى الفولغا ، ولم نستطع إقامة الإتصال مع ألوية المشاة التي كانت تعمل في الجهة الأخرى من تساريستا .

أحبط مخطط فون باولوس الذي يرمي الوصول إلى الفولغا ، ثم توجيه الضربات إلى مؤخرة الجيش على طول الفولغا . وتوقف أمام المقاومة الصلبة لفرقة روديمسيف باتيوك غورشني وأيرمولكين ولواء باتراكوف والوحدات الأخرى .

أما بالنسبة للجيش ٦٢ فالموقف الدقيق الذي تعرض له قد مر . فلم يضعفه اختراق العدو الأول ، ووصوله الفولغا ، وظل كورغان ماماييف في أيدينا . ولم تبد أية وحدة من وحداتنا أي ضعف . أوقف هجوم السيبريين من فرقة باتيوك ، هجوم العدو في المدينة ، وغرق الفاشيون في دمائهم واشتعلت العشرات من دباباتهم. وتمدّدت جثث الآلاف من القتلى في الشوارع .

لم يكن لدي أي تفكير شخصي بتراجع نحو الطرف المقابل مطلقاً ، وكنت أعتقد باستحالة نقل مقر قيادتي حتى إلى إحدى الجزر . لأن ذلك ينعكس على معنويات قادة الوحدات . وذكرني غوروف بأنه احتفظ بعدد من المراكب للمجلس العسكري للجيش ، فأجبته بأن ذلك لا يخصني مطلقاً ، فأنا لن أتراجع مطلقاً إلى الطرف الأيسر مادمت محتفظاً بكل قدراتي »،وقد عانقني غوروف بشدة قائلاً : « سنقاتل حتى إذا لم يبق سوانا نحن الاثنين وحتى آخر طلقة . هذا التصميم جمعنا ووحدنا أكثر من أي صداقة .

كان نيقولاي ايفانوفتش كريلوف يتفق معي بأنه من الصعب قيادة وحدات الجيش المنتشرة بين الفولغا والعدو في مساحة عمقها ١ ـ ٤ كم ، وظهرها إلى الفولغا . ولكن عندما كنت أتطرق ولو من بعيد لموضوع الإنتقال إلى نقطة الإتصال الوسيطة الموجودة على الطرف الأيسر ، كان يرفض ذلك كلياً ويقول سنفرغ رصاصاتنا سوية ، احتفظوا بآخر طلقة لتفريغها برؤوسنا .

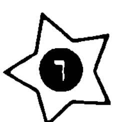
كنا نشعر ونحن على علم أيضاً بأن تحركات أركانات الفرق تقريباً وحتى

الألوية يراقبون تصرف المجلس العسكري ، وكانوا يرسلون من قبلهم ضباطهم والموجهين السياسيين إلى أركان الجيش لمشاهدتنا ويتأكدون من أننا جميعاً موجودون على الضفة اليمنى .

وغالباً ما كنا نقوم بزيارة مراصد الفرق والألوية ، وكان كل منا يعرف غوروف وكريلوف ، وعلينا أن لا نبقى دائماً في مقر القيادة . وكثيراً ما كنا نصل بزياراتنا حتى الخنادق الأولى بشكل يرانا فيه المحاربون بأعينهم ، ويؤمنون أن قادتهم أعضاء المجلس العسكري هم دائماً معهم .

وإذا كان فون باولوس موجوداً هو وأركان حربه في أحلك المعارك في نيجنه تشيرسكايا أو ستانيتسا غولونيسكا على بعد ١٢٠ ـ ١٥٠ كم كان المجلس العسكري للجيش ٦٢ وأركان حربه يعيشون على بعد ٢٠٠ ـ ٣٠٠ م من الخط الأول ، وظلوا في منتصف تشرين الأول أياماً عديدة على هذا الشكل .

ومن الأهمية بمكان أن يشعر قادة الفرق والألوية أيضاً،وليس الجنود فحسب ، أنهم ليسوا وحدهم ، بل أن كل أعضاء المجلس العسكري بجانبهم دائما .



أخذت المعارك تفقد حدتها اعتباراً من مساء ٢٤ أيلول في وسط المدينة وكانت الإذاعة تعلن للعالم أجمع ، أن قلعة الفولغا لا تزال صامدة تغرق ببحر من النيران واللهب ، وقد تحولت إلى بركان ثائر يفترس الهتلريين بالآلاف ، وهذا هو الواقع دون مبالغة .

بدأت القوات المدافعة عن ستالينغراد تقاتل بضراوة نادرة بعد أن خبرت القتال في النار والدخان ، عن كل شبر من أرض الوطن وتبيد الآلاف والآلاف من الهتلريين وكانت إذاعاتنا تبث ذلك يومياً خلال نشراتها المسائية ، مما يجعل القيادة الألمانية تصب في اليوم الثاني للنشرة جام غضبها على المدينة وترسل مئات القاذفات للثأر منا ، وعشرات الآلاف من القنابل والألغام كانت تتساقط على رؤوسنا .

كان هتلر يعتبر مدينة الفولغا عام ١٩٤٢ ، هدفاً استراتيجياً هاماً ؛ لهذا كان يزج في أتون المعركة في ستالينغراد الفرقة بعد الفرقة ، ولم يكن يولي أي اهتمام لدماء جنوده .

أما قادة القوات الألمانية فكانوا يرون بأعينهم مثل (هانس دوير) الثمن الباهظ ، الذي كانت تدفعه قواتهم من أجل كل متر من الأرض على شاطىء النهر الروسي الكبير ، وفي كتابة «معركة ستالينغراد» كتب دوير مايلي :

« بدأت في منتصف أيلول مرحلة المعارك من أجل الأحياء الصناعية في ستالينغراد . ومن الممكن تسميتها معركة المواضع أو « معركة القلعة » . لقد ولى زمن العمليات الكبرى في السهوب الواسعة وانتهت نهائياً وانتقلت المعارك للمرتفعات التي تشقها المنخفضات المتجهة نحو شاطىء الفولغا بغاباتها ووديانها الصعبة ، وفي حي المصانع في ستالينغراد ، المبني على أرض غير متساوية ، منخفضات وتضاريس وتعاريج حادة تغطيها أبنية الحديد والأسمنت والحجارة . ثمة مسافة كيلومتر من الطول يستعاض عنه بمتر على خريطة المدينة المعلقة في غرفة الأركان العامة .

« كانت تنشب معركة طاحنة لم يسبق لها مثيل حتى ولا في الحرب العالمية الأولى ، من أجل كل بيت أو معمل أو مستودع مياه أو على حوافي السكة الحديدية ومن أجل كومة من الركام يضاف إلى ذلك مصروف الذخيرة الهائل .

لقد ذكرت أن المسافة بين قواتنا وقوات العدو وصلت إلى أدناها وبالرغم من غارات الطيران الكثيفة والقصف المدفعي المتواصل كان من المستحيل التخلص في أي قطاع من معركة القتال القريب .

«كان الروس يتقنون أفضل من الألمان استخدام الأرض والتمويه ولديهم خبرة كبيرة بقتال الحواجز ، واحتلال البيوت المنعزلة ، وكانوا يحتلون مواقع دفاعية قوية .. » وجاء في نشرة العمليات العسكرية التي تصدرها الفرقة الميكانيكية ٢٩ الألمانية والتي وقعت في أيدينا « أنه في صباح ١٧ أيلول أرسل قائد الفرقة تقريره إلى قيادة الجيش السادس الماريشال فون باولوس إذ كتب :

« دمر اللواءان الميكانيكيان في الفرقة تدميراً كاملًا تقريباً ، فمن أصل ٢٢٠ دبابة لم يبق سوى ٤٢ »٠

وكتب العريف الألماني ولتر في أيلول لأمه :« ستالينغراد هي جهنم على الأرض « فيردان » إنها « فيردان » حمراء بأسلحة جديدة . كنا يومياً نقوم بالهجوم . وفيما لو تمكنا نهاراً من احتلال عشرين متراً ، كان الروس في المساء يقذفوننا منها إلى الوراء ، ولنأخذ بعض المقتطتفات من مذكرات رئيس الأركان العامة للقوات البرية العقيد جنرال هالدر باختصار شديد :

ـ ٦ أيلول « سقطت نوفوروسيسك . لا تغير في الموقف على باقي الجبهة . صدت قواتنا أمام ستالينغراد هجوماً قوياً للعدو .
ـ ٧ أيلول أمام ستالينغراد ضعفت هجمات العدو على الجناح الشمالي لقواتنا وهي تتقدم بنجاح .
ـ ٨ أيلول أمام ستالينغراد يتواصل تقدمنا .
ـ ١٣ أيلول أمام ستالينغراد نجاحات جديدة .
ـ ١٥ أيلول أخبار سارة من ستالينغراد ، هجوم قوي للعدو على فورونيج من الشمال والغرب فرق في الغرب ، أمر من الفوهرر بالنسبة للخطر في قطاع الدون .
ـ ١٦ أيلول نجاحات في ستالينغراد ، اهتمام دائم للفوهرر بخصوص قطاع الدون .
ـ ١٧ أيلول تكللت المعارك في ستالينغراد بالنجاح خسائرنا فادحة ، صد بشكل عام هجوم العدو في قطاع فورونيج .
ـ ١٧ أيلول نجاح جديد في ستالينغراد ، هجوم معاكس قوي للعدو (١٥٠ دبابة) في شمال المدينة . وقد صد بنجاح كبير . يخيم الهدوء على القطاعات الأخرى في جبهة الدون .
ـ ٢٠ أيلول امام ستالينغراد انهكت القوات المهاجمة في ستالينغراد تدريجياً وأصبح الموقف حساساً أكثر فأكثر ، غارات طيراننا المنقض في قطاع فورونيج خففت الموقف بشكل ملحوظ .
ـ ٢٤ أيلول بعد التقرير اليومي استأذنت الفوهرر وكنت منهاراً عصبياً وكذلك كانت أعصاب الفوهرر بعيدة من أن تكون في حالة طبيعية . يجب زرع فكرة التعصب القومي في نفسية ضباط الأركان العامة وهذا قرار الفوهرر ومن الواجب تنفيذه حرفياً .

نجاحات ، نجاحات . وفجأة في ٢٤ أيلول أقال هتلر هالدر ، فحلت وكأنها ضربة صاعقة في سماء صافية . وكما حدث سابقاً في شتاء ١٩٤١،عندما أزاح هتلر قادته بعد الهزيمة أمام موسكو .

صرح هتلر مرة إلى قائد الجيش السادس :« بجيشك تستطيع أن تمتلك السماء » ، ولكن منذ الأيام الأولى للمعركة في ستالينغراد تكسرت أسنان جيشه هناك .

أخذ هتلر بعد إزاحة هالدر يدعم فكرته بأنه سيد ستالينغراد،مهما كلف الأمر .

حصلنا في ٢٣ أيلول من مختلف وسائط استعلاماتنا على أن العدو رغم مواصلته القتال في المدينة كان يركز في نفس الوقت قوى هامة في قطاع غوروديتشتشه والكسندروف . لم يكن من الصعب التوقع بأن هذه المجموعة الجديدة ستهاجم في شمال كورغان مامايف باتجاه مدن العمال و المصانع « تراكتوري و باريكادي » .

ولكي نصد العدو في هذا الاتجاه حضرنا بسرعة موقعاً خلفياً ضد الدبابات حسب خط البستان على الضفة الجنوبية لنهر ميتشيتكا ، حتى مدخل منخفض فيشنوفايا ، ثم يحاذي الحدود الغربية للغابة الواقعة شمال منحدرات منخفض دولجوي ، حتى الفولغا . وتلقت وحدات الهندسة الأمر بانهاء خلال ثلاثة أيام نشر حقول الألغام المضادة للدبابات بكثافة كبيرة وإقامة منحدرات وخنادق ، كما أعطيت الأوامر لقادة الفرق والألوية بإقامة الحواجز ضد الدبابات في حدود قطاعاتهم ، ووضع حقول الألغام تحت حماية نيرانهم وتخصص لذلك مفارز خاصة وقسم من وسائط النيران .

وعند احتمال حدوث خرق لدبابات العدو نحو الخط الخلفي . تُهيأ مجموعات من رجال الهندسة مع احتياط كامل من الألغام ، ومستعد في كل لحظة وعند الحاجة أن تلغم بكثافة كل الطرقات والممرات التي يمكن أن تخرقها الدبابات .

وبينما كانت المعارك تعود للهدوء في وسط المدينة تلقينا مساء ٢٤ أيلول تأكيدات عن تجمع قوات عدوة في قطاع رازغوليفكا ـ غوريشتشه ، وكان علينا خلال الليل إعادة تجميع لعناصر الجيش لدعم وإملاء الترتيب القتالي على الجبهة من موكرايا ميتشيتكا . وفي قطاع كورغان مامايف. وقد أعطي أمر التجمع في ٢٥ أيلول ١٩٤٢ وهو كما يلي :

★ ★ ★

أمر قتال رقم ١٦٤ أركان الجيش المدرع ٦٢ ، ٤٢/٩/٢٥ الساعة ٢٣,٠٠

١ ـ يحضر العدو هجوماً باتجاه غوروديتشتشه ـ باريكادي اعتباراً من غوروديشتشه ـ الكسندروفكا .

٢ ـ في الوقت الذي يتابع فيه الجيش التمسك بمواقعه الحالية ، يقوم قسم من قواته بالقتال من أجل تدمير العدو في المدينة .

✡ أمر ✡

١ ـ إلى الفرقة ١١٢(ايرمولكين)مع سريتي هاون تابعتين للحرس الحقتا بالفرقة وبدعم من لواء المدفعية ١١٨ م/د احتلال المنطقة الدفاعية الثانية على خط منخفض فيشلوفايا الساعة ٤,٠٠ من يوم ١٩٤٢/٩/٢٦ . الحد من اليمين زاوية الحديقة الواقعة على بعد كيلومتر غرب بلدة ديسلنايا الجسر عبر ميتشتكا ، ٦٠٠ متر إلى الشمال من بلدة باريكادي . الحد من اليسار ـ الطرف الشرقي لمنخفض فيشنوفايا حتى خط السكة الحديدية وإلى أبعد من ذلك على طول الخط الحديدي إلى تخوم بلدة كراسني أوكتيابر .

مهمة :

(ا) عدم السماح للوحدات العدوة من النفوذ في قطاع بلدة باريكادي وكراسني أوكتيابر .

(ب) عدم السماح للوحدات العدوة بالتقدم في قطاع بلدة مصنع « تراكتورني » .

٢ ـ التحضير لمعركة في محلة مسكونه ، ثلاث حاميات كل واحدة بتعداد فصيلة من الرماة المسلحة بالمسدسات الرشاشة والبنادق الرشاشة .

تأمين الدفاع بفصيلة عن بناء المدرسة رقم ٣٢ والمباني الحجرية في شارع جيرديفسكايا .

تأمين الدفاع بالفصيلة الثانية عن مدارس الأطفال والمخازن (شارع كولبا كوفسكايا ، بلدة باريكادي) .

تأمين الدفاع بالفصيلة الثالثة عن المدرسة رقم ٢٠ والحمامات « تقاطع شوارع كازانشبا ـ دوبليدنسكايا » .

الخط الأول ـ على طول الحافة الشرقية لمنخفض فيشنوفايا . في قطاع ميتشتكا ـ الخط الحديدي وتهيئة موقع دفاعي ضد الدبابات ، وتنظيم حقول ألغام مضادة للدبابات بكثافة كبيرة

مركز قيادة الفرقة ـ المنخفض في قطاع مفرق شوارع كازانشيا ـ دوبلينسكايا .

٣ ـ أمر للفرقة ٢٨٤ (باتيوك) ، تبديل الفرقة ١١٢ في القطاع الدفاعي على طول الحافة الشمالية لمنخفض دولفوي ، وتحضير الأخيرة لموقع دفاعي ضد الدبابات وتأمين الدفاع الصلب على الأقل بفوجين . وإلى بقية قوات الفرقة التمسك بالخنادق بقوة على خط شوارع سوفناركوموفسكايا ، خوبرسكايا وإلى الأبعد ـ منخفض كروتوي إلى الفولغا .

عدم السماح بأي حال من الأحوال للعدو بالخرق في قطاع الشارع ارتيليرسكايا ، حتى ضفة الفولغا والاستعداد لاحقاً لتنفيذ مهمة تحرير المدينة .
٤ ـ إلى الفرقة ٩٤ (غوريشني) حفر الخنادق والتمسك بقوة على الخط المحاذي للحدود الشمالية للغابة (شارع كولودزبايا) ، وتهيئة نقطة استناد بقوة فوج مشاة دفاعية ودائرية مباشرة على منحدرات المرتفع ٢٠٢ . عدم السماح للعدو بأي حال من الأحوال احتلال نقطة استناد المرتفع ١٠٢ والاستعداد لاحقاً لتحرير المدينة .
٥ ـ تتابع الفرقة (١٣) روديمتسيف إزالة العدو في القسم الشرقي من المدينة ، وفي قطاع رصيف المعبر المركزي للنهر .
٦ ـ تكون كل قوات الجيش على أهبة الاستعداد في صباح ١٩٤٢/٩/٢٩ لصد هجمات العدو المحتملة ، وبخاصة في قطاع غورديشتشة ـ باريكادي » .

☆☆☆

لا يمكن لأي قرار يستهدف تجميع القوات أن يوضع موضع التنفيذ إلا بعد معرفة أكيدة لمخططات واستعدادات العدو ، التي يقوم بها بهدف الشروع بعمليات هجومية في الاتجاه المحدد أعلاه . ومن الضروري أن لا نموه على أنفسنا لأن أي خطأ في ترتيب القوات سيؤدي لا محالة إلى كارثة يصعب تفاديها .

عندما اتخذنا قرارنا كنا على ثقة بصحة المعلومات التي زودتنا بها مصلحة مخابراتنا ، التي كانت برئاسة العقيد م . غورمان ، ويعود الفضل أيضا إلى كل رجال الاستطلاع في الجيش ٦٢ الذين لم يخطئوا ولا مرة واحدة في معلوماتهم عن العدو . أعطتنا هذه المعلومات إمكانيات تصور المبادرات التي يمكن أن تقوم بها القيادة الهتلرية ، واتخاذ التدابير المضادة والمناسبة لذلك .

كانت السهوب الواسعة والمكشوفة بين الدون والفولغا تسمح بمراقبة مختلف تضاريس الأرض وعلى عمق كبير ، ومع ذلك كان هذا لا يكفي . فمن الضروري إجراء تحليل صحيح لكل ما يرى ، وإبعاد التحركات المضللة والمعلومات غير الصحيحة وغير الواقعية .

هناك خطر واحد كنا نخشاه دائماً هو : بما أننا نقوم بهذا التجمع بتماس مباشر مع العدو ، وتحت بصره في منطقة دفاعية غير عميقة لا يوجد فيها طرق ولا مسالك مباشرة ، وقد تحولت أرضها إلى وديان عميقة . بنايات ضخمة

أصبحت أكواماً من الخرائب . الأشجار وجذوعها ، الفوهات الضخمة التي حفرتها القذائف والقنابل .

لذلك فأقل خطأ في الزمن والتراخي في المراقبة أو التمويه ، يهدد بفشل التجمع ويسبب خسائر فادحة من قبل نيران العدو ، ولهذا فقد أرسل كل ضباط الأركان مجدداً للوحدات ليكونوا أدلاء لها وموجهين لتحركاتها ، وبخاصة الليلية منها .

من جهة أخرى كانت قوافل العدو القادمة من الغرب ، تصل محملة بالامدادات والتعزيزات بالرجال والعتاد . وقد أكمل العدو النقص في فرقه التي تكبدت خسائر فادحة من أفواج المسير (التدريب) ، وبالعتاد والطواقم المجربة .

لم نكن نتوقع هدوءا طويلاً . وكنا ننتظر هجمات عنيفة من الجهة الغربية من غوروديتشتشه ومن رازغوليافكا ، وكنا نعتقد بأنها لن تتأخر طويلاًلتبدأ ولكن أين ؟ وكيف كانت في تلك اللحظة أوضاع الوحدات التابعة للجيش ٦٢ ؟ يمكن معرفة ذلك من الأمر الذي ورد أعلاه .

ولكن من الضروري أن تشير بأن القوات التي كانت تدافع عن الجناح الشمالي للجيش كانت مؤلفة فقط من ثلاثة ألوية مستقلة هي (١١٥ ـ ١٢٤ ـ ١٤٩) ولواء من فرقة ساراييف . وكان على يسار هذه الألوية اعتباراً من نهر موكرايا وإلى المنحدرات الشمالية الخلفية لمنخفض دولفوي ، يدافع عن هذا القطاع الضيق اللواء المدرع ٢٣ ، ولديه ٥٦ دبابة منها ٣٦ دبابة متوسطة و ٢٠ خفيفة وكان يعمل بالتعاون مع الفرقة ١١٢ (أيرمولكين) .

ويشكل النسق الثاني في قطاع المرتفع ١١٢.٠ وعلى الحدود الغربية للغابة لواء الحرس السادس المدرع ولديه سبع دبابات ت ٣٤ وست دبابات ت ٦٠ ولكن كل دباباته كانت معطوبة تقريباً وتستخدم كنقاط رمي ثابتة وقد كان أحد ألوية فرقة ساراييف يقاتل وهو محاصر ، في إحدى حدائق المدينة بالقرب من المحطة المركزية وقد عزل هذا اللواء وأصبح الإتصال معه صعباً . لم يبق منه إلا عدد قليل يقاتل .

كما عزل عن الجيش لواءان من المشاة . كانا يقاتلان في جنوب تساريستا . ولم يعد ضباط الأركان الذين أرسلوا إلى هذين اللواءين لقيادتهما ، وكان الإتصال معهما يتم عن طريق اللاسلكي فقط . ويواصل القتال في المدينة

اللواء ٩٢ مشاة بقيادة الموجه السياسي الرئيسي في الفصيل السياسي ف . فلاسوف الذي استطاع جمع الوحدات الصغيرة المعزولة . أما رماة البحرية فكانوا يواصلون القتال حتى النفس الأخير .

بعد تقرير ف . فلاسوف الذي وصلني عن حقيقة الوضع في اللواء ٩٢ اتخذت قرارا بنقل بقايا اللواء للطرف الآخر من الفولغا مع اللواء ٤٢ (باتراكوف) . وقد جرح الجنرال المذكور نفسه، وترك اللواء قبل اتخاذ هذا القرار .

وعاد هذا اللواء للقتال في ستالينغراد بعد فترة استراحة قصيرة في الطرف الثاني واستكمل تعداده وقد عين المقدم م . ستربفول قائدا لهذا اللواء . كما أن فلاسوف أصبح رئيساً للفصيل السياسي . وفي المعارك التي تلت ، أثبت هذا اللواء مرة ثانية بأنه يتمتع بروح عسكرية عالية .

كان للعدو حرية العمل على جناحنا الأيسر ، لذلك بدأ ينقل وحداته الموجودة هناك باتجاه كورغان ماماييف ، إلى أبعد نقطة نحو الشمال مع احتمال تعزيزها بالأشخاص والعتاد ، لذلك أبعد التهديد بهجوم جديد على قواتنا ، التي كانت تتمسك بتلك المواقع .

لم يقم العدو باستطلاعاته معتمداً على تفوقه الجوي ، وحتى لم يكن يعتني بإخفاء تحضيرات هجومه واستعداداته . وكان يعمل بعجرفة واستهتار شديدين وينطبق ذلك بخاصة على الوحدات الجديدة ، التي لم تدخل حتى ذلك الوقت ولم تشترك في معارك ستالينغراد .

في مساء أو ليل كل يوم يسبق المعركة ، كان الجنود الألمان يصرخون وأحياناً يقولون :

- روس غداً سنقضي عليكم !

في مثل هذه الحالة كنا نعرف دون شك ، أن العدو سيشن هجوماً قويا في اليوم الثاني ، وبالتحديد في هذا القطاع حيث يسمع صراخ الجنود .

ووضعنا تكتيكات جديدة وطرقاً خاصة للقتال للقضاء على مثل هذا العدو المزهو بنفسه . لقد تعلمنا بعمق كيف نقاتل ونسحق الغزاة نفسيا ومعنوياً .

وجهنا ضمن هذا الاتجاه اهتماماً خاصاً لحركة الرماة المهرة داخل القطعات ودعم المجلس العسكري هذه المبادرات الهامة ، وكانت تنشر في الصحيفة اليومية للجيش « الدفاع عن الوطن » يومياً أعداد الجنود الفاشيين الذين كانوا

يقتلون برصاص هؤلاء الرماة المهرة وتنشر في الوقت نفسه صور أفضل هؤلاء الرماة .

● كانت الفصائل السياسية ، وتنظيمات الحزب والكومسمول تدير حركة الرماة المهرة ، وتنظم لحم الاجتماعات التي كان يجيب فيها المسؤولون عن أسئلتهم ، وقد وضعت أسس وطرق جديدة قيد العمل على أساس الاستفادة من خبرة الاف المهرة من الرماة ، وكان كل واحد منهم يقصد بتدريب بضعة رجال ليصبحوا من رماة الهدف . لهذا كان على الفاشيين المستهترين أن يتوقعوا أوخم العواقب .

التقيت شخصيا بعدد من الرماة المهرة المرموقين وتكلمت معهم ، وقدمت لهم المساعدة قدر استطاعتي ، ووجهت اهتماما خاصاً بفاسيلي زايتسيف ، وأناتولي تشيخوف وفيكتور مدفيديف و آخرين غيرهم . وكنت أجتمع بهم كثيراً .

ولا يظهر على هؤلاء رغم أهليتهم أنهم يتميزون عن غيرهم ، فعندما التقيت لأول مرة بزايتسيف ومدفيديف ، لفت نظري تواضعهما وحركاتهما البعيدة عن الزهو والخيلاء ، وجذبتني طبيعتهما الهادئة جدا وانتباههما الشديد . كان باستطاعتهما تثبيت نظرهما طويلاً على نفس النقطة دون أن ترف أعينهما ، وكان لديهما قبضات صلبة فعند المصافحة كانا يضغطان على اليد كالملزمة الحديدية .

كان الرماة عادة يذهبون « للصيد » باكراً في أرض منتخبة ومحضرة مسبقاً ومموهة بشكل جيد ، وينتظرون بصبر شديد ظهور أهدافهم ، وكانوا يعلمون أن أقل تهاون من طرفهم ، يعرضهم للموت وخسارة أنفسهم ، وكان العدو يراقب بدقة نشاط رماتنا المهرة . فمن المعروف عنهم أنهم كانوا مقتصدين جداً في الرمي ، ولكن كل طلقة من طلقاتهم كان لها معنى واحد هو الموت للخصم الذي أطلق عليه ، أو بتر أحد أعضاء جسمه .

جرح فاسيلي زايتسيف في عينه ، ومن المحتمل أن الرامي الألماني بذل جهداً كبيراً ليكتشف القناص الروسي زايتسيف ، الذي سجل لحسابه قتل حوالي ٣٠٠ من الفاشيين . بعد ذلك بدأ زايتسيف باختيار رجاله ليجعل منهم رماة مهرة ، أي كما كان يقال ، اختار أرانبه الصغار .

وعلى العموم كان كل رام يعمل على وضع خبرته تحت تصرف الآخرين ويعلم الشبان من الرمي الدقيق (رماة الحدق) . وكان جنودنا يتندرون بقولهم :

ـيدرب زايتسيف أرانبه الصغار ، ويدرب مدفيديف دببه على اقتناص الألمان دون أن تخيب أية ضربة من ضرباتهم .

رافقنا فكتور مدفيديف حتى برلين ، ولائحة فرائسه من الهتلريين فاقت لائحة أستاذه زايتسيف .

أثار نشاط رماتنا المهرة الجنرالات الألمان بشدة ، وبخاصة بعد أن وقعت في أيديهم إحدى نشراتنا ، وفيها لائحة عن الخسائر التي كبدها لهم رماتنا المهرة . لذلك أخذوا يعملون لأخذ الثأر في هذا الفرع من مهنة الحرب .

وأخيراً أفادنا أحد المخبرين الذين جلبه لي رجالنا في نهاية أيلول ، بأن طائرة قدمت من برلين وتحمل معها مدير مدرسة الرماة المهرة الألمان الرائد كوننج بمهمة القضاء ، قبل كل شيء على افضل رام ماهر سوفيتي .

لهذا استدعي العقيد باتيوك قائد الفرقة مهرة رماته وقال لهم :

ـ اعتقد أن هذا القناص الخارق الذي وصل من برلين لن يخيف رماتنا المهرة ، أليس كذلك يا زايتسيف ؟

ـ كن واثقاً من ذلك أيها الرفيق العقيد ـ أجابه فاسيللي زايتسيف .

ـ إذن من الضروري القضاء على هذا القناص الخارق ـ تابع العقيد كلامه ـ ولكن بحذر وذكاء .

أخذت في ذلك الوقت تتضخم مجموعات الرماة المهرة بازدياد ، حيث قتلوا بضعة آلاف من الفاشيين . وكنا نذكر ذلك في صحفنا ونشراتنا اليومية ، التي وقع بعضها في أيدي العدو ، الذي درس طريقة عمل رماتنا وبدأ باتخاذ التدابير المضادة وأني أقول بصراحة ـ وهذا من الماضي ـ ففي القوت الذي أصبحت فيه أعمال مهرة الرماة وتجاربهم شعبية ، كان علينا أن لا نتعجل ذلك فيكفي أن يصاب ضابط أو ضابطين من العدو ، حتى يفتح العدو ، نيرانه الكثيفة علينا ، وبخاصة على الكمين الذي أطلق النار . وكان من الضروري الهرب بسرعة من مخارج النجاة والتخلص بسرعة من المآزق .

وضع وصول القناص الخارق ، أمامنا مشكلة جديدة . فكان علينا معرفة مكانه ، ودراسة تصرفاته وأساليب المواجهة التي يتبعها ، ثم الانتظار بصبر اللحظة التي نستطيع فيها الرمي طلقة واحدة فقط ، ولكن محكمة .

حول هذه المبارزة الغريبة يستعيد زايتسيف ذكرياته ، ويتحدث عن النقاش الحاد الذي جرى في إحدى الليالي في مخبأنا الأرضي فيقول : «كان كل قناص

من بيننا يشرح افتراضاته ، وتصوراته ، ونتائج مراقبته الدائمة لخطوط العدو الأولى ، وقد قدمت اقتراحات على صور مختلفة ، ودرست مختلف الخدع والحيل ، ولكن فن قتال الرماة المهرة يتميز بهذا الاختلاف ، فبالرغم من الخبرات العميقة التي يتمتع بها كل منهم ، إلا أن رامياً واحداً هو الذي يقرر طريقة المواجهة . وذلك عندما يكون وجهاً لوجه أمام العدو ، فهناك وفي كل مرة عليه ابتداع الأساليب واكتسابها ، والعمل دائماً بطريقة جديدة ، فبالنسبة للرامي لا توجد طريقة تقليدية والتقليد يعادل بالنسبة إليه الانتحار ».

ولكن كل منا كان يتساءل ويطلب من الآخر : أين هذا القناص الخارق القادم من برلين ؟ فأنا كنت أعرف طبيعة مهارة الرماة الألمان من طريقة رميهم وتمويههم ، وكنت أميز دون أدنى صعوبة الرماة الأكثر تجربة من بينهم ، من الرماة ذوي الخبرة الضعيفة ، وكذلك الجبناء من ذوي العزم والصلابة ، ولكن طبيعة هذا القناص الألماني الخارق ظلت لغزاً علينا ، ولم تحمل لنا المراقبة اليومية التي يقوم بها رفاقنا أية معلومات دقيقة ، كان من الصعب القول بأي قطاع هو موجود ، فقد كان دون شك يغير موقعه يومياً وكنت أفتش عنه ، كما كان هو يفتش عني بحذر ، وإليكم ما حصل ! استطاع العدو تحطيم منظار تسديد صديقي موروزوف ، وجرح شيكين رغم أن كليهما من مهرة الرماة المجربين ، وكانا يخرجان غالباً منتصرين في أكثر المواجهات تعقيداً وحدة مع العدو . وحتى ذلك الوقت كنت لا أشك بأنهما وقعا على القناص الخارق الذي كنت أفتش عنه ، لذلك ذهبت في الفجر مع نيقولاي كوليكوف إلى هناك حيث يوجد رفاقنا المصابون ، وعند مراقبتي للخطوط الأولى المعادية والتي خضعت لمراقبة دقيقة أياماً كاملة ، لم أكتشف أنا أيضاً شيئاً جديداً ، ولكن عندما هبط النهار ظهرت فجأة خوذة فوق الخندق الألماني وكانت تنتقل ببطء على طول الخندق وسألت نفسي هل أطلق ؟ وكان الجواب لا فهذا فخ لأننا لم نكن نعرف ما هي هذه الخوذة التي تهتز بشكل عادي تقريباً ، ومن الواضح أنها كانت محمولة من قبل مساعد القناص ، الذي هو الآخر كان ينتظر مني أن أخون نفسي وأطلق في الأول .

- إلى أي حدٍ سوف يموه نفسه ؟ تساءل كولكيوف . عندما كنا نترك نقطة الكمين بسبب الظلام . ونظراً للصبر الذي أبداه العدو طيلة النهار توقعت وجود القناص البرليني هناك ، لذلك كان عليّ اتخاذ أقصى الحذر الدقيق .

مر اليوم الثاني هل أتمتع بأعصاب قوية ؟ ومن يكون بيننا الأخبث ؟ كان صديقي الحميم نيقولاي كوليكوف في الكمين ، خلال هذه المبارزة صبوراً أيضاً ولم يعد يشك أن العدو كان أمامنا تماماً ، وكان يأمل بالنجاح بسرعة . ذهبنا في اليوم الثالث إلى نقطة الكمين يرافقنا الموجه السياسي دانيلوف . بدأنا في الصباح كالعادة عندما أخذ الظلام بالانقشاع وكشف دقيقة بعد دقيقة مواقع العدو ، كانت تظهر بوضوح شيئاً فشيئاً . كانت المعركة صاخبة حولنا . والقنابل تزمجر في الهواء ، ولكن أعيننا كانت ملتصقة بالمناظير نراقب كل ما كان يجري حولنا دون انقطاع . وفجأة قال الموجه السياسي .

- ها هو القناص ! سأظهر له أصبعي ، ورفع نفسه قليلاً للأعلى دون حذر بشكل جانبي فوق حافة الخندق وخلال ثانية من الزمن . وكان هذا الوقت كافياً لأن يصاب الموجه بجرح ، ومن الطبيعي أنه لا يمكن لقناص ماهر مجرب أن يرمي هكذا .

ويتابع زايتسيف : « درست طويلاً مواضع العدو ، ولكن دون أن أرى أين يكمن العدو . وقد استنتجت بسبب سرعة الرمي ، أنه في موضع ما أمامنا وبخط مستقيم لذلك تابعت مراقبتي ، وعلى اليسار كانت هناك دبابة مدمرة وإلى اليمين يوجد بلوكوس (تحصينات) ميداني ولكن أين هذا الفاشي ؟ هل هو في الدبابة ؟ لا ؟ فقناص مجرب لا يحتجز نفسه فيها . اذاً من المحتمل أن يكون في البلوكوس ؟ أبداً ، فكوة البلوكوس مغطاة . وبين البلوكوس والدبابة كانت تتحرك على أرض مسطحة ورقة صفيح بالقرب من كومة من الآجر المفتت دون أن ننتبه إليها . وضعت نفسي في مكان العدو وأخذت أفكر ، أي مكان أفضله لوضعية الرمي ؟ لماذا لا تكون هناك حفرة تحت هذه الصفيحة ، تحفر ليلاً وتوصل بممرات مغطاة ؟

نعم إنه هناك ومن المحتمل أنه تحت الصفيحة في الأرض الحيادية ، فقررت أن أتحقق من ذلك لذلك علقت بكرة ورفعتها في الهواء على رأس خشبة ، وهنا عض القناص على الطعم وأطلق ، أسقطت البكرة بسرعة في الخندق في المكان الذي رفعتها فيه ، وفحصت بانتباه الثقب الذي أحدثته رصاصة القناص فلم أجد فيها أي انحراف وكانت ضربة بخط مستقيم . إذن هو تحت الصفيحة .

إذن القذر هناك ! علق على ذلك رفيقي في الفريق نيقولاي كوليكوف بصوت منخفض وهو يراقب من الكمين المجاور .

من الضروري الآن إجباره على الكشف ووضع قسما صغيرا من رأسه فوق منظاري . ومن الطبيعي أن لا نجرب في تلك اللحظة الخطة لعدم فائدتها فمن الضروري أن يكون هناك وقت كاف .

درسنا الآن طبيعة هذا الفاشي فلم يترك هذا المكان الملائم له ، أما نحن فكنا مجبرين على تغيير أماكننا » .

عملنا في الليل ، وبقينا في المكان حتى الصباح ، كان الهتلريون يوجهون رماياتهم على ممرات الفولغا والنهار يرتفع بسرعة ، ومعه تضاعفت حدة المعركة ، ولكن كل ذلك لن يبعدنا عن إتمام مهمتنا إن كانت زمجرة المدافع أو تفجر القذائف والغارات .

ارتفعت الشمس وأطلق كوليكوف طلقة « المرأة المخمورة » ، فمن الضروري إثارة إنتباه القناص .

قررنا انتظار اللحظة التي لا يمكن بها أن تخوننا انعكاسات أجهزة التسديد ، بعد الظهر كانت بنادقنا في الظل ، في حين كانت الشمس تسقط عموديا على خصمنا ، شيء لمع على حافة الصفيحة : هل هو تناثر زجاج سقط صدفة أم منظار تسديد ؟ أخذ كوليكوف بحذر يرفع خوذته موهماً بأنه أفضل القناصين خبرة ، وهنا أطلق القناص الألماني عليه النار معتقداً أنه استطاع أخيراً قتل السوفيتي ، الذي كان يفتش عليه طيلة أربعة أيام ليصطاده ، رفع نصف رأسه فوق الصفيحة ، وهذا ما كنت أنتظره ؛ وأطلقت تماماً وفي تلك اللحظة ، وبذلك انمحى رأس الفاشي وسقط منظار تصويب بندقيته وظل يلمع في الشمس دون أن يتغير مكانه حتى الليل ».

هؤلاء هم الرماة المهرة في الجيش ٦٢ ، وليس من العدل أن أذكر هؤلاء المشاة فقط . ولم يكن عندنا القليل من رماة المدفعية المهرة وسدنة الهاونات ، فهناك ضباط المدفعية مثل شومكين وقائد وحدة الهاون بيزديكو الذي كان مرموقاً في كل الجيش بدقة نيرانه ، فلم تكن تستطيع أن ترى أية دبابة عدوة تمر دون عقاب أمام سرية مدفعية شومكين ، وهاونات بيزديكو إذا كان بالامكان إصابة العدو عبر قساطل المداخن .

لا يمكن أن أنسى المدفعي ، قانص الدبابات بروتو دياكونوف الذي تحدثت معه شخصياً في مخبأي المغطى ، حيث استدعيته وهو من قومية ياكوت . كان رجلًا طويل القامة ذا فيزيولزجية كبيرة . بقي لوحده سديناً لمدفع ٤٥ ملم بين

خنادقنا وخنادق العدو في وهدة من الأرض ، وعلى المنحدرات الشمالية لكورغان ماماييف . ولم يثر انتباه العدو بسبب تمويهه الجيد ولا طواقم الدبابات المعادية الا بعد أن تشتعل النيران بدباباتهم أو تصاب .

ومرة، عندما لاحظوه وعلموه عن طريق نيرانه كان من الطبيعي أن يفتحوا عليه نيران المدفعية الكثيفة ، فأصابت إحدى الشظايا منظار تسديد المدفع ، ولكن المدفع ظل يعمل وبقي بروتو دياكونوف في مكانه ، ولم يترك مدفعه وظل يطلق على العدو بتسديد محكم عن طريق فتحة السبطانة وعندما كانت الدبابة تظهر أمام أنف مدفعه ، كان يلقم بسرعة ويضرب العدو بتسديد مباشر .

التقيت مجدداً ببروتودياكونوف في ١٩ آذار ١٩٧٢ في ستالينغراد على مرتفع ماماييف ، لقد تغير كثيراً ، وتغيرت أنا أيضاً ، وهذا شيء طبيعي بعد ثلاثين عاماً ولكننا عرفنا بعضنا .

كانت المعركة في المدينة معركة خاصة والقوة هنا ليست هي التي تقرر بل الحيوية ومعرفة ما يجب عمله . وحسن التصرف والتخلص والمفاجأة . كانت الأبنية السكنية حطاماً مثل الأمواج المتكسرة . وقد توزعت تشكيلات العدو على جوانب الشوارع ، وكنا نصمد بعناد في الأبنية الصلبة التي كنا نركز فيها وحدات صغيرة نجهزها بكل الامكانيات ، التي تستطيع بها القتال الطويل والشديد رغم تطويق العدو لها . ساعدتنا العمارات المتينة بجعلها نقاط استناد قوية يستطيع المدافعون عن المدينة اصطياد العدو بنيران رشاشاتهم وبنادقهم الآلية .

تخلينا في هجماتنا المعاكسة عن الهجمات التي كنا نقوم بها بالمفارز القوية أو الوحدات الكبرى ، وظهر في كل الوحدات اعتباراً من ١ أيلول ما نطلق عليه مجموعة الانقضاض ، التي كانت قليلة العدد ولكنها كانت قوية بصدمتها بشكل لا يمكن مقاومتها ، حيث تعمل وتتسرب برشاقة الثعبان . وكان كل هدف يحتله العدو يتعرض لمجموعات الانقضاض هذه فوراً ، ونادراً ما كان الهتلريون يصمدون أمام هجماتها ونيرانها ومتفجراتها وقنابلها اليدوية التي تدعمها الحربة والسكين ، وكانت الشوارع فارغة ولا قتال فيها في حين كان القتال يجري في داخل الأبنية ، التي يراد احتلالها ، وفي الأقبية والطوابق والغرف وكل منعطف في ممراتها الداخلية .

تعلم جنودنا وضباطنا كيفية الاقتراب من العدو عندما يمهد لهجومه

بالطيران أو المدفعية ، وذلك بالزحف والتماس معه في مواضعه التي كان يحتمي بها ، وكان طيارو العدو ورجال مدفعيته يخشون عند الرمي على مواضعنا من أن يقصفوا مواضع جنودهم ، لذلك كنا نسعى بإرادتنا للقتال على أقرب ما يكون من العدو .

لم يكن الهتلريون يحبون مطلقا أو بالأحرى لا يعرفون القتال القريب ، وغالبا لم يكونوا معنوياً أهلاً للصمود . وفي أغلب الأحيان كان جنود العدو يظهرون بشكل واضح على الخطوط الأولى ، وكانوا في الليل يظهرون أيضا وبين كل خمس أو عشر دقائق يرمون صلية نارية من أسلحتهم . ومن الواضح أن ذلك كان لاعطائهم القوة والشجاعة . فهم جنودنا بسهولة هذا الأسلوب الحربي لذلك كانوا يزحفون إليهم ليلاً ويقضون عليهم إما بنيران طلقاتهم أو بحرابهم .

تعلم المدافعون عن المدينة كيف يتركون الدبابات الألمانية تمر فوقهم وتحت نيران مدفعيتنا المضادة للدبابات وقانصات الدبابات ، ولكنهم كانوا لا يوفرون ذخيرتهم لفصل الجنود الألمان عن دباباتهم التي تقوم بالاختراق لوحدها فهي دون مشاة لا تستطيع القتال ، وتضطر لعكس اتجاهها وتعود أدراجها دون نجاح بعد تكبدها الخسائر الفادحة .

كان الليل ومعركته من اختصاصنا . ولم يكن الغزاة يعرفون كيف يتصرفون في الليل . أما نحن فتعلمنا أن لا نعمل إلا في الليل تحت ضغط الظروف القاهرة التي لم تكن لترحم أحدا . كنا نتخذ مواقف الدفاع طيلة النهار لصد الهجمات الهتلرية . وكان هؤلاء لا يتحركون دون حماية جوية أو دعم المدرعات وكانت مجموعات الانقضاض تختفي آليا في المباني والملاجيء تنتظر اقتراب العدو منها وإلى مدى القنبلة اليدوية .

استخدمنا شتى الوسائل لتدمير العدو وإبادته ، فمثلاً كنا نعلم أنهم يستريحون في الليل في ملاجئهم ، لذلك كنا نعمل ونحاول لجذبهم الى النوافذ والكوات فبعد صرخة (هورا) الروسية وإلقاء القنابل اليدوية ، كان العدو يندفع مذعوراً نحو النوافذ والكوات ، ومراكز الرمي لصد هجومنا المزعوم ، وفي تلك اللحظة تفتح المدفعية والرشاشات نيرانها على العدو .

كانت رمايات الكاتيوشا فعالة ضد أماكن وتجمعات المشاة والدبابات التي كنا نعمل على كشفها قبل كل هجوم جديد للعدو . لذلك لا يمكن أن أنسى في هذا المجال لواء الكاتيوشا بقيادة العقيد ايروخين ، الذي كنت التقي به كثيرا في

المعركة . كانت أجهزة وطاقم توجيه القذائف في هذا اللواء محملة على هيكل دبابة ٦٠ ذات سلاسل ، وكان يعطيها ذلك سهولة للمناورة في أي اتجاه وعلى أي أرض .

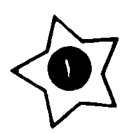
كان هذا اللواء المتمركز في ستالينغراد صعب الإصابة من قبل العدو ، حتى عندما كان يعود إلى مواقعه الدائمة خلف الحافة المنحدرة نحو الفولغا ، ولم يتمكن العدو من تعليم مكانه . وكان باستطاعة ايروخين استدعاء لوائه المتحرك مع أجهزة الرمي إلى أماكن الرمي الخاصة به ، والقيام بضربه أو بالأحرى قذف صلية عنيفة على العدو والانسحاب بنفس السرعة التي أتى بها والاختفاء وراء الستار .

كان عتاد هذا اللواء مخيفاً للعدو . كما كان بين أيدي أمينة من جنود وضباط . ولا يمكننا إيراد كل ما ابتدعه محاربونا في معارك الفولغا الشرسة . لقد تقدمنا وتدربنا وتعودنا على الحرب من أبسط جندي إلى أعلى ضابط .



بسالة رجال الحرس

(١)



تؤكد كل المعلومات التي تلقيتها في ٢٦ أيلول من عناصر الاستطلاع أن العدو يمهد لتوجيه جهده الرئيسي في هجومه الجديد نحو غوروديتشتشه ـ رازغوليفكا . وبدون أن توقف هجمات مدفعيتنا على مراكز تجمعات مشاة العدو ودباباته ، قررنا الصمود أمام صدمة العدو بكل ما لدينا من سلاح وبقوى المجموعة المدرعة ، وفرقة مشاة ايرمولكين . كما التحق بنا زيادة على ذلك الفرقة ١٩٣ مشاة بقيادة الرائد جنرال و . سميخوتوفوروف التي أرسلت لتعزيز الجبهة الدفاعية للفيلق المدرع .

كنا بقلق دائم بخصوص كورغان ماماييف ، الذي كان يدافع عن قمته أقسام من فرقة غوريشني . لقد احتل العدو المنحدرات الجنوبية والغربية للهضبة ، ويكفي أن يتقدم العدو مئة متر حتى يسقط هذا المفتاح التعبوي للدفاع عن المدينة ، وعن مدن العمال التي يمكن أن تقع في أيدي العدو ، ولكي لا نسمح للعدو ، ونحبط تحضيراته المنهجية للهجوم على أحياء المصانع ، قررنا العودة إلى الهجمات المعاكسة .

لم تزج قواتنا الا جزئياً بالهجوم المعاكس ، وليس على جبهة متصلة ولكن بمجموعات انقضاض ، أما القوات الرئيسية فقد ظلت في مواقعها المحضرة لصد الهجوم الألماني من جهة غوروديتشتشه .

أعطي أمر الهجوم المعاكس في ٢٦ أيلول الساعة ١٩,٤٠ ، ولكن التعليمات عن الاحتمالات القادمة للمعركة كانت قد أرسلت قبل أربع وعشرين ساعة . مع مراقبة مستمرة للعدو لاكتشاف نقاطه الضعيفة ومواضعه على طول جبهة الجيش .

كان الجميع يعرفون ويشعرون ويرون العدو وهو يحضر لعمليات نشطة

جديدة ، وتركهم يفاجأون ببداية الهجوم معناه الخسارة . فالفراغ الذي يحتله الجيش ٦٢ على الطرف الأيمن للفولغا كان ضيقاً جداً ولا يسمح بالتراجع لأي مكان .

أثبت المثال التالي ، كم هو صحيح وعميق تعرف الضباط ، وحتى أبسط الجنود على موقف العدو في تلك الأيام ، فكما نعرف أن التموين بالذخيرة والغذاء كانا فارغان على شاطىء الفولغا ثم ينقلان على الأذرع والأكتاف من مناطق الإنزال وحتى مواقع الرمي والخنادق في الخطوط الأولى . وكان عملاً منهكا وشاقا ، وإذا كنا فيما مضى وقبل أسبوع نخبر القوات بوصول الذخيرة ونطلب استلامها حالاً وبسرعة ، فالمستقبلون الآن والحمالون أخذوا يصلون بفصائل كاملة إلى أرصفة التفريغ دون أي إخبار تلفوني سابق أو خلاف ذلك ، ومنذ هبوط الظلام . وما تكاد المراكب تصل حتى يجري تفريغها بسرعة وتحمل حمولتها إلى الخطوط الأولى .

من الضروري هنا أن نسجل ما قام به بحارة أسطول الفولغا بقيادة الأميرال د . روكانتشيف والخدمات غير المتوقعة التي قدموها للجيش كوسيلة إيصال الحمولات من الطرف الأيسر . فكل رحلة بين الضفتين كانت لوحدها خطرة ، ومع ذلك لم يصدف أن بقيت بعض المراكب الحربية أو البخارية وغيرها مع حمولتها على الطرف الآخر .

وسأتكلم باختصار عن دور بحارة أسطول الفولغا ، ومآثرهم البطولية وأقول لولاهم كان من المحتمل أن يباد الجيش ٦٢ بسبب النقص في الذخيرة والغذاء ولا يمكنه من تأدية واجبه .

استعد الجميع من مشاة ومدفعية ودبابات وبحارة وكل المدافعين عن ستالينغراد ، لصد هجوم العدو على المصانع الكبرى ومدن العمال ، وبدأنا نحن أيضا في الهجوم المعاكس في ٧ أيلول في الساعة السادسة صباحا .

وقام الجيش ٦٤ في نفس اليوم بهجوم في قطاع كوبروسنوي .

نجح الهجوم المعاكس في البداية ، ولكن في الساعة الثامنة ، حلقت مئات الطائرات الألمانية التي أخذت تنقض على مواقعنا . لذلك اضطرت الوحدات المهاجمة للتوقف والاحتماء بالأرض ثم انتقل العدو للهجوم في الساعة ١٠,٣٠ ، واندفعت فرقة المشاة الخفيفة (١٠٠) المعادية ، التي وصلت حديثاً للجبهة وكذلك فرقة المشاة ٣٨٩ بعد أن استكملت تعدادها تعززهما الفرقة المدرعة

٢٤ لاحتلال بلدة كراسني أوكتيابر ومرتفع ماماييف .

أخذت طائرات العدو تنقض على مواقعنا الدفاعية اعتبارا من الخطوط الأمامية حتى الفولغا ، ثم على نقطة استناد ماماييف ، وكانت تدافع عنها قوات غوريشني بعد أن حُصِّنت. وقد سحقت هذه النقطة كلياً تحت ضربات طيران وقصف المَدفعية كما كان مركز قيادة الجيش واركانه طيلة الوقت تتعرض للغارات الجوية ، ثم اشتعلت النيران بمستودعات البترول ، وبعد ذلك اندفعت دبابات العدو بالهجوم اعتباراً من غوزديتشتشه بخط مستقيم عبر حقول الألغام تتبعها وحدات المشاة التي كانت تتقدم بأمواج متلاحقة إلى الأمام . وأصبح الإتصال التليفوني حوالي الظهر غير مؤكد مع القطعات ، وتعطل مركز الراديو .

لم نكن نعرف تماماً ماذا يجري في الجبهة ، وقد كنا دون إتصال ثابت رغم قرب مركز القيادة ، حيث يقع على بعد ٢ كم من الخطوط الأولى . لذلك اضطررنا للتقدم أكثر من الخطوط الأولى ، لكي نشرف بفعالية أكثر على مجرى المعركة وانطلق غوروف ومعه ضباط إتصال الوحدات نحو الفيلق المدرع ، وتوجهت أنا إلى فرقة باتيوف ، في حين ذهب كريلوف إلى مركز قيادة غوريشني . ورغم أننا كنا قريبين من الوحدات المقابلة لم نستطع تكوين فكرة كاملة عن المعركة التي كانت تدور تحت غطاء كثيف من الدخان . وعندما عدنا في المساء نحو مركز القيادة ، وعددنا أنفسنا وجدنا أن عدداً من ضباط الأركان ، تخلفوا عنا إلى الأبد .

نجحنا في ساعة متأخرة من الليل أن نطلع على الموقف وكان حرجاً للغاية فبعد أن اجتاز العدو حقول الألغام وعبر مواقعنا المتقدمة استطاع التقدم بثمن باهظ من الخسائر مسافة كيلومترين إلى ثلاثة كيلومترات إلى الأمام في بعض القطاعات .

فكرت أن معركة أخرى من هذا النوع سوف لن نجد أنفسنا إلا ونحن في الفولغا .فقد تكبد كل من فيلقنا المدرع والجناح الأيسر لفرقة ايرمولكين خسائر فادحة وهما اللذان تحملا صدمة العدو الرئيسية ، والأحياء الباقون من هذه الوحدات احتلوا آخر النهار ٢٧ أيلول جبهة ممتدة من قطاعات ! جسر ماتشتشكا إلى كيلومترين ونصف غرب بلدة باريكادي ، وحتى القسم الجنوبي الغربي منها ، ثم الى القسم الغربي من بلدة كراسني أوكتيابر .

كما ارتدت فرقة غوريشني بعد قتال عنيف عن قمة كورغان ماماييف . تمفصلت وحداتها وهي تحتل المنحدرات الشمالية الشرقية للهضبة .

أما في بقية القطاعات ، فقد صد العدو .

فقد العدو في يوم واحد من المعارك الاف القتلى ، وأكثر من خمسين دبابة . ونحن أيضا تكبدنا خسائر فادحة ، وبخاصة في وحدات الفيلق المدرع وألوية المشاة التابعة لفرقة غوريشني .

وعلى هذا طلب المجلس العسكري في الليل من كافة الضباط السياسيين والموجهين للوحدات والأقسام ، أن يظلوا وبصورة دائمة في الخطوط الأولى مع الجنود في الخنادق والحفر والعمل على إعادة تنظيم وترتيب القتال في الوحدات والقتال حتى آخر طلقة .

هل هناك حاجة للتنويه بما كان عليه الحوار في خنادق الخطوط الأولى من أهمية كبرى وبخاصة بين ضابط برتبة عالية والموجه السياسي من جهة والجنود البسطاء من جهة أخرى ، وكنت أعرف بتجربتي الشخصية أنه عندما نتكلم مع الجندي في خندقه ، فنحن نقتسم معه التعب والفرح وبخاصة عندما نشعل سوية سيكارة ونتعرف على الوضع ونناقش طريقة العمل وهنا تترسخ الثقة بين المحاربين « مادام القائد هنا فعلينا الصمود » ولا يتراجع الجنود دون أمر .

ومن الاهمية بمكان أيضا أن يعرف كل محارب أن رئيسه لا يبقى جالساً في مخبئه ، وفي هذه الحالة نكون متأكدين من أن الأوامر ستنفذ . ليس من الضروري دائما أن يكون قائد الفرقة في الخنادق الأولى . فمكانه الطبيعي في مقره في القيادة . ولكن عند احساسه بوجود خطر داهم فعليه أن لا يبتعد عن الخطوط الاولى ، وأن يكون في أقرب مكان ممكن من جنوده وهنا ، لا يمكن أن يرتكب الجنود أي خطأ ، ويفتحون لك صدورهم وينفذون مهماتهم .

ألح المجلس العسكري للجيش على كل الضباط والموجهين السياسيين ، بما فيهم ضباط الاركان ، أن يكونوا في الخطوط الأولى ليظهر واضحا للجميع أن لا تراجع هناك ولا نعرف إلى أين نتراجع .

نزلت في ليل ٢٨ أيلول عناصر لواءين من فرقة المشاة بقيادة الجنرال سميخو تغوروف على الضفة اليسرى حيث التحقت بنا ، وزجت هذه الألوية في المعركة فورا على الحدود الغربية لكراسني اوكتيابر ، كما حضر هجوم معاكس على كورغان ماماييف بما تبقى من عناصر اللواء التابع لفرقة غوريشني

تدعمهم عناصر من فرقة باتيكو ، وأعطيت الأوامر بقيادة مدفعية الجيش بمواصلة الرمي طوال الليل بالمدافع والهاونات على المرتفع لأجل أن لا نسمح للعدو بتحصينه وتقويته .

ثم شن العدو صباح ٢٨ أيلول هجوماً عنيفاً بالمشاة والدبابات ، وكان طيرانه يهاجم بكثافة دون انقطاع مواضع قواتنا ، ومعابر النهر ومركز قيادة الجيش . ولم تكن الطائرات ترمي القنابل فقط ، بل كانت ترمي معها أيضا قطعاً من الحديد وقواعد العربات ، وأجزاء الجرارات والتجهيزات الزراعية وأعمدة وقطع من الصفيح المفرغ ، وكانت هذه الأشياء تحدث صفيراً ، وضجة خلال طيرانها فوق رؤوس محاربينا .

إثر ذلك أخذنا نشرح - بصدد هذا الوضع - للجنود بأن العدو باستخدامه هذه المعدات المعدنية ، فمعناه أنه لم يعد لديه من الوسائط بشكل عام ، يمكنه أن يستخدمها في المعركة . لقد حاول العدو برميه قطع الحديد أن يخلق ضغطاً نفسيا علينا ، ولكن كان مسعاه دون جدوى .

أعطبت خمس مراكب من المراكب الستة التي كانت تنقل إلينا الامدادات عبر الفولغا ولم يبق سوى واحدة ، ومن جهة أخذت ألسنة اللهيب المتصاعدة من مستودعات البترول ، التي كانت تحترق تصل إلى مخبأ المجلس العسكري المصفحة وقد اختنق رجال مركز القيادة والأركان من الحرارة والدخان . وإثر كل غارة يقوم بها العدو كان هناك عطب في مركز الراديو وخسارة في الأشخاص .

حتى طباختنا غلينكا نفسها جرحت وهي في مطبخها الموجود في أحد الخنادق الضخمة .

كنا نشعر رغم كل شيء أن العدو وصل إلى حد الانهاك ، وأصبحت هجماته غير منتظمة ، ولم يعد لديها ، أو بالأحرى لم تعد تتصف بطابع التنظيم والاستمرارية ، كان العدو يرمي في المعركة أفواجاً مدعومة بالدبابات في مختلف القطاعات ، دون تركيز كبير أو إصرار مما كان يعطينا الفرصة لصد الهجمات التي يشنها بالنيران الغزيرة ، الواحدة تلو الأخرى والقيام بالهجمات المعاكسة ، وقد طلبت من قائد الجيش الجوي ت . كريوكين مساعدتنا وقدم لنا هذا مساعدة قيمة وعمل ما في وسعه .

قام لواء من فرقة غوريشني في الوقت ، الذي كان فيه طيراننا يشن أكبر

غاراته ، مع فوجين من فرقة باتيوك بهجوم قوي وحازم على كورغان ماماييف واستطاعوا احتلال النقطة الجيومترية الواقعة فوق المرتفع ولكنهم لم يصلوا إلى النقطة نفسها حيث مستودعات المياه . ظلت النقطة أرضا محايدة ووضعتها المدفعية تحت نيرانها من كل الاتجاهات .

صمدنا في المجموع طيلة يوم ٢٨ أيلول في مراكزنا فلم يستطع العدو تطوير هجومه أو تقدمه ، ولم يكن بحالة يستطيع التغلب على مقاومتنا الصلبة والتي كان يظهرها رجال صمموا على الموت دون التراجع ، وفي ذلك اليوم فقد الفاشيون على الأقل ١٥٠٠ قتيل و ٣٠ دبابة محروقة وعلى منحدرات كورغان ماماييف ، كانت هناك حتى ٥٠٠ جثة معادية .

وخسائرنا كانت هي الأخرى مرتفعة حيث فقد الفيلق المدرع ٦٢٥ قتيل وجريح ، أما فرقة باتيوك ففقدت ٣٠٠ قتيل ولم يبق إلا القليل من محاربي فرقة كروشني ، ولكنهم مع ذلك كانوا يستطيعون متابعة القتال .

جعلت الخسائر التي أصابت وسائط عبورنا في الفولغا اجتياز القوات للنهر صعباً في المعابر . وكذلك نقل الذخيرة ، والعدد الكبير من الجرحى الذين لم يتمكنوا من العبور ليلاً ، ظلوا متجمعين على الضفة اليمنى للفولغا .

في نفس الوقت أفادت مصلحة الاستطلاع أن قوى جديدة من المشاة والدبابات العدوة تتقدم من قطاع غورديتشتشه ، وتتحرك نحو كراسني أوكتيابر . ولم يتأخر البدء بمعركة المصانع وضواحيها .

ولهذا قررنا الانتقال للدفاع الصلب باستخدام أقصى ما يمكن من سدود الهندسة . فأمر القتال رقم ١٧١ الذي أعطي في ٢٨ أيلول الساعة ١٩,٣٠ ذكر بوضوح « يتطلب من كافة قيادات الوحدات الإسراع بأقصى ما يمكن بتنفيذ أعمال الهندسة لدعم مواقعنا وعمل السدود في الخطوط الأولى بعمق ضد الدبابات والمشاة وكذلك في العمارات للدفاع ، حيث احتمال القتال في الشوارع .

وستستخدم كل الوسائط المتوفرة لاقامة الحواجز والسدود في المكان ، بما فيها تدمير البيوت وخطوط «الترامواي»، وطلب معونة المدنيين عن طريق المنظمات المحلية .

تنفيذ العمل بقسمه الأكبر من قبل الوحدات وبوسائطها الخاصة « اعملوا ليلاً ونهاراً لتنفيذ الأعمال المطلوبة ! »

أما الأعمال ذات الصبغة العاجلة ، وبخاصة الحواجز ضد الدبابات ، فيجب

إنهاؤها في التاسع والعشرين من أيلول ١٩٤٢ صباحاً بشكل تصبح معه المدينة والمراكز الصناعية قوية لا يمكن احتلالها ويجب حماية كل حاجز أو سد بقوة وبمختلف وسائط النيران .

اشرحوا للجميع بأن الجيش يحارب حالياً دفاعاً عن آخر مواقعه ، ولا توجد منطقة يمكن التراجع إليها لذلك من واجب كل جندي وضابط الدفاع عن خندقه وموقعه دون التراجع خطوة واحدة إلى الوراء ، ويجب تدمير العدو بأي ثمن .

ويجرنا الحديث إلى موضوع آخر فالآف من القنابل ومئات الآف من الألغام والقذائف رميت على المدينة ، وترمى عليها يومياً فيكف يمكن معرفة فيما إذا كانت هناك سلطة محلية أو سكان مدنيون .

كانت السلطات المحلية وآلاف السكان في أحياء المعامل يساعدون الجيش ٦٢ بكل قواهم مثلاً في مصنع (تراكتورني) ظلت طواقم الدبابات يصلحون آلياتهم المعطوبة حتى الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول بمساعدة العمال في مصنع باريكادي ، كما كان العمال بالتعاون مع المدافعين يصلحون المدافع .

شكل قسم من العمال مفارز للدفاع عن مصانعهم . كما قدمت لجنة الحزب في المدينة والأحياء المساعدة لتنظيمات الحزب في الجيش والضباط ، وأقامت نقاط استناد قوية في المدينة والضواحي العمالية . وكنا لا نتأخر مطلقاً عن اللقاء بسكرتارية لجنة الحزب في المدينة الرفاق ا . ابيكسين و ا . فدوفين ، والإتصال مع منظمات الحزب في الأحياء ومع السكان والعمال ومنظمات الحزب الأخرى ، فالشيوعيون في المدينة كانوا معنا ونحارب سوية من أجل الدفاع عن المدينة .

هل يمكن نسيان ف . ماليشيف ممثل لجنة قوميساري الشعب ، الذي أصبح فيما بعد نائب رئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفيتي (متوفي حالياً) ، وهو يقاتل في ستالينغراد ، وفي أكثر الأيام لوحده في مصنع تراكتورني وينفذ المهام الموكلة إليه من الحزب والحكومة .

نحن لا نكتب عن هؤلاء الأشخاص كأبطال فقط ، بل نتذكرهم باحترام لمآثرهم البطولية والتي كانوا - دون ضجة دعائية - يظهرونها كل يوم وهم أهل لمثل هذه الأعمال الكبيرة ، ولهذا التواضع الذي يتميز به السوفيتيون المخلصون حتى النهاية لشعبهم وحزبهم الشيوعي الغالي ، فالشيوعيون تحت قيادة

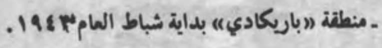


ـ ف تشويكوف /١٩٤٢/.

ـ ستالينغراد آب ١٩٤٢.







ـ منطقة «باريكادي» بداية شباط العام١٩٤٣.



ـ قناصو العربات لا يصيبون المدرعات فقط بل وطائرات العدو أيضاً.



- الجنود السوفييت وهم في حالة هجوم مضاد.



- الموجهون السوفييت التابعون للجيش ٦٢ متحدثون الى الجنود.

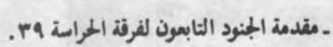


- ستالينغراد في شهر أكتوبر للعام ١٩٤٢ «ف. تشويكوف ك. غوروف» في حالة رصد ومراقبة.



- ستالينغراد في مرتفع ماما يف.

ـ ميجور- جنرال «ن. كريلوف» رئيس هيئة أركان
جيش ٦٢/ (في شهر أكتوبر للعام ١٩٤٢).



ـ مقدمة الجنود التابعون لفرقة الحراسة ٣٩.



ـ الجنرال «أرودميتسوف» أمر «قائد» الفرقة
١٣/ للحراسة.



ـ وفد من أوزبكستان في زيارة لجنود الجيش
٦٢/ المدافع عن ستالينغراد.



ـ ستالينغراد العام ١٩٤٢. ومشهد للجنرالات في موقع قيادة احدى الوحدات.



ـ الميجور جنرال ڤاسيليڤ
رئيس دائرة الشؤون السياسية في الجيش لفرقة
٦٢/

- فرقة هجومية أثناء إحدى المعارك في شارع من شوارع ستالينغراد.

- الجنود يتناولون وجبة الحساء.





ـ اجتماع منظمة الحزب قبل المعركة.



ـ صف طويل من الأسرى مصطفون على طول نهر الفولفا «ستالينغراد» ١٩٤٣.



هتلر يصدر اوامره الى فون باولوس (في الوسط) بوجوب احتلال ستالينغراد قبل حلول الشتاء . ويرى في اقصى اليسار الجنرال هوزينجو وفي اقصى اليمين الجنرال فون بوك



- مجموعة من عداد الـ ٣٣ بطلاً الذين صدوا هجوم ٧٠ دبابة فاشية كانت تقترب من ستالينغراد العام ١٩٤٢.



- آمر فرقة الحرس «لاكوف بافلوف».

- ستالينغراد في العام ١٩٤٣ فريق من المدافعين.

- الميجور جنرال «س. غوروكوف» قائد الو
١٢٤/ .







- منزل بافلوف.

- هكذا ينقلون المؤون والمعدات عبر نهر الفولفا.

- في موقع قيادة الجيش «ك. غوروف»

- فريق من المدافعين خلال معركة المصنع «باريكادي»



- وهكذا ينقلون الجرحى الى المستشفى.



- وحدة الاتصال «سلاح الاشارة» ستالينغراد العام ١٩٤٢.



- احدى «بطاريات الجيش» أثناء العمل في منطقة التزود بالبترول.

في احدى شوارع المدينة



جنود القناصة السوفييت





ـ الفاشيون يستسلمون رافعين أياديهم في الهواء وهذا ماحدث مراراً وتكراراً .

ـ الجنرال «غوريف» .



ـ احدى فرق المدفعية أثناء القتال في قطاع «كورغان ماماييف» .





ـ في ورشات معمل « كراسني أوكتيابر» .



ـ فرقة من فرق الهجوم بالمدافع أثناء العمل والقتال .



ـ المقاتلون في أطراف المدينة .

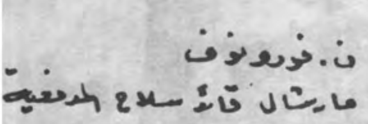


أ. فاسيليفسكي
مارشال الاتحاد السوفياتي



ر. روكوسوفسكي
مارشال الاتحاد السوفييتي







أ. ايرمينكو
مارشال الاتحاد السوفييتي



ك. جوكوف
مارشال الاتحاد السوفييتي



ـ الخط الاول للدفاع لفرقة ٦٢ وللجيش.



- ستالينغراد ٤ شباط ١٩٤٣.



المارشال فون بولوس الالماني
وقد استسلم مع ٩٠ الف
من جنوده

المنظمات والمنظمات السياسية للحزب هم روح الدفاع وقلبه .

عليَّ أيضاً أن أتكلم عن العمل الجماعي للجنة الحزب في الجيش . وهي قبل كل شيء جماعية الحزب وجماعية المحاربين ، التي كانت تعمل حسب المبدأ - الواحد من أجل الكل والكل من أجل الواحد - من أجل النصر على العدو والثأر لوطننا ، كنا موحدين دائماً ونعمل سوية ، دون أي اختلاف فيما بيننا .

جمعنا الهدف المشترك والشعور بزمالة الحزب والصداقة التي كانت توحدنا في كل أعمالنا ، وهنا لا أستطيع إلا أن أنوه بقادة المنظمات السياسية والشيوعية أمثال مفوض اللواء فاسيلييف، العقداء فافيلوف . تشيرنيتشيف وفلاسنكو ، والمقدمين كاكتشنكو وامتشارنكو وآخرين ، وذلك لاخلاصهم لوطنهم وأهليتهم وقيادتهم ، وهم الذين علموا الجماهير القيام بالمآثر البطولية ، وأحرزوا هذا النصر الذي بدا للجميع غير ممكن . كانوا يستوعبون دائماً وبسرعة طرق القتال الجديدة ونماذجها في معارك الشوارع وتجارب آلاف الرماة المهرة والقيام بالأعمال الهندسية الدفاعية .... الخ .

كان المحاربون يرون الضباط السياسيين والموجهين الحزبيين دائماً بجانبهم ، وكل منهم يعرف أن المجلس العسكري للجيش موجود بينهم على الطرف الأيمن من الفولغا . رفع العمل السياسي والحزب معنويات المحاربين إلى أقصاها في المدينة وطور القدرات القتالية للفصائل .

ومع تطور القتال وبالرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدتها منظمات الحزب والكومسمول ازدادت هذه قوة وتعودت على القتال ، عشرات ومئات من الجنود ، كانوا وهم في ساحة القتال يتقدمون بطلبات الانتماء للحزب ، وكل منهم يريد أن يصبح شيوعياً أو كومسمولياً ، ويقاتل حتى الموت .

تكلمت فيما مضى عن الرقيب ياكوب بافلوف ، الذي ظل هو وجماعة من الرجال أكثر من خمسين يوماً دون نوم وراحة ، متمسكين في بيت يقع في وسط المدينة ، وأصبح له أهمية كبرى في قطاع دفاع فرقة روديمتسيف .

قذف الهتلريون على هذا البيت بوابل غزير من القذائف والألغام والقنابل دون أن يتمكنوا من القضاء على صلابة دفاع هذه الحامية البطلة . وظل بيت بافلوف دون مساس ، يدافع عنه مواطنون سوفيتيون بسطاء ، أبناء أمناء لعدد من شعوب بلادنا منهم الروس - بافلوف (حالياً بطل الاتحاد السوفيتي) والكسندروف وأفانسييف ، الأوكرانيان - سابغيدا وغلوشتشنكو . الجورجيان -

موسيا شيفيلي وستباتشيلي . الأوزبيكي - تورغونوف . من كازاخستان مورزاييف والأبخاري -سوكيا، والطاجيكي -توردييف، والتتري- رامازانوف. و اخرون من البواسل .

هذا مثال لتضحية السوفيتيين التي ليس لها حدود من أجل وطنهم ، فبين مصانع كراسني أوكتيابر وباريكادي ، يمتد منخفض للغرب من الفولغا ، وخلال سنين طويلة كانت تلقى فيه بقايا الحديد . واختار الهتلريون هذا المنخفض كنقطة لخرق دفاعنا وقد تلقى فصيل الرشاشات بقيادة زايتسيف مهمة الدفاع عن الموقع ، وعدم السماح للعدو من الوصول إلى الفولغا .

كان من الصعب في هذا المكان وخلال النهار رفع الرأس حيث جعل الهتلريون كل حجرة فيه تحت رماياتهم ، وكل خندق وكل متر من الأرض ، وقام زايتسيف بتقديم فصيلته ليلاً إلى المكان دون ضجة ، لكي لا يلفت أنظار العدو لوجوده ، وثبت رشاشاته في مواضع الرمي ، بشكل يجعل كل الأرض التي أمامه معرضة لرماياتهم الجانبية والسامة .

فتح العدو في الصباح نيراناً غزيرة من مدفعيته وهاوناته على المنخفض ، ثم اندفع بالهجوم . فاستقبلتهم رشاشاتنا برمايات محكمة ، ووصلت المياه المبردة لقميص الرشاش إلى درجة الغليان بسبب إطلاق النار دون توقف . توقف أحد الرشاشات لحظة لأن الرامي أصيب وخرج من المعركة . ولكن حل محله سكرتير الحزب في الفصيلة الجندي ايميليانوف ، كما استلم قائد الفصيلة رشاشاً آخراً وخلال ذلك كان الهتلريون يتقدمون إلى الأمام ، جرح الملازم أول زايتسيف ، قائد الفصيلة جرحاً قوياً ، ووقع على رشاشه ، فاستلم الرقيب كاراسيف القيادة وتتابعت المعركة حتى الليل ، ولم يستطع الفاشيون اختراق الدفاع أو تحطيم إرادة رماة الرشاشات البواسل . كلفت هذه المبادرة للوصول إلى الفولغا العدو غالياً . وظل أكثر من أربعمائة جندي ممددين في المنخفض .

وفي حي المصانع حقق الكومسمولي ميخائيل بانيكافا . وهو جندي من فوج مشاة البحرية عملاً ضخماً يفتخر به وها هو :

« اندفعت دبابات العدو في مواضع قتال الفوج ، واتجهت بعض المدرعات نحو الخندق ، الذي كان فيه البحار ميخائيل بانيكافا ، وهي تطلق النار من مدافعها ورشاشاتها » .

كان صوت صرير السلاسل مميزاً دائماً من بين أصوات الرمايات وانفجار

القذائف وحتى من داخل الخندق . وفي اللحظة التي إقتربت فيها الدبابات استنفذ الجندي ميخائيل كل قنابله ، ولم يبق لديهِ سوى زجاجتين حارقتين ، لذلك خرج من الخندق ، ورمى إحدى الزجاجات باتجاه الدبابة القريبة ، وفي نفس اللحظة التي كانت فيها الزجاجة فوق رأسه ليطلقها انفجرت بفعل إحدى الطلقات عليه وأثر ذلك تحول الجندي إلى شعلة حيقيقية تحترق . ولكن الألم المريع لم يفقده وعيه فتناول الزجاجة الثانية وهو يشتعل واندفع نحو إحدى الدبابات العدوة التي أصبحت قريبة منه جداً . كان الجميع يشاهدون الجندي الذي أصبح كحاجز متحرك من اللهب يخرج من الخندق مندفعاً نحو تلك الدبابة ، وراكض حتى وصلها ورمى الزجاجة في شبكة ثقوب التمويه للمحرك . وبعد لحظة خرجت حزمة من اللهب والدخان ، وغاب البطل والآلية التي أخذت تحترق عن النظر .

عرف كل محاربي الجيش ٦٢ بمأثرة ميخائيل بانيكافا البطولية .

نقش اسم هذا البطل بعد الحرب على الحجارة التي تحيط بالنصب التذكاري للأبطال ، الذي أقيم على كورغان مامابيف .

كما قدم بالتنكو ، قائد أحد المدافع المضادة للدبابات البرهان على صلابة رائعة في معارك الشوارع ، كان مدفعه متربصاً في خرائب بيت لم يبق منه إلا لوحة كتب عليها «شارع فوزنايا ١٧٦ ا» . وكان عدد سدنة المدفع ثلاثة هو واثنان من السدنة ، أما بقية الأشخاص فقد خرجوا من المعركة ورغم أن بولتنكو كان ينتظر المدد إلا أنه كان مستعداً للقتال لوحده في مختلف الحالات التي يمكن أن تعترضه كرئيس ومسدد وملقم .

ظهرت دبابة استطلاع عدوة خلف حافة سكة الحديد ، ومن أول طلقة أشعل بولتنكو فيها النار أما الهتلريون ، الذين خرجوا من الدبابة فقد أبيدوا من قبل بقية الرفاق بطلقات المسدسات ، ولكن بعد نصف ساعة ظهرت ثمانية دبابات واندفعت من وراء حافة سكة الحديد ، واتجهت مباشرة نحو مدفع بولتنكو ولكنها كانت ترمي من الجهة الأخرى ، وكان سدنة الدبابات الفاشيون لا يشكون بوجود مدفع في أنقاض البيت . وقد دمر بولتنكو دبابة الرأس بعد أن أطلق عليها ثلاث طلقات ثم اقتربت دبابة أخرى لم تلبث هي أيضاً أن توقفت في مكانها بعد إصابتها ببعض الطلقات ، ولكن بولتنكو رأى أن برجها أخذ يدور باتجاهه ببطء . وكان لدى الرامي السوفيتي الوقت ليطلق طلقة ، خرقت برج الدبابة . أما بقية الدبابات فقد اضطرت للتراجع والاختفاء بسرعة وراء حافة سكة الحديد .

وبعد أقل من عشر دقائق ، خرجت خمس عشرة دبابة من نفس الجهة واجتازت سكة الحديد والمشاة يركضون وراءها .

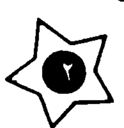
اقترح الملقم على قائده سحب المدفع إلى المنخفض قائلاً :

ـ لا نصل معهم إلى نتيجة أيها القائد فهم أقوياء ومن الأفضل التراجع إلى الوراء .

ـ لا يوجد أمر بهذا الخصوص ، قطع بولتنكو الحديث بجفاء .

كانت هناك عشر دبابات أي عشرة مدافع وعشرة رشاشات . ولم يكن بحوزة المدفعيين سوى مدفع ومسدس . وكان الاشتباك الأول مع الدبابات الفاشية بالنسبة لبولتنكو غير متكافىء ولكن كان المحاربون السوفييت يتمتعون بميزة المباغتة ، ولكن هذه المرة ، حتى هذه الميزة لم تكن بحوزتهم فقد اكتشف العدو مركز رميهم .

كانت الرصاصات تضرب واقية المدفع ولم يكن لدى بولتنكو العلاج ، وبمدفعه المموه والمتربص في خرائب البيت اشتبك بالقتال مع عشر دبابات ، وخرج منتصراً فقد أحرق المدفع دبابتين وأجبر الدبابات الباقية على الفرار .



حول العدو بعد يوم ٢٣ أيلول جهده الرئيسي إلى القسم الأوسط من المدينة ، وعلى ضفتي نهر تساريستا ، وكان يسعى لتطوير هجومه عن طريق المحطة المركزية باتجاه المعبر المركزي للفولغا ، بعد معارك طاحنة سقطت المحطة في ١٤ أيلول ، وسقط الرصيف في ٢٦ أيلول ، وباحتلال العدو للرصيف استطاع أن يقطع الجيش وسط مدينة ستالينغراد إلى قسمين ، وكانت قوة الجيش الرئيسية موجودة في شمال تساريستا .

عزلت الألوية ٩٢ و ٤٢ مشاة واللواء ٢٧٢ من الفرقة العاشرة عن قوة الجيش الرئيسية في القسم الجنوبي من المدينة ، حيث خاضت معارك حامية ضد قوى عدوة متفوقة بالعدد ، وكبدتها خسائر فادحة ففي يوم ٢٥ أيلول خسر العدو في هذا القطاع ٥٠٠ قتيل وعدد من الدبابات .

في نفس الوقت قام العدو بهجوم بفرقتي مشاة و ١٥٠ دبابة إلى الشمال من كورغان ماماييف على مدينة كراسني أوكتيابر ، واجهناه بهجوم معاكس

بوحدات الفرق ٩٥ ، ٢٨٤ مشاة واللواء ١٣٧ المدرع .

كان اعتماد العدو في تغيير محور جهده الرئيسي في الشمال من كورغان ماماييف نحو مدينة مصنع كراسني أوكتيابر على المفاجأة والحصول على نصر سريع في هذا الاتجاه ، ولكن استطلاعنا اكتشف في الوقت المناسب تجمعات العدو الكثيفة وتحضيراتها للهجوم . وكان لدينا الوقت لتعزيز ذلك الاتجاه بالوحدات : فرقة المشاة ١١٢ والوحدات التي وصلت حديثاً من الطرف الأيسر والعائدة لفرقة ١٩٣ (سميخوتوفروف). فقد وضعت في النسق الثاني من الدفاع على طول منخفض فاشينوفويا إلى الحدود الغربية من مدينة كراسني أوكتيابر .

جرت في ٢٦ و ٢٧ أيلول معارك طاحنة على طول خط الجبهة الدفاعية للجيش ، ومن الصعب إحصاء المرات التي تبادلت فيها الأيدي الشارع أو الحي الواحد . كانت المعارك التي وقعت في شمال كورغان ماماييف عنيفة بخاصة ، وكذلك باتجاه كراسني أوكتيابر وخلال كل الوقت كان طيران العدو يحلق فوق ساحة المعركة بمجموعات من ٣٠ ـ ٥٠ طائرة ، وكانت قنابلها تقصف قواتنا ، وفي بعض الأحيان تقصف المهاجمين الهتلريين أنفسهم ، وفي تلك الأيام اشتبكت تقريباً كل قوى الجيش الثاني والستين في القتال على طول الجبهة .

تجاوزت بطولة محاربينا كل ما هو ممكن فكلمة الأمر « لا توجد لنا أرض وراء الفولغا » يعرفها كل محارب في ستالينغراد من أبسط جندي إلى الجنرال . رجال الدبابات . المشاة . المدفعيين . رجال الهندسة كلهم كانوا يعرفون أنه من غير الممكن التخلي عن متر واحد من أرض ستالينغراد ويجب التمسك بها حتى الموت دون التراجع ولا خطوة واحدة . ولم يدخل خلال المعركة في اللعبة الطيران والرشاشات وقاذفات الألغام فقط ، ولكن دخلت الحراب والقنابل اليدوية ، وكنا نسعى للقتال القريب حيث ضاقت المسافة بين الخصمين إلى بضع عشرات من الأمتار .

حدث في بعض الحالات وعند حدوث الغارات العنيفة التي كانت تقوم بها طائرات الانقضاض أن يلجأ الجنود الألمان والسوفييت إلى نفس الأقبية ويبقون جاثمين حتى إنتهاء الغارة ، ثم يعود العراك في الأقبية .

وكنتيجة لهذه المعارك التي وقعت في شمال كورغان ماماييف ومدينة كراسني أوكتيابر لم يستطع العدو رغم خسائره الفادحة أن يتقدم سوى بين ١ـ١,٥ كيلومتر ، ولم يستطع النفوذ باتجاه الفولغا ولا التقدم إلى الشرق من

منخفض فيشنينوفايا ومن كورغان ماماييف . لم يكن من المستطاع دائماً إعطائي أرقام عن خسائر العدو . ففي نار المعركة التي لم تتوقف من الصعب الحساب ، ولم يكن دائماً دقيقاً .

نحن نعرف بالمقارنة مع تموز ، أن هتلر ضاعف في أيلول حجم قواته وضاعف عدة مرات حجم وسائطه وعتاده ، وكل ذلك ذاب كذوبان الشمع ولم تكن هناك نتيجة أخرى ، سوى تقدم بسيط نحو الغرب باتجاه الفولغا ، كان التقدم خلال أربع وعشرين ساعة على المحور الرئيسي ، وكل القوى المتجهة نحو ستالينغراد يقاس بعشرة أو مائة متر . لقد تكبدنا أيضاً خسائر فادحة ، ولكن خسائر العدو كانت أكثر من خسائرنا بعدة مرات ، دون أن يتمكن من تطوير نجاحاته في العمق والعرض .

استطاع العدو بين ١٣ ـ ٢٨ أن يصل إلى الفولغا ، على جبهة ستة كيلومترات من محطة الإنزال المركزية ، حتى منخفض كوبوروسنايا . وأصبح بهذا سيد قطعة من الأرض مساحتها ٢٥ ـ ٣٠ كيلومتراً مربعاً أي كيلومترين مربعين في كل أربع وعشرين ساعة ، ولكنه دفع ثمن كل كيلومتر مربع ألف قتيل وجريح على أقل تقدير .

دارت المعارك على الجناح الأيمن في قطاع اورلوفكا اعتباراً من ٢٨ أيلول دون كثافة ملحوظة ، فتواتر هجمات العدو وهجماتنا ، كانت تجري بأعداد محدودة ، ولم يكن لها أية نتيجة تذكر على مجموع الجبهة والتي كانت تنتقل من ١٠٠ ـ ٢٠٠ م على أكثر تقدير .

استطاعت قوات العدو التي تجاوزت هذا الجناح ، وبعد أن صدت الهجمات ، التي قامت بها جبهة ستالينغراد ، أن تعيد تنظيم ترتيبها القتالي ، وتستكمل تعدادها في حين أن قواتنا ، دون النظر إلى الهجمات الجزئية المعاكسة ، لم يعد بإمكانها القيام بعمليات نشطة ، لأنه لم يعد لديها القوى الضرورية لهذا العمل .

لم يكن لواء المشاة ١١٥ الذي يعمل في هذا القطاع ومعه الوحدات الأخرى ، يعد سوى ٢٥٠٠ محارب بحالة استعداد للقتال ، خاصة أن هذه القوى تدافع عن مواضع مهمة من الناحية التكتيكية والتي كنا ندعوها قلعة (اورولوفكا) . ولدى اللواء مهمة الدفاع عن هذه القلعة بكل ثمن . وكانت هذه القوات معلقة كسيف «ديموقليس» فوق التجمع الرئيسي للعدو ، المتمركز في قطاع

غورودينتشه . وفي حالة نجاح القوات المجاورة ، (أي قوات جبهة ستالينغراد من الشمال) يمكن أن تلعب قلعة أورلوفكا دوراً كبيراً ، حتى ولو أن وحدة فقط تقوم بالهجوم من الشمال ، وتتمكن من إحداث فرجة بعرض ١٠ ـ ١٢ كم وتحقق الإتصال مع قلعة اورلوفكا والوحدات المدافعة عنها ، فالقوات العدوة المهمة التي نفذت على الفولغا بالقرب من لاتشافكا ، ستجد نفسها مقطوعة والجناح الأيسر للمجموعة الرئيسية يصبح محاصراً .

ولكن فون باولوس كان يتوقع مثل هذا الخطر لذلك كان يحضر لهجوم على اورلوفكا . ولكي يدمر قواتنا في ذلك القطاع ، قذف بالهجوم دفعة واحدة في المعركة ، بعدة أفواج وألوية من الفرقة ١٦ المدرعة والفرقة ٦٠ الآلية وفرق المشاة ٣٨٩ و ١١٠ ، وفي نفس الوقت أخذ الهتلريون يهاجمون بشدة وحدات فرقة المشاة ١١٢ (ايرمولكين) ويتجهون نحو مدينة باريكادي .

قاتلت الوحدات التي هوجمت بضراوة لا مثيل لها ، وتكبد العدو خسائر فادحة . ولكن صفوفه كانت تعوض بشكل دائم لوجود الاحتياط .

في الساعة ١٥ نفذت خمسون دبابة يرافقها رماة المسدسات الرشاشة على غورديتشتشه . وكنت في مواضع قتال الفوج الثاني من لواء المشاة ١١٥ اندريوسنكو ، واقتربت من اورلوفكا من الجنوب . وفي نفس الوقت استطاعت المدرعات والمشاة العدوة التي كانت تقوم بهجومها نحو اورلوفكا من الشمال ، أن تسحق الفوج الأول من نفس اللواء . وقد تكبد هذا اللواء خسائر فادحة وأخذ يتراجع نحو الحد الشمالي لأورلوفكا ، وبهذا أصبحت القوات التي تقاتل في الغرب من أورلوفكا مهددة بالتطويق .

أما الهجمات الأخرى التي قام بها العدو في ٢٩ أيلول على القطاعات الاخرى من الجبهة فكانت هي الاخرى ضارية جداً ، وكلفتنا آرواحاً كثيرة .

اشتبكت وحدات الفرقة ١١٢ (أيرمولكين) مع العدو بمعارك متواصلة من الدون حتى الفولغا ، واضطرت للتراجع على خط مصنع (سيليكات) ، ولم يبق في كل لواء من هذه الفرقة أكثر من مائة شخص .

وفي قطاع فرقة سميخوتغوروف التي كانت تدافع عن الحدود الغربية لمدينة كراسني أوكتيابر ، استطاع العدو أن يخرق ترتيبنا القتالي . وخلال ذلك اليوم قتل ثلاثة قادة ألوية ، وثلاثة قواد أفواج من هذه الفرقة أو جرحوا .

فقد الفيلق المدرع قدرته القتالية بعد القتال المرير . ولم يبق لديه سوى ١٧

دبابة مصابة و ١٥٠ محارب ، وزعوا على وحدات المشاة ونقلت أركانه إلى الضفة اليسرى للفولغا لتشكيل وحدات جديدة .

كانت المعارك متواصلة دون انقطاع في كورغان ماماييف ، وكنا نجيب على هجمات الألمان بهجوم معاكس ، ونقاتل عن كل متر مربع من الأرض .

قام الهتلريون في ٣٠ أيلول بهجوم في الساعة ١٠٣ ووجهوا جهدهم الرئيسي من جديد على وحدات لواء المشاة ١١٥ الذي كان يدافع عن اورلوفكا ، وبما أن هجوم ألعدو شن في هذه المرة ، بعد تمهيد من المدفعية والطيران دام ساعتين ، فقد تكبدت الأفواج ١ و ٢ من اللواء خسائر فادحة ، ولكنهم صمدوا في الأقسام الشمالية والجنوبية من المدينة . وكادت كماشات العدو ، أن تغلق في الغرب من اورلوفكا ، وفتح له الطريق على مصنع تراكتورني وسبارتانوفكا من منخفض أورلوفكا .

اكتشفت جماعة استطلاعنا في نفس اليوم تجمعاً قوياً للمشاة والمدرعات العدوة في المشارف القريبة من بلدة كراسني أوكتيابر . كما وصلت إلى حدود المدينة الجنوبية وحدات عدوة من الفرقة المدرعة ١٤ والفرقة ٩٤ البرية ، بعد أن استكملت هاتان الفرقتان ملاكهما ، وعوضتا عن الخسائر الفادحة التي لحقت بهما . وكانت غاية العدو واضحة وهي الاستعداد للقيام بهجوم جديد على مصنعي تراكتورني - وباريكادي .

سألتني قيادة الجبهة عن التدابير ، التي اتخذت للحفاظ على قلعة اورلوفكا وبماذا يمكنني أن أعزز الوحدات التي تقاتل هناك ؟

بماذا أجيب ؟ إن أفضل مساعدة تقدم لهذه القلعة ، هي دون شك ضربة موجهة من الشمال ، تقوم بها قوى جبهة ستالينغراد على اورلوفكا ، وعلى مؤخرات الفرقة المدرعة العدوة والفرقة الميكانيكية ٦٠ أما أنا فلا يوجد لدي مجالاً إلا أن أطلق طلقة واحدة .

لم يكن في الجيش أي احتياط ، كما لا يمكنني أن أقدم أية مساعدة حقيقية لقلعة اورلوفكا خوفاً من هجوم عنيف ومؤكد من قبل العدو على مصانع تراكتورني وباريكادي . ورغم هذه الظروف قررنا القيام بهجوم معاكس قصير على بلدة باريكادي بالفوجين الأول والثاني من لواء المشاة ١١٥ بعد تعزيزهما بفوج من قانصات الدبابات ، وبسريتين من لواء المشاة ٢٤ .

ابتدأت فرقة مشاة الحرس ٣٩ بالعبور في ليل الأول من تشرين الأول من الضفة

اليسرى للفولغا . ولم تكن بعد قد استلمت ملاكها إلا بمقدار النصف وكانت السرايا تعد ٤٠ ـ ٥٠ رجلاً فقط .

تعود هذه الفرقة لجيش الحرس الأول ، وقد اشتركت في أغلب المعارك التي دارت بين ١٨ ـ ٢٠ أيلول شمال ستالينغراد وتكبدت خسائر فادحة ، ولكن كل سراياها وفصائلها كانت مؤهلة للقتال . فهي تشكل بغالبيتها من المظليين الشيوعيين والكومسموليين ، وكان على رأسها الجنرال غوريبف الذي كان يتقد حماسة . وهو في القتال منذ بداية الحرب ، وبدون شك قد ربى معاونيه على نفس الشعور ، وأني أتذكر أول لقاء لي معه . اقتنعت بسرعة بأني لم أكن مخطئا في حكمي عليه . دافعت فرقة مشاة الحرس ٣٩ مدة طويلة عن مصنع كراسني أوكتيابر . ولا يعرف جنود هذه الفرقة معنى للتراجع ،.وقائدها نفسه غوريبف ، لم يترك مركز قيادته أو مرصده مطلقا ، حتى في الوقت الذي كان فيه الرماة الأعداء يطلقون على باب مخبئه من مسدساتهم الرشاشة ، ولم يكن تصرفه هذا لمرة واحدة فقط ، بل تكرر ذلك كل الوقت ، واقتدى به قادة الألوية وكانوا يتصرفون بعناد وبسالة في القتال .

كما كان الشيوعيون والكومسموليون في هذه الفرقة دائما في مراكزهم أمام الجميع ، وفي أشد الأماكن خطورة . وكان يمضي القوميسار ف . تشرتشيف (فيما بعد مساعد قائد فرقة) جل وقته في الخطوط الأولى ، ينظم عمل الجهاز السياسي في الوحدات . وأني أتذكر جرحه في فخذه . ورغم ذلك لم يترك ساحة القتال ، وقد رأيته أيضاً والعكازة في يده بالقرب من إحدى سرايا المدفعية ، التي كانت ترمي على مسافة قريبة ، وهو مريض جداً .

لم تكلل الفرقة ٣٩ بالفخار في معارك الفولغا فقط ، بل ظلت على نشاطها حتى نهاية الحرب وهزيمة الألمان . أنهت هذه الفرقة مسيرتها في برلين ، وعلمها ، علم الحرس ، أصبح موشى بخمس ميداليات نالتها في ساحات القتال .

تقرر في اليوم ، الذي وصلت فيه هذه الفرقة للمدينة بأن تنتشر الألوية التابعة لها بمهمة الاستعداد للقيام بهجوم معاكس على بلدة باريكادي . ولكن خلال المعارك التي دارت في اليوم الأول من تشرين ، كان عليَّ أن أغير قراري ، لأن العدو استطاع في قطاع فرقة سميخوتوفوروف بنجاح فتح ثغرة عميقة في مواقعنا ، وهدد باحتلال مصنع كراسني أوكتيابر . في ذلك اليوم وضعت فرقة مشاة الحرس ٣٩ في النسق الثاني ، خلف فرقة سميخوتوفوروف على طول

الخط الحديدي غرب المصنع ، وقد أعطي الأمر لها بالتمركز في أقسام المصنع بشكل تجعل منه نقطة استناد قوية .

وصلت ألوية فرقة المشاة ٣٠٨ بقيادة العقيد غورتييف إلى الضفة الشرقية للفولغا ، وأخذت تستعد لاجتياز النهر والالتحاق بنا . وأوكلت لها مهمة القيام بالهجوم المعاكس على مدينة باريكادي .

قاتلت هذه الفرقة في المدينة مدة أقل من غيرها . ولكن بالنسبة لعدد الهجمات العدوة التي صدتها ، أو بالنسبة لصلابتها ، فلم تترك شيئاً لغيرها من وحدات الجيش ٦٢ فقد كانت تقاتل على محور الجهد الرئيسي للعدو ، خلال أشد المعارك التي دارت في قطاع المصانع ، وقد صدت أكثر من مائة هجوم قام به الغزاة الهائجون .

وقد أظهر العقيد غورتييف قائد هذه الفرقة وقادة الألوية ومنظمات الحزب وكل المحاربين السيبيريين ، الذين كانوا يشكلون الغالبية في الفرقة ، أنهم مثال الشجاعة والبسالة وأنهم استوعبوا مهمتهم ونفذوها باخلاص ، وهي عدم التراجع خطوة واحدة إلى الوراء .

ونستطيع أن نقول بأن البطولة الجماعية التي أظهرها جنود الفرقة ٣٠٨ توجت بالبسالة التي لا تجارى لقائدها العقيد غورتييف الذي غالباً ما كان جنوده يرونه في الهجمات المعاكسة أو في الخطوط الأولى فقد كان هذا الرجل الرشيق الطويل القامة ، لا يحب أن ينحني ولا يطأطىء رأسه أمام القنابل أو القذائف العدوة . وقد أصبح فيما بعد جنرالا ، لكنه سقط شهيداً في عام ١٩٤٣ ، في قطاع أوريل حيث نصب له تمثال هناك .

● شرع الغزاة في الأول من تشرين أول بشن عدة هجمات على طول جبهة الجيش في اورلوفكا . وأطبق بكماشاته ، التي أغلقت على الفوج الثالث من لواء المشاة ١١٥ الذي حوصر ، مع بعض العناصر من الوحدات الأخرى .

أما في الشرق من اورلوفكا ، فبعد أن أكملت الأفواج ١ و ٢ من اللواء نفسه وعززت بسريتين وصلتا حديثاً مع لواء مدفعية مضادة للدبابات ، تمركزت هذه القوى وجبهتها نحو الغرب ، وكان عليها أن تتقدم باتجاه اورلوفكا للإتصال بالوحدات المعزولة .

في نفس اليوم دفع العدو أمامه من جديد قوات سميخوتوروف ، وفي قطاع فرقة باتيوك وروديمتسيف . عادت القوات الألمانية للهجوم على طول المنخفض

بامل النفوذ إلى الفولغا ، وقطع الجيش مرة ثانية ، ولكنها لم تفلح أبدا . وترك العدو ٥٠٠ جثة من جنوده المقتولين في المنخفض .

أدى طيران العدو برماياته القاتلة ونيران المدفعية التي كانت تصب ليلاً ونهارا مدمرة الزاورق والمراكب في الفولغا إلى تأخير عبور وحدات فرقة غورتييف حتى ٢ تشرين أول ، حيث استطاع لواءان من هذه الفرقة النزول إلى الضفة اليمنى .

أمرت القيادة دون انتظار منذ وصول كل قوات الفرقة ، الفوجين ١ و ٢ من اللواء ١١٥ بمتابعة الهجوم المعاكس بهدف إقامة إتصال مع الفوج الثالث ، المحصور وبقية العناصر المعزولة وقد تلقت وحدات فرقة غورتييف التي نزلت إلى الضفة اليمنى ، بعد عبورها الفولغا مهمة القيام بهجوم معاكس قصير على بلدة باريكادي وإخراج العدو منها والتمسك بها .

كما أعطي الأمر لوحدات فرقة سميخوتوفروف بتنظيف القسم الغربي من بلدة كراسني أوكتيابر من العدو واحتلال المرتفع ١٠٧.٥ ، وكان على مجموعة مدفعية الجيش ، دعم الهجوم المعاكس على بلدة باريكادي .

كانت المعارك تتابع دون توقف في هذا الاتجاه خلال عدة أيام بلياليها إلا من بعض التوقفات القصيرة في بعض القطاعات .

قاتل بين ٢ إلى ٧ تشرين أول ٥٠٠ عنصر من القوات المحاصرة التابعة للواء المشاة ضد قوات عدوة متفوقة . وفي ليل ٨ تشرين الأول ، وبعد أن نفذت الذخيرة بكاملها قامت هذه القوات بخرق الحصار بغارة ليلية ناجحة ، وصلت للحدود الشمالية لبلدة مصنع تراكتورني وراء نهر ماركايا متشيتكا ، وظل ٢٠٠ منهم على قيد الحياة وخسروا ٣٠٠ من قواتهم .

روى الناجون من التطويق كيف عزلوا عن قوة الجيش الرئيسية دون طعام أو ماء ، وبكمية محدودة من الذخيرة ، وصمدوا لمدة ستة أيام من القتال ، ولكن موقفهم تدهور بسبب فشل الهجوم المعاكس ، الذي قام به الفوجان الأول والثاني من اللواء ، في ٢ تشرين أول ونجح العدو بهجومه من الشمال في تطويق الفوجين وقسم من لواء المشاة ٢٨٢ من فرقة سارايف إلى الغرب من اورلوفكا . وبعد يومين (٤ و ٥ تشرين أول) من الصراع داخل نطاق التطويق وبأمر من قائد اللواء اندريوسنكو ، نجحت هذه القوات بعد غارة ليلية موفقة من الانسحاب من التطويق يوم ٦ تشرين أول صباحا . ونفذت في الجزء الشمالي

من مصنع تراكتورني .

كانت خطة فون باولوس إزالة قلعة أورلوفكا بضربة واحدة . وكلف ذلك العدو غالياً . حيث استطاعت قوات اندريوسنكو رغم ضعفها أن تصمد لمدة ستة أيام في قطاع اورلوفكا ، وتثبت قسماً من الفرقة الآلية ٦٠ وحوالي ١٠٠ دبابة من الفرقة المدرعة ١٦ وكذلك الألوية العدوة التابعة للفرق ٣٨٩ و ١٠٠ مدرعة ، وارتفعت خسائر العدو هنا بين ١ ـ ٧ تشرين أول إلى أكثر من خمسة أفواج مشاة مع ١٧ دبابة و ٢١ رشاش و ٨ هاونات .

استنتج المجلس العسكري من هذا الموقف أن الضربة القوية القادمة للعدو ستوجه إلى مصانع تراكتورني ، باريكادي ، وكراسني أوكتيابر ، حيث ركز العدو في هذا الاتجاه قوى هامة قدمت من المناطق المحيطة بستالينغراد . وقد أخذنا استعداداتنا لصد الجهد الرئيسي للعدو في القطاع المهدد .

كانت المسافة بين منخفض فاشينوفايا ، حيث تمر خطوطنا الأولى والفولغا ، لا تتجاوز ٤ـ٥ كم فقط ، ومع ذلك صممنا على تنظيم دفاع عميق وعلى نسقين ، وعلى جبهة تمتد من التقاء أنهار موكرايا متشتكا واورلوفكا حتى بلدة باريكادي ، ووضعنا في الدفاع فرقة المشاة ٣٠٨ التي عادت للجبهة في ٢ تشرين أول والفرقة ٣٧ من مشاة الحرس بقيادة الرائد جنرال جوليديف . التي وصلت في ١٣ تشرين ثاني . وبفضل هذه القوى نكون قد ملأنا قطاع جبهة الفرق ١١٢ و ٩٥ المشاة ، التي كانت تغطي مصانع تراكتورني ، وباريكادي وكراسني أوكتيابر .

عززنا إضافة إلى ذلك المفارز المشكلة من عمال هذه المصانع بالسلاح . ونظمنا إتصالها وتعاونها مع بقية القوات . وظلت مفارز العمال هذه تقوم باصلاح السلاح ، والمدافع ، والدبابات حتى ذلك الوقت ثم أخذت تشترك في الدفاع عن مصانعها منذ ١٠ و ١٢ تشرين أول مع جنود الجيش ٦٢ .

احتلت في ٩ تشرين الأول مجموعة الشمال المؤلفة من الألوية ١٢٤ ، ١٤٩ وبقايا اللواء ١١٥ رينكو ، سبارتانوفكا ، والغابة للغرب من سبارتانوفكا وبلدة مصنع تراكتورني على مجرى نهر ميتشنكا .

كما وضع لواء من فرقة سارايبف كاحتياط على الضفة اليسرى للفولغا .

أخذت المعارك التي كانت تدور في وسط الجيش في قطاع بلدتي باريكادي ـ كراسني أوكتيابر تزداد ضراوة شيئاً فشيئاً . ولكن الهجوم المعاكس الذي قامت

به الفرقة ٣٠٨ في منتصف يوم ٢ تشرين الأول فقد توقف بسبب قيام العدو بكرة هجومية معاكسة ، ورغم ذلك استطاعت الفرقة في نهاية النهار تنظيف قسم من مصانع « سيليكاتني » ، وأصبحت تتحكم في الحدود الشمالية الغربية لمدينة باريكادي ، ولكنها لم تستطع تطوير هجومها إلى أبعد من ذلك .

صمدت فرقة سميخوتوروف بمعركة غير متكافئة بألويتها التي كان الواحد منها لا يعد سوى ٢٠٠ محارب ضد مشاة ودبابات العدو المتقدمة على طول الشوارع .

استطاع في نفس النهار فوج هتلري يلبس لباس الجيش الأحمر اختراق مواضعنا باتجاه منخفض كروتوي باتجاه الفولغا ، ولكن سرعان ما سحق هذا الهجوم بفضل هجوم معاكس قامت به سرايا الاحتياط التابعة لفرقة باتيوك ، ولم تنجح طريقة العدو المخادعة ، حيث اختار لهجومه نقطة إتصال فرقة باتيوك وروديمتسيف .

كانت قيادة الجيش ـ كما رأينا سابقاً ـ متمركزة بالقرب من أحد مستودعات البترول ، وتنخفض قليلاً عن المستودع البترولي المكشوف .

من المحتمل أن العدو عرف مركز القيادة فوجه في ٢ تشرين أول ضرباته العنيفة بالمدفعية والطيران فحرثت بقنابلها كل الضفة ودمرت مستودعات البترول المملوءة ، وسرعان ما شبت النار فيها ، وأخذ البترول الملتهب يسيل نحو الفولغا ماراً في طريقه على مخبئنا ، وأصبح مركز القيادة بحيرة من النيران وأحرق السيل الملتهب كل ما كان في طريقه نحو الفولغا ، وأخذ البترول الملتهب ينساب عائماً على المياه نحو المراكب والعوارض الخشبية الموجودة في النهر أمام القيادة التي التهبت واشتعلت فيها النيران ، ويبدو أن الفولغا نفسه أخذ يحترق وبدأ اللهب يتراقص أمام الأعين .

احترقت بفعل اللهب أيضاً أسلاك الإتصالات الهاتفية ، ولم يعد بإمكاننا الإتصال إلا بواسطة الراديو وبشكل متقطع ، وأصبحنا أسرى النيران التي أحاطت بنا من كل اتجاه ، فاضطررنا لمغادرة المخبأ وبقينا بقربه والدخان يتصاعد منه

هنا أعطى رئيس الأركان نيقولاي كريلوف أوامره :

ـ على الجميع العودة واستخدام المخابىء السالمة دون أن يتحرك أحد ، أعيدوا الإتصال مع القوات ! استخدموا اللاسلكي ! ثم اقترب مني وهو يهمهم :

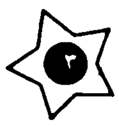
- هل سنصمد ؟
- نعم سنصمد . أجبته وأعدت نفس قوله : «عند الحاجة تأتي مسدساتنا» .
- صحيح ..قال مجاوباً .

وإني أقول بصراحة إنه في بداية الحريق وأنا أقفز خارج المخبأ ، كنت أعمل يائساً كالمركب الذي نزعت أشرعته ، ولكن أمر الجنرال ن . كريلوف الذي كان يلقي بصوت مدوٍ للجميع ، بما فيهم أنا ، -جاء وكأنه صرخة «هورا» في لحظة الهجوم وهكذا عدنا للعمل ، وكان علينا الانتظار والعمل في المخابىء السليمة وفي الخنادق والحفر ، تحت نيران العدو لعدة أيام لم نذق فيها طعم النوم .

كثيراً ما كنت والجنرال كريلوف نستدعى للتكلم باللاسلكي مع رئيس أركان الجبهة الجنرال زاخاروف ، وكان يلح على معرفة الموقف بدقة في الجبهة ، والذي كنا نحن لا نعرف عنه دائماً بدقة ولا حتى رؤساء أركان الفرق . فالإتصال كان دائماً مقطوعاً .

والتكلم باللاسلكي ، وتشكيل الكلمات بين الأسنان حسب الرموز السرية في الوقت الذي كانت فيه القنابل والقذائف تتطاير فوق رؤوسنا ليس ، عملاً مسرا وسهلاً ، وكان يحدث غالباً أن يقضى على عمال اللاسلكي الذين كانوا يؤمنون لنا الإتصالات والسماعة بأيديهم .

- أين أنتم موجودون ؟ كانت أركان الجبهة تطلب منا دائماً ، وكنا نعلم أيضاً : أن قيادة الجبهة تريد أن تتأكد مني ، إذا كنت على قيد الحياة ، وهل لا تزال هناك قيادة للقوات في الجبهة ، وبدون أن نعطيهم أية كلمة كنا أنا وكريلوف نجاوب نفس الجواب
- نحن هنا حيث يوجد أكثر ما يمكن من اللهب والدخان .



ابتدأ فجر٣ تشرين أول بهجوم جديد للعدو . فقد هوجمت الفرقة ١١٢ للمشاة التابعة لـ (ايرمولكين) من قبل لواء مشاة وعشرين دبابة ، قبل أن يكون لديها الوقت لاحتلال مقاطعها في الجبهة ، وتتحصن في المخابىء القريبة من مصنع تراكتورني . ولكن العدو . لم يستطع أن يحطم مقاومة المحاربين السوفييت

بضربة واحدة .

أما فرقة غورتيف فقد احتوت هجوم العدو حتى الساعة (١٨) ولكن في نهاية النهار تم تجاوزها من جناحيها . فاضطرت للتراجع وراء الخط الحديدي إلى الجنوب من شارع نيجنيودنسكايا وجناحها الأيسر على شارع فينيتسكايا .

صمدت الفرقة ١٩٣ مشاة سميخوتوفوروف كل النهار في مدينة كراسني أوكتيابر وجرت معارك في الحمامات ومعمل المطابخ ، وتبادلت الأيدي منطقة الحمامات مراراً وظلت في نهاية النهار بأيدينا ، ولكن لم يبق في كل لواء من الفرقة سوى ١٠٠ ـ ١٥٠ محارب .

صدت فرقة غورتيف كل الهجمات الألمانية على مصنع كراسني أوكتيابر ، كما أن فرق غوريشني وباتيوك ، وروديمتسيف دعمت مواقعها بعد أن صدت الهجمات العدوة .

التحق بالجيش ٦٢ حسب أوامر الجبهة في ٣ تشرين أول فرقة الحرس ٣٧ بقيادة الجنرال جولوديف .

أظهرت المعارك السابقة ، أن العدو صمم على إحداث خرق في مواضعنا بكل ثمن حتى الفولغا ، ثم تطوير هجومه اعتباراً من هناك على طول نهر الفولغا باتجاه الجنوب ، بعد أن يحتل المصانع الرئيسية . وكانت قواته تزداد بشكل دائم في هذا الاتجاه ، وفي ٤ تشرين اول علمنا أن العدو ركز اعتباراً من نهر موكرايا ميتشنكا حتى المرتفع ١٠٧,٥ وعلى جبهة عرضها حوالي خمسة كيلومترات خمس فرق للعمل في هذا القطاع : ثلاث منها مشاة واثنتان مدرعتان وعدد من وحدات الدعم ، وكانت المعارك في قطاع اورلوفكا لا تستهدف فقط إزالة القلعة ، بل إبعاد انتباهنا عن محور الجهد الرئيسي المعادي الذي كان يستهدف السيطرة على المصانع . ونظراً لهذه الظروف المعقدة فقد قررنا الاسراع بعبور فرقة جولوديف ، ووضعها على الجناح الأيمن لفرقة غورتيف للدفاع عن مصنع « تراكتورني » .

اضطرت فرقة ايرمولكين بعد المعارك الضارية ، التي نشبت في ٣ تشرين أول ضد قوات العدو المتفوقة . للتراجع في ليل ٤ تشرين أول إلى ما وراء ميتشنكا . وبعد نفوذ العدو على شارع شتشلكوفكايا احتل موقعاً حصيناً ، وأخذ يحاول عبره تحقيق خرق ثانٍ على طول الطريق نحو الفولغا . وقد زجت فرقة غورتيف باحتياطها لصد الهجمات المعادية العنيفة على مصنع سيليكاتني ،

ولكنها اضطرت للانكفاء هي الأخرى إلى شوارع ميتشيتش . افياتورنايا وتيروزافودسكايا .

عبرت خلال تلك الليلة الفرقة ٣٧ التابعة للحرس النهر إلى الضفة اليمنى ولكن دون مدفعيتها المضادة للدبابات ، بسبب النقص في وسائط العبور وحتى أركان الفرقة نفسها بقيت في الخلف ، لذلك اضطررت أن أعطي مهمات ألوية هذه الفرقة لضباط من أركان الجيش وإرسالهم للانتشار في القطاعات الدفاعية . ذهب كل ضباط أركان قيادة الجيش تقريباً إلى هذه الألوية لكي يؤمنوا معها الإتصال والتعاون ، ومنذ أن احتلت وحدات الفرقة ٣٧ مواقعها اعتباراً من صباح ٤ تشرين أول ، اشتبكت ألويتها بالقتال ضد مشاة ودبابات العدو ، التي كانت قد استطاعت تحقيق خرق عبر خطوط فرقة غورتيف وايرمولكين .

كان جيشنا بحاجة لراحة يوم على الأقل ليستعيد ويعيد تنظيم وحداته وجلب المدفعية وإيصال الذخيرة ، وإتمام تعداد الوحدات وبالتالي القيام بالهجمات المعاكسة الجزئية لاخراج الغزاة انطلاقاً من بلدات مصانع تراكتورني ، وباريكادي . وكانت قيادة الجبهة تلح علينا البدء بالهجوم المعاكس صباح ٥ تشرين أول ، ولكن لم نكن بحالة نستطيع فيها القيام بالهجوم ، فقد نفذت ذخيرتنا وفيما يخص طريق الإمداد عبر الفولغا فالموقف أخذ يزداد تعقيداً شيئاً فشيئا .

كان على اللواء ٨٤ المدرع في ليل ٥ تشرين أول أن يسرع في العبور إلى الطرف الأيمن ودباباته الخفيفة ، هي وحدها التي استطاعت العبور ، وقد تمركزت هذه الدبابات في خطوط الفرق جولوديف ، وغورتيف حيث استخدمت كمواضع للرمي لأن إقحامها بهجوم معاكس ضد المدرعات الألمانية ، لم يكن صحيحا .

سجلت في يوم ٥ تشرين أول لوحده ألفي غارة للطائرات العدوة في قطاع المصانع ، وحتى هبوط الليل لم يستطع الجنود الجرحى الانسحاب من خنادقهم وحفرهم . وقد استغلوا الظلام ليتوجهوا نحو ضفة الفولغا ونقاط الاخلاء .

وصل في المساء الجنرال غوليكوف معاون قائد الجبهة وقبل وصوله حصل هدوء خفيف في مركز القيادة حيث توقف البترول عن الاحتراق ، ولكن حفر المازوت التي كانت فوق مخبئنا كانت لا تزال تدخن وبذلك أصبح الوضع أسوأ من ذي قبل . وكانت الإتصالات تقطع في كل دقيقة ، ولا شك أن رجال مدفعية

العدو ورماة الهاون عرفوا بشكل دقيق أين يقع مركز قيادتنا وأخذوا يمطرونه بوابل من القنابل المحكمة فالألغام كانت تنفجر حتى أمام عتبة المخبأ وفي مركز القيادة وأخذ عدد القتلى والجرحى يتصاعد ساعة بعد ساعة . وبعد أن بقي غوليكوف معنا أربعاً وعشرين ساعة طلب منا نقل مقرنا إلى مكان آخر .

ولكن إلى أين ؟ قررنا بعد المناقشة الانتقال بمركز قيادة الجيش إلى المخابىء المغطاة لأركان فرقة سارابيف ، الذي انسحب إلى الضفة اليسرى من الفولغا لإعادة تشكيل قواته . وكان علينا الانتقال على طول ضفة النهر حوالي خمسمائة متر تقريباً لنصبح بالقرب من معمل تراكتورني .

وقد نفذ هذا النزوح ليلاً .

كان المجلس العسكري طوال تلك الأيام يعمل دون انقطاع . ولم نكن نلاحظ تتابع الأيام ، فقد اختلط علينا الليل بالنهار وكنا ننام على دفعات في اللحظات التي يتم فيها الهدوء ، ونتناوب فيما بيننا الواحد منا بعد الآخر .

كنا نعرف أن الأيام الرهيبة التي سيمر بها جيشنا قد دنت ساعتها . فالعدو رغم أنه كان يشن الهجمات المتتابعة . كان يكتل قوى كبيرة في منخفض فيشنيوفايا ، في مدينة باريكادي على نهر موكرايا ، ميتشنكا . وكان بمقدورنا الاعتماد على قواتنا الذاتية وعلى صلابة محاربينا ، ولكي نحبط تجميع القوى المعادية وتحضيراتها للهجوم ، قمنا بهجوم قصير بالطيران والمدفعية بشكل رئيسي حيث اشترك في الغارات الجوية طيران الجيش والجبهة وكذلك طيران القيادة العليا . ومن الطبيعي أن لا يكون هذا كافياً : فقد وصلتنا معلومات مفادها ، بأنه يجري تكتيل قوى كبيرة بأمر شخصي من هتلر للقيام بضربة كبيرة على ستالينغراد ، في شهر تشرين الأول وجهت ٧٥٪ من التعزيزات المقررة للجبهة الألمانية ـ السوفيتية كلها إلى ستالينغراد فقط ، لتعويض الخسائر . وتم الحصول على هذه المعلومات من الوثائق الألمانية . ولكي نستطيع التصدي لهذه الصدمة ، فقد أتممنا الذخيرة وحضرنا أنفسنا وهيأنا كل المحاربين للمعركة الفاصلة .

تابع الألمان هجومهم صباح ٦ تشرين الأول ووجهوا محور جهدهم الرئيسي اعتبارا من بلدة باريكادي حتى بلدة مصنع تراكتورني . ومن الواضح أنهم لم يتوقعوا ظهور فرقة الحرس ٣٧ بقيادة جولوديف في هذه النقطة فنشبت معارك شديدة ، ولا يسعنا قول بعض الكلمات بخصوص جنود الحرس من

الفرقة ٣٧ للجنرال جولوديف ، فرجالها كانوا جميعاً شبابا طوال القامة جريئين ، وكثيراً منهم كانوا يلبسون لباس المظليين . الخناجر والسكاكين الفنلندية على أحزمتهم . كانوا يقاتلون بشجاعة وبمجموعات الانقضاض ، وخلال غاراتهم على البيوت والأقبية ، كانوا يجربون استخدام خناجرهم وسكاكينهم ، ولا يعرفون التراجع وإذا حوصروا يقاتلون حتى آخر قواهم ، ويموتون والأغاني على شفاههم وصرخاتهم (من أجل الوطن) « لن نتراجع مطلقاً ولن نستسلم أبدا » .

في يوم واحد فقط سجلت الطائرات الألمانية سبعمائة غارة على مواقع الفرقة . ولكن الفاشيين لم ينجحوا بالتقدم ولا خطوة واحدة ، ولواء الحرس الأول التابع لهذه الفرقة حقق بعض التقدم وكان يدعم الفرقة اللواء ٤٩٩ المضاد للدبابات ولواء المدفعية الطويلة ١١ ومجموعة من لواء قذافات الحرس ٨٥ .

وباستثناء قطاع اورلوفكا صدت كل هجمات العدو في بقية القطاعات .

اتخذت عناصر اللواء المدرع ٨٤ خلال الليل مواقعها في قطاع الفرق جولوديف وغورتييف في نفس الوقت كانت وحدات الجيش تعمل بنشاط وتتعمق بالأرض وتبني الخنادق ونقاط الاستناد وتقيم الحواجز . كل العالم كان يهيء نفسه للأحداث القادمة على الجبهة . أفادنا الاستطلاع بمعلومات عن تجمعات المانية جديدة في بلدة باريكادي . مر يوم ٦ تشرين أول دون أي نشاط خاص من مشاة ودبابات العدو ، ولكن الطيران المعادي كان يقصف مواقع قتالنا منذ الساعات الأولى للصباح حتى وقت متأخر من النهار وهبوط الليل وقد قضي على أركان اللواء ٣٣٩ جميعهم بسقوط قنبلة من عيار كبير ، بما فيهم قائد اللواء والمفوض السياسي .

ترجم الهدوء النسبي الذي حدث في ٦ تشرين أول من قبل أركان الجبهة بأنه مؤشر على الإنهاك الذي أصاب العدو . ولذلك ألحت علينا بإصرار للعودة إلى الهجمات المعاكسة بقوى الفرقة ٣٧ . كنت أعتبر من جهتي أن الغارات العدوة التي قام بها طيرانه ما هي إلا تمهيد للهجوم لذلك كان رأينا مخالفاً لرأي أركان الجبهة . وقد تعرضت في المساء لضغط شديد ، وكان عليَّ أن أوافق مكرهاً على القيام بهجوم معاكس ، بقسم من قوى فرقة جولوديف وفرقة غورتييف ، وقررنا الشروع به في النصف الثاني من يوم ٧ كانون أول على أساس أنه لن يكون للعدو الوقت لتفادي ضربتنا قبل سقوط الظلام ولن يتمكن طيرانه من الاشتراك

في المعركة .

وقعت أمر الهجوم المعاكس في الساعة الرابعة صباحا . ولكن لم يكن لدينا الوقت الكافي لتنفيذه ، لأن العدو قام بهجوم جديد في الساعة ١١,٢٠ بقوى كبيرة ، وقد استقبلنا المهاجمين بنار متشابكة من مواقعنا المحضرة والمموهة مسبقا وبشكل جيد .

كان الهتلريون يسيرون للانقضاض علينا وهم مكشوفون حيث زجت في الهجوم فرقتان من المشاة وأكثر من خمسين دبابة ضد خنادقنا . صد الهجوم الأول ، وكبدت فرقة جولوديف الفاشيست خسائر فادحة . مما أجبر العدو على استدعاء احتياطه وجدد الهجوم لعدة مرات . وبعد معركة ضارية نجح العدو في اختراق مواقعنا واحتل في نهاية النهار حياً من مدينة العمال في مصنع تراكتورني ، ووصل إلى الضواحي المباشرة للستاد الرياضي .

في الساعة ١٨ عاود فوج مدعوم من المشاة العدوة الهجوم على غرب حسر سكة الحديد على نهر ميتشنكا ، دمر الفوج جميعه تقريباً برمايات محكمة من قذائف الكاتيوشا ، وفي قطاع سميخوتفوروف دارت رحى معركة حامية طوال اليوم من أجل الحمامات الواقعة في مدينة كراسني أوكتيابر وتبادلت الأيدي هذا الهدف خمس مرات على الأقل في ذلك اليوم ، وفي الليل كان من الصعب معرفة مع أي طرف بقي وقد صد الهجوم في كل القطاعات .

دمر للعدو خلال النهار حوالي أربعة أفواج من المشاة وأحرق ١٦ دبابة .

وبعد هذه الخسائر ، لم يعد بإمكان العدو متابعة الهجوم في اليوم الثاني . وقد بعثر ظهور فرقة الحرس ٣٧ في الاتجاه الرئيسي حسابات فون باولوس ، فلم يتمكن من النجاح والقيام بضربة مفاجئة لاختراق جبهتنا .

ابتدأ التمهيد لمعركة أخرى في ٨ تشرين أول ، وكنا نعلم أن هتلر وعد تابعيه ، بأنه سيكون سيد قلعة الفولغا في الأيام القريبة القادمة . وكان الألمان يصرخون في خنادقهم « روس قريباً سنقضي عليكم في الفولغا » .

كانت الطائرات الألمانية تغرق المدينة بالمناشير . وكنا نقرأ فيها أن هتلر يعتبر كل ضابط أو جندي ينسحب إلى الضفة اليسرى من الفولغا كهارب من الجيش الأحمر . ولن يؤخذ أسيراً . ورسم في هذه المناشير مخطط يظهر فيها كيف تطوق الدبابات والمدفعية الألمانية جيشنا من كل الجهات .

ذهبت كل مجهودات غوبلز الدعائية سدى ، فالحزب والكومسمول كانا

يعملان دون كلل في الوحدات والمفارز يشرحون للجنود تخرصات العدو الدعائية . وعندما كان المجلس العسكري يقدم للجنود المميزين في المعركة الاوسمة ، كان يتحادث معهم دون أي شكليات . ويخبر كل القوات بقراره الدفاع عن المدينة بأي ثمن

وكان هذا القرار مستوعباً بعمق من قبل كل القوات .

ونورد هنا وثيقة عن نشاط احدى منظمات الكومسمول في المعركة :

تقرير عن تصرف الكومسمول في القتال .

بعد الاطلاع :

قررنا : خير لنا الموت في الخنادق من انسحاب مخزٍ ، وليس فقط أن لا تنسحب أنت ، ولكن اعمل بشكل حتى لا ينسحب الجار أيضاً .

سؤال طرح على المحاضر : هل يوجد سبب وجيه للانسحاب من مواضع الرمي ؟

جواب : من كل الأسباب الوجيهة سبب واحد يؤخذ بعين الاعتبار هو « الموت » .

تحدث الجنرال غورييف خلال تلك الأيام .

ـ كان عندي جندي شاب هو الكسي بابوف . وعندما أخذ الجنود الهتلريون يقتربون منه ، وضع في جهة بندقيته الرشاشة ، ومن الجهة الأخرى مسدسه الرشاش ، واحتفظ ببندقيته وقنابله اليدوية أمامه موضوعة على شكل دائرة . فعندما كان الفاشيون يهاجمون بعدد كبير كان يربص بندقيته الرشاشة . وإذا ظهر جندي واحد كان يرمي ببندقيته العادية ، وعندما كانوا يقتربون منه زاحفين كان يرمي عليهم قنابله اليدوية . وهكذا صمد في خندقه وكان يقوم لوحده مقام خمسة اشخاص .

تكمن قوة محاربي الحرس ، بأنهم كانوا يقاتلون بنشاط وحذر . وكذلك بسعيهم لاستخدام أقصى ما يمكن من فعالية اسلحتهم التي قدمها لهم الوطن ، كان هناك آلاف من الجنود مثل بابوف مثالاً للشجاعة والخبرة في مكائد الحرب ، ومعرفتهم التامة باستخدام مختلف أنواع الأسلحة .

اكتسبت اغنية المدينة البطلة التي الفها الرقيب بابوف بسرعة شعبية كبيرة في جيشنا فبالرغم من بساطتها نوعاً ما ، ولكن الذي كان يسر أفراد الحرس منها صدقها كالحياة نفسها .

الشوارع تهتز من الانفجارات
احمرار رهيب في المحرك ،
الألوية مثل الصخر تهزم الموت
من أجل الدفاع عن شواطىء الفولغا .

كان الرفيق يقول وهو يحتضر :

ليعرف العدو أبداً أن الجيش ٦٢ لا يتراجع أبداً حتى ولا خطوة واحدة .

هكذا كان قانون محاربي الجيش ٦٢ لا تراجع ، بل استئصال العدو واستعادة مسقط رأسنا منه متراً بعد متر .

اليوم قاتل قتال الأبطال كل من :

كوزلوف أندريه ايفيموفتش - رامي رشاش . عضو في الكومسمول خلال الحرب الوطنية .

اباد الرفيق كوزلوف ٥٠ هتلريا دون حساب الفاشيست ، الذين أبادهم رفاقه من سدنة الرشاش . أزال كوزلوف فقط منذ ٧ تشرين أول ١٩٤٢ سبعة عشر هتلرياً . كان طاقم رشاش كوزلوف أفضل طاقم في الفوج ، قاتل الرفيق كوزلوف في ليننغراد ، وجرح مرتين من أجل خاركوف ، وحصل مرتين على أوسمة . اقتدوا بكوزلوف !

وها هي أخرى :

لقد أصابوا وأحرقوا ٧ دبابات المانية .

جرح الجنود الحمر اياكوف شتشوبينا وايفان نيكيتين ، ولكنهم لم يتركوا ساحة المعركة . هؤلاء هم أبناء الوطن الأمناء قاتلوا حتى صد آخر هجوم للعدو ففي حوالي ساعة أخرج هؤلاء القديرون من رماة م/د سبع دبابات عدوة خارج المعركة .

كانت مثل هذه النشرات المختصرة كثيرة .

كم من الأشخاص قد دخلو التاريخ خلال عمليات عبور الفولغا ؟

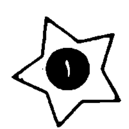
أيا كان عملهم هناك ، كانوا يرون الموت بأعينهم كل ساعة وكل دقيقة . من الواجب أن تكون الأعصاب فولاذية والتحلي بشجاعة لا تجارى أثناء عبور الفولغا ثم العودة للعبور في المراكب تحت نيران العدو ، وكان بحارة أسطولنا في الفولغا يقومون بمثل هذه السفرات ليلاً ونهارا لتموين المدينة بالسلاح والمؤن .

اتخذت أكثر الاجراءات فعالية بانتظار هجوم العدو بقوات كبيرة في قطاع المصانع ، ولتقوية الجبهة على طول مجرى موكرايا ميتشنكا ، منخفض فيشنيوفايا حتى كورغان ماماييف . وقد تمركز اللواء المدرع ٨٤ الذي وصل لتوه في مواقع تغطي هذا القطاع بالتعاون مع فرق المشاة . أما الفيلق المدرع الذي أصبح بحالة لا يصلح فيها للقتال ، فقد أخلي للضفة اليسرى ودباباته التي كانت تستطيع القتال وزعت على اللواء ٨٤ المدرع .

أعطيت الأوامر لكل القوات بالاسراع بتنفيذ أعمال الهندسة التي تساعد على الصمود بقوة في مواقعنا الدفاعية ، وبخاصة الاتجاهات المعرضة لهجمات الدبابات . لذلك زرعت آلاف الألغام ونصبت الأفخاخ ، كما اختنقت فرقتا الحرس ٣٧ والمشاة ٩٥ بتعدادها ، وعززت مدفعيتها وكانت عمليات التعزيز تجري ليلاً فقط ، رغم هجمات العدو الجزئية التي لم تتوقف على طول الجبهة . ومع الأخذ بعين الاعتبار أن للعدو هدفاً مزدوجاً هو القيام بالاستطلاع بالنيران على طول جبهة الجيش ، والحد من تحركاتنا في منطقة الدفاع القليلة العمق على طول الضفة الغربية للفولغا ، بالمقابل كانت مجموعات الانقضاض تباغت العدو على طول جبهة الجيش ، وتقضي على حامياته الموجودة في البيوت ، وحتى مهرة رماة الجيش (حوالي ٤٠٠) كانوا أيضاً في حالة من الحذر الدائم.



أشد الأيام هولاً



لم يكن هناك هدوء ، ولا يمكن إلا أن يكون كذلك طيلة الأيام بين ٨ ـ ١٤ تشرين الأول لأن مواقعنا ومواقع الألمان كانت على مسافة رمي القنبلة اليدوية .

لا يتجاوز عمق ترتيبنا القتالي ٣ كم ، (يعني كل المسافة بين الخطوط الدفاعية الأولى حتى الفولغا) ، ومثل هذا الوضع يجعلنا حذرين ، وعلينا القيام بالمراقبة الدائمة والاستطلاع النشيط .

كنا نعتبر أن أفضل أنواع الحذر والاستعداد للقتال هي عمليات رماتنا المهرة ومجموعات الانقضاض ، ونشاط رجال المدفعية ورماة الهاون .

كانت مدفعيتنا بما فيها الكاتيوشا توجه ضربات ساحقة لتجمعات العدو في قطاع مدن المصانع . ومنخفض فيشنيوفايا كما كان طيراننا الليلي يقصف المواقع الألمانية ويطلق عليها رشاشاته .

والمذكرات الشخصية والرسائل التي كانت تقع بين أيدينا من قتلى العدو تتحدث عن الخسائر ، التي كانت تلحقها أعمالنا الوقائية بالعدو والضغط عليه : « ستالينغراد هي الجحيم ، ستالينغراد هي مقبرة جماعية ، ستالينغراد تسحق الموت هكذا كان يكتب الهتلريون » .

لم يكن العدو الذي يريد حصرنا على الفولغا يترك لنا أي دقيقة للراحة ، فقد كانت طائراته تقوم بشكل متواصل بطيران استطلاعي فوق مواقعنا وتقذف القوات والمعابر ، حيث كانت مدفعيته وهاوناته تمطر خطوطنا بالقذائف والألغام .

كان ضباط الأركان والمنظمات السياسية موجودين دائماً في وسط القوات يعيدون تجميع القوى ، وينسقون بالعمق ترتيب القتال على محور الجهد الرئيسي للعدو . ولقد أجبرنا على التحصن بشكل أفضل في الخنادق وتحويل

كل بيت إلى نقطة استناد قوية وتعزيز بشدة الدفاع عن قطاع المصانع .

أصبحت فرقة غورشني مثلاً ، الآن على إتصال مع فرق جولوديف وغورتييف بعد تراجع مواقع القتال وضع لواء من فرقة الحرس ٣٩ غوريبف في ١٢ تشرين أول بشكل يؤمن الدفاع بالعمق ويدعم الإتصال بين فرقتي جولوديف وغروشني .

عادت إلى الضفة اليمنى فرقتا المشاة ٥٢٤ والفرقة ١١٢ اللتان كانتا حتى ١٢ تشرين أول على الضفة اليسرى من الفولغا لاتمام ملاكهما بعناصر المؤخرة وقد اتخذت مواضعه الدفاعية في النسق الثاني في قطاع الستاد الرياضي شمالاً .

غربلنا كل تشكيلات المؤخرة التابعة للألوية والفرق ووحدات الجيش ، ولم نترك إلا القليل من الأشخاص من أجل تسليح الآخرين وتوزيعهم بين سرايا المشاة والمدفعية ، كنا نشعر بأن العدو بهذه الهجمات الجزئية على مختلف قطاعات الجبهة ، يحضر لانقضاض عنيف وبالتحديد على مصنع تراكتورني وقد أكدت مصلحة الاستطلاع ، التي كان يقودها غيرمن دائماً هذا الافتراض إذن من الواجب مجابهة ضربة العدو الجديدة بتسليح جديد .

زجت في الهجوم حسب أوامر الجبهة فرقة جولوديف ولواء من فرقة غروشني في ١٢ تشرين أول على الحدود الغربية من مصنع تراكتوزني وذلك لتشويش مخططات العدو واستعداداته للهجوم الجديد .

لم نكن ننتظر نتائج كبيرة من هذا الهجوم المعاكس . ولكن كنا نشعر هذه المرة أن قيادة الجبهة لم تلح على وحدات الجيش ٦٢ للقيام بهذه الأعمال النشطة دون مبرر ، وخطة التموين بالذخيرة المخصصة لشهر تشرين أول تلقيناها من إدارة مدفعية الجبهة ، وكانت تفرض على الجيش نوعاً من التقشف . إذن هناك هجوم معاكس قوي يحضر من قبل قواتنا .

وجه هجومنا المعاكس نحو التجمع الرئيسي للعدو وذلك لتذكير العدو بأننا نستطيع إحباط مخطط هجومه الجديد ، وقد اضطر العدو للقيام بالهجوم الجديد قبل وقته وكان ذلك بالنسبة إلينا أفضل من الانتظار ، حتى ينهي تحضيراته ويهاجمنا بكل قواه .

صحيح أن ترتيبنا القتالي قد نسق بالعمق ولم تشترك بهجومنا المعاكس إلا قسم قليل من قواتنا إلا أننا كنا نشعر بالخطر نحونا . بدأنا بالهجوم في ١٢ تشرين أول صباحاً . وأظهر الألمان مقاومة عنيدة ، وبعد يوم من القتال حققت

فرقة جولوديف نجاحا وتقدمت على جناحها الأيسر ، وفي الوسط حوالي ثلاثمائة متر نحو الغرب وتتابع القتال في المناطق القريبة شمالي الستاد الجنوبي . كما أن وحدات فرقة غروشني تقدمت مئتي متر أيضا .

دلت المعارك في هذا اليوم على أن الهتلريين لم يكونوا بانتظار هجومنا المعاكس ولكن كثافة ترتيب العدو القتالي ، كانت متماسكة بقوة وبشكل لم تستطع معه قواتنا من تحقيق خرق في العمق .

تابعنا في ١٣ تشرين أول هجومنا المعاكس واستطعنا إجبار العدو على التراجع إلى ما وراء منخفض ميتشيشي كما دارت رحى معركة طاحنة طيلة اليوم .

وصل يوم ١٤ تشرين أول وكان يوماً من المعارك النادرة بضراوتها فثلاث فرق مشاة عدوة وفرقتان مدرعتان ، اندفعت بهجوم معاكس على جبهة طولها خمسة كيلومترات .

أعطى هتلر في يوم ١٤ تشرين أول أمراً لكافة القوات الألمانية ، وعلى طول الجبهة السوفيتية ـ الألمانية باتخاذ موقف الدفاع ، عدا جبهة ستالينغراد التي وجه إليها كل ما لديه من احتياط ، وتجمعت قوات جوية قوية جداً في ذلك الاتجاه .

سنحتفظ طوال عمرنا نحن الذين كنا على مرأى من الأحداث بذكرى ذلك الهجوم الألماني الرهيب .

استيقظت باكراً وحدسي يدفعني للتفكير بما يمكن أن يحدث ، وكنا متوتري الأعصاب ، ننتظر ضربة العدو المحضرة ومن المحتمل أن بعض الأشياء تغلبت على نومي ، رغم التعب ، وجعلتني أنهض مسرعاً .

وبعد أن شربت كأساً من الشاي الثقيل الذي صنعه لي الجندي الوصيف شاهدت ليس بعيداً عني الجنرال بوجارسكي يقف بالقرب من سماواره ، فقد خاض هذا الجنرال كل الحرب دون أن يفترق عن سماواره .

ـ حسنا بتروفانيش ، هل سيكون لديك الوقت لتشرب شايك قبل أن تبدأ سمفونية الفريتز؟ ـ سألته بهدوء .

ـ نعم ، وإذا لم يكن لدي الوقت ، فسأحمله معي للمرصد .

خلال حديثنا دوى انفجار قوي قادم من الغرب وفيما نحن نرفع رؤوسنا سمعنا مباشرة صفير القنابل والألغام ، وحالاً أخذت الانفجارات تهز الأرض حولنا ، عشرات الآلاف من القنابل من مختلف العيارات والأحجام أخذت تهطل مع

الألغام على مواقع جيشنا الدفاعية وأجبرتنا موجات الصدمات للالتصاق بمنحدرات الفولغا وانقلب السماور قبل أن يحين وقت غليانه ، في حين أخذت مياه الفولغا تغلي بكل معنى الكلمة ، بسبب شظايا القذائف وفي نفس الوقت أخذت الطائرات الفاشية تحلق فوق رؤوسنا بمجموعات متعددة ، وجعلت أصوات انفجار القذائف والألغام كل محادثة غير ممكنة ، ثم ألقيت نظرة على بوجارسكي الذي فهم مرادي ، فأخذ معطفه ومنظاره ، وذهب راكضا إلى مقره وركضت أنا إلى مقري أيضاً .

كانت الشمس غير واضحة فالدخان والغبار يغطيان السماء ، وعندما وصلت إلى ملجئي ، وأردت أن أغلق الباب بقدمي تلقيت بظهري ضربة موجعة بسبب موجات الصدمة التي جعلتني أطير من مكاني .

وجدت كل من كريلوف وغوروف جالسين على الطاولات ، وكل منهم يمسك بيديه الاثنتين جهازاً هاتفياً كما كان حاضراً في المخبأ ، رئيس مصلحة إشارة الجيش العقيد لورين الذي كان يقدم تقريره عن الإتصالات السلكية واللاسلكية

- سألته : كيف حال الاتصالات ؟

فأجابني لورين :

- غالباً ما تكون الإتصالات الهاتفية مقطوعة ونحن نستخدم الراديو ونتكلم دون شفره وهنا صرخت بوجهه :

- هذا لا يكفي أصعد ونظم مراكز إتصال وسيط احتياطي على ضفة النهر اليسرى لازدواجية الإتصالات وأخبرني بسرعة .

خرج لورين بسرعة بعد أن فهم كلامي ، وأخذت أزرع المخبأ الذي كان على شكل نفق مثلثي . أخذ ضباط الأركان وعمال الهاتف ينظرون اليَّ . ويجربون أن يقرأوا في وجهي حالتي النفسية والموقف على الجبهة ولكي لا أظهر لهم أنه لا يوجد ما يرعب ، اجتزت المخبأ بخطوة هادئة وبطيئة ، وخرجت من المخرج الآخر .

كل ما كنت أراه ، بخاصة في جبهة مصنع تراكتورني يصعب وصفه وكانت أصوات محركات القاذفات الألمانية تزمجر فوق رؤوسنا . والقنابل تولول أثناء سقوطها في الوقت ، الذي كانت فيه قذائف المدفعية المضادة للطائرات والتي كانت تنفجر في السماء ، وتترك تأثيراً يدل على اتجاهها ودويا كالرعد ، صيحات وانفجارات كانت تحيط بنا ، ثم قطع معبر البراميل الطافية

الخاص بالمشاة في دينجنايا فولوجكا ذراع مائي من الفولغا ، وجرفه التيار وفي الأفق البعيد كنا نرى جوانب البيوت تنهار والنار تشتعل في مباني مصنع تراكتورني .

أعطيت أمراً لقائد مدفعية الجيش بوجارسكي لرمي رشقتين من مجموعة الكاتيوشا . الرشقة الأولى على معمل سيليكاتشي ، والثانية امام الستاد الرياضي حيث تتجمع قوات العدو . وقد نجحت بالإتصال مع قائد طيران الجيش الجوي خريوكين وطلبت منه التصدي للقاذفات الفاشية ، وقد أجابني خرْيوكين بصراحة إنه لا توجد لديه الامكانيات للقيام بذلك ، فقد شل العدو مطارات الجيش ومن المستحيل أن تصل طائراتنا في الوقت الحاضر حتى ستالينغراد .

زج العدو بكل قواه ضد الجيش ٦٢ مستغلاً تفوقه في العتاد والرجال والقدرة النارية ، وكان من الواضح أنه يحاول قطع الجيش إلى أجزاء وتدميرها بالتتالي ، لذلك وجه كل جهده الرئيسي في ذلك الوقت للمنطقة بين المصانع تراكتورني ـ وباريكادي ، وكان هدفه التالي خرق الجبهة حتى الفولغا وإذا نظرنا إلى القوى والوسائط التي زجها في القتال كان من الواضح أنه يعمل لمنع وصول التعزيز عن طريق الفولغا ، وقطع طريق التموين بالذخيرة لستالينغراد ، وهكذا سيكون علينا في الأيام القادمة أن نتحمل قتالاً شرساً فقط بالقوى الموجودة لدى الجيش ٦٢ .

كان ملجؤنا تحت الأرض يهتز كمن وقع فريسة للحمى،والرمل يتساقط من السقف ، والاهتزازات الناتجة عن تفجر القنابل ذات الأحجام الكبيرة حولنا تهدد بتهديم المخبأ ، ولكن لم يكن لدينا أي مكان نذهب إليه .

وتحت عاصفة من النيران ، قامت ثلاث فرق مشاة ، وفرقتا دبابات بمهاجمة مواقعنا على جبهة حوالي ستة كيلومترات . ووجه الجهد الرئيسي المعادي نحو الفرق ١١٢ و ٩٥ و ٣٠٨ مشاة وفرقة الحرس ٣٧ ، التي ضعفت وأنهكت قواها بشكل خطير بسبب الخسائر التي تكبدتها في المعارك السابقة وبخاصة الفرق ١١٢ و ٩٥ . كان تفوق العدو علينا خمس مرات بالنسبة للرجال و ١٢ مرة بالمدرعات ، وطيرانه يهيمن على هذا القطاع دون منازع .

كانت مشاة العدو ودباباته تهاجم مواضعنا منذ الساعة الثامنة صباحاً ، وقد صد الهجوم الأول حيث أحرقت عشر دبابات أمام خطوطنا الأولى . وبعد ساعة ونصف عاود العدو هجومه بقوى متفوقة وكثف نيران مدفعيته . فأغرقنا تماماً

بنيرانه الكثيفة التي لم تسمح لأي شخص أن يرفع رأسه فوق الموقع .

سحق في الساعة العاشرة اللواء ١٠٩ من فرقة الحرس ٣٧ تحت ضربات الدبابات والمشاة العدوة . وتحصن جنود هذا اللواء في أقبية وغرف البيوت وأخذوا يقاتلون وهم محاصرون . استخدم الهتلريون ضدهم قاذفات اللهب ، وكان جنودنا الأشداء يدافعون بأخمص البنادق وجهاً لوجه ، وهم يطفئون الحرائق في الوقت ذاته .

إنهار في مركز القيادة مخبأان بسبب انفجار قنبلة طائرة بالقرب منا . قام رجال سرية حرس القيادة وبعض أعضاء الأركان بإنقاذ رفاقهم من تحت الأنقاض .

علمنا في الساعة ١١ أن الجناح الأيسر لفرقة المشاة ١١٢ سحق هو الآخر أيضاً فقد سوت مع الأرض خمسون دبابة مواقعهم تحت سلاسلها . هذه الفرقة التي اشتركت بعدد من المعارك في الغرب من الدون وعلى الدون وبين الدون والفولغا ، ولم تكن تعد في صفوفها في ١٣ تشرين أكثر من ألف شخص جاهزين للقتال بقيادة العقيد ايرمولكين ، حيث تحولت إلى مجموعات صغيرة منعزلة أخذت تقاتل ببطولة في بعض الأبنية في المعامل والمصانع « تراكتورني » وفي ضواحي نيجنه على ضفاف الفولغا المنحدرة .

احتل العدو في الساعة ١١,٥٠ استاد مصنع تراكتورني ، وحقق خرقاً عميقاً في دفاعنا ، ولم يبق إلا أقل من كيلومتر حتى المصنع . وإلى الجنوب من الستاد الرياضي كان يقع الحي المعروف باسم هيكسايدر وأبنيته من الحجر ، فحولته قواتنا إلى نقطة استناد قوية إذ تمركزت فيه حامية مؤلفة من فوج من لواء مشاة الحرس ١٠٩ وتبادلت الأيدي هذا الحي عدة مرات . وقد قاد آمر اللواء اومتشنكو نفسه فصائله للهجوم المعاكس .

أرسلت عدة تقارير بالراديو دون شفرة عن الموقف ، وفيما يلي التقارير التي التقطها مركز إتصال اركان الجيش وأذكرها كلمة،كلمة .

« يهاجم الفريتز في كل مكان بالدبابات ، وقواتنا تقاتل في قطاع أنانيغو ، حيث دمرت أربع دبابات ، كما دمرت دبابتان لدى نكاتشنكو ، ودمر جنود الحرس من الفوج الثاني من اللواء ١٨ دبابتنان أيضاً . كما يمسك الفوج الثالث بمواضعه على ضفة المنخفض استطاع رتل مدرع معادٍ من تحقيق اختراق في لانترنايا »

أبلغتنا مدفعية الفرقة ٣٧ الحرس : « نحن نرمي الدبابات على مسافة قصيرة جداً ، وقد دمرنا خمساً منها » .

أبلغ رئيس أركان فرقة بروشكو أركان الجيش « عزل جنود بوستافاغاروف من لواء الحرس ١١٤ ، على أثر الخرق الذي حققه العدو بدباباته . وتحصنوا بمجموعات في البيوت والخرائب ، ويقاتلون رغم الحصار » .

نقل إلينا الراديو في الساعة ١٢ من لواء مشاة الحرس ١١٧ الخبر التالي : « قتل قائد اللواء اندرييف . نحن مطوقون سنموت ، ولكن لن نستسلم » اللواء لم يمت مطلقاً فأكثر من مائتي جثة المانية كانت ممدة على التراب حول مركز قيادته ، وجنود الحرس كانوا يواصلون القتال .

أنذرت ألوية الفرقة ٣٠٩ مشاة غورتيف « دبابات عدوة تهاجم مواقعنا من الشمال المعركة طاحنة ، يطلق رجال المدفعية برماياتهم المباشرة على دبابات العدو ، تكبدنا خسائر فادحة بسبب الطيران ، نطلب طرد هذه المصائب من فوقنا » .

أغارت طائرات منقضة في الساعة ١٢,٣٠ على مركز قيادة فرقة الحرس ٣٧ وطمرت قائد الفرقة جولوديف تحت أنقاض مخبئه ولم يعد لنا معه أي إتصال ، لذلك تسلمت أركان الجيش قيادة وحدات الفرقة المذكورة . كانت خطوط الإتصال الهاتفي واللاسلكي تعمل بأكثر من طاقتها ، ثم تم إتصال هاتفي في الساعة ١٧,١٠ مع الجنرال جولوديف المطمور تحت الأنقاض ، عن طريق إدخال أنبوب معدني ، وكان الجميع يتابعون عملية إخراج قائد الفرقة وأركانه . وقد وصل في الساعة ١٥ جولوديف شخصياً إلى مركز قيادة الجيش ، وهو مغطى بالتراب وأبلغنا : « أيها الرفاق أعضاء المجلس العسكري لن تتراجع فرقة الحرس ٣٧ ، وبعدما قدم تقريره ، ترك نفسه وسقط على إحدى الدرجات الترابية وهو يغطي وجهه بيديه .

في الساعة ١٣,١٠ أبلغنا « إنهار مخبآن في مركز قيادة الجيش ويوجد قتيلان وعدة جرحى » .

إنقطع الإتصال التلفوني في الساعة ١٤ مع كل القطعات ولم يعد يعمل سوى مركز الراديو بشكل متقطع وأقمنا إتصالاً مزدوجاً عندما أرسلنا ضباط الإتصال ولكن هذه الطريقة كانت بطيئة ومعلوماتهم تصل متأخرة .

اخترقت مدرعات العدو بعمق مواقعنا الدفاعية في الساعة ١٥ ونفذت على

خط المصانع تراكتورني باريكادي ولكن حامياتنا استطاعت برمايتها فصل مشاة العدو عن مدرعاته ، وهي تقاتل موزعة بسبب تطويق العدو لها ولكنها استطاعت تثبيته ، فدباباته لم تكن تتقدم دون المشاة وهذه اضطرت للاحتماء بالأرض مما جعل الدبابات هي الأخرى تتوقف عن التقدم وأصبحت هدفاً ممتازاً لرجال مدفعيتنا وقانصات الدبابات ، ورغم ذلك نجحت في الساعة ١٥ مدرعتان عدوتان بالتقدم نحو مركز قيادة الجيش وأصبحتا على بعد ٣٠٠ م منا ، لذلك اشتبكت معها سرية حرس أركان الجيش . ولو وصل العدو إلى أقرب من ذلك لكنا مضطرين نحن للاشتباك مع الدبابات ، فلم يكن هناك مخرج غير ذلك لأننا لا نستطيع مطلقاً التراجع ، فنفقد في هذه الحالة آخر وسائط قيادتنا واتصالنا مع غيرنا .

اختبأت في حديقة « سولبكورني » عشر دبابات من اللواء ٨٤ المدرع ومعها الأوامر بعدم القيام بهجوم معاكس والبقاء في كمين حتى الساعة التي يستطيع فيها العدو من تحقيق خرق باتجاهها ، وكان ذلك في الساعة ١٥ إذ حققت مجموعة من الدبابات الالمانية خرقاً باتجاه الحديقة المذكورة وهنا اصطدمت بالدبابات المختبئة التي أطلقت عليها قذائفها دون أن تخطىء أهدافها ، لذا جرب الألمان احتلال نقطة الاستناد هذه لعدة أيام من يوم ١٤ حتى يوم ١٧ ولم يوفقوا إلاّ في اليوم الأخير ، بعد أن اضطر فون باولوس لادخال الطيران بكثافة وقام بأكثر من مائة طلعة ، وبالأحرى غارة على هذه النقطة ضد دبابتنا .

بالرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدها العدو ، ظل يتقدم نحو الأمام ويدفع بمشاته ورماته ، الذين كانوا يتسربون إلى المناطق الفارغة من مواقعنا ، واشتبك حرس الأركان عدة مرات بالقتال ضد الألمان .

طلب المقدم اوستينوف قائد أحد الألوية في الساعة ١٦,٣٠ من مدفعيتنا أن ترمي قنابلها على مركز قيادته الذي كان يشتبك مع الفاشيين بقتال مباشر بعد وصولهم إلى قربه وأخذوا يرمون عليه قنابلهم اليدوية ، ولم يكن سهلاً أن نقرر فتح النار على أحد ضباطنا . ومع ذلك قام الجنرال بوجارسكي بإرسال رشقة من مجموعة مدفعية الكاتيوشا ، قتلت الألمان فقط ، ولم تمس رجالنا .

دافعت المفارز المشكلة من العمال عن مصانع تراكتورني وباريكادي بالتعاون مع الجيش ٦٢ . ويعود لهذه المفارز الفضل في الدفاع عن ستالينغراد

خلال الحرب الأهلية ، وكانوا في أغلبيتهم من الشيوعيين ومنذ ظهر ١٤ تشرين الأول اشتبكت هذه المفارز مع العناصر المتقدمة المعادية نحو المصنعين . بالتعاون مع وحدات وعناصر الفرقة ١١٢ والفرقة ٣٧ المدافعة عن المصنعين . وتصدى الجميع للعدو في الساحات أمام المصانع والشوارع المتجهة نحوها كما أن وحدات الفرق ٩٥ و ٣٠٨ التي كانت تستند على معمل التصليح في مصنع باريكادي ، استطاعت بالتعاون مع العمال المسلحين تحرير عدة شوارع متجهة نحو المصنع ، وكذلك بالتعاون مع رجال دبابات اللواء ٤٨ بيلوف . الاف من جثث الهتلريين أصبحت ممدة في الساحة والشوارع ، عدة عشرات من الدبابات المشتعلة والمدمرة كانت تسد الطرق والممرات ، استطاعت بعض وحدات العدو الصغيرة تحقيق اختراق نحو ضفة الفولغا ، وبخاصة في المنطقة بين المصانع ، ولكننا لم نترك لها الوقت الكافي لتتحصن فرمايات المدفعية المتمركزة على الضفة اليسرى والهجمات المشتركة لقواتنا على أجنحة القوات المعادية ، قذفت بالفاشيين للوراء بعد أن تكبدوا خسائر فادحة .

كثيراً ما كانت ضربات الطيران المعادي ، وتفوقه بالدبابات والمشاة تؤدي لقطع خطوطنا الدفاعية في بعض النقاط . وقد قطع الجيش ٦٢ إلى قسمين ، وأصبحت المسافة التي تفصل بين مصانع باريكادي وتراكتورني (١٥٠٠) م تحت مراقبة شديدة من العدو الذي أخذ يغطي بنيرانه كل المنخفضات التي تقود إلى دينيجنايا ، فولوجكا ، ولم يعد ضباط إتصالنا يستطيعون الوصول حتى مصنع تراكتورني ، ومن مركز القيادة كنا نراقب المصنع بشكل جيد ، ولكننا لم نكن نستطيع أن نرى المعركة التي كانت تدور في أقسام المصانع ، والمساعدة التي كان باستطاعتنا تقديمها للمدافعين عن المصانع هي رمايات المدفعية التي كانت قيادتها بشكل دائم بين أيدينا . ظل مصير الوحدات والأشخاص في المصنع مجهولاً مدة طويلة بالنسبة لنا ، وقد أثقل قلبي عدم معرفة ما يجري هناك .

وبنظرة واحدة للمعركة ، التي دارت ضد الدبابات في قطاع ساحة دزيرجنسكي ، يظهر بشكل واضح الثمن الباهظ لمبادرة فون باولوس التي كان يستهدف منها فتح الطريق نحو الفولغا بضربة واحدة (نطحة كبش) عبر قطاع مصنع تراكتورني .

أوكلت مهمة الدفاع عن ساحة دزيرجنسكي لسرية المدفعية بقيادة الملازم

اوتشكين ، وكان لديها ثلاث قطع مدفعية وتسع بنادق ضد الدبابات وكان عليها البقاء على أتم استعداد للقتال في مختلف الظروف وحتى ظروف التطويق .
وكان من بين طاقم المدافعين التابعين لهذه السرية والمتمركزين في النهاية الجنوبية للساحة المذكورة ، الملقم فانيافيدوروف ، وعمره ستة عشر عاماً وقد أصر بإلحاح على قائده الملازم اوتشكين أن يصحبه للجبهة . وهكذا اشترك في المعارك غير المتكافئة ضد دبابات العدو في ساحة دزيرجنسكي . وفي إحدى الاشتباكات ، وبعد غارات الطيران المعادي ، لم يبق سوى اثنين أو ثلاثة من سدنة مدفع مضاد لذلك استلم فيدروف دور المسدد لذلك المدفع ، ولم تتأخر اللحظة التي كان ينتظرها فقد اندفعت الدبابات الألمانية إلى الساحة ، ومن ورائها جنود العدو ورماة الرشاشات باتجاه موضع فانيا فيدروف ، حاول اليكسي اوتشكين نجدة فانيا ، ولكن الموجه السياسي للفرقة بوريس فيليخينوف ، أوقفه قائلًا :

ـ دبابات عدوة من اليمين والمسدد قد قتل .

لقد ظنوا أن فانيا قتل في الهجوم الذي قام به رماة العدو من حملة المسدسات الرشاشة ، ولكن الغلام الشاب بقي سليماً بمعجزة ، ومن خندق محفور بجانب المدفع اخذ يقذف بقنابله اليدوية على المهاجمين ، ولكنه لم يتمكن من صد الدبابات هكذا .

ويقص بوريس فيليمونوف ، الذي كان شاهداً على عمل فانيا البطولي ما جرى لفانيا ويقول : « كانت اليد اليمنى للغلام تتدلى إلى جانبه دون حركة ، كما استأصلت شظية قنبلة يده الأخرى من الذراع . ودبابتان أخريان كانتا تقتربان من المدفع ، عندها خرج الشاب من خندقه ، وهو مغطى بالدماء ويداه الاثنتان لا نفع منهما ، ولم يعد لديه إلا أسنانه التي كانت تمسك بقنبلة مضادة للدبابات ، ولم يلبث أن سقط تحت سلاسل إحدى الدبابات ودوى الانفجار .

عمر فانيا ستة عشر ربيعاً عندما استشهد ، وكان يحمل على صدره بطاقة الكومسمول منذ أن يستيقظ في الصباح . أي حب عظيم كان يكنه هذا الابن البار للأرض الروسية .

عزلت مدرعات ومشاة فون باولوس التي اخترقت المصنع بقايا الفرقة ١١٢ وجزأتها إلى ثلاثة أقسام قسم انسحب من الشمال وحقق إتصاله مع لواء جورخوف في قطاع ريفوك ، والقسم الثاني بقيادة الملازم شوتوف والكسي

اوتشكين ، ظل في معامل الصهر والتجميع في المصنع ، والقسم الثالث هو الذي جمعها الموجه السياسي بوريس فيلمونوف والتجأت إلى أقبية مدينة نيجني حيث كانت أركان الفرقة وعلى رأسها المقدم غودليفسكي قائد المدفعية .

صمدت مجموعة فيلمونوف يومين في المعارك التي دارت ضد الدبابات والمشاة العدوة ، ثم قتل المقدم غودليفسكي ، إثر إصابته بشظية قنبلة في صدره ، بعد ذلك نفذت الذخيرة وحان الوقت للتخلص من التطويق ، وكانوا متعبين وجائعين ، فآخر وجبة كانت لهم في ١٤ تشرين أول . واشتبكوا بمعركة ثلاثون جندياً ضد فوج هتلري كامل ، وقد استطاعوا الخروج من دائرة النار وجرح فيلمونوف فحمله الأحياء مع أوراق الرفاق القتلى إلى معبر النهر بالقرب من سبارتانوفكا .

نجح الملازم شوكوف وأنا بتجميع المحاربين المنعزلين ، ومن بينهم كان عمال المصنع ، ونظمنا هجوماً على معمل الصهر ، وأطاش هذا الهجوم المباغت صواب الألمان ، الذين كانوا يعتقدون ، بأنه لم يعد هناك من يدافع عن المصنع منذ زمن طويل ، ولكن الألمان استطاعوا طردنا من المعمل ، ثم عدنا وأخرجناهم منه ، وبعد ذلك قاموا بمهاجمتنا من جديد . وقد وجدنا أنه لا يمكن التمسك به طويلاً لذلك التجأنا للحيلة وقمنا بعملية انسحاب تلقائية من المعمل بعد أن نصبنا كميناً من رماة المسدسات الرشاشة ، ومنذ أن بدأ الألمان ينسابون إلى المعمل ، أخذت زخات من رصاص رماتنا في الكمين تنصب في ظهور المهاجمين الألمان ، وبعد أن تمدد حوالي نصفهم على الأرض اضطر الآخرون للهرب مشتتين ، فقد كانوا لا يحبون القتال القريب .

وتشهد على ذلك رواية اليكسي اوتشكين ، فالألمان الذين أغاروا على المصنع لم يتمكنوا من التغلب نهائياً في ذلك اليوم على مقاومة المجموعات الصغيرة التابعة للفرقتين ١١٢ و ٣٧ أما مجموعتا اوتشكين وشوكوف ، فقد ظلتا تقاتلان عدة أيام ، وكان حرم المصنع يمتلىء كل يوم بعناصر عدوة جديدة من مشاة ومدرعات .

طبق الضباط الهتلريون بالاعتماد على تفوقهم الساحق أسلوباً منهجياً في إبادة مجموعاتنا المنعزلة ، حيث أخذت دباباتهم المتمركزة في الباحات والأروقة تطلق نيران مدافعها على مسافة قريبة على قواتنا ، وتدمر كل ما تجده أمامها إن كان يتحرك أو لا يتحرك ، وتنقل تدميرها من معمل إلى معمل ، وقطاع بعد قطاع

لذلك أصبحت كلها غارقة باللهب والدخان ، وكان غبار الاسمنت يملأ الجو وتنتشر معه الرائحة النتنه التي كانت تنبعث من احتراق شحوم وزيوت الآلات الصناعية ، كما كانت حفر إصلاح الآليات تشتعل هي الأخرى ، وتنشر لهباً كان يتعب عيون جنودنا الأبطال ، ويقطع أنفاسهم في الوقت الذي كانوا فيه يتعرضون لحرارة عالية ، غيرت لون ثيابهم وجعلتها صفراء .

- ويتابع الكسي اوتشكين قوله : بعد أن فشل الفاشيون الذين كانوا يطوقوننا من إجبارنا على الاستسلام أخذوا يضيقون علينا دائرة الحصار ، وينشرون النيران حولنا لنحترق ونصبح رماداً . وإني أتذكر أن أحد جنودي حاول القفز خارج الركام الملتهب لمعمل التجميع ، تعرض فوراً لرمية طويلة من رشيش قضت عليه ، ونتيجة لذلك قررنا الانتظار والصبر حتى هبوط الليل لنعمل على اختراق الحصار بوثبة واحدة حتى بلدة نيجني ، وكانت ذخيرتنا قد وصلت إلى نهايتها . وأنهكنا العطش ، حتى أصبحنا نتمنى جرعة الماء . وقد ساعدنا أحد العمال على جمع الماء من أحد الأنابيب . ولكن سرعان ما نفذ ما فيها من ماء . وأخيراً أتى الليل الذي انتظرناه طويلاً ، وبعد أن رمينا بآخر قنابلنا وأطلقنا آخر طلقاتنا اخترقنا الحصار حتى نيجني .

كان عمر الكسي اياكوفليفتش اوتشكين في ذلك الوقت ٢٠ عاماً . وقد ولد في قرية لاتينيغو في منطقة سمولنسك ، وتربى لدى امرأة كانت تعمل مساعد طبيب في المستشفى الريفي قبل بداية الحرب ، ثم دخل الكسي مدرسة المدفعية وتخرج منها بعد ستة أشهر وذهب رأساً إلى الجبهة . كان الملازم اوتشكين خلال المعارك عند آخر خطوط الدفاع عن مصنع تراكتورني ، على رأس مجموعة مؤلفة من رماة مسلحين بالرشيشات وسدنة هاون . ورجال هندسة ، وقانصي دبابات » .

- يقول اليكسي اوتشكين وهو يتابع سرد قصته « كنا أقل من سرية ، وكان الهتلريون أكثر منا عدداً بالرجال والدبابات والمدفعية والطيران ، ورغم ذلك قررنا الصمود حتى الموت . كان على جناحنا الأيسر بيفوروف وهو قانص دبابات ، ولديه مهمة تأمين الدفاع عن هذه الجهة برشاشه الثقيل ، وكان بيغوروف أكبر منا عمراً ويناهز الخمسين تقريباً ، وقد اشترك في الدفاع عن مدينة تساريستين (اسم ستالينغراد سابقاً) ، وكان الشيوعي ستيفان كوختاوكا الذي كان يشغل عمل سكرتير منظمة الحزب على رأس مجموعة قانصي

الدبابات والرماة من حملة الرشاشات والرشيشات ، بالإضافة إلى كونه رامياً ماهراً من رماة الرشاش خلال الحرب الأهلية .

وقد تمركز جميع هؤلاء في منتصف قطاع الدفاع . كما كنا قد ركزنا هاونين بقيادة الملازم شوتوف في الأسفل بالقرب من المياه ، بالإضافة إلى ذلك كان شوتوف ينشر هؤلاء ليلاً إلى الخلف ـ على لسان رملي ـ ومعهم رماة الرشيشات لكي يحبطوا كل تفكير معاد للالتفاف حولنا » .

تكلم الجنرال الألماني دوير في كتابه « معركة ستالينغراد » عن الهجوم الألماني على معمل تراكتورني في ستالينغراد « بدأت في الرابع عشر من شهر أيلول أكبر العمليات ، التي وقعت في ذلك الوقت فقد قامت بالهجوم بضع فرق ألمانية هي ـ الفرقة الرابعة المدرعة ، فرق المشاة (٣٠٥ ـ ٣٨٩) على جبهة تمتد من معمل تراكتورني ـ دزيرجنسكي ـ الحدود الشرقية ، حيث يقع مقر قيادة الجيش ٦٢ الروسي ، تعززها قوات أخذت تصل من مختلف حدود الجبهة ، وحتى من أجنحة قواتنا التي كانت متمركزة على الدون وسهوب «كالموك» ، كما وصلت كدعم وحدات وأقسام من رجال الهندسة . وتشكيلات الدفاع المضاد للدبابات . التي سحبت من تلك المناطق رغم ضرورتها ، ونقلت خمسة أفواج من سلاح الهندسة بالطائرات من ألمانيا مباشرة إلى قطاع القتال ، وكان يدعم الهجوم الفيلق الجوي الثامن بكامله » .

« وتقدمت قواتنا المهاجمة خلال معركة دامية مسافة كيلومترين ، ولكنها لم تتمكن من القضاء نهائياً على مقاومة ثلاث فرق روسية ، كانت تدافع عن المصنع من جهة منحدرات الفولغا . واضطرت قواتنا التي نجحت في النهار بالاختراق والوصول إلى ضفة الفولغا للتراجع والانسحاب ليلاً ، فقد كان الروس يكمنون لها في المنخفضات ويضربونها من الخلف » .

ولكي نكون موضوعيين من الضروري القول بأن الفرق التي كانت تدافع عن مصنع تراكتورني ليست ثلاثاً كما كان يعتقد الجنرال بل كانت قطع فرقة واحدة وهي فرقة الحرس ٣٧ بقيادة جولوديف مع ٦٠٠ عنصر من فرقة المشاة ١١٢ .

كنا ـ نحن المجلس العسكري للجيش وقادة الفرقة والألوية ـ على علم باستعدادات العدو للقيام بهجوم قوي بقوات متفوقة علينا . وبصراحة لم نكن نتوقع هجوماً على هذا المستوى من الاتساع ، كنا نعلم حقاً بأن معارك حاسمة ستدور ولن تنتهي بسرعة ، وكنا نعلم أننا إذا استطعنا مقاومة هذا الهجوم ، فلن

يتمكن الهتلريون من العودة مرة أخرى للهجوم بمثل هذه القوى ، وبهذه الوسائط والامكانيات ، كنا على يقين بأن مرحلة دقيقة بدأت بالنسبة لنا وبالنسبة للعدو .

بلاغ عن معارك ١٥ تشرين أول :

صمد الجيش في المعارك الدفاعية القاسية في القطاع الشمالي والأوسط من الجبهة . وقد صدت في القطاع الجنوبي الهجمات التي قامت بها تشكيلات صغيرة من المشاة والدبابات . وقد زج العدو بوحدات جديدة تابعة لفرقة المشاة ٣٠٥ وتابع قتاله محاولاً تطوير هجومه اعتباراً من مصنع تراكتورني في ستالينغراد ونحو الجنوب باتجاه مصنع باريكادي . كما وجه أيضاً جهده الرئيسي على سبارتانوفكا . وريفوك ساعياً للوصول إلى الفولغا ومؤخرات الجيش .

في نهاية يوم ١٥ تشرين أول وباحتلال العدو للمصنع ، يكون قد قطع جبهة الدفاع بين فرقة الحرس ٣٧ وفرقة المشاة ٩٥ كما وصلت عناصره الأمامية إلى ما وراء فرقة المشاة ٣٠٨ وإلى أقرب مركز قيادة الجيش ، واشتبك حرس « مقر القيادة » في المعركة مع العدو على بعد ٣٠٠ متر من مقر القيادة .

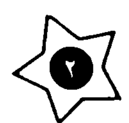
قطعت في الساعة ١٦ فرق ايرمولكين وجولوديف والجناح الأيمن لفرقة غورتييف إلى قسمين من قبل الدبابات وأخذت هذه القوات تقاتل وهي مطوقة .

« كانت الأخبار التي تصلنا متناقضة وأصبح من الصعب شيئاً فشيئاً التأكد منها .

بعض مراكز قيادات الفرق دمرت بسبب القذائف والقنابل وأعداد من الضباط قضوا نحبهم . ثلاثون شخصاً قتلوا في مركز القيادة ، لم يتوصل حتى الآن حرس أركان الجيش من تخليص الرجال في المخابىء المدمرة . قيادة القوات كانت تجري بواسطة الراديو بشكل رئيسي ، ومحطة الراديو الاحتياطية على الضفة اليسرى للفولغا ، كانت تعمل منذ الصباح . وكنا نرسل لها تعليماتنا التي كانت تنتقل للوحدات الموجودة في الضفة اليمنى عن طريقها » .

تدور المعارك دون انقطاع ليلاً ونهاراً . والوحدات المطوقة أو المعزولة كانت تواصل القتال ، وتعطي المعلومات عن وجودها بالراديو « سنموت من أجل الوطن ، ولن نستسلم مطلقاً » .

علمنا في منتصف ليل ١٥ وبشكل مؤكد أن الغزاة أحاطوا من كل الجهات بمصنع تراكتورني ، والمعركة تدور في اقسامه وفروعه .



كانت خطوط الإتصال التلفوني مقطوعة بعد احتراقها ، ليس فقط على الضفة اليمنى للفولغا ولكن أيضاً على الضفة اليسرى حيث أقمنا مركز قيادتنا التبادلي . لقد أزعجتنا هذه الظروف بخاصة لأن قوة الجيش الرئيسية ، وكل مدفعية الجبهة موجودة في تلك الضفة ، لذلك طلبت من قيادة الجبهة الأذن بالسماح لبعض أقسام الأركان للانتقال إلى مركز القيادة التبادلي بشرط أن يبقى المجلس العسكري بكامله في المدينة ، نحن نريد تأمين فقط قيادة القوات من الضفة اليسرى في حالة تدمير مركز قيادة الجيش .

كان الجواب بأننا لن نسمح بذلك .

كنا نجد أنفسنا شيئاً فشيئاً في مكان ضيق ، في ملاجىء المجلس العسكري ، يضاف إلى ذلك أفراد الأركانات المدمرة لفرقة جولوديف الذين أتو إلى المخابىء ، واللواء المدرع ٨٤ . فهناك فقط يستطيعون الاحتماء من القصف وتوجيه وحداتهم ، في نفس الوقت ، رغم الصعوبات .

اقترحت وعلى مسؤوليتي على قائد المدفعية الجنرال بوجارسكي بالانتقال إلى الضفة اليسرى لكي يقود من هناك المدفعية ، فأجابني والدمع يكاد يسقط من عينيه .

ـ لن أذهب فأين تكون أنت سأكون ، وسنموت سوية .

وقد أجبرني جوابه على التخلي عن اقتراحي .

كأن فينيروب قائد القوات المدرعة في الجيش ٦٢ يمضي أيامه بقرب دبابات اللواء ٨٤ حيث كان يختار لها الأماكن والمرابض الجيدة ، وينصب الكمائن ، وينظم التعاون بين المشاة والمدفعية .

كنا نتلقى التقارير المتعلقة من الوحدات والأقسام . وكثير من هذه الوحدات كان يطلب النجدة . ومنهم من كان يسأل ماذا نعمل ؟ وكيف ؟ وكنا نجاوب بصراحة على هذه التساؤلات باختصار :

ـ الصمود حتى النهاية ، وإلى آخر رمق . وعدم التراجع خطوة واحدة .

كانت خسائرنا فادحة جداً ، فقد فقدت فرقة جولوديف ، وفرقة غوريشني حوالي ٧٥٪ من عدادهما ، في يوم ١٥ تشرين أول ، ولكن في ذلك اليوم لم يستطع الفاشيست أن يتقدموا بهجومهم وصدوا بعد أن فقدوا ٣٧ دبابة . وحوالي

ثلاثة أفواج مشاة .

زج العدو في صباح ١٥ تشرين الأول في المعركة بوحدات قدمت حديثاً إلى الفرقة ٣٠٥ مشاة ، كما طور هجومه باتجاه الجنوب والشمال على طول الفولغا ، وكانت مدفعيته تضرب مواضعنا ، وتنتقل بنيرانها من جهة إلى أخرى . وكما هو الحال دائماً كان الطيران يقذف المدينة بآلاف القنابل .

ظل الجيش يتابع قتاله رغم أنه قطع إلى قسمين : فمجموعة الشمال « ألوية المشاة ٢٤ ، ١١٥ ، ١١٩ مع عناصر من فرقة (ايرمولكين) ظلت تقاتل وهي محاصرة ضد قوات العدو المتفوقة ، والتي كانت تهاجم من الشمال اعتباراً من لاتشنكا . ومن الغرب على طول وادي موكرايا ميتشنكا ، ثم من مصنع تراكتورني ، وقد قطع الإتصال بشكل دائم مع هذه المجموعة .

عبر في ليل ١٦ تشرين أول إلى الضفة اليمنى من الفولغا لواء من فرقة ايفاليتش ليودنكوف ، وزج في المعركة فور عبوره في شمال مصنع باريكادي ، وفي أضعف نقطة من جبهة الدفاع .

جدد العدو في نفس الليلة هجومه ، بفرقة المشاة ٣٨٩ والفرقة المدرعة ١٦ تعززها ألوية ميكانيكية وكانت هذه القوات تستهدف تدمير مجموعة الشمال المحصورة والتي كانت تدافع عن بلدتي رينوك وسبارتانوفسكا . كما عادت في صباح ١٦ تشرين أول ثلاث فرق مشاة عدوة للهجوم وهي (٣٠٥ ، ١٠٠ ، ٩٤) وكذلك فرقتان مدرعتان هما (١٤ و ٢٤) باتجاه الجنوب على طول الفولغا ، محاولة تدمير وسائطنا القتالية ومواضعنا .

دب الضعف إلى أقصى درجة في الوحدات التابعة لفرق : جولوديف . وغوريشني ، وصمد في معركة غير متكافئة لواء من فرقة ليودنكو ، واللواء المدرع ٤٨ أمام هجوم قامت به خمس فرق مشاة عدوة وبدعم من المدفعية والطيران . وكان الهتلريون هم أيضاً يتكبدون خسائر فادحة بفعل رمايات مشاتنا . وطيراننا المنقض الذي دفع ثمناً غالياً حتى وصل إلى سماء المدينة وحلق فوق العدو عبر ستارات الطيران الألماني التي كانت تعترضه . كما كبدت مدفعيتنا بما فيها مدفعية أسطول الفولغا العدو خسائر فادحة .

اكتشفت مصلحة استطلاعنا أثناء المعارك من أجل مصنعي تراكتورني وباريكادي مجموعة قوية من العدو تستعد للهجوم على مصنع كراسني أوكتيابر إنطلاقاً من قطاع شارع شاكتينسكايا والمرتفع ١٠٧,٥ . ووضع كشافونا أيديهم

على وثائق من أسرى يعودون إلى وحدات من الهندسة ، قدموا بالطائرة من كيرتش وميلينيروف ، وحتى من المانيا نفسها .

لم تفتر مراقبتنا لهذا القطاع من الجبهة ، وكنا نلح بإصرار على الوحدات التابعة لفرق سميخوتفوروف وغورييف وباتيوك ورروديمتسيف تحصين مواقعها ودعمها وتقويتها أكثر فأكثر . مع مواصلة الاستطلاع المكثف وأن تعمل على تدمير الغزاة بغارات مجموعات الانقضاض .

كان تكتيك فون باولوس واضحاً : كان يريد أن يجذب إليه قواتنا الرئيسية في قطاع المصانع وتثبيتها هناك ، وفي الوقت ذاته يحضر بسرية تامة ضربة قوية على قطاع جديد من الجبهة .

ولكن فون باولوس لم ينجح في تخدير حذرنا ، فمشاريعه كانت دائماً مكشوفة من قبل رجال مخابراتنا ، وكل ضربة من قبل العدو كانت تصطدم بدفاع محضر جيداً وسلفاً .

وهذا ما حدث عندما اندفعت في يوم ١٦ تشرين أول مجموعات عدوة هامة من مشاة ودبابات بالهجوم على طول الطريق المؤدي إلى مصنعي تراكتورني وباريكادي ، حيث وجه العدو جهده الرئيسي الحاسم في هذا الاتجاه ، ولكنه اصطدم بدبابات اللواء ٨٤ المطمورة في التراب في قطاع شارع ترامغابنايا ، كما استقبل رجال دباباتنا غرب القطاع المذكور العدو بنيران غزيرة على مسافة ١٠٠ ـ ٢٠٠ متراً ، مما أدى إلى تدمير عشر دبابات واشتعلت فيها النيران ، ولذا أخذ يتعثر هجوم العدو في الوقت الذي كانت فيه مدفعيتنا تفتح نيرانها القاتلة من الضفة اليسرى على مشاة ودبابات العدو .

ولكي نعطي فكرة عن حدة الصراع الذي دار في شهر تشرين أول سأورد هنا بعض البلاغات التي كتبت في الفترة التي دارت فيها أشد المعارك هولاً ومصير ستالينغراد في كفة الميزان .

وهذا هو البلاغ الصادر في ١٦ تشرين أول بعد ثلاثة أيام من المعارك المستمرة .

يصمد الجيش لمعارك دفاعية قاسية في القطاعات الشمالية والوسطى من الجبهة ، وفي القطاع الجنوبي صُدت هجمات المجموعات العدوة من مشاة ومدفعية .

هاجم العدو بقوات متفوقة (فرقة مشاة وفرقة مدرعات) ـ وحدات مجموعة

الشمال من قواتنا باتجاهين اعتباراً من لاتشنكا نحو رينوك ، ومن الغرب على سبارتانوفكا ، حيث نفذ على المنحدرات الغربية . وفي نفس الوقت ، وبقوى تزيد على فرقتي مشاة ومائة دبابة ، تابع هجومه اعتباراً من مصنع تراكتورني نحو الجنوب وفي نهاية النهار أصبح سيد شوارع ديريفيانسك ، مينوسينسك . والأقسام الغربية من شوارع فولخوفسترويفسكا ومن ترامغاينايا . سكوليتورني كما واصل هجومه على مصنع باريكادي .

قُطع الجيش مجدداً إلى قسمين من قبل العدو حتى ضفة الفولغا نفسها .

صمدت وحدات مجموعة الشمال المطوقة لمعارك قاسيه ، وتكبدت خسائر فادحة . ففي الفرقة ١١٢ واللواء ١٥ مشاة ، لم يبق أكثر من ١٥٢ حربة (مقاتل) وتحت ضغط قوى متفوقة ، اضطر لواء المشاة ١٤٩ للتراجع إلى الحدود الغربية لسبارتانوفكا .

انتقلت بقايا فرقة مشاة الحرس ٣٧ مع اللواء ٩٦٠ من فرقة المشاة ١٣٨ خلال الليل من الضفة الغربية للفولغا إلى ستالينغراد ، كما صمدت ألوية المشاة ٩٥ ـ ٣٨ أمام معارك قاسية دفاعية ضد المدرعات والمشاة العدوة على خط ديريفيانسكي ـ مينوسينسك ـ ترامغانيابا ـ سكولبورتورني . وزج العدو بالجبهة بفرقة مشاة حديثة هي الفرقة ٣٠٥ .

أحصي في مركز قيادة الجيش ثلاثون بين قتيل وجريح بسبب نيران المدفعية والهاون ورشاشات العدو ، ودمرت خمسة مخابىء مغطاة بالرمي المباشر . الموقف لدى الوحدات الأخرى لا تبديل عليه .

دمر للعدو خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ١٠٠ دبابة وقتل عدة آلاف من الجنود والاحتياط .

قرر قائد الجيش : زج فرقة المشاة ١٣٨ على الخط فولخوترويفسك . مصنع باريكادي سكولباتورني ، وإيقاف تقدم العدو على طول الفولغا نحو الجنوب في مؤخرات العدو .

وصل في ليل ١٧ تشرين أول لواءان من فرقة ليودنكو إلى ضفتنا ، واشتبكا فوراً في القتال على خط شارع فولخوفسترويفسكايا . معمل باريكادي حديقة سكولبوتورني ، واستطاعا الإتصال بالأقسام المعزولة من فرقتي جولوديف ، وغروشني . تمركزت أركان ليودنكوف في ملجأ المجلس العسكري أيضاً لعدم وجود مكان آخر .

أفرزت فرقة المشاة ١٣٨ ليودنكوف من الجيش ٦٤ ولكنها لم تصل إلى ستالينغراد بتعداد كامل لتكبدها خسائر فادحة في معارك الدون ، ثم على لاكسايا خلال عملها في الجيش ٦٢ .

وصل في تلك الليلة نفسها إلى مركز القيادة العقيد الجنرال ايرمنكو ومعاونه الرائد جنرال بوبوف .

كانت هناك لوحة حية أمام أعينهما . فمقر القيادة أصبح ضيقاً ، وكأنه في حفرة قنبلة غرزت في أرضها العوارض الخشبية ، وعلى الطرف كانت كل الأشياء مغطاة بطبقة من الأوساخ والغبار .

عندما افترقنا في الصباح ، رجوت قائد الجبهة إرسال التعزيزات من الرجال وكميات أكبر من الذخيرة حيث كنا نشعر بنقصانها جداً ، فأجاب وهو يغادرنا .

حسناً سنعمل على تلبية هذا الطلب . كما أمر بعد وصول الفرقة ١٣٨ نقل مقر قيادة الجيش أكثر إلى الجنوب من الضفة اليمنى للفولغا .

مر يوم ١٧ تشرين وسط معارك دفاعية قاسية : مجموعة الشمال تقاتل وهي مطوقة . جربت أكثر من عشرين دبابة ألمانية يتبعها جنود من حملة الرشيشات اختراق الحدود الجنوبية لبلدة سبارتانوفكا ، وهنا نشب صراع حتى الموت . وكان أقل ضعف أو نقص في التحلي بالصبر من قبل الضباط ، يمكن أن يؤدي إلى كارثة لكل المجموعة .

حسب أنباء العدو تم القضاء على وحدات وأقسام فرق المشاة ١٢٤ ـ ١١٥ ـ ١٤٩ التي كانت تدافع عن بلدة رينوك وسبارتانوفكا عدة مرات ، ولكن هذا كان موجوداً فقط في التقارير المتناقضة للأركان الهتلرية .

أخبر في ١٥ تشرين الأول قائد مجموعة القتال الألمانية « *B* » فون ويشز *von weishs* هو أيضاً مقر القيادة العليا لهتلر : « تم القضاء على الوحدات السوفيتية المطوقة في مدينة العمال ـ سبارتانوفكا ، وقضي عليها نهائياً » ، ولكن في العشرين من الشهر نفسه ، نقل رئيس الأركان العامة الألمانية لهتلر « وحدات من الفرقة المدرعة ١٦ وفرقة المشاة ٩٤ حققت خرقاً في القسم الجنوبي من سبارتانوفكا واحتلت مجموعة من البيوت المعجونة ببعضها »

جاء في نشرة عمليات قيادة الجيش الجوي ريشتوفن *Richtofen* الصادرة بتاريخ ١٩ تشرين أول : « لا يمكن أخذ رؤيا واضحة في ستالينغراد عن الموقف فالفرق كانت ترسل تقارير مشجعة . وكل فرقة تبلغ عن أخبار مختلفة ،

والهجوم على سبارتانوفكا شمال ستالينغراد فشل فشلاً ذريعاً »

كان قائد الفيلق الجوي الثامن فيبيج ***Fiebig*** يائساً لأن المشاة لا تستغل نتائج الهجمات التي تقوم بها طائراته .

أبلغ ريشوفن كلاً من فون باولوس وسيبليتز ***Syblitz*** بأن المشاة الألمانية أصبحت عاجزة عن الاستفادة من الغارات الجوية « وصلنا في انقضاضنا وغاراتنا أمام المشاة حتى مسافة القنابل اليدوية ، ومع ذلك فهؤلاء كانوا لا يستطيعون عمل شيء أمام الروس ».

كتب ولفانج ويرشن ***Wolfang Werthen*** في كتابه تاريخ الفرقة المدرعة ١٦ « تلقت الفرقة المدرعة ١٦ الأمر بتجميع كل قواتها لمهاجمة رينوك . هجمات الألوية مع ٢٥٠ دبابة تابعة للكونت دوهنا ***Dohna*** على رينوك وتكبدت الفرقة خسائر فادحة حيث سقط أكثر من أربعة آلاف جندي وضابط وأصبحنا غارقين في مقبرة عسكرية »

تلقيت برقيات من قيادة الألوية ١٢٤ ـ ١١٥ يطلبون فيها السماح لأركاناتهم بالانتقال لجزيرة سبورني ، ولكنني أجبتهم « بأن انتقالهم من الضفة اليمنى للفولغا ، يعتبر وكأنه هروب من القتال » وبعد هذه البرقية أرسلت إلى مدير العمليات في الجيش « كامينين » للاطلاع بدقة على الموقف ، اخبارنا عما يجري في هذا القطاع من جبهة القتال .

كان العدو خلال هذا الوقت يواصل هجماته باتجاه الجنوب اعتباراً من مصنع تراكتورني وعلى مصنع باريكادي ، والمئات من طائراته القاذفة تنقض على المنطقة التي طمرت فيها دبابات اللواء ٤٨ ، فأحرقت القنابل ما تبقى من الأبنية ، وحتى الأرض احترقت هي والدبابات ، ولم يكن باستطاعة مدفعيتنا المضادة للطائرات تغطية قواتنا بفعالية .

واخترقت في نفس اليوم مجموعة منفردة من مشاة العدو ، تدعمها دبابات القطاع الشمالي ـ الغربي من مصنع باريكادي ، ولكن مفارز العمال المسلحة اشتبكت معها بالقتال .

شكلنا بما تبقى من فرقة غوريشني لواءاً واحداً هو اللواء ١٦١ ، الذي تمركز دفاعياً ، وأخذ يقاتل في قطاع شارع سورموفسكايا في حين نقل أركان الفرقة وأركانات اللواءين فيها إلى الضفة اليسرى من الفولغا ليعاد تشكيلهما وإتمام ملاكهما .

صدت طيلة اليوم فرقة غورتييف رقم ٣٠٨ هجمات العدو التي قام بها بالمشاة والمدرعات في قطاع الستاد الرياضي ، كما استطاعت وحدات الفرقة ١٣٩ سميخوتفوروف ، صد هجمات العدو بالمشاة والمدرعات في قطاع كازاتشايا .

أصبحت فرقة غورتيف في موقف دفاعي صلب بعد أن أحاطت بها مشاة العدو ودباباته من جوانبها ، كما حقق في المساء فوج من الهتلريين اختراقاً في شارع سيفيرنايا .

صدت كافة الهجمات العدوة على قطاعات فرق غورييف ، وباتيوك ، وعطبت في يوم ١٧ تشرين أربعون دبابة عدوة أو احترقت ، وسقط حوالي ألفي قتيل من مشاة العدو .

أخبرني مساء السابع عشر من شهر تشرين أول ، غوروف عضو اللجنة المركزية أن الرفيق ن . مانويلسكي عضو اللجنة المركزية للحزب وصل من موسكو ، وهو يريد زيارتنا في المدينة ، وأنه أعطى موافقته على هذه الزيارة ، وقد رفضت الزيارة مباشرة ، وألححت على غوروف أن يلغي هذه الزيارة ، ولكن غوروف لم يقبل بذلك فقلت له :

إن مانويلسكي شخصية مهمة في الحزب وقدومه إلينا لا يفيدنا بشيء ولا نستطيع حمايته ، ويمكن أن يقضى عليه خلال عبوره الفولغا ، وحتى إذا بقي على قيد الحياة لن نسمح له بزيارة القوات .

وأخيراً إتفق معي غوروف بعدم الزيارة واقتنع بعدم جدواها .

عرف الرفيق مانويلسكي سبب رفضي فيما بعد .

ففي عام ١٩٤٧ عندما كان عائداً من أمريكا إلى موسكو عن طريق برلين ، واستقبلناه بالمطار ، وخلال حفلة الغذاء التي أقمتها على شرفه . وكان جالساً إلى الطاولة بقربي فاقترب مني وأخذ يسأل ، لماذا لم أتركه يزورني في مقر القيادة على الطرف الأيمن للفولغا ؟

وبعد أن أصغيت إليه أجبته :

ـ لو تركتك تحضر لمقر القيادة في آذار ١٩٤٢ ، فمن المحتمل أن لا أجد الفرصة لأجلس مع رفيق مثلك إلى هذه الطاولة .

معارك عنيفة من أجل كراسني أوكتيابر أخذت تقترب . فمعلومات استطلاعنا تشير إلى ذلك ، ومن أجل تقوية السيطرة على القوات ، وموافقة أركان الجبهة على ذلك ، قررنا نقل مقر القيادة إلى منخفض « فاني » تحت

جسر سكة الحديد قريباً جداً من مصنع كراسني أوكتيابر .

في ليل ١٨ تشرين أول ترك أعضاء أركان الجيش والمجلس العسكري مخابئهم محملين بالوثائق والعتاد . وعند وصولنا للمنخفض فتشنا طويلاً على مكان يوضع فيه مركز القيادة ولكن وجدنا أنفسنا معرضين في أكثر الأحيان لنيران رشاشات العدو . وظهر واضحاً أن المكان الذي اخترناه ليس بالمكان المناسب ، لذلك واصلنا طريقنا على طول ضفة الفولغا بعيداً إلى الجنوب حوالي كيلومتر ، وهناك بدأنا بالعمل في سهل على الضفة وتحت سماء مكشوفة ، دون أي ملجأ . كما وجدنا أنفسنا على بعد كيلومتر من كورغان ماماييف الخط الأول .

كان هذا الموقع آخر موضع لنا كمركز القيادة ولم نتركه حتى نهاية معركة ستالينغراد .

وصلتنا في ١٨ تشرين أول معلومات من رئيس عمليات الجيش العقيد كامينين ، الذي كنت قد أرسلته إلى مجموعة الشمال ، وتدل على أن الموقف أصبح خطيراً ولكن غير ميؤوس منه . فقد أبيد العدو الذي كان قد حقق خرقاً في سبارتانوفكا . عناصر من مجموعة الشمال اتخذت مواقعها الدفاعية على المشارف الشمالية من بلدة رينوك على الحدود الغربية والجنوبية لسبارتانوفكا ، بما فيها رصيف الإنزال الواقع بالقرب من مصب موكراياميتشنكا . هدأت هذه المعلومات قليلاً من قلقنا على الجناح الأيمن للجيش .

تتابعت خلال اليوم المعارك الرئيسية من أجل مصنع باريكادي ، وامتدت إلى الجنوب نحو مصنع كراسني أوكتيابر . خلال كل الليل والنهار الذي تلاه صدت وحدات ليودنكوف وجالوديف وغوريف الهجمات العدوة القادمة من الشمال نحو باريكادي ، وحديقة سكولبوتورني . في الساعة ١٥ اخترق العدو الجبهة إلى الجنوب من شارع دير يفنسكايا ، ونفذ على الفولغا ولكن الهجوم المعاكس الذي قام به اللواء ٦٥٠ بالحراب ، أباد العدو الذي وصل الفولغا وأعاد تثبيت الموقف .

استطاع العدو في نهاية النهار بهجوم قام به بالمشاة والدبابات على طول شارع ترامغابنايا التغلب على مواضعنا ، ونفذ على سكة الحديد إلى الغرب من مصنع باريكادي . واشتبكت مفارز عمال المصنع في معارك ضارية دامت بضعة أيام ، لم يبق في نهايتها سوى خمسة أشخاص أحياء .

صدت وحدات سميخوتفوروف منذ الصباح هجمات العدو ، التي قام بها بالمشاة والمدرعات قادماً من الغرب وفي الساعة ١١,٣٠ سحق الجناح الأيمن للفرقة . وقد وجدت وحدات غورتيف نفسها مهددة بالتطويق الأكيد في قطاع حديقة سكولبوتورني ، ومن أجل تفادي ذلك ، ولأول مرة منذ بدء القتال في المدينة سمحت لقواتي بالتراجع ٢٠٠ ـ ٣٠٠ م ، وبعد ذلك تم إصلاح الجبهة وكثفنا مواقعنا .

أما الأمر الذي أرسل فلم يذكر التراجع ولكنه قال « إلى فرقة غورتيف ، الأمر ، بالانتقال في ١٩ تشرين أول ، الساعة ٤ والدفاع عن قطاع شوارع سموروفسكا توبيكوفستكا » ، وهذا يعني الانسحاب من قطاع سكولبوتورني إلى الخلف نحو مواضع جديدة .

وأني أتذكر بكل مرارة توقيعي على ذلك الأمر . وكيف كان غالياً علينا كل متر من الأرض على شاطىء الفولغا ، وفي معارك ١٨ تشرين أول خسر العدو ١٨ دبابة وحتى ثلاثة أفواج مشاة .

شعرنا في ١٨ تشرين أول أن هجمات العدو ضعفت قليلاً وبخاصة الطيران . وشجع هذا في بعض النواحي قواتنا ، ففي أربع وعشرين ساعة ، لم ينجح العدو بالتقدم سوى ٥٠ ـ ١٠٠ م في بعض القطاعات .

كما شعرنا بأن قواتنا ليست وحدها والتي أصبح من الواضح ، أنها نزفت بقوة ، بل إن الغزاة لم يعودوا يستطيعون حتى النهاية تجديد هجماتهم العنيدة فمواردهم من العتاد أخذت تنضب ، ونشاط طيرانهم ، هبط من ثلاثة الاف طلعة إلى حوالي ألف طلعة يومياً .

ومع ذلك فبالرغم من الخسائر الكبيرة ، لم يتخل فون باولوس عن هدفه باحتلال كامل المدينة ، فقد أخذت تظهر على الساحة قوى جديدة من المشاة والمدرعات ، وبالرغم من خسائرها أخذت تندفع نحو الفولغا .

ولكن الهتلريون لم يكونوا جميعهم بنفس الصلابة . فالوحدات الجديدة والتعزيزات نفسها ، كانت تعرف ما هي المعارك على شواطىء الفولغا ، وهذه قطعة من يومية جوزيف شافستين ، وهو ضابط صف في اللواء ٢٢٦ من فرقة المشاة (٧٩) الألمانية .

« غورروديشتشه ليست بعيدة عن ستالينغراد ، هنا كانت جهنم حقيقية اليوم شاهدت للمرة الأولى الفولغا ، لم تكن هجماتنا تحرز أي نجاح . فهجومنا ما يكاد

يبدأ حتى نعاد إلى الوراء بقوة . قذف ليلي عنيف ، كنا نعتقد بأن نهايتنا قد بدأت .. في اليوم الثاني هجوم جديد ولكنه لم ينجح ، معارك طاحنة ، العدو يطلق علينا من كل الاتجاهات ، حتى أصبح من المستحيل الظهور في الليل فطيران العدو ومدفعيته « الكاتيوش » الروسية ، لم تترك لنا وقت للراحة ، وخسائرنا فادحة »

أظهرت المعارك من أجل المدينة والفولغا كوامن القوة البطولية لدى الشعب السوفيتي وجنوده ، وبقدر ما كان العدو هائجاً ، بقدر ما كان جنودنا يقاتلون ببسالة وصلابة المحارب ، فالذي كان يبقى سليماً كان يحاول الدفاع عن نفسه ، وعن قطاعه من الجبهة ، وكانوا يثأرون لرفاقهم الذين قضوا ولانفسهم .

حدثت حالات كثيرة فالجندي الذي كانت إصابته خفيفة ، كان يشعر بالخجل ليس فقط من أن يتركهم يخلونه إلى الضفة الأخرى من الفولغا ، بل من أن يذهب إلى المركز الصحي القريب .

صد الجيش في ١٩ و ٢٠ تشرين أول هجمات العدو أمام سبارتانوفكا وأمام مصانع باريكادي . وكراسني أوكتيابر طوال هذين اليومين بلياليهما . ولكن هجمات العدو هذه لم تقدم له أي نتيجة تذكر .

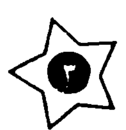
هجماتنا كانت تتوالى أربعاً وعشرين ساعة في أربع وعشرين ساعة ، وكنا نجبر العدو على أن يقوم هو الآخر بهجوم ليس فقط نهاراً ، ولكن خلال الليل أيضاً . وعلى العموم كان الألمان يهاجمون ليلاً دون دعم جوي ، ودون نجاح وهذا ما يجعل المعركة تنقلب غالباً إلى قتال بالنيران فقط .

كنا نرى ونعلم أن العدو يكتل قواه في قطاع بلدة باريكادي والمرتفع ١٠٧,٥ ليقوم بهجوم وبقوى جديدة ، وكان علينا أن نقوم بحساباتنا بدقة ، لكي نصد الضربات المتتالية للهتلريين ، ونكتل ونكدس لصد الهجمات القادمة من اتجاهات جديدة .

كان علينا تعويض خسائرنا بعناصر من المؤخرة . من المتعافين ، في الأفواج الصحية للفرق ، لذلك أرسلت مجموعات من ضباط أركان الجيش للخلف وغدا لكل خمس إلى ست سيارات سائق واحد ، اختصرنا رجال التصليح والمخازن والخياطين والحذائين وعمال اختصاصيين آخرين . كنا نشكل سرايا مسير ، ونرسلها إلى الضفة اليمنى ، بعد أن تتلقى تدريباً ضعيفاً . ولم يكن بالإمكان غير ذلك ، ومنذ وصولهم إلى المدينة أصبحوا بسرعة خبراء في حرب

الشوارع ، فخطورة الموقف أجبرت كل واحد منهم على تفهم طبيعة معركة ستالينغراد .

ـ أصبح الاقتراب من الضفة اليمنى مخيفاً ، ولكن حال ما تطأ القدم على الأرض يختفي الخوف . كان الجنود يقولون كنا لا نعرف إلاّ شيئاً واحداً هو أنه لا توجد أرض لنا في الضفة الأخرى من الفولغا ، ولكي تبقى على قيد الحياة عليك أن تقضي على العدو .



ظهرت قوى ألمانية جديدة في ٢١ ـ ٢٢ تشرين أول واندفعت للهجوم ضد فرق سميخوتفوروف وغورييف . منذ ذلك اليوم أخذت المعارك تزداد ضراوة شيئاً فشيئاً من أجل مصانع باريكادي ، وكراسني أوكتيابر ، ومن أجل معبرنا على الفولغا .

زاد طيران العدو مجدداً عدد طلعاته اليومية حتى ألفي طلعة .

خسر العدو خلال هذين اليومين ١٥ دبابة وحوالي ألف من جنود المشاة . وأصبحت المواقع الألمانية قريبة جداً من مواقعنا حتى أخذنا نستخدم معه قاذفات اللهب التي تصل مداها إلى مائة متر .

في ٢٣ تشرين أول زج العدو في المعركة فرقة المشاة ٧٩ تعززها الدبابات ، وتحت تغطية كثيفة من الطيران إندفع بالهجوم . موجهاً جهده الرئيسي الى مصنع كراسني أوكتيابر . ثم أخذ مركز ثقل المعركة ينتقل من الآن فصاعداً إلى القطاع الممتد من مصنع باريكادي حتى منخفض (باني) .

نجح المهاجمون في نهاية النهار وبثمن باهظ من الخسائر من إحداث خرق باتجاه المخبز ، وتقدموا إلى ما وراء الخط الحديدي الذي تمددت عليه العربات المحطمة . مجموعة من حملة المسدسات الرشاشة العدوة بتعداد سرية تقريباً ، تسربت في القطاع الشمالي ـ الغربي من مصنع كراسني أوكتيابر .

لقد اقترب خط المعركة الأول الى ٣٠٠ ـ ٥٠٠ م من ضفة الفولغا ، وبذلك هدد بشكل جدي آخر معابر الجيش عبر الفولغا .

وجهت مدفعيتنا مع هبوط الظلام ضربة قوية إلى دبابات العدو ومشاته المتكتلة على أطراف مصنع كراسني أوكتيابر . وهذا ما ألجم قليلاً الهجوم

الألماني ، وخفف الوطأة على المدافعين .

وإذا كان العدو بين ١٨ ـ ٢٣ تشرين أول ركز جل قواته على مصنع باريكادي وسبارتانوفكا اعتباراً من يوم ٢٤ تشرين أول ، إلا أنه تغلغل أيضاً بقوى جديدة على كراسني أوكتيابر ، وأخذت حدة وحرارة المعارك تتزايد حسب تدرج ضراوتها .

أخذ البلاغ الصادر في ٢٤ تشرين أول ١٩٤٢ ، بعين الاعتبار السير العام للقتال :

« صمد الجيش خلال اليوم لمعارك شديدة دفاعية في القطاع الجنوبي والأوسط من الجبهة ، وفي القطاع الجنوبي حصلت اشتباكات مع مجموعات صغيرة من مشاة العدو » .

عاد العدو . بعد تمهيد كثيف من الطيران والمدفعية والهاون ، للهجوم في الساعة ١١ بقوى جديدة من المشاة والدبابات باتجاه مصانع باريكادي كراسني أوكتيابر وعلى سبارتانوفكا .

استطاعت وحدات مجموعة الشمال خلال النهار صد كل الهجمات العدوة ، وخلال الليل بعد أن أخرجت المجموعات العدوة التي كانت قد تسربت واحتلت بلدة سبارتانوفكا .

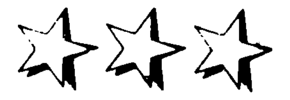
بدأ العدو هجومه في الساعة التاسعة صباحاً وبعد معركة طاحنة أصبح آخر النهار سيد الأجزاء الوسطى والجنوبية الغربية لمصنع باريكادي . وواصلت فرق المشاة ١٣٩ ، ٣٠٨ القتال للدفاع عن مصنع باريكادي .

صدت فرقة المشاة ١٩٣ اعتباراً من الساعة ١١ هجمات العدو التي قامت بها مشاته ودباباته ، وطور هجومه اعتباراً من قطاع شارع توبيسكوفيا . وعلى طول شوارع كراسنو بريسنيسكايا الى المحيط الشمالي لمصنع «كراسني أوكتيابر» ، جرب بجزء من قواته النفوذ إلى الفولغا عن طريق شارع ستالنايا . وفي الساعة الثامنة وفي قطاع لواء المشاة ٨٩٥ ، وصلت مدرعات العدو حتى مركز قيادة اللواء ، وفتحت المشاة التي كانت تتبع الدبابات ثغرة في صفوفنا الضعيفة والمعركة مستمرة .

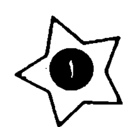
صمدت فرقة الحرس ٣٩ في المعركة التي نشبت من أجل مصنع كراسني أوكتيابر كما فتح العدو ثغرة جزئية في القسم الشمالي الغربي من منطقة المصنع .

دمرت قنبلة مباشرة أربعة مخابىء مغطاة تابعة لأركان الجيش ، مما أدى لارتفاع الخسائر إلى ١٥ شخص . كما قتل المقدم تيموشين قائد اللواء ٤٥ ايضاً .

حسب إفادات الأسرى والوثائق التي وقعت في أيدينا ، كانت تعمل أمام جبهة الجيش ٧ فرق مشاة وثلاث فرق مدرعة .. وفي قطاع بتشنكا صد تجمع لوحدات آلية عدوة تقدر بفرقة وفي يوم واحد ، وخلال المعركة قام طيران العدو بـ ١٥٠٠ طلعة .. » .



آخر محاولة لفون باولوس



حسب المعطيات التي كانت لدينا حول مجرى المعركة من الواضح أن قوات العدو قد أنهكت كما هو الحال بالنسبة إلى قواتنا . وفي عشرة أيام من الصراع قطع الألمان مرة أخرى الجيش إلى قسمين ، وسقط مصنع تراكتورني في أيديهم ولكنهم لم يستطيعوا تدمير قواتنا الرئيسية .

لم يعد لدى العدو القوى والوسائط للعمل ، وكان عليه استدعاء احتياطاته من المؤخرات البعيدة ـ قوات جديدة وصلت من ألمانيا . وظهرت أمام جبهة الجيش فرقة عدوة جديدة وألوية وأفواج منفردة ، استقدمت بالطائرات بسرعة . ولم يكن كل ذلك كافياً ، وكان على العدو ورغماً عنه أن يسحب من مختلف الفرق عدداً من الألوية والأفواج وبخاصة النقابون (رجال الهندسة) وكان العدو يرميهم دفعة واحدة في القتال من أجل إسكات مقاومتنا . وكما زجت هذه الوحدات بالمعركة بسرعة ذابت كالشمع في أتون معركة ستالينغراد .

ومن الطبيعي أن يسعى هتلر للاحتفاظ بالمبادرة بين يديه . فلا يزال لديه حتى ذلك الوقت القوى للقيام بضربة جديدة .

ولكن استقر في أذهان جنودنا أنه بعد المعارك الشديدة التي دارت في تشرين الأول ، لم يعد بالإمكان تحضير مثل هذه العمليات الهجومية بسرعة ، كما لم يعد سهلاً كما يقولون أيضاً على المهاجم أن يجتاز الحواجز التي شكلها هو بنفسه من أكوام الجثث الألمانية المتروكة والعتاد المدمر . كان مقاتلونا يرونه ذلك بأعينهم ، ويستخلصون النتائج الخاصة بهم ونادراً ما كانوا يخطئون .

صرح هتلر في نهاية أيلول « نحن نهاجم ستالينغراد وسنحتلها . وتستطيعون أن تعتمدوا على ذلك وعندما نأخذ أي شبر ، فلن نخرج منه .

كما أن غوبلز قال في إحدى اجتماعاته مع الصحفيين الأتراك « أنا الذي

أتكلم دائماً ، وأزن كلماتي ، أستطيع أن أؤكد لكم ، أنه قبل الشتاء سوف لن يشكل الجيش الروسي أي خطر على ألمانيا ، كما قال لهم إني مقتنع بذلك ، كما هو حالي دائماً مع الأحداث التي لا تخطىء أبداً ، ورجائي أن تتذكروا ذلك بعد بضعة أشهر » .

كان من الصعب الظن بأن هتلر وغوبلز يجهلان الحالة النفسية لدى جنودهم وضباطهم ، الذين كانوا يقاتلون في ستالينغراد نفسها ، ففي رسائل الضباط الألمان المؤرخة في أيلول وتشرين أول ، نقرأ تقديراً مختلفاً للأحداث . فواحد من بينهم ـ وكان من الواضح أنه لم يمر حتى ذلك الوقت في تجربة ستالينغراد ـ الملازم الأول غ . هنس ، كتب في بداية تشرين أول « نحن نهاجم ستالينغراد . لقد قال الفوهرر : ستالينغراد يجب أن تسقط » ونحن سنجاوبه ستالينغراد لن تلبث أن تصبح بين أيدينا ، وستكون جبهتنا في شتاء هذا العام على الفولغا .

ولكن منذ نهاية تشرين أول تغيرت اللوحة كلياً ، في رسائل الجنود الألمان ، وكل الملاحظات التي سمعنا بها .

كتب العريف ولتر « ستالينغراد هي الجحيم على الأرض هي فردون ، فردون حمراء بأسلحة جديدة . نحن نهاجم يومياً فبعد نجاحنا في الصباح باحتلال عشرين متراً كان الروس يلقون بنا في المساء إلى الوراء » .

العريف ف . بيست كتب بنفسية سلبية وصرخ في كتابه لأمه « يجب انتظار النشرة الخاصة مدة طويلة ، تلك النشرة التي أعلنت أن ستالينغراد هي لنا ، الروس لا يستسلمون أبداً إنهم يقاتلون حتى آخر شخص » .

قرر المجلس العسكري للجيش ٦٢ الموقف هكذا : لم يعد بإمكان فون باولوس الضرب مجدداً بقوة مثل الضربات التي قام بها بين ١٤ ـ ٢٠ تشرين أول لذلك فهو بحاجة إلى توقف طويل من ١٠ إلى ١٥ إلى ٢٠ يوم ، لكي يستقدم كميات كبيرة من القذائف والقنابل والدبابات لاستخدامها في عمله ، ولكن كنا أيضاً نعرف ، بأنه يوجد في قطاع غورماك وفوروبونوفو تقريباً فرقتان احتياطيتان عدوتان . يمكنه أن يزجهما في المعركة . وكنا نأمل أن تلك الفرق ستكون خلال ثلاثة إلى خمسة أيام في نهاية تحملهما ، وسيكون فون باولوس مضطراً للتخلي عن ضغطه ، وبهذا يمكننا أن نعيد تنظيم صفوفنا . وتجميع قواتنا وأن نتحصن . ولكن كيف نصمد خلال تلك الأيام الثلاثة أو الخمسة بقواتنا

القليلة ، فالفرق ٣٧ ، ٣٠٨ ، ١٩٣ لم تعد سوى أرقام فجميعها ، لا تعد سوى بضع مئات من الحراب المستعدة للقتال . فبعد أن صددنا أقوى هجوم معادٍ أصبحنا في أدنى قوتنا . وكنا نأمل على كل حال أنه باستطاعتنا صد الهجمات العدوة الجديدة . التي سيقوم بها احتياط العدو الجديد . وكنا كما في السابق مستعدين للقتال حتى آخر رجل و آخر طلقة .

اعتباراً من ٢٤ تشرين أول لم يعد الهتلريون يهاجمون ليلاً والظاهر أنهم اقتنعوا بأنهم لا يحصلون على النتائج المرغوبة ، لذلك قرروا استخدام ساعات الليل للاستراحة والتحضير للقتال في النهار ، أما نحن فقررنا عكس ذلك ، فبالغارات التي تقوم بها مجموعات الانقضاض والأعمال المباغتة من قبل المدفعية والطيران خلال الليل نحبط تحضير العدو لهجماته ، التي يخطط لها في اليوم الثاني ، ولن نترك له أدنى راحة في الليل . لقد أصبح الليل حليفنا الحقيقي .

عاد العدو إلى هجماته في يوم ٢٥ تشرين أول على طول الجبهة بقوى جديدة . ووجه ضربته إلى بلدة سبارتانوفكا مع فرقة مشاة ودبابات مما خلق وضعاً حرجاً على جبهة مجموعة الشمال ، وبدعم من الطيران والمدرعات استطاعت مشاة العدو دفع وحدات اللواء ١٤٩ واحتلت قطاعاً يضم خمس منخفضات واقعة إلى الجنوب من الخط الحديدي غومارك ـ فالديميروفكا ووسط سبارتانوفكا . هرع أسطول الفولغا بمدفعيته لنجدة اللواء ١٤٩ وكبد العدو خسائر فادحة .

قامت في نفس اليوم ٢٥ تشرين أول قوات من الجناح الأيمن للجيش ٦٤ بالهجوم على قطاع كوبوروسنويا .

لم تحقق الهجمات المتكررة التي قام بها العدو بين ٢٦ ـ ٢٧ تشرين أول أي نجاح واستطاعت قوات اللواء ١٤٩ ف . بولفينوف ، بدعم من مدفعية أسطول الفولغا من طرد العدو من سبارتانوفكا .

نشبت في ٢٧ تشرين أول معارك شديدة في قطاع مصنع باريكادي .

سحق الغدو الجناح الأيسر لفرقة ليودنكو ، ولواء من فرقة غورييف ، واحتل رماته من حملة المسدسات الرشاشة ، شارعين وبدأ هؤلاء يوجهون رشاشاتهم على قطاع آخر معبر لنا ، وفي نفس اللحظة استطاعت وحدات سميخوتفوروف وغورييف صد الهجمات التي قامت بها الفرقة ٧٩ الألمانية التي وجهت جهدها

الرئيسي على معمل كراسني أوكتيابر .

وصل رماة المسدسات الرشاشة الفاشيون ، الذين تسربوا عبر صفوفنا الضعيفة العائدة لهذه الوحدات حتى أركان الفرقة ٣٩ . وأخذت القنابل اليدوية تتطاير في مخبأ غوريبف . وعندما علمت بذلك أرسلت لنجدتهم سرية حرس أركان الجيش ، وبهجوم عنيف تمت هزيمة الرماة الألمان وبملاحقتهم نفذوا إلى مصنع كراسني أوكتيابر ، حيث بقوا هناك ، ثم وزعوا في فرقة غوريبف .

تابع العدو توجيه ضرباته باتجاه معبر النهر من كراسني أوكتيابر حتى الساعة ١٥ حيث تمكنا من صد هجماته . ولكن في نهاية النهار نجح الهتلريون على كل حال باحتلال شارع ماشينايا .

كان المهاجمون على بعد أربعمائة متر من الفولغا ، في القطاع المحصور بين مصانع باريكادي ، وكراسني أوكتيابر . وأصبحت المنحدرات والمنخفضات على الفولغا من الجهة الغربية تحت رحمة نار رماة المسدسات الرشاشة ، والمدفعية العدوة ، ولم يكن بالإمكان التنقل إلا زحفاً على طول ضفة الفولغا وهذا لا يناسبنا كلياً . وسرعان ما قام رجال الهندسة وركزت عبر الوديان الصغيرة حواجز مزدوجة من الخشب ملئت بالحجارة . وهكذا ارتفع حائط يحمينا من الطلقات .

تابعت بالرغم من تحضيراتها للهجوم المعاكس . قيادة الجبهة مساعدة الجيوش التي كانت تدافع عن ستالينغراد وبخاصة الجيش ٦٢ .

في ليل ٢٧ تشرين أول بدأ وصول ألوية الفرقة ٤٥ مشاة التي ألحقت بالجيش ٦٢ وخلال الليل لم يستطع أن ينجح بالعبور سوى فوجين من تلك الفرقة حيث وضعا تحت قيادة الفرقة ١٩٣ واتخذت مواضعها في الموضع الدفاعي بين مصنعي باريكادي ، وكراسني أوكتيابر بمهمة عدم ترك العدو ينفذ حتى الفولغا ، ومعبر النهر .

ويظهر أن العدو أخبر بوصول وحدات جديدة ، لذلك أخذ يقصف القطاع الواقع بين المصانع طيلة النهار تقريباً ، بقنابل تزن الطن . وكانت تسقط على مواضع الفوجين . وبعد ذلك ، وبعد نشاط الطيران كالعادة إندفعت مشاة العدو مع ٣٥ دبابة للهجوم في هذا القطاع وبعد فشل انقضاضه الأول أتبعه بهجوم ثان وثالث .

خسرت أفواجنا في يوم واحد من المعارك نصف تعدادها ، ولكنها لم تترك

العدو يصل حتى الفولغا . وعلى كل حال نجح العدو في المساء من دفع الجناح الأيسر لهذه الأفواج مع المجموعات المنعزلة من مشاة الفرقة ١٩٣ ، فتحصنت بقايا هذه الوحدات الصغيرة على بعد ثلاثمائة متر من الفولغا .

توصل العدو في المساء لاحتلال القسم الشمالي الغربي من مصنع كراسني أوكتيابر ، واحتدم صراع طويل ، امتد إلى عدة أسابيع .

تهلهلت صفوف الجيش ٦٢ خلال المدة التي دارت فيها المعارك بين ١٤ ـ ١٧ أيلول بشكل لم يعد بالإمكان سحب فصيلة واحدة من الخطوط الأولى ، وكنا نردد « أيضاً بضعة أيام » « أيضاً بضعة أيام » .

كان بإمكان فون باولوس أيضاً ، أن يسحب القوات من قطاعاته السلبية من الجبهة ووضعها ضدنا ، أما نحن فلم يكن لدينا احتياط . ولم يعد بإمكاننا كلياً القيام بمناورة على هذا الشريط الضيق من ضفة النهر . وبقيت الأركان تقريباً دون حراسة . وكنت قد استبقيت حتى آخر لحظة فوج التدريب الوحيد من لواء الاحتياط الذي كان يدرب ضباط الصف ، ومن ثم انخرط هو الآخر في المعركة في قطاع المصانع ، وكان من الصعب على الفرقة ٤٥ مشاة سكولوف التي ألحقت بالجيش عبور الفولغا .

بلاغ ٢٨ تشرين أول ١٩٤٢ .

« صمد الجيش ٦٢ طيلة يوم ٢٨ تشرين أول في معارك دفاعية قاسية بصورة غير عادية في القطاعات الشمالية والوسطى من الجبهة ، وصد الهجمات العنيفة التي قام بها العدو . وقام هو نفسه بالهجوم بمجموعات الانقضاض على نقاط استناد العدو تعاونت وحداتنا مع طائراتنا القاذفة ، والمنقضة » .

« كان العدو طيلة اليوم يقصف القطاع الواقع بين مصانع باريكادي . وكراسني أوكتيابر ومنخفض باني . رمى العدو كل قواه المتوفرة في المعركة ، من المشاة والدبابات في محاولة لرمي قواتنا في الفولغا » .

« صدت قوات مجموعة الشمال خلال اليوم ثلاث هجمات عدوة . وفي المساء تمسكت بقوة في مواقعها » .

« وبعد جهد كبير لا حدود له ، صدت وحدات الفرق ١٣٩ و ٣٠٨ هجمات العدو القادمة من الشمال الغربي على مصنع باريكادي . ودامت المعركة حتى هبوط الليل » .

« نشبت معارك ضارية بين مصانع باريكادي ، وكراسني أوكتيابر وعلى

طول شارع ماشينايا » .

« صمدت وحدات الفرقة ١٣٩ مشاة لمعارك قاسية ضد وحدات العدو من المشاة والدبابات التي كانت تهاجم المارة في الشوارع بين مصانع باريكادي وكراسني أوكتيابر . في محاولة للنفوذ على الفولغا . احتوت قواتنا إندفاع العدو بثمن باهظ من الجهد والخسائر ، ولم يبق سوى بضعة مئات من الأمتار حتى الفولغا » .

« تابعت فرقة الحرس ٣٩ القتال في منطقة المعامل كراسني أوكتيابر ، وبذل مشاة العدو ، ودباباته جهدهم للنفوذ في القسم الأوسط ، اعتباراً من زاوية المصنع الشمالية ـ الغربية . وفي نهاية النهار كانت المعارك لا تزال دائرة . خاض لواء مشاة الحرس ١٠٩ التابع لفرقة الحرس ٣٧ معركة ضارية على بعد ثلاثمائة متر من الفولغا بين شوارع نوفوسيليسكايا . وموستوفايا . وعلى نفس الخط في قطاع توفنيسك ، اشتركت دبابات اللواء ٨٤ في المعركة .

دمر خلال هذا اليوم فوجان من مشاة العدو واحرقت ١١ دبابة ، وأسقطت ثلاث طائرات » .

« قررت قيادة الجيش متابعة العمل بمجموعات الانقضاض الصغيرة ومنع العدو من الاختراق حتى الفولغا »

بعد هذه المعارك المميتة والتي دارت دون انقطاع ، تشرذمت صفوف الوحدات ١٣٨ و ٣٩ من مشاة الحرس ، وكذلك فرق المشاة ٣٠٨ و ١٩٣ . ولم تعد هناك جبهة متصلة في قطاعات معامل باريكادي . وكراسني أوكتيابر . وكانت تمسك قطاعات القتال بؤر المقاومة المنعزلة . وارتفعت الخسائر بكادر القيادة . وبدون الضباط المجربين كان من الصعب قيادة العناصر المنعزلة التي لم تعتد القتال في ستالينغراد والتي وصلتنا كدعم للجيش .

كان عبور ألوية الفرقة ٤٥ سوكولوف يجري ببطء بسبب احتراق مراكب الجيش ٦٢ التي وضعت تحت تصرفهم . وقد ركبت الألوية الأطواف بعيداً عن المدينة في الذراع المائي أختوبنسك وفي ضواحي مدينة توماك ، وكانت لا تصل إلى الفولغا إلا في الليل ، وبذلك تتفادى خطراً كبيراً بمرورها تحت أنف العدو في بعض الأماكن ، وعندما تصل إلى شواطىء الفولغا تكون قد وصلت إلى القطاع الدفاعي للجيش .

كان علينا الصمود يومين أو ثلاثة أيام حتى عبور الفرقة ٤٥ بقيادة

سوكولوف . وباختصارنا لرجال الفصائل والخدمات استطعنا جمع عشرين شخصاً وأكثر من ثلاثين محارباً سحبوا من الوحدات الصحية . ومراكز النجدة الموجودة على الضفة المباشرة للنهر . ثم سحبنا ثلاث دبابات معطوبة من ساحة المعركة وقاذف لهب وواسطتين أخريين . لذلك قررت أن أفرك أنف العدو ، وذلك بالقيام بهجوم معاكس صباح ٢٩ تشرين أول بثلاث دبابات وخمسين جندياً من المشاة ، ونقطة اتجاه الهجوم المعاكس ، نقطة الإتصال بين فرق سميخوتفوروف ، وغوربيف حيث حقق العدو خرقاً على شواطىء الفولغا . قاد معاوني لقيادة القوات المدرعة فانيروب ، طيلة الليل هذه الدبابات على طول الضفة المتعرجة لكي يجد لها نقطة صالحة للانطلاق .

ابتدأ الهجوم المعاكس في الصباح الباكر وقبل الفجر ، تدعمه المدفعية من الضفة اليسرى ، أما لواء الكاتيوشا العقيد ايروخين فلم ينجح بالوصول الى أرض ملائمة . ومع ذلك فالنتائج كانت معتبرة . أحرقت الدبابة قاذفة اللهب ثلاث دبابات عدوة . وقاذفا اللهب استطاعا إحراق العدو في خندقين ، تحصن فيهما مشاتنا فوراً .

تكلم الهتلريون كثيراً عن دباباتنا باللاسلكي ، فقد أبلغنا عمال الاصغاء أن الهتلريين أقاموا ضجة كبرى بالراديو بخصوص الدبابات . وكان من الواضح أنهم يريدون تبرير أنفسهم أمام قيادتهم لعدم تمكنهم من صد هجومنا المعاكس . واستطعنا أن نربح يوماً كاملاً في هذا القطاع، وطيلة يومين لم يجر أي تغير ملحوظ في القطاعات الآخرى من جبهة الجيش .

وفي قطاع مصنع باريكادي فقط نجح الألمان بعد هجمات متلاحقة من النفوذ إلى شارع نوفو سيليسكايا . وفي هذا المكان حاول مغاوير (كوماندوس) منفردون ، يحملون المسدسات الرشاشة الوصول إلى الفولغا . ولكنهم أبيدوا بعد معركة دارت وجهاً لوجه على الضفة .

أحبطت وحدات ليودنكوف وغوربيف خلال هذين اليومين سبع هجمات معادية .

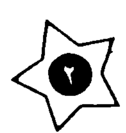
صدت فرقة المشاة ٢٨٤ باتيوك وفرقة الحرس ١٣ روديمتسيف عدة هجمات في قطاع كورغان ماماييف ، وإلى الأبعد للجنوب استخدمنا قاذفات اللهب .

أخذت المعارك تهدأ في مساء ٢٩ تشرين أول وفي ٣٠ اقتصرت على تبادل إطلاق النار . وقوات العدو وصلت كلياً إلى نهايتها .

لقد نثرت في المعارك التي وقعت في نهاية تشرين أول ، وفي الأيام الرهيبة التي مرت على المدافعين عن ستالينغراد بذور النصر النهائي .

ومن الواضح أن هتلر كان يهاجم أيضاً فلا يزال يحتفظ بالمبادرة على الفولغا والقوقاز ولكن فشل هجومه كان بداية هزيمته .

وكنا نعلم خلال أيام تشرين الأول أن هتلر كان لا يريد سماع أي حديث حول اتخاذ وضع الدفاع أمام ستالينغراد . لذلك كان يرمي دائماً في أتون المعركة بقوى جديدة . ولم يدخل في تفكيره احتمال فشل مخططاته . ولكن المبادرة في حملة عام ١٩٤٢ كانت قد خرجت من بين يديه .



ضعفت حدة المعارك قليلاً خلال المعارك التي دارت في الأيام الأولى لشهر تشرين الثاني . وكان لدى كشافينا إمكانية التسرب عميقاً داخل ترتيب العدو القتالي ، ولم تكن هناك أي إشارة تدل على رغبة العدو الانسحاب من ستالينغراد بل على العكس من ذلك فقد حصلنا على معلومات تشير إلى أن فون باولوس كان يحضر أيضاً إنقضاضاً جديداً على المدينة . والموضوع بالنسبة إلينا يطرح على النحو التالي . هل سيكون لدى فون باولوس الوقت قبل هجومنا المعاكس الكبير للقيام بضربته ؟ ولكن لم يكن لدينا أي تصور متى سيكون هذا الهجوم والمدة الباقية . ولم نكن نظهر أية فضولية زائدة خلال محادثاتنا مع قيادة الجبهة لمعرفة ذلك ، فكلنا يعلم أنه لا يوجد سر في الجيش الأحمر يحافظ عليه أكبر من المحافظة على سر مدة المهلة التي تسبق الهجوم .

نحن نعلم اليوم أي قوى كان هتلر يركزها أمام ستالينغراد ومدى إصراره على دعمها ، وهذا يفسر بقسم من الموضوع لماذا لم يدخل في قناعة القيادة الألمانية استحالة احتلال المدينة بكاملها ؟

وكشاهد سأورد هنا بعض الأرقام فيما يخص القوات العدوة .

كانت مجموعة الجيوش (ب) التي كانت تهاجم باتجاه ستالينغراد في أيلول مؤلفة من ٤٢ فرقة وفي نهاية تشرين أول أصبحت تعد ٨١ فرقة .

أما التنقلات الرئيسية للقوات لتعزيز مجموعة الجيوش (ب) فكانت تتم على حساب مجموعة الجيوش (ا) التي كانت تتابع الهجوم باتجاه القوقاز . وقد بدأت

مجموعة الجيوش هذه هجومها بقوة ٦٠ فرقة ، ولكن في تشرين أول لم يبق لديها سوى ٢٦ فرقة .

كما وصلت وحدات بشكل إفرادي من الجبهة الوسطى من أمام فورونيج ومن فرنسا والمانيا كلها وُجِّهت نحو ستالينغراد .

كتب الجنرال الألماني هانس دوير *Hans Dœrr* وهو يحاول شرح قرارات هتلر ما يلي : كانت القيادة العليا للفيرماخت (الجيش الألماني) تريد في غضون ذلك « إنهاء معركة ستالينغراد ، وتنظيف العدو من الأحياء الأخرى في المدينة ، حسب ما جاء في أحد توجيهاتها » .

« لم تكن هذه المهمة تمثل سابقاً أكثر من طابع تكتيكي ولكن الدعاية الصادرة من هنا وهناك هي التي أعطتها معنىً استراتيجياً ، فما دام الروس لا يزالون يقاتلون للغرب من الفولغا ، كان باستطاعة ستالين أن يمجد بطولة الدفاع عن المدينة . ولم يكن هتلر يستطيع أن يهدأ ما دامت قواته لا تستطيع احتلال آخر قطعة من الأرض التي كانت تسمى ستالينغراد . فالسياسة والاحترام الشخصي والدعاية والمشاعر كانت لها اعتبارات فوق الحكم الصحيح لدى سيد الحرب » .

لدى هانس دوير بعض الحقيقة طبعاً في تحليله لأحداث تشرين الثاني . ولا يوجد خلاف في أنه في تشرين الثاني لم يكن هناك أي اعتبارات سياسية حلت محلها . فالدكتاتور هو دائماً حساس لمسائل الاحترام الشخصي . ومن الطبيعي أن يكون لدى الجنرالات الألمان الميل للنيل من قوى الشعب السوفيتي وجيشه الأحمر .

ألقيت على عاتقنا في الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني مهمة إزعاج العدو بكل قوانا ، وعدم ترك الفرصة له للراحة أو السماح له بالتراجع في الحالة التي تقرر فيها القيادة الألمانية فجأة سحب قواتها من ستالينغراد .

وضعنا كل شيء قيد العمل ـ الخبرة والتجربة ، حسن التصرف ـ الجرأة . فمجموعات الانقضاض لم تكن تعطي الغزاة أية فرصة للراحة لا ليلاً ولا نهاراً . وكانت تعمل على طرد العدو من المنازل المنعزلة ومن أحياء كاملة . مما يجبر العدو على تبديد قواته واستدعاء احتياطه .

كنا في نفس الوقت نستعد لصد أي هجوم جديد للعدو ، حصل استطلاعنا على معلومات تدل أن العدو يعمل على تركيز قواته في قطاع مدن باريكادي

وكراسني أوكتيابر ، فضربات البرد الأولى قد بدأت ويمكن القول بأن الهتلريين كانوا يرغبون ، تصفية الحساب مع الجيش ٦٢ الذي لا يزال يعمل في ستالينغراد ليؤمنوا لأنفسهم قبل وصول الشتاء ، الهدوء في الملاجىء الحارة وأقبية المنازل وهنا سجلت في مذكراتي بتاريخ ٤ تشرين الثاني « سيتابع العدو في الأيام القريبة القادمة هجماته الضارية ، وسيزج في المعركة قوات جديدة - حتى فرقتي مشاة - ومن الواضح أن ذلك سيكون آخر جهد له »

كان جيشنا بالرغم من الغارات التي كانت تقوم بها مجموعات الانقضاض يعمل في نفس الوقت على تجميع بعض الاحتياط ، فعلى الضفة اليسرى من الفولغا كان لدينا لواءان من المشاة مع أركان فرقة غوريشني « وكانت هذه في طريقها لاتمام ملاكها » كما تلقى لواء المشاة ٩٢ التعزيزات من البحارة الذين وصلوا من الشرق الأقصى .

قررنا في الوقت الذي كنا نعمل فيه على عبور تلك القوات النهر والوصول إلى المدينة إعادة تجميع قواتنا وترتيبها ، وذلك بوضع لوائين من فرقة غوريشني في وضع دفاعي بين المواقع الدفاعية ليودنكوف وسوكولوف وإلى الجنوب من مصنع باريكادي ، وبما أننا لم ننجح بعبور سوى لواء واحد ، لذلك وزعنا كل رجال فرقة جولوديف وكادر المرؤوسين فيما بين صفوف لواء المشاة ١٨ الذي كان لا يزال على المواضع الدفاعية التي كان يحتلها ، على أن يلحق من ناحية العمليات بقيادة ليودنكوف ، كما كلف رجال وكادر المرؤوسين في فرقة غورييف بتعزيز فرقة ليودنكوف ، ونقلنا أركانات فرق جولوديف وغورييف وأركانات ألويتها إلى الضفة اليسرى ، وألحقنا مدفعيتها الموجودة في الضفة اليسرى بقيادة مدفعية الجيش لدعمها عوضاً عن مدفعية الجبهة التي انتقلت للجنوب ، كما ألغي فوج حرس أركان الجيش « لواء التدريب السابق في احتياط الجيش » ووجه ما لديه من عتاد ورجال لتعزيز فرقة المشاة بقيادة غورييف ، كما وضعت فرقة سميخوتفوروف في النسق الثاني ، مع مهمة الدفاع عن آخر معبر لنا على الفولغا .

فرضت على كل فرقة كمهمة عامة : القيام بعمليات جزئية لتوسيع رأس الجسر الذي تدافع عنه وتقديم الخطوط الدفاعية الأولى نحو الغرب لا أقل من ٨٠ - ١٠٠ م في كل أربع وعشرين ساعة لتنظيف العدو تماماً في نهاية يوم ٦ تشرين الثاني من مناطق مصنع باريكادي وكراسني أوكتيابر ، وكل تقدم ذي

فائدة يجب أن يدافع عنه مباشرة بقوة .

أبرزنا في الأمر الخاص الذي وزع حول هذا الموضوع وجود سريتي دبابات ، وظهرت هذه الدبابات لدينا بفضل العمل الرائع الذي قام به عمال معامل التصليح في ستالينغراد ، فبالرغم من قذائف المدفعية وغارات الطيران المتواصلة استطاع هؤلاء إصلاح هذه الدبابات المعطوبة .

كثف العدو بشكل واضح نشاطه بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لثورة تشرين أول (أكتوبر) وكانت طائراته الاستطلاعية تحلق طيلة اليوم ، وأياماً بكاملها فوق مواقعنا ، وترصد الأهداف الهامة كمراكز القيادة ، وتجمعات وحدات المشاة ، وكانت تستدعي القاذفات بمجموعات من ٤٠ ـ ٥٠ طائرة التي كانت توجه إلى مواقعنا ضربات قوية .

جرح قائد لواء المشاة ١٤٩ العقيد بولفينوف جراحاً مميتة ، وكان رجلاً صلباً ذا إرادة حديدية ، ومبادرة قوية ، وهو بطل حقيقي . وسيبقى اسمه إلى الأبد في قلوب محاربي الجيش ٦٢ وفي ٥ تشرين الثاني ، سقطت مباشرة قنبلة طائرة على أركان اللواء ٨٩٥ ، وقائده اوستينوف ، وقضت عليهم جميعهم .

كثفنا الأعمال الليلية لمجموعات الانقضاض ، وكان السيبيريون من فرقة باتيوك مميزين بخاصة ، فعندما يجن الليل ينطلقون بعزم إلى الأمام ، ويحتلون المخابىء المغطاة والبلوكوسات المحصنة ، بعد القضاء على الذين كانوا فيها ، ويزيدون شيئاً فشيئاً بعرض منطقتنا الدفاعية .

جلب لنا تشرين الثاني موجة شديدة من البرد .

هبطت درجة الحرارة في الخارج حتى ١٢ درجة تحت الصفر ، وبدأ الفولغا يحمل معه قطع الثلج الصغيرة . وفي درجة ١٥ أخذت قطع الجليد الكبيرة تظهر ، ثم لم يلبث أن غطى الفولغا بطبقة سميكة من الجليد ، غير متماسكة وعائمة وتتبع التيار ولا تحيد عن طريقها ، ولم يعد بإمكان سوى المراكب المصفحة أن تفتح طريقها لوحدها عبر الفولغا . وكذلك بعض الذين كان لديهم الجرأة وبخاصة السكان الأصليون لشواطىء الفولغا ، والذين كانوا وحدهم أهلاً لمآثر الرجال ، الذين يتحلون بالشجاعة الخارقة .

من المحتمل أن تكون هذه اللحظة التي كان ينتظرها فون باولوس لشن هجومه الجديد ، فقد حمل إلينا كشافونا وثائق أخذت من جنود وضباط قتلى من فرقة المشاة ٤٤ الألمانية التي كانت موجودة سابقاً في قطاع فوروبونوفو

كاحتياط للجيش السادس الألماني ، وهذا يعني أن وحدات جديدة أخذت مواقع الانطلاق للهجوم ، وكان علينا القتال على جبهتين ضد العدو ، وضد مشاكل الفولغا .

أعطى المجلس العسكري مقدماً تجاه التعقيدات الطارئة أمراً إلى أركان المؤخرة لتنظم ساعات محددة بدقة لتموين الوحدات الموجودة في المدينة ، ففي المقام الأول أصر على تأمين وصول التعزيزات بالرجال والذخيرة بكميات كبيرة ، وفي المقام الثاني الغذاء ، وفي المقام الثالث الثياب الدافئة . قبلنا اختيارياً نظاماً من الجوع والشعور بألم البرد . ولكن شعورنا بأن العدو يحضر ضربته ، يجعلنا في وضع لا يمكننا فيه البقاء دون تعزيز بالرجال والذخيرة ، وغياب الذخيرة في مثل هذه الظروف يعادل الموت .

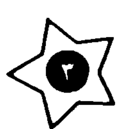
من الضروري أن يكون لدينا ذخيرة بكميات كبيرة أو بالأحرى لا نطلب أكثر منها ، وكان الجنود أنفسهم يأخذون كافة التدابير ليتمونوا ـ كما يجب ـ بالذخيرة من مختلف الأنواع قنابل يدوية ـ ألغام . طلقات .. ألخ . ويصرحون دائماً بأنهم مستعدون للتضور جوعاً ومعاناة البرد الشديد على أن تكون لديهم الذخيرة الكافية .

كان الجنود يحملون على أكتافهم الأحمال التي تفرغها الزوراق ، وذلك لعدم وجود وسائط نقل في المدينة ، كما أجبر قادة الوحدات الكبرى وحتى الصغرى أنفسهم على تنظيم طرق محددة لتموين الذخيرة . وكانوا ينتخبون لهذه المهمة ـ أي نقل الذخيرة عبر الفولغا ـ الضباط والجنود من الصيادين القدامى ، وكذلك زرع الألغام التي تصلهم من مستودعات الجيش والجبهة .

من الطبيعي أن لا تحدث كل هذه الأعمال دون خطر ، فكثيراً ما يحدث أن تغرق المراكب المحملة بالذخيرة ، أو لا تصل إلى نقطة الإنزال بسبب الظلام وبخاصة عندما امتلأ الفولغا بقطع الجليد الطافية . فكثيراً ما كانت المراكب تحشر بين قطع الجليد أو تقع تحت رمي رشاشات الألمان ، لذلك شكلت فرق خاصة للانقاذ جهزت بكل ما يلزم لنجدة المراكب أو الغرقى ويظل رجالها متيقظين ليلاً ونهاراً يجلسون بجانب زوارقهم وهم مستعدون للانطلاق بسرعة للنجدة ، حال وصول إشارة أو إستغاثة ما تدل على حادث .

كان الجيش ٦٢ على هذه الصورة يؤمن تموينه بالذخيرة حتى الفترة التي تجمد فيها النهر كاملاً وكان ذلك بداية الهجوم الجديد للعدو . ومع ذلك كنا نعمل في

نفس الطريقة على تأمين احتياط كبير بالغذاء . وقدمنا من أجل عيد تشرين الأول (أكتوبر) للجنود الحساء السيبيري المعروف (رافيولي) . كما كان لدينا في احتياط الجيش ١٢ طن من الشوكولاته ، كذلك فكرت بتوزيع نصف لوح من الشوكولاته على كل شخص في اللحظات الصعبة، ثم عدلت عن ذلك وتركتها لمدة أسبوع أو أسبوعين حتى يتم تغطية الفولغا بالجليد ، وبذلك يتم تنظيم تموين مستمر .



كنا ننتظر من العدو باقتراب العيد الخامس والعشرين لثورة أكتوبر ، أن يحاول إفساد عيدنا بهجوم جديد على المدينة ، فنحن نعلم أن لدى العدو احتياط في محطات غومارك وفوروبونوفو . ولكن هذا لم يكن ليخيفنا مطلقاً فنحن نعلم بأنه للقيام بهجوم ـ كالذي قام به في تشرين الأول ، عليه إيجاد الوقت وتوفير القوات والوقت كان يعمل لصالحنا . وصلتنا المعلومات عن وصول كل من ا . فاسيليفسكي و ن . فورونوف وممثلين آخرين من القيادة (الستافكا) للجبهة . كما وصلتنا معلومات عن تحركات ضخمة لقوات سوفيتية كبيرة تتجه نحو الفولغا والدون ووصلت كلها عن طريق غير رسمي . ففي زمن الحرب يوجد لدى أكثر العناصر عزلة وابتعاداً عن هذا الإتصال الذي لا يمكن تحديد أصله ، والذي يمكن أن ندعوه (بقناة المقاتل) ، فعن طريق مختلف الأقنية والخطوط غير المرئية كانت تصل المعلومات ومثلها التي وصلت إلينا .

كنا نعلم أن مثل هؤلاء الضباط الكبار لا يمكن أن يأتوا للتعبد على الفولغا ويعودوا ، وكنا لا نستطيع البقاء مكتوفي الأيدي بانتظار هذه الأحداث التي كانت لا تزال مجهولة ويجري تحضيرها ، لقد أصبح آخر معبر على النهر تحت تأثير نيران العدو . وكان علينا أن نضع بمأمن من طلقات المسدسات الرشاشة والرشاشات ، محطة الإنزال التي كانت موجودة في قطاع مصنع كراسني أوكتيابر ، لكي تستطيع مراكب أسطول الفولغا أن ترسو وتفرغ حمولتها على الأقل في الليل . ثم قرر المجلس العسكري ، بعد أن أنهى عبور كل وحدات الفرقة ٤٥ مشاة ، أن نقوم بهجوم معاكس على العدو لكي نقذف به بعيداً عن المحطة ، وجاء في الأمر أن الجهد الرئيسي ستقوم به قوات الفرقة ٤٥ في

المنطقة الواقعة بين مصانع باريكادي وكراسني أوكتيابر .

وكان لدى فرقة غورييف الأمر بالهجوم في حدود قطاعاتها الدفاعية والنفوذ على خط السكة الحديدية في سيفرنايا . و طُلب من كل العناصر والوحدات الاشتراك بقسم من الهجوم والتقدم بسرعة وجرأة .

يمكن أن يتسائل القارىء كيف يمكن أن يحدث مثل ذلك الهجوم . بينما ذكرت قيادة الجيش قبل قليل ، أن الجيش كان على حافة الكارثة ، ومع ذلك نقرر القيام بهجوم معاكس في اليوم الثاني ؟

إنه قانون الحرب وبخاصة عندما يصبح العمل في موقف مثل الذي نحن موجودون فيه .

ولنقدم لكم وضع الجيش ٦٢ الذي يتمسك بدفاعه منذ حوالي ثلاثة شهور على شريط ضيق على طول ضفة الفولغا ، فإذا لم نستفد من هذه الفرصة لطرد العدو المنهك بسبب المعارك لدفعه الى الوراء ٢٠٠ ـ ٣٠٠ م على الأقل ، فالجيش نفسه سيكون معرضاً لأن يقذف بالماء ، فهل من الممكن البقاء دون حركة على شاطىء النهر وانتظار العدو ليستعيد قواه ؟ وهل من الممكن أن نظهر للعدو أننا لم نكن أهلاً للدفاع ؟ أليس هذا مخالفاً للصواب من جهتنا ، أن ننتظر العدو ليشرع بالهجوم ، دون أن نفتش عن التغيير ، فنجعل الموقف لصالحنا ولو قليلاً .

كان هجومنا المعاكس في ٣١ تشرين أول ، وحسب تقديري أننا حصلنا على نجاح كبير ، فقد تقدمنا مائة متر في بعض الأماكن واستعدنا القسم الغربي من شارع نوفوسيلسكايا . ومن الحدود الغربية للبساتين حتى مصنع كراسني أوكتيابر ، واحتللنا معامل أفران (مارتن) للعيار والسحب ، وكذلك مستودع المنتجات النهائية . والشيء الرئيسي ، هو ما أظهرناه لأنفسنا ، وللعدو أنه باستطاعتنا ليس فقط الدفاع بل أيضاً الهجوم واستعادة الأرض المفقودة ، وأخيراً وجدنا أن الضربة الأخيرة التي وجهت في نهاية هذا الاشتباك والذي دام بين ١٤ ـ ٣١ تشرين الأول ، أنها كانت من أجلنا ، ولم تستهدف العدو مطلقاً . وهكذا كان نصرنا المعنوي الذي حملته لنا الفرقة ٤٥ ، فنجاحها لم يكن صدفة ، فألوية هذه الفرقة التي كانت غنية بالتقاليد كانت تحمل اسم أول رئيس لها هو بطل الحرب الأهلية نيكولاي شتشور .

في الأيام الأولى لمعركة ستالينغراد ، كانت فرقة شتشور بقيادة فاسيلي

سوكولوف وهو عقيد شاب ، ثم جنرال ، تأقلم بسرعة هو ومعاونيه مع الوضع ـ ومتطلبات معركة الشوارع . وشكلوا مجموعات من فرق الانقضاض . صحيح أن ألوية هذه الفرقة لم يتسنَّ لها أبداً أن تقاتل دفاعياً ، إلا أنها بالمقابل اكتسبت تجارب غنية من القتال الهجومي في البلدة ، ووصلت الفرقة حتى برلين . فخبرتها في القتال على الفولغا ساعدها على تنفيذ مهماتها في الانقضاض على المدن مثل زاباروجي ، اوديسا ، لوبلين ، لودز ، بوزنان ثم برلين . إن مجموعات الانقضاض لفرقة ستشور لا تقاوم في معارك الشوارع ، فكانت تقضي على أي دفاع ، وتخرج منتصرة في مختلف المواقف الصعبة .

حسب المعلومات التي كانت في حوزة الجيش ، نرى أن العدو استقدم التعزيزات إلى ستالينغراد لأجل أن ينتصر ، ويكفي قراءة النشرة في ٢ تشرين الثاني ١٩٤٢ :

« صد الجيش طوال اليوم الهجمات المتلاحقة من المشاة والدبابات العدوة على القطاع الشمالي والأوسط من الجبهة ، وهو لا يزال متمسكا بمواقعه » .

بعد أن استقدم العدو قوى جديدة من مؤخراته البعيدة ، وأتم تعزيز وحداته الموجودة في ساحة العمليات قام بهجوم ، اعتباراً من الساعة السابعة صباحاً في القطاع الشمالي من الجبهة على سبارتانوفكا بأكثر من لواء مشاة ودبابات ، وبفرقتي مشاة تدعمها ٣٥ ـ ٤٠ مدرعة على القطاع الأوسط . وبعد أن زج باحتياطيه قام في بعض القطاعات ، حتى بخمس هجمات صدت جميعها ودار القتال وجهاً لوجه .

كان طيران العدو يقصف طوال النهار قواتنا في منطقة الهجوم . وفي بعض الحالات ، كان يهاجم مواضعنا بمجموعات مؤلفة من ٣٠ طائرة .

« وجهت مدفعية العدو وهاوناته نيراناً عنيفة نحو مواضعنا وعلى المعابر ، أخبرنا عن اقتراب رتل من السيارات الثقيلة محملة بالرجال والعتاد ، قادمة من الغرب في قطاع مصانع باريكادي . كراسد أ كتيابر ، وفي نفس الوقت شوهدت تحركات مجموعة مشاة تنفذ إلى بلدة ، كراسني أوكتيابر باتجاه المصنع » . و كان الوضع كالتالي :

« صمدت ألوية المشاة التابعة لمجموعة الشمال طوال النهار لمعارك قاسية بالمشاة والدبابات العدوة المهاجمة باتجاه الحدود الجنوبية والشمالية الغربية من سبارتانوفكا ، وخمس هجمات قوية صدت خلال تلك المعركة ، واحتفظت

المجموعة بمواضعها » .

« صدت فرقة المشاة ١٣٨ أربع هجمات عدوة نفذت من مصنع تراكتورني على طول الفولغا ، باتجاه الجنوب ، ولا تزال الفرقة محتفظة بمواقعها » .

« صدت الفرقة ١٩٣ طوال اليوم هجمات عدوة متتابعة وشديدة باتجاه محطة التفريغ النهرية الوحيدة المجهزة التي بقيت للجيش » .

« انتقلت فرقة المشاة ٤٥ سوكولوف للهجوم المعاكس في جناحها الأيسر ، واستطاعت تحسين مواضعها قليلاً ، وصدت كل هجمات العدو » .

« انتقلت فرقة مشاة الحرس ٣٩ للهجوم المعاكس ، وخاضت معركة على خط معامل السبك ، أعمدة الفونت . والعيار ومخازن المنتجات النهائية » .

« صدت جميع الهجمات في بقية القطاعات والتي قامت بها مجموعات صغيرة من العدو ، واحتلت مفارز الانقضاض عملها » .

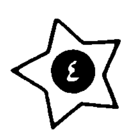
قررت قيادة الجيش :

« في مساء ٤٢/١١/٣ إتمام التموين بالذخيرة للقوات ، إعادة تنظيمها ، ووضعها بشكل تستطيع معه صد الهجوم الذي يحضره العدو .

في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة قتل أكثر من ١٢٠٠ جندي ، وضابط وعشر دبابات وحصلنا على بعض النجاح » .

وفي رسالة ملحقة بالبلاغ قدمنا الدليل حسب الأخبار التي وصلت من قبل استطلاعنا على أن العدو لم يفكر مطلقاً بسحب قواته الرئيسية من المدينة ، ولكن على العكس ، وجه نحوها كل ما استطاع سحبه من القطاعات الأخرى في الجبهة الشرقية ، وذلك لاحتلال المدينة والنفوذ على الفولغا .

وقد تأكد حدسنا هذا .



عاد العدو للهجوم في يوم ١١ تشرين الثاني الساعة ٦,٣٠ بعد تمهيد عنيف من المدفعية والطيران ، واشترك في هذا الهجوم خمس فرق مشاة هي (٣٣٩ ، ٣٠٥ ، ٧٩ ، ١٠٠ ، ٢٩٥) وفرقتين مدرعتين (٢٤ ـ ١٤) تدعمها أفواج من النقابيين (رجال الهندسة) من الفرقة ٢٩٤ والتي استقدمت بالطائرات من ميليروف .

طور العدو هجومه على جبهة عرضها خمسة كيلومترات ، وكانت كل فرق العدو مكتملة التعداد ، ومعززة بقوة ، كما كانت كثافة ترتيب العدو القتالي قوية بشكل غير عادي .

ومن الواضح أن فون باولوس كان يعتمد على سحق قوات فرقة المشاة : ليودنكوف ، وغوريشني وسوكولوف بضربة واحدة والوصول إلى الفولغا .

نشب طوال اليوم صراع بشدة غير متناهية ، حول كل متر من الأرض . حول كل آجرة وحول كل حجرة . ودامت معركة القنابل اليدوية والحراب عدة ساعات . وفي نفس الوقت انتقلت مجموعة الشمال من قواتنا إلى الهجوم . اعتباراً من نقطة الخط الحديدي على مصب نهر ميتشنكا باتجاه الجنوب نحو مصنع تراكتورني .

على كورغان ماماييف ، اشتبكت فرقة باتيوك بقتال صدامي مع المهاجمين .

إنهارت مداخن المصنع تحت ضربات قنابل الطائرات وقذائف المدفعية والألغام . وجه العدو جهده الرئيسي بشكل واضح على نقطة إتصال فرق المشاة ليودنكوف وغوريشني .

كتب آ . فاسيليفسكي ممثل المقر العام للقيادة العامة ، ورئيس الأركان بأمانة عن الموقف طوال تلك الأيام :

« في الوقت الذي كانت فيه قواتنا توجه جل اهتمامها للتحضير للهجوم المعاكس باتجاه ستالينغراد ، كان موقف القوات في المدينة نفسها يزداد سوءاً . ففي ١١ تشرين الثاني ، وبعد هدوء نسبي ، جدد العدو هجماته العنيفة ضد قوات الجيش ٦٢ الذي يقوده ف . تشويكوف بعد أن استقدم الوحدات التي كانت تعمل في السابق بجبهة الدون ، وفي نهاية النهار نجح باحتلال القسم الجنوبي من مصنع باريكادي . ونفذ من هذا المكان إلى الفولغا ، وازداد موقف الجيش ٦٢ حراجة بعد تجمد مياه نهر الفولغا » .

زج الهتلريون في الساعة ١١,٣٠ باحتياطيهم . سحقت قواتهم من المشاة والدبابات مواقعنا الموجودة على الجناح الأيمن للواء المشاة ٢٤١ من فرقة غوريشني . وتقدمت ٥٠٠ ـ ٦٠٠ م . وقد وجد الجيش نفسه مقطعاً للمرة الثالثة وانفصلت فرقة ليودنكوف عن قوة الجيش الرئيسية .

ولكن في القطاعات الأخرى من الجبهة ، لم يتخل الجيش عن مواقعه . ولم يستطع فون باولوس . أن يستفيد الفائدة الكلية من تفوقه في القوى . ولم ينجز

المخطط الذي حدده . فهو لم ينجح برمي الجيش ٦٢ في صقيع الفولغا .

لم نكن مخطئين ، عندما توقعنا أن فون باولوس كان يحضر لهجوم جديد . وحتى هتلر أعلن في ٨ تشرين الأول في نداء وجهه إلى (حارسه القديم) قائلًا :

« أريد أن أصل إلى الفولغا في نقطة محددة .. إلى هذه المدينة التي بمحض الصادفة تحمل اسم ستالين نفسه . ولكن ليس لهذا السبب أريد أن أصلها ، إني ذاهب إليها لأنها نقطة في غاية الأهمية فعن طريقها كان يعبر ثلاثون مليون طن من البضائع ، من بينها تسعة ملايين طن من البترول كانت تصلها من أوكرانيا والكوبان لترسل إلى الشمال . ومن هناك يأخذ معدن المنغنيز طريقه . هي تلك المدينة التي أريد أخذها ، وأنت تعلم ذلك . لم يعد هناك الكثير لأخذها فلم يبق سوى بعض الأماكن غير المحتملة . بعضهم يطلب لماذا لم نأخذها بسرعة ؟ لأني لا أريد أن يكون هناك فردون ثانية ، وسأصل إليها بمساعدة مجموعات الانقضاض الصغيرة .

ركز فون باولوس ـ في الحقيقة ـ على جبهة معمل باريكادي ووادي باني ، خمس فرق مشاة وفرقتين مدرعتين ، معززة بخمسة أفواج من المهندسين سحبت من أفواج أخرى . ولم تعرف معركة فردون ترتيباً قتالياً بمثل هذه الكثافة .

صمد الجيش ٦٢ طوال يوم تشرين الأول في المعارك القاسية التي دارت ضد القوات العدوة المتفوقة بالعدد والعدة . وزاد في خطورة المعركة وطبيعتها المضنية إنتقال مجموعة مدفعيتنا الموجودة على الضفة اليسرى من الفولغا ـ والتي كانت تقدم لنا مساعدة لا غنى عنها ـ إلى الجنوب لتشترك في الهجوم المعاكس الذي يجري الاستعداد له من قبل القيادة .

وكما كان منتظراً ـ توافق هجوم العدو مع تجمد نهر الفولغا . ولم يعد بإمكان أسطول الفولغا فتح طريقه ليلاً أو نهاراً نحونا ، أو نحو اختوبا أو أوتوماك ، لذلك بقينا فترة طويلة معزولين عن الضفة اليسرى ، ورغم هذا الموقف الصعب والمعقد ، لم يأخذنا هجوم العدو على غرة ، ولم يقدم اليوم الأول من الهجوم لفون باولوس أية نتيجة حاسمة .

يمكن أن نستنتج حسب الوثائق التي أخذت من القتلى الألمان ، أن الهتلريين لم يعد بإمكانهم متابعة الهجوم طويلاً ، وبهذا الزخم . ولن تلبث دماؤهم أن تنزف بعد يوم أو يومين من القتال . ويصبحون في غاية الإنهاك . وكنا نشعر

بأننا كنا على صواب في تنفيذ مهمتنا . وأن العدو لا يفكر بالخروج من ستالينغراد ، ولن يخرج وأنه على عكس ذلك سيزج بقوات جديدة في الأنشوطة التي لن تلبث طويلاً من أن تلتف على عنقه .

فهمت خلال محادثاتي الهاتفية مع قيادة الجبهة أنهم مسرورون من مقاومتنا الصلبة ، ولكن كان على الجيش ٦٢ أن يصمد لتجارب قاسية قادمة عديدة ، فقد شرع العدو اعتباراً من صباح ١٢ تشرين الثاني ، بإعادة تجميع قواه بعد استدعاء الاحتياط ، لذلك علينا أن نتوقع هجمات جديدة . وهذا ما حدث في الساعة الثانية عشر ، حيث عاد العدو للهجوم ودارت رحى معركة حامية جداً على طول الجبهة . وكان الفاشيون يتقدمون برؤوس محنية ، فإما أنهم كانوا سكارى مخمورين ، أو كانوا مذهولين من حدة المعركة .

أظهر بحارة الشرق الأقصى الذين قدموا لتعزيز صفوف فرقة غوريشني ، كيف يقاتل بحارة الأسطول الأحمر الأبطال . وتبادلوا مع العدو احتلال مستودعات البترول في شارع توفينسكايا مراراً ، ثم انتقلوا للهجوم بعد أن صدوا الهجمات المعاكسة العدوة ، ونشبت معارك ضارية في مصانع كراسني أوكتيابر وباريكادي وعلى ماماييف .

كانت تقديراتنا عن المعركة ، وقوى ووسائط العدو التي ستشترك فيها صائبة جداً ، فالهجوم المعاكس اليائس الذي شنه الهتلريون لم يقدم لهم كثيراً من النجاح في ١٢ تشرين الأول ، وكانت خسائرهم في هذين اليومين من القتال العنيف كبيرة جداً وتعد بالآلاف .

أرسلنا إلى قيادة الجبهة كيساً من الوثائق التي جمعناها من الجنود والضباط والجرحى الألمان .

وقعت في ١٢ تشرين الأول هذا الأمر .

« جرب العدو خرق الجبهة في القسم الجنوبي الشرقي من مصنع كراسني أوكتيابر والوصول إلى الفولغا ، ومن أجل تقوية الجناح الأيسر لفرقة مشاة الحرس ٣٩ وذلك بتكثيف ترتيبها القتالي ، ضم إليها الفوج الذي سحب من الجناح الأيسر لفرقة الحرس ١١٢ وقد وجه الاهتمام بذلك لوسط وجناح الفرقة الأيسر ، ومهمة هذا الفوج تثبيت الموقف كلياً ، وتنظيف منطقة المصنع من العدو »

في نفس الوقت أعطى قائد فرقة المشاة الألمانية ٧٩ الجنرال فون شويرن

لقائد أحد أفواج المهندسين النقيب ويلز المهمة التالية :

أمر الهجوم ١١ ـ ١١ ـ ٤٢ :

(١) تمسك قوة هامة من العدو ببعض أقسام منطقة كراسني أوكتيابر . والنواة الرئيسية للمقاومة موجودة في معمل أفران مارتن « المعمل رقم ٤ » واحتلال هذا المعمل معناه سقوط ستالينغراد .

(٢) أمر إلى فوج المهندسين رقم ١٧٩ تعزيز واحتلال معمل رقم ٤ والوصول إلى الفولغا .

من هذين الأمرين اللذين أعطيا تقريباً في وقت واحد ، يظهر بشكل واضح كثافة المعارك الدائرة . دام الصراع العنيف من أجل معمل أفران مارتن عدة أسابيع ، ومن أجل كل المصنع وداخله أكثر من شهر ونحن نخالف جادة الصواب ، إذا قلنا إن العدو لم يكن يعرف ما هي مجموعات الانقضاض والمغاوير .

كتب ويلز « جمعت ضباطي وشرحت لهم مخططي . فسأرمي في المعركة بأربع مجموعات قوية كل منها من ٣٠ ـ ٤٠ شخص ، عدم الدخول للمعمل من الشبابيك والأبواب ، هدموا كل الزوايا في المعمل ، تقوم المجموعة الأولى بغارة من الثغرة التي تفتح . يكون بجانب رؤساء المجموعات مراقبو التسديد ، وقادة رمي المدفعية ويجب أن يكون سلاح مجموعات الانقضاض ، مسدسات رشاشة ، قاذفات لهب . قنابل يدوية حشوات مركزة صواعق تفجير . قنابل دخانية . القطعة المكتسبة تحتل مباشرة من قبل الفصائل الكرواتية الموجودة في النسق الثاني » .

تساءلت في نفسي عندما كنت أقرأ هذه السطور من كتاب ويلز ، فيما إذا لم يكن الألمان قد اقتبسوا كل هذا من المعادلة التي شكلنا بها حضائر الانقضاض وسلاحها ، وبعد دراسة دقيقة وجدت أن هناك اختلافاً فلدى الألمان لا يوجد ذكر لموضوع حضائر الانقضاض ، وبناء الممرات الأرضية والخنادق الفرعية التي تمتد نحو الهدف المهاجم . فوراء مجموعات الانقضاض الألمانية يأتي الاسناد فوراً من النسق الثاني كما هو الحال في المعركة العادية . وليس مجموعات الدعم ، كما هو الحال بالنسبة لحضائرنا وعلى كل حال كان هناك شبه كبير بين الأسلوبين .

وهكذا قذف الهتلريون بآخر قواهم لاحتلال مصنع كراسني أوكتيابر وهم

يأملون بأنه سيكون آخر نقط المقاومة في ستالينغراد . في الوقت الذي كنا فيه نعمل لتنظيف كل منطقة المصنع من العدو .

«كيف ستدور هذه المعركة ؟ ـكتب النقيب الألماني ويلز ـ، لم نكن نشعر بأن العمل سيكون سهلاً في الصباح الباكر . ويبدو أن سدنة المدفعية الروسية إنتهوا من فطورهم بسرعة واخذوا يمطروننا بقنابلهم ، لذلك كنا مجبرين غالباً للاحتماء بالأرض والغبار يملأ الهواء ، أصبحنا وراء ضفة السكة الحديدية بعد وثبة . وعبر الطريق التي حفرتها القنابل وأكوام الصفيح وغيوم النار والدخان واصلت الركض اتجاه الهدف وها أنذا وصلت إليه ، والجدار الذي تمددت وراءه كان نوعاً ما سميكا . والأدراج أصبحت هيكلاً من الحديد ، جمعت تفكيري ، وفحصت المكان ، المعمل رقم ٤ لا يبعد عنا سوى خمسين متراً ، وهو بناء ضخم أسود ، بطول أكثر من مائة متر وهو قلب المصنع . وفوقه ترتفع المداخن العالية ، واستدرت نحو العريف فيتز الملتصق بالجدار بالقرب مني ، وأمرته :
ـ فجر هذه الزاوية من المعمل من ناحية اليمين ، خذ معك ١٥٠ كيلوغراما من المتفجرات ، ستصل فصيلة إلى هنا ليلاً ، وسيكون التفجير في الصباح إشارة بدء الهجوم .

سأعطي الأمر للآخرين ، وأدلهم على نقطة الانطلاق للهجوم »

كان هذا مخطط هجوم الهتلريين . ومن الطبيعي أن يستطيع مثل هذا المحطط أن يسبب لنا كثيراً من المتاعب ، فاستيلاؤهم على الأقسام الرئيسية لمصنع كراسني أوكتيابر جعلهم يستغلون ذلك في تسليط نيرانهم ، وضرب ممرات الفولغا وكذلك محطات الإنزال على الضفة اليمنى للفولغا ، التي كنا نحتفظ بها كمستودعات مؤقتة . كان استطلاعنا يراقب بانتباه هذه القطاعات إن كان في الجبهة أو الأعماق أو مواضع العدو . وكان يعمل على إحباط مخططات العدو ، وقبل بضعة أيام من الهجوم الهتلري استطعنا أخذ بعض الأسرى والمعلومات التي حصلنا عليها منهم بصدد الهجوم ، الذي يجري الاستعداد له ، تأكد بالاستطلاع أن تكثيف الترتيب القتالي في المصنع ومعامله لم يكن تدبيراً عرضياً بل مقصوداً ومخططاً له .

ويتحدث ويلز فيما بعد فيقول :

« لقد وصلت نهاية آخر أفران مارتن ، يعني أن تخبر عن وجودنا في مواضع الانطلاق ، نظرت في ساعتي كانت ٢,٥٠ كل شيء على أتم استعداد .

وقبل قليل أخذت حضائر الانقضاض مكانها على قواعد الانطلاق بدءاً للهجوم ، فتحت الممرات في حقول الألغام أمام المعمل رقم (٤) والفوج الكرواتي كان مستعداً فوراً لاحتلال النسق الثاني ، وهذا وقت العمل كل شيء كان مظلماً ... لقد وصلت تماماً حسب التوقت وقذائف مدفعيتنا تدوي وراءنا ، وكانت نقاط سقوطها مرئية تماماً من قبلنا وفجأة دوى انفجار قوي أمامي ، وآخر على يساري ثم آخر ، وتناثر المعمل والساحة والمداخن واختفت في ضباب أسود .
ـ التفت إلى مراقب المدفعية قائلاً : أنظر يا للشيطان فقدنا الكره ؟ بهذه السرعة ؟ ولكن ما الخبر ؟ وهناك في الشرق ، في الجهة الأخرى من ضفة الفولغا تظهر ومضات المدفعية واضحة ، وهي ترسل نيرانها ولكنها ليست مدفعيتنا هل هذا ممكن ؟ لا يوجد رامي مدفعي في العالم يرمي بهذه السرعة الكبيرة ، أيضاً خسائر قبل بدء المعركة » .

حصل في تلك اللحظة شيء لم يتوقعه الألمان ، فقد أخبر قائد الفرقة ستيفان سافيليفتش غوربيف عن تجمعات للعدو . وكان هو على الضفة اليمنى للفولغا على بعد ٣٠٠ متر عن معمل أفران مارتن ، ولم يكن يرضى بتعزيز ترتيبه القتالي داخل المصنع ، ولكنه هيأ المدفعية للتدخل في الحال ، والثانية على موقع محضر سلفاً أمام المعمل رقم ٤ ينتظر فيه العدو .

« ولكن مدفعيتنا ـ تابع ويلز ـ، مدت نيران السد . هنا قفز العريف فيتزر بخفة ، وكان جسمه لا يعرف الوزن ـ خارج الحفرة نحو البناء ، الذي كان نصف مظلم ورسم أمامنا هيكله ، وعليه سنعمل الآن .

عاد فيتزر

ـ يا الله إنه يحترق ! صرخ وسقط على الأرض ثم إنهار جدار المعمل بعد إنفجار قنبلة أثارت ومضة ضوئية ساطعة ، ضباب كثيف أسود ورمادي يلف الجميع ... انطلقت مجموعات الهجوم في ذلك الدخان مجتازة الحواجز وبعد زوال ستارة الدخان ، وجدت أن كل زوايا المعمل إنهارت . وعبر فجوة من عشرة أمتار ، أخذت أتسلق كومة من الحجارة تكدست لتوها . قام رجال الهندسة بغارة في المعمل . رأيت أيضاً على يساري مجموعة الانقضاض الثانية ، وتقوم هي الاخرى بفتح طريق لها وأخذ الهجوم في أرض مكشوفة يتطور بنجاح لأن مجموعات التغطية كانت تتقدم إلى الأمام ، ورغم كل شيء شعرت بغم ويأس شديدين . قفزت إلى الحفرة المفتوحة أمامي ، وتسلقت ركاماً من الحصى

ونظرت حولي في الداخل فلم أجد سوى فوهة بركان . كان للمدافعين ميزة خاصة يتفوقون بها على المهاجمين ، فالمهاجم الذي يعطي الأمر للسير إلى الأمام يجب عليه النظر طيلة الوقت تحت أقدامه ، خائفاً من الوقوع ، وإلا فسيعلق في هذه الأكوام من الحجارة والحديد ، وسيجد نفسه معلقاً بين السماء والأرض مثل السمكة التي تعلق بالسنارة ، وذلك لأن حفر القنابل العميقة والقذائف ، بالإضافة إلى أنواع مختلفة من الحواجز ، تجبر الجنود على السير ، واحداً تلو الآخر ، لعدم وجود ممر آخر كمجموعة من الهنود الحمر مع مراعاة التوازن خلال المسير ، ولكن الرشاشات الروسية كانت توجه إلى مثل هذه النقاط وعليها كانوا يركزون نيران مسدساتهم الرشاشة ، يرمون من المخازن والأقبية ، وراء كل بروز في الحائط كان هناك جندي أحمر يراقب المهاجمين ، ويرمي بقنابله اليدوية إصابات محكمة فالدفاع كان محضراً بشكل جيد .

ويتابع ويلز قائلاً :

« انطلقت خارج حفرة القنبلة التي كنت أقبع فيها ، خمس خطوات ، اضطررت بعدها للاختباء . العريف كان بجانبي . التفت نحوه ، ناديته ، دون جواب ، ضربت على خوذته ، رأسه مائل إلى طرفه ، وقد شوه الموت وجهه وهو ينظر إليَّ . انطلقت إلى الأمام ، اصطدمت بجثة أخرى ، واختبأت بحفرة قنبلة أمامي . كان الرماة المهرة من الروس يفتحون علينا النار من انحناءات المداخن وغيرها ، اضطررنا لاستعمال قاذفات اللهب ضدهم . زمجرة تصم الآذان كنا نتمايل تحت القنابل . والمدافعون يقاومون بكل الوسائل . نعم إنهم شبان أشداء » .

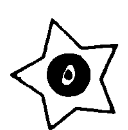
« سأعطي .. أمر : البقاء مختبئين حتى سقوط الظلام ، ثم الانسحاب إلى مواضع الدفاع ، هكذا هي النهاية كل ذلك كان دون نتيجة ، لم أكن أفهم من أين يستعيد الروس قواهم ، وبكل بساطة لا يمكن تصور ذلك . لقد خرقنا جبهات مستقرة . وخطوطاً دفاعية محصنة ، اجتزنا حواجز مائية وأنهار .. أقنية معززة بأعمال هندسية ، قضينا على البلوكوسات المحصنة وعلى بؤرات المقاومة المجهزة جيداً ، أخذنا مدناً وبلداناً وقرى . ولكن هنا على نفس الفولغا مثل هذا المصنع ، لم نكن قادرين على أخذه؟ لقد وُجدت النقطة ، التي نحن ضعفاء فيها » .

« قمت بحساب سريع في نفسي . بدأ الفوج هجومه بتسعين رجلاً ، حوالي

النصف منهم قد جرح و ١٥ ـ ٢٠ قتلى ! لم يعد هناك فوج ولن يرسلوا لنا التعزيزات »

أوردت هذه المقطتفات من كتاب النقيب ويلز لكي أظهر كيف كانت معارك تشرين الثاني تبدو من وجهة نظر العدو . كما رأينا فيها أيضاً شجاعة العدو وحيويته في تنظيم الهجوم في المناطق السكنية وصلابته وتصميمه للوصول إلى هدفه ، ولكن المحاربين السوفييت تجاوزوا العدو بشجاعتهم وفي فن إدارة القتال ، وكانوا يحاربون على أرضهم ، ومسقط رأسهم ، وفي نضالهم ضد الغزاة المكروهين ، كانوا يتمتعون بدعم كل السوفييت .

كنت أتذكر ، كيف كان العمال والمساعدون والرؤساء والمهندسون يساعدون قواتنا في التوجه في المتاهات المعقدة للمعامل . في الممرات فوق الأرض وتحتها . وكانوا يزحفون مع الجنود الحمر داخل الأنابيب والأقنية للوصول إلى مواضع ملائمة لضرب العدو .



بعد صدنا للهجمات العدوة في يومي ١١ ، ١٢ تشرين الثاني ، ومع أن الجيش قطع للمرة الثالثة لقسمين عند الفولغا . إلا أن كل المدافعين عن المدينة من المجلس العسكري ، حتى أبسط جندي ، كانوا يعلمون ، أن هذا هو آخر هجوم للعدو ، وكنا مقتنعين ـ كما هو الآن ـ بأنه لم يعد بإمكان العدو مثل ما كان في تشرين الأول ، تنظيم قواته وتلقي عتاد جديد وبخاصة الدبابات والذخيرة والمحروقات ، وبدون هذا (أي دون العتاد) ، لا يخيف العدو مطلقاً .

أصبحنا جد مقتنعين بأن الضربة القادمة والتي لا يمكن أن تقاوم ، ستوجه منذ الآن فصاعداً من قبل قواتنا ، في ظروف ملائمة خلقتها المعركة الدفاعية التي خضناها ، والتي أتت أكلها منذ النصف الثاني من شهر أيلول .

لم يوقف فون باولوس عملياتها الهجومية النشطة بعد الثاني عشر من تشرين الثاني . لذلك لم يكن هناك هدوء على الجبهة . ولا يمكن أن نرى هناك مثل هذا الهدوء ، فالقيادة العليا الهتلرية ، كانت ترفض الواقع ، ولم تكن تريد أن تفهم بأن هجومها قد تعثر وفشل . والمعركة التي بدأت قبل بضعة أشهر ، قد امتدت وشملت كل قطاعات الجبهة .

فصاتنا قطع الجليد الضخمة عن الضفة اليسرى .

كانت المهمة التي تؤرقنا- في تلك الفترة ، هي كيفية إيصال النجدات لفرقة ليودنكوف المعزولة عن قوة الجيش الرئيسية ، التي أصبح موقفها حرجاً جداً ، فالعدو يطلق عليها نيرانه من ثلاث جهات الشمال والغرب والجنوب كما كانت مفصولة عن الشرق بنهر الفولغا المحمل بكتل الجليد الضخمة .

كان إيصال الذخيرة والغذاء واخلاء الجرحى يتم على دفعات ، بين الواحدة والأخرى يومين أو ثلاثة أيام .

لذلك كنا مضطرين - على كل حال - للجوء إلى بعض الوسائط المتوفرة لدى قطعاتنا الموجودة على الطرف الأيمن . كان أول قرار اتخذه المجلس العسكري للجيش ، هو جمع كافة أقسام فرقة سميخوتفوروف في لواء واحد هو اللواء ٦٨٥ ، وبعد تركيزه على الجناح الأيسر لفرقة غوريشني ، القيام بهجوم معاكس على العدو من الجنوب والشمال ، على طول نهر الفولغا بهدف تحقيق الإتصال مع فرقة ليودنكوف .

تجمع لدينا من كل أقسام فرقة سميخوتفوروف ٢٥٠ شخص ، وباللواء الذي شكل من هذه البقايا ، والجناح الأيمن لوحدات فرقة غوريشني ، التي أخذت تمتلىء شيئاً فشيئاً ، بعد التعزيزات التي كانت تصلها من الضفة اليسرى بدفعات صغيرة أخذنا نقوم بالهجمات المعاكسة حتى ٢٠ تشرين الثاني ، دون توقف باتجاه الشمال للإتصال بفرقة ليودنكوف .

صحيح أن هذه الهجمات ، لم تؤد إلى قلب الموقف ، ولكن بالمقابل ، لم تمكن العدو من تدمير فرقة ليودنكوف .

من الواجب أن أتكلم عن بسالة قيادة الفرقة المحاصرة وعلى رأسها العقيد إيفان ايليتش ليودنكوف ، فبالرغم من الموقف الصعب للغاية ، احتفظ ببرودة الدم والثقة بالنفس ، تكلمت معه مراراً بالراديو ، كنا نعرف بعضنا بالصوت ، ولم نكن نعلن عن أسمائنا أو عائلاتنا ، ولم أكن أتردد بأن أشجعه بوصول النجدات والإتصال معه . وكنت آمل أن يفهم لماذا كنا نتكلم هكذا بالراديو ، دون حذر فلأننا لم نكن نستطيع أن نقدم له أية مساعدة ، وكان يحدثني عن أمله بالإتصال القريب ، وكنا نسعى أيضاً للتشويش على العدو .

استطاعت طائراتنا في ليل ١٦ تشرين الثاني أن تسقط ليلاً ، وبالمظلات إلى ليودنكوف أربعة طرود من الغذاء ، وأربعة طرود من الذخائر . وفي ليل ٢٠

تشرين الثاني ، استطاعت أربع زوارق حربية مدرعة فتح طريق لها في القناة بين الفولغا ، وديتينجايا فولوجكا ، ومنها حتى الضفة التي تدافع عنها الفرقة ، وقد حملت لها الذخيرة والأدوية ، وأخلت ١٥٠ جريحاً .

من الضروري هنا ، أن أشير إلى الأعمال ، التي قامت بها طواقم المراكب البخارية . بوكاتشيف ـ بانفيلوف وسبارتاك ، والمراكب الحربية المصفحة . التي كانت تقوم في تلك الأيام بأعمال بطولية حقاً .

راقبت بنفسي هذه المراكب ، وكيف تعمل ، وكيف تفتح طريقها بالوثبات متراً بعد متر في الجليد ، وكانت تذهب من محطة التفريغ في توماك ، ثم الرأس الشمالي على الفولغا ، حتى الضفة ، حيث يدافع الجيش ٦٢ .

ويحدث في بعض الأحيان أن لا نتمكن من العودة في الظلام ، ولكن إبحارها نهاراً على طول الضفة التي يحتلها العدو ، كمن يسعى لحتفه ، لذلك كانت تبقى في الضفة التي كنا ندافع عنها مختبئة تحت المظلات ، والأغطية البيضاء ، والأكياس الملوثة بلون الثلج .

كان مصير فرقة ليودنكوف يقلقنا . لذلك كان علينا أن نعمل لاخراجها ، وبعد أن استجمعت وحداتنا كل قواها ، أخذت تقوم بالهجوم المعاكس يوماً بعد يوم ، وطوال ٢٤ ساعة ضد العدو ، الذي أحدث خرقاً حتى الفولغا بين وحدات ليودنكوف وقوة الجيش الرئيسية .

كانت مجموعات الانقضاض الصغيرة في نفس الوقت ، تطرد الغزاة خطوة خطوة من الأبنية والمخابىء ، المغطاة في القطاعات الأخرى من الجبهة ثم قامت مجموعة الشمال بهجوم من الشمال باتجاه مصنع تراكتورني وفرق سوكولوف ، وغوربيف على مصنع كراسني أوكتيابر ، وفرقة العقيد باتيوك على كورغان ماماييف ، فرقة روديمتسيف ، أخذت تنقض على الأبنية في المدينة ، وكان هجومنا يتتابع دون انقطاع . وهنا بدأت مجموعات الانقضاض بأخذ الأسرى والغنائم . وأورد هنا بعض المقتطفات من بلاغ عمليات الجيش ٦٢ خلال تلك الأيام .

١٢ تشرين الثاني

« صد الجيش خلال اليوم عمليات العدو القاتلة لإعادة الوضع وتثبيته على الجناح الأيمن » .

« مجموعة الشمال اقتصر نشاطها على الرمي وإطلاق النار على المواقع

التي كان العدو قد احتلها سابقاً» .

« صدت الفرقة ١٧٨ الهجمات ، التي قام بها لواء مشاة معاد على الجناح الأيسر ، وكذلك هجمات المجموعات الصغيرة في الوسط ، كما وسعت نطاق الدائرة التي كانت فيها نصف محاصرة» .

تواصلت المعارك . وصدت وحداتنا هجمات العدو على مواقعه التابعة التي أخذناها منه ، بالرغم من نقص خطير في الذخيرة والغذاء والأدوية .

« خاضت الفرقة ٩٥ واللواء ٣٩٢ والفرقة ١٩٣ معارك ضارية لقلب الموقف في قطاع اللواء ٢٤١ لإعادة إتصال الجبهة ، وإقامة إتصال ضيق مع وحدات الفرقة ١٣٨ . كما تتابعت المعركة في قطاع مستودعات البترول» .

« قوات الجناح الأيمن من الفرقة تقاتل عن مواقعها السابقة» .

« الوحدات الأخرى كانت تدافع عن مواقعها السابقة ، وتصد هجمات مجموعات المشاة وتخوض القتال بالنيران» .

« لم تصل الوسائط العائمة كلها . وبذلك اختلت خطة النقل لثلاثة أيام والتعزيزات المتوقع وصولها لم تنقل وظلت القوات تعاني من نقص خطير في الذخيرة والتموين ، قافلة المراكب التي قامت من توماك مع عناصر اللواء ٩٠ لم تستطع فتح طريقها بسبب قطع الجليد العائمة ، فاضطرت للعودة بينما قطعت قطع الجليد كلياً الإتصالات مع الضفة اليسرى في قطاع معبر ٦٢ » .

١٨ تشرين الثاني ١٩٤٢

« صد الجيش خلال النهار الهجمات العدوة على جناحه الأيمن ، وعلى بقية الجبهة وقام بإطلاق النار على مواضعه السابقة» .

« مجموعة الشمال : بعد صدها هجمات المشاة والمدرعات العدوة التي قامت بها قوات بتعداد أكثر من لواء على رينوك ، والحدود الغربية لسبارتانوفكا ، إنتقلت هي للهجوم المعاكس ، بهدف تثبيت الموقف في قطاع رينوك » .

« وقذف بالعدو بعد معركة ضارية من الحدود الغربية لرينوك ، وثبت الموقف كليا» .

« أبدنا خلال ١٧ و ٤٢/١٢/١٨ (٨٠٠) جندي وضابط معادٍ ، وأكثر من (١١) آلية ، احترقت منها تسع دبابات» .

« عدد الحراب (المقاتلين) الباقية في مجموعة اللواء ١٢٤ هي ٧٤٥ » .

« عدد الحراب (المقاتلين) الباقية في مجموعة اللواء ١٤٩ هي ٤٧٥» .

« تحتاج هذه الألوية إلى تموين بالذخيرة والغذاء بسرعة » .

« صدت الفرقة ١٣٩ الهجمات العدوة ، والتي قام بها بحوالي فوجين من الدبابات ، وبعد إدخال قوات جديدة استطاع العدو أن يدفع إلى الوراء الجناح الأيسر للفرقة ويحتل ثلاثة أبنية » .

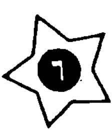
« صدت فرقة المشاة ٩٥ الهجمات العدوة ، التي قام بها أكثر من فوج في قطاع بنزوباكي » .

« تمسكت فرقة المشاة ٩٠ بقطاع بنزوباكي ، وتحصنت هناك كما استقرت الفرقة ٢٤١ واللواء ٦٨٥ على خط منخفض يقع على بعد ١٥٠ متراً من شمال شرق ميزنسكايا » .

« قاتلت الفرقة ٤٥ وفرقة الحرس ٣٩ على مواضعها السابقة ضد المجموعات العدوة الصغيرة من المشاة لتحسين مواقعها » .

« صدت وحدات الجيش على بقية القطاعات الأخرى هجمات مجموعات العدو الصغيرة من المشاة ، واحتفظت في مواضعها » .

كنا نشعر كلنا بضعف العدو ، ونرى أنه أخذ يلهث من التعب والإنهاك ولم يعد بإمكانه جمع قوات أكثر مما لديه لإخماد مقاومتنا ودخلنا نحن وإياه في آخر رمق من الإنهاك ، ولكن طال هذا الموقف حتى ١٩ تشرين الثاني .



كنا في مساء ١٨ تشرين الثاني مجتمعين في المخبأ ، غوروف ، كريلوف ، بوجارسكي ، فانيروب ، فاسيليف ، نناقش إمكانياتنا للقيام بعمليات نشطة لاحقة بعد أن أنهكت قواتنا . وفي تلك اللحظة تلقينا هاتفاً من أركان الجبهة ، يخبروننا بأننا سنتلقى أمراً بعد قليل .

- إني أعتقد - قال غوروف - بأنه أمر الهجوم المعاكس الكبير .

لذلك انطلقنا إلى مركز الإتصال وأخذنا ننتظر بفارغ الصبر اللحظة التي يدخل فيها جهاز الإتصال *BODO* بتماس مع خط إتصال أركان الجبهة ويوضع قيد العمل .

وأخيراً في منتصف الليل تلقينا الأمر الموعود

أخذت قلوبنا ترتجف .

نقل إلينا الجهاز المذكور أن قوات جبهتي جنوب ـ غرب والدون ستقوم بالهجوم المعاكس صباح ١٩ تشرين الثاني ، اعتباراً من قطاع كليتسكايا ـ ايلوفلنسكايا وكاتجاه عام الوصول إلى كلاتش ، كما أن جبهة ستالينغراد ستقوم بهجومها بتأخير يوم واحد ٢٠ تشرين الثاني اعتبارا من قطاع : رايفورود ـ بحيرات : ساريا ـ تساتا ـ بارمنتسكا ، وكاتجاه عام بلدة سوفيتسكي ، ثم الوصول إلى كلاكش وهدف الهجوم المعاكس خرق جبهة العدو وتطويقه ثم إبادته .

كان محور الأمر الذي تلقيناه القيام بهجوم معاكس ، وتطويق كل قوات العدو المتمركزة أمام ستالينغراد وتدميرها ، إذن هي ليست عملية محدودة بل كانت عملية ذات أهمية كبرى ، فثلاث جبهات ستقوم بالهجوم . وهذا يعني أن القيادة العليا السوفيتية نجحت في تجميع وتركيز قوات هائلة للقيام بهذه الضربة القاتلة . والآن وجد نضالنا من أجل ستالينغراد ومقاومتنا الضارية للعدو معناه ونتائجه . ففي الوقت الذي كان فيه العدو يورط نفسه دائماً وبإصرار في معارك الشوارع ، ووصول قوات ألمانية جديدة متتابعة على ستالينغراد . كانت قوات سوفيتية عملاقة تتجمع بأعداد كبيرة على أجنحة القوات الألمانية في اللحظة التي أخذنا فيها نشعر بانهيار قوانا ، وسحق العدو لنا ، إذن لم تذهب دماء المحاربين المهراقة سدى ، وبذل كل الذين في ستالينغراد أقصى جهودهم وامكاناتهم .

لقد وجدت شعارات « لا خطوة إلى الوراء » « ولا أرض لنا وراء الفولغا » معاني جديدة لها . فشعار لا خطوة إلى الوراء معناها أن الخطوة يجب أن تكون إلى الأمام ، ولا أرض لنا وراء الفولغا يعني السير باتجاه الغرب فقط .

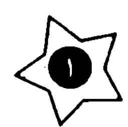
ولكي ننقل أوامر قيادة الجبهة بأسرع ما يمكن لكل شخص في ستالينغراد ، استنفرنا فوراً مجموعة من الأركان والفصيل السياسي في الجيش ، وأبلغنا أيضاً أركانات الفرق لتهيئة أشخاص وإرسالهم قبل الفجر للوحدات .

وهنا نستطيع أن نتخيل حالة الفرح التي ستعم أفراد الجيش عند سماعهم بهذا الامر ، فلا يوجد أدنى شك بأن النجاح سيكون حليفنا .

ـ سنذهب بعد قليل للعيش في أرضنا الكبيرة حسب أقوال الجنود ولا حد لشعورنا بالفرح .

وهكذا بدأت نهاية الساعات المظلمة لآخر ليل تمضي مع آخر مرحلة كاملة من تاريخ الحرب ، وفي الفجر سيبدأ كل شيء .

مقومات النصر



عندما نلقي بنظرة فاحصة على المعارك الدفاعية في ستالينغراد لا بد أن نفتش على المقومات التي استمد منها نصرنا ، ولا يمكن إلا أن نتفحص بإمعان الأسس التي نسجت منها قوة المقاومة التي أعطتنا الظفر ، والتي أظهرها كل من كان في ستالينغراد ، والذين صمدوا لكل المحاولات الألمانية لتحطيم صلابتهم .

في المقام الأول يأتي الدور الكبير الذي لعبه الحزب الشيوعي في إرساء قواعد النصر في ملحمة ستالينغراد ، وبخاصة اعتباره في خريف وربيع ١٩٤٢ . أن قطاع ستالينغراد هو أهم قطاعات الجبهة ، لقد عبأ الحزب الشيوعي الشعب السوفيتي بأكمله لتحقيق النصر في هذا القطاع ، لذلك فنحن مدينون للحزب الشيوعي ولجنته المركزية لأنهم هم الذين نظموا وخططوا لهزيمة القوات الألمانية أمام قلعة الفولغا .

وسجلت هذه الهزيمة بداية منعطف جذري حاد في تاريخ الحرب العالمية الثانية .

خطط الحزب الشيوعي لهذا المنعطف المعقد ، بشكل لا يصدق ، وحتى قبل بداية معركة ستالينغراد .

فكما نعرف سقطت بيد العدو في السنة الأولى من الحرب عدة مناطق صناعية من بلادنا وكان من الضروري نقل المؤسسات الصناعية الضخمة إلى الشرق . وأن تعود لعملها بأسرع ما يمكن . فأي ذكاء وإرادة حديدية ومستوى عالٍ كان متطلباً من الطبقات العاملة والعلماء والأجهزة القيادية لتنظيم انتاج وتركيب هذه المؤسسات وإعادتها للعمل .

نقلت هذه المؤسسات إلى أرض خلاء تقريباً كوجه الطاولة . وكان عليهم تأمين اليد العاملة ، الطاقة ، المواد الأولية ، وتوزيع الانتاج بعد أن أخذت

المعامل تعمل في أقصى طاقتها .

بالرغم من أن الحزب لم يهمل تذليل المصاعب الاقتصادية إلا أنه قام منذ البداية بعمل ضخم لإزالة آثار الهجوم المفاجيء الذي قام به العدو .

أرسل الشيوعيون للقطاعات ذات ، الخطورة الكبرى والصعبة كقوى موجهة لنضال الشعب جميعه . وأمنت وأوثقت تلاحم المحاربين والعمال في المؤخرة .

كما ألحق بقوات الجبهة آلاف الشيوعيين الذين كانوا يملكون الخبرات الكبرى عن عمل الحزب وفي الجيش ٦٢ . من بين تسعة آلاف شيوعي استدعوا للخدمة تحت العلم في مختلف المقاطعات والمناطق في البلاد ، يمكن أن نعد فيه أكثر من خمسمائة سكرتير ، رئيس فصيل ، موجه في لجان النواحي والمناطق والمدينة . وأمناء منظمات الحزب في الكولخوزات والمصانع وآخرون من عمال الحزب ، ومن أجل دعم جهاز الفصيل السياسي للجيش وصل معاونون من اللجنة المركزية للحزب ا . كويلوف . ا . كروغلوف والقوميسار المساعد للسوفخوز في *R . S . F . S . R* ا . ستوبوف ورفاق آخرون . لقد شكلت في الجيش نواة قوية من الحزب . لم يكن هناك حتى سرية واحدة لا يوجد فيها نسبة قوية من رجال الحزب ، كان جميع تعداد فرق الحرس ٣٣ ، ٣٧ ، ٣٩ وعدد من الأفواج من الشيوعيين والكومسمول .

وزعت قوى الحزب في الجيش على مختلف القطاعات ، ذات الأهمية الكبرى . في المسير وضمن الخنادق وفي المعركة ، أظهر الشيوعيون بإعطائهم المثل كيف يكون النضال للإجابة على متطلبات الحزب والوطن « ولا خطوة إلى الوراء » . كان مئات و آلاف الشيوعيين يشرحون للرجال « أنه لا يوجد مكان نتراجع إليه مطلقاً ، وأنه من الواجب فقط إيقاف العدو ، وكذلك قذفه إلى الوراء أيضاً ، لم يكن هناك واجب سوى التصميم الحازم وحسن التصرف » . كانوا قوة لا حدود لها . بتقديمهم المثل وتأثيرهم على معنويات كل جندي . وشعور بالتضحية شيء لن يفهمه مطلقاً المؤلفون الحاليون للكتب الضخمة التي تظهر في الغرب عن الحرب الأخيرة ، ولا حتى الذين لا يريدون أن يعترفوا بأن الضربة الحاسمة في الحرب العالمية الثانية ، نظمت بفضل الحزب الشيوعي وحققها الجيش السوفيتي .

لهذا لا يمكن أن أعفي نفسي من أن أورد هنا ، بعض الأمثلة عن خبرات عمل حزب الشيوعيين في الجيش ٦٢ أثناء الحرب .

فكما قلت آنفاً إن قوى الحزب كانت موزعة في كل القطاعات ذات الأهمية الكبرى في الجيش يعني أن العمل السياسي لا يمكن أن يكون مستقلاً عن مهمات الجيش ، ولكنه كان موجوداً في الميدان وفي الوحدات لضمان تنفيذ أوامر القتال .

« كان المدافعون عن ستالينغراد يقاومون حتى الموت » ، ولكن لم يكن سهلاً تحضير العناصر معنويا لمثل هذه الصلابة .

تصوروا جندياً سائراً بالرتل على طريق من الغبار نحو الفولغا . كان تعباً حواجبه ملتصقة بسبب الغبار والعرق . بندقيته المضادة للدبابات أو رشاشه على كتفه ، جعبته مملوءة بالطلقات ، والقنابل اليدوية تتدلى على نطاقه ، كيس تموين على ظهره فيه بعض الأشياء الصغيرة التي حضرتها له زوجته أو أمه كمؤونة لطريقه الطويل . يضاف إلى ذلك ، في مكان ما هناك بعيداً في قريته ومسقط رأسه ، ترك والدته العجوز وزوجته وأطفاله . كان يفكر بهم ويأمل سريعاً بالعودة إليهم . ولكن عند إقترابه من الفولغا أخذ يرى السماء ملونة بأضواء الحرائق . كان يسمع الانفجارات التي تدوي كالرعد . يعود ويفكر من جديد ببيته وأولاده . بزوجته . هنا يفكر بهم بشكل آخر « كيف سيعيشون بدوني ؟ » في تلك اللحظة إذا لم تذكره بالخطر القاتل المعلق فوق وطنه ، واجبه المقدس نحو وطنه . فسيكون مستعداً ليصبح حبيس أفكاره ويتوقف أو يبطىء من مشيته . ولكنه يمشي دون توقف على جوانب الطريق حيث الملصقات وكلمات الأوامر تدعوه للمسير إلى الأمام مع هذه الكلمات الحماسية :

« أيها الرفيق فيما إذا لم نوقف العدو في ستالينغراد ، إعلم أنه سيصل إلى بيتك ويدمر قريتك ! »

« يجب أن يقهر العدو ويباد في ستالينغراد » .

« أيها المحارب ! الوطن الأم لا يمكن أن ينسى عملك الجليل » .

« الوطن الأم لن يترك أهلك يأسون »

يهبط الليل ، ها هو المعبر ، على أرصفة العبور ، مراكب مدمرة مركب حربي جوانبه مثقبة كالغربال على طول الشاطىء بين الأدغال ، وتحت أشجار الحور المقطعة . وفي الحفر والمسارب أشخاص جالسون مئات من الأشخاص كانوا ينظرون بصمت إلى كل شيء ، يمسكون بأنفاسهم هناك في الضفة الأخرى من الفولغا . المدينة تغرق في اللهب الأحجار نفسها تحترق هناك على ما

يبدو . أضواء الحرائق ترتفع في بعض الأماكن حتى السحاب . هل من الممكن أن يعيش هناك أشخاص ويناضلون بهذا الأتون ؟ كيف يتنفسون هناك ؟ عن أي شيء يدافعون ؟ الركام ، الرماد ، أكوام الحجارة ؟ ولكن هناك أمر بالعبور إلى الضفة الأخرى ، والسير باتجاه المعركة فوراً .

نعم إنه أمر ، ولكن إذا اسيتكنا فقط على هذا الأمر دون أن نهيىء العناصر معنوياً لتنفيذه ، فالمركب سيعبر ببطء وأول قنبلة تطلق على الزورق المنساب على الماء سيغادره الرجال ، وينقذون أنفسهم سباحة ولكن ليس إلى ضفة الأتون الملتهب وليس باتجاه المعركة . ولكن للجهة الأخرى التي أتوا منها .

في هذه الحالة لا الملصقات ولا كلمات أمر القتال تفيد شيئاً ، أحدهم يجب أن يكون قدوة في كل فصيلة وسرية ، يجب أن يكون هناك أشخاص ينزلون إلى الماء ويقودون الرجال وراءهم نحو الضفة التي تقع عليها المدينة الملتهبة وهؤلاء القدوة كانوا من الشيوعيين والكومسمول .

وبتنفيذهم أمر رئيسهم ، كانوا يقدمون المثل الشخصي للعمل الواجب تنفيذه ، وأسلوب التنفيذ حسب هذا الظرف أو ذاك . هذا هو العمل السياسي لتنفيذ أمر القتال .

لننظر كيف يقص جندي ، رامي رشاش من فرقة غوريشني عن العمل السياسي عند عبوره نهر الفولغا . وهو الشيوعي بيتربيلوف ، وهو حالياً نجار في معمل النسيج في اوريخوفور ـ زوبيف .

ـ قبل صعودنا على المركب . رأينا أحد الرجال يقترب منا ، قامته قصيرة ووجهه مدور وحليق الرأس ، إنه الجنرال جوليكوف ، معاون قائد الجبهة عائداً لتوه من الضفة الأخرى وابتدرنا قائلاً :

ـ يبدو عن بعد أن كل شيء يحترق هناك ولا يوجد مكان لموطىء قدم . ولكن هناك ألوية وفرق تعيش وتقاتل جيداً ، وهم بحاجة إليكم وهم ينتظرونكم .

بعد ذلك وزعت علينا الصحف ، ومع كل صحيفة كراسة مطبوعة « ماذا يجب أن يعرفه الجندي عن قتال الشوارع وكيف عليه أن يعمل» .

رسا المركب ونحن ننتظر أمر الصعود والقلب يخفق في نفس الوقت . كل منا يريد أن يعيش . رأينا أول من يصعد دون أمر ، نقيب نحيل ذو لحية مع نجمة على كتفه . وكما يظهر أنه موجه سياسي رئيسي .

وكما علمت فيما بعد أنه سيروميانتكوف ، سكرتير لجنة الحزب في الفرقة ،

وهو عضو قديم في الحزب الشيوعي منذ عام ١٩١٨ على ما يبدو ، ووراءه مجموعة من الجنود ومن الطرافة أن نتحدث عن هؤلاء . لدينا مثلاً ستيوباتشيكاروف وكان مريضاً من الخوف ، مرة عندما كنا نترجل من عربات السكة الحديدية ، فتح الدفاع المضاد للطائرات نيرانه ولا نعرف لماذا ؟ فركض الشاب المسكين يريد إنقاذ نفسه نحو الحقول ، واستطعنا الإمساك به بعد جهد وأعدنا له ملكاته وحالته الطبيعية قدر الإمكان ، لم يكن يعرف كيف يخفي هلعه . قام سيروومياتنكوف بجمع مثل هذه النماذج من الجنود وجعلهم يصعدون في الأول إلى ظهر المركب ، دون انتظار الأمر ولسان حاله يقول أنظروا حتى تشيكاركوف نفسه غير خائف .

تم الصعود على ظهر المركب بسرعة وتركنا الضفة وعددنا مائة شخص وضعونا نحن الشيوعيين بشكل حاجز لا على التعيين للحيلولة دون حدوث هلع ما أو فوضى .

إننا نبحر الآن المياه حمراء بسبب أضواء الحريق ، وها هو القمر يظهر من وراء الغيوم وكأنه عمل متعمد ، ثم سطعت نار مضيئة فوق رؤوسنا ويمكن قراءة الجريدة على ضوئها ، أخذت الانفجارات تحيط بنا من اليمين واليسار . لغم إنفجر أمام مقدمة المركب واعتقدت بأننا كلنا سنغرق ، كانت المياه عميقة في وسط الفولغا . ولكن سيروومياتنكوف ذو اللحية هو نفسه كان جاثماً على أحد صناديق الذخيرة وظل جالساً فوقها أمام الجميع ، مشغولاً بتصنيف البريد مع موزع البريد . الذي كان يدله بيده عن هذه وعن تلك من الرسائل . أحد من بيننا أخذ يتأوه ، ولكنه هدأ عندما نظر سيروومياتنكوف باتجاهه ، كما لو كان يقول له : صبراً أيها الرفيق ، فمن المحتمل أن تكون لك رساله هنا .

عندما وصلنا الى النقطة الميتة والتي لا تمسها نيران العدو ، حل الظلام فجأة ، وكأن أحداً أطفأه بطلقة بندقية ، وبقدرة قادر سمعنا كلنا صوت الموجه .

ـ أيها الرفاق في الحالة التي يحدث فيها شيء ما نحن هناك الموزع وأنا بالقرب من مستودعات البترول ، التي تلتهب هناك سيكون مقر أركان الفوج .

يمكن أن نقول بأن هذا الرفيق لجأ إلى الحيلة ، ولا شك بذلك فالتحرير بالنسبة للجندي هو بمثابة موعد للقاء مع أسرته . الجميع يتهافتون عليه ، ولكن هنا وفي هذه الظروف يجب أن يتحلى الانسان بالشجاعة ، وحسن التصرف فجلوسه هادئاً في أكثر الأمكنة خطورة ، وانشغاله بتوزيع الرسائل على صناديق الذخيرة

ـ وباختصار ـ الشيوعي هو الشخص الذي يحسن التصرف في مثل هذه الأمور .

نستطيع أن نورد هنا كثيراً من الأمثلة على حسن التصرف والسيطرة على النفس . والحزم والجرأة لدى الضباط والموجهين السياسيين وأهليتهم في تركيز انتباه الجنود إليهم في اللحظة الحرجة جداً ، تلك هي نماذج شخصية للشيوعيين في القتال .

المثل الشخصي : كان الفصيل السياسي كما يبدو لي يعمل بقوة . وذلك بإلحاحه على أن يناقش في اجتماعات منظمة الحزب في كل وحدة موضوع تصرف الشيوعيين في المعركة . حددت مطالبه في الرسالة الموقعة من قبل عضو المجلس العسكري غوروف ومن رئيس الفصيل السياسي ، فاسيلييف . وكانت موجهة لموضوع القتال في شوارع المدينة « وجاء في الرسالة أن كل عضو في الحزب يجب أن يكون القدوة للذين حوله . إن الصلابة والحزم يجب أن تكونا الأسس التي تحدد سلوك الشيوعيين في المعركة وأي شيوعي يظهر أي جبن أو بلبلة ، فعلى منظمات الحزب أن تدينه بكل القساوة التي يقرها إنضباط الحزب بما فيها طرده » .

نوقشت هذه الرسالة ليس فقط في منظمات الحزب . ضمن السرايا والأفواج . ولكن حتى في أركانات القطعات بما فيها أركان الجيش ، وشعر كل آمر بما يمكن أن تذكر عنه المراقبة الدائمة حول تصرفه من قبل أبسط أعضاء الحزب . فبموجب دستور الحزب كان يحق له أن يطلب تطبيق قرارات منظمات الحزب ، هذا هو قانون حزبنا ، إن ما يقرر في الاجتماع الحزبي هو إجباري للجميع . وكل مخالفة للانضباط الداخلي للحزب يعاقب عليها بنفس الشدة إزاء كل عضو دون النظر إلى شخصه مهما كانت رتبته هذه . وبصفتي قائداً للجيش كنت أدعم بشدة واجبات الشيوعيين .

لهذا يمكن أن نعرف ، لماذا تمكن المجلس العسكري في أشد الأيام صعوبة . وفي بداية معارك الشوارع في وسط المدينة . أن يقطع بحزم وفعالية دابر كل الاشاعات التي تنم عن التخاذل . وتضعف المعنويات والتي كان يبثها ، الذين كانوا يشككون بجدوى الدفاع عن المدينة . لقد اتخذ المجلس العسكري بدعم من منظمات الحزب تدابير صارمة ضد الضعفاء ، والجبناء .

وما عرفت جندياً ينتمي إلى الجيش ٦٢ وكان يدين بالجبن ، ضابطاً أو جندياً

هارباً من ساحة المعركة . فالمقاتل الحقيقي لا يمكن أن يتحمل الذين يختفون وراء ظهره ويخونونه بخورهم ، وجبنهم . تلك كانت الحالة النفسية المسيطرة على المدافعين عن ستالينغراد ، وبالرغم من خطورة الموقف وتفوق العدو في العدة والعدد لم تقع أية حادثة تنم عن ذعر جماعي . ويعود الفضل في ذلك إلى منظمات الحزب في الجيش ٦٢ .

من الضروري أن نأخذ بعين الاعتبار . أنه في ظروف حرب الشوارع . وضمن أصوات انفجارات القنابل التي لا تنقطع . والتي كانت تسود ساحة القتال ليلاً ونهاراً . ودامت أياماً وأسابيع وشهوراً كاملة ، والتي لم يكن بالمستطاع على الموجهين السياسيين تنظيم لقاءات واجتماعات كبرى للجنود ليشرحوا لهم القرارات الهامة التي تصدرها أوامر القيادة ، فلم يكن لديهم لا المكان ولا الزمان لإلقاء الخطب الحماسية ، فغالباً ما كان المشجعون والدعاة يشرحون المهمات بالمحادثات القصيرة مع المحاربين في مختلف النواحي ، في الأقبية ، وتحت أقفاص السلالم ، وغالباً ما كانوا يوضحون بشكل مباشر في المعركة وخلال العمل ، كيفية استخدام ، وتنفيذ أمر القائد ، وأقول هنا بصراحة ، إن هذه المظاهر البسيطة كانت تحدث تأثيراً فعالاً على الأشخاص ، أكثر من المحاضرات الطويلة . ولهذا السبب وقعت على عاتق الموجهين السياسيين في الجيش ٦٢ مهمة التعرف بعمق على تكتيك حرب الشوارع ، وللمهارة في استخدام السلاح ، وبخاصة استخدام المسدسات الرشاشة . والقنابل اليدوية . وقد وفق أغلبهم في أداء مهمته بشكل جيد .

وتكمن الجدارة الحقيقية لمنظمات الحزب في الجيش ٦٢ ، كما يبدو لي أن الموجهين السياسيين استوعبوا خواص قتال الشوارع . ونقلوا مركز ثقلهم وعملهم حتى إلى السرايا والفصائل ومجموعات الانقضاض وأصبحت المحادثة الفردية الشكل الرئيسي لعمل كل الموجهين السياسيين ، وأمناء منظمات الحزب ، والكومسمول ومعاونيهم والموجهين في الفصيل السياسي . والتساؤل هنا هل من الممكن النفوذ إلى ضمير الجندي لإقناعه ، بأنه يستطيع وعليه قتال العدو حتى آخر إمكاناته حتى ولو بقي لوحده في مؤخرة العدو . لقد منحته القيادة هذه الثقة يعني أعطته الحق بالعمل لوحده مستقلاً ولكنه كان يشعر بأنه مجبر على أن يستخدم هنا هذا الحق بتعقل مع النظر بالمهمات المكلفة بها الألوية والفرق ومجموع الجيش . الثقة . الثقة وأيضاً الثقة .

وهذا هو الذي يستطيع رفع مستوى النشاط القتالي الخلاق لمجموع الجنود ، كان عملاً دقيقاً ومعقداً ومحملاً بالمسؤولية أعطى كما نعرف نتائج باهرة ، ويمكن القول دون مبالغة

« إنه بفضل نشاط منظمات الحزب أصبح كل مدافع عن المدينة ، حاجزاً لا يمكن عبوره في طريق العدو » .

كانت منظمات الحزب تعمل بسرعة وفعالية على تأمين تنفيذ جيد لأوامر القتال . وأني أتذكر عدداً من الموجهين السياسيين عندما كانوا يتلقون أوامر القتال ، كانوا يذهبون إلى القطاعات التي ستنفذ فيها أشد المهمات صعوبة وتعقيداً . وكان لديهم تعليمات محددة جيداً نقل أمر المعركة لعلم كل محارب ، تعبئة منظمات الحزب والكومسمول لتنفيذ هذا الأمر في أي ظرف من الظروف . هذه الظروف كما نعلم كانت معقدة ومختلفة ، حسب كل قطاع وكل بيت . والشيء الجيد والقوي هو أن الموجهين السياسيين كانوا يختارون مع المحاربين أنفسهم شكل وطريقة العمل حسب الموقف ، دون انتظار أي لحظة ملائمة ، ويذهبون مباشرة إلى مجموعات الانقضاض بالقرب من رشاشاتهم وإلى المشاة ورجال الهندسة (النقابون) ، وإلى أي مكان فيه جنود لذلك لم يكن هناك أي إنقطاع يتخلل تنفيذ العمل السياسي الجماهيري مع المحاربين تلك كانت المتطلبات الدائمة للفصائل السياسية نحو مساعديهم .

كان الموجهون السياسيون والضباط من كل الدرجات من أمناء تنظيمات الحزب حتى قائد الفصيلة السياسية وأعضاء المجلس العسكري للجيش يزورون الخط الأول ، وكثيراً ما كان يحدث أن أكون شخصياً بزيارة لخنادق الجنود وأعشاش الرشاشات . أشرح للمحاربين القرارات ذات الأهمية الكبرى للحزب ومهمة قتال الفصيلة التي ذهبت لزيارتها . ومن تحصيل الحاصل أنه بعد مثل هذه المحادثة في الخندق ، بقلب مفتوح مع الجندي ، كان يشعر بعمق أكثر بمسؤوليته نحو المهمة الملقاة ويفهم بشكل أفضل النقطة ذات الأهمية ، التي عليه أن يوجه إليها اهتمامه لتنفيذ مهمته .

نعم على هذه الصورة ، يقوم عمل الحزب لدينا .

لقد علمت أن إيفان باتشنكو ، مفتش الفصيل السياسي للجيش قوميسار الفوج (بعد ذلك أصبح مقدماً) ، كان يحارب مع فوج مطوق في قطاع اورلوفكا ، وقد إنسحب مع مجموعة من ١٢٠ شخصاً ، بعد أن خرق ليلاً النطاق العسكري

الألماني المحاصر ، وحقق الإتصال مع الوحدات التي تعمل في القطاع .

وظل المفتش السياسي الرئيسي ايفان سيومين لمدة أسبوعين مع مجموعة الانقضاض التي كانت تقاتل في معمل العيارات في مصنع كراسني أوكتيابر ولم يترك موقعه ويخليه ، إلا بعد أن جرح جرحاً بليغاً وبتر أحد فخذيه .

كان عمل منظمة الحزب في الفرقة ٢٨٤ مشاة باتيوك بخاصة منسقاً ومنظماً بشكل جيد فقد نظم قائد الفصيل السياسي تكاتشنكو مع الموجهين السياسيين المساعدين وأمناء منظمات الحزب في الألوية عملهم بشكل لا يمكن معه أن يكون في المعركة حالة واحدة من الجبن والذعر ، لذلك سببت صلابة السيبيريين وحزمهم الألم والأسى للألمان ، فقد أبادوا على مرتفع كورغان ماماييف بضعة آلاف من جنود العدو بفعل نيران الرشاشات والمسدسات الرشاشة لمجموعات الانقضاض من فرقة باتيوك .

كان الجهاز السياسي لهذه الفرقة يولي اهتماماً خاصاً لتطوير ، ونشر الطرق الجديدة للنضال ضد العدو ، فعندما طور قانص الدبابات ديمتري شوماكوف بندقيته المضادة للدبابات ، وأصبح بإمكانه استعمالها مع جهاز الحامل ضد الطائرات ، قام الموجه السياسي فيخوروشيف في نفس اليوم برسم مخطط صغير « كروكي » للجهاز الذي أضيف على البندقية ، ووزعه على كل الفصائل ليعملوا نفس العمل ، وخلال يومين استطاع قانصو الدبابات التابعون للواء أن يضيفوا على لائحتهم ست طائرات منقضة أسقطت من قبلهم . وعندما بدأت حركة مهرة الرماة . كان فاسيلي زايتسيف أول من دفع هذه الحركة في هذه الفرقة . وظهرت نشرة لائحة الرماة المهرة في كل القطاعات والمخابىء ، كان ينشر فيها عدد الهتلريين الذين قتلوا خلال اليوم ، وكانت نشرة الفرقة تنشر يومياً المعلومات عن أفضل الرماة ، لقد تطور العمل في فرقة باتيوك بشكل واسع بما فيها إرسال الرسائل لآباء وذوي الرفاق القتلى . وكان الجنود في هذه الرسائل يقسمون على الثأر لدم رفيقهم في السلاح : مفارز كاملة ، فصائل وسرايا . وحتى مستوى لواء كانوا يضعون تواقيعهم في نهاية الرسائل . ومن الطبيعي أن الذي يوقع القسم كان يسعى لتنفيذه .

وكان نشاط الشيوعيين يمتد إلى كل مظاهر الحياة في الجيش . كانوا يوجهون أهمية كبرى لإيصال الغذاء الحار إلى الخطوط الأمامية ، ومواضع الرمي ويظهرون عناية كبرى لتنظيم الخدمة الصحية للجرحى ، وتهيئة أماكن للعمل

السياسي في المخابىء المغطاة ، حيث يستطيع الجنود والرتباء قراءة الصحف وسماع الموسيقى والاستراحة .

يعتبر الجند المتميزون في القتال أول العناصر المقبولة للانضمام للحزب ، كما كانت لجان الحزب في الفرق والجيش تعقد اجتماعاتها في الوحدات نفسها .

سنحت لي الفرصة بأن أكون شاهداً على تسليم الجنود المميزين بطاقاتهم الحزبية في الفرقة ٢٨٤ ، وكان من بينهم فاسيلي زايتسيف . أقسم هؤلاء المحاربون وهم يرفعون بطاقاتهم لشفاههم على الصمود والقتال حتى الموت وقتال العدو كبلاشفة .

لا نستطيع أن نوفي هذه اللوحة حقها وأن تكون كافية لإبراز كل نشاط شيوعيينا في الجيش فهم الذين كانوا يهيئون الرجال معنوياً . ويصونون عملياً قدراتهم القتالية الحالية . لقد لعب شيوعيو الجيش ٦٢ دوراً قيادياً في القوات ، وشدوا التلاحم في صفوف الجنود وكانوا الأوائل في أشد المعارك ضراوة والتي دارت وجهاً لوجه ، وكانوا أشد المقاتلين حماسة في الهجمات وأشدهم أهلية وحسن تصرف ، في مجموعات الانقضاض ، وأكثرهم صلابة في الدفاع .

كانت قيادة الكومسمول جزءاً متمماً لعمل منظمات الحزب في الجيش .

الكومسمول .. إني ألفظ هذه الكلمة بانفعال وفخر بسبب ما حققه انكومسموليين من مآثر بطولية رائعة في جيشنا خلال سني الحرب الوطنية الكبرى وبخاصة بسالتهم ، وحزمهم في قتال الغزاة الفاشيين .

وخلال المعارك الضارية التي كانت تتوالى في شوارع مدينة ستالينغراد المطوقة طلبت من القياديين في لجنة الحزب واللجنة التنفيذية للمدينة إطلاق اسم شارع الكومسمول على أجمل شوارع العاصمة عند إعادة بنائها ، وكان رجاء المجلس العسكري للجيش ٦٢ أيضاً ، لأن هذا الجيش الذي قاتل في شوارع المدينة كان مشكلاً بشكل رئيسي من الجنود الشباب ، وكثيراً من السرايا والأفواج والألوية كانت بكاملها مشكلة من الشبيبة (الكومسمول) .

يمكن أن تحصى في فرقة الحرس ٣٩ أكثر من ثمانية آلاف كومسمولي وبخاصة في وحدات المظليين ، الذين كانوا في تشرين الأول يدافعون عن مصنع (تراكتورني) . وفي يوم ٥ تشرين الأول لوحده كانت تحلق في الجو حوالي سبعمائة طائرة عدوة ، فاذا كانت كل طائرة ترمي بين ٨ ـ ١٥ قنبلة ، يعني أكثر من ستة آلاف قنبلة سقطت في مواقع هذه الفرقة ، ورغم كل هذا الزخم لم

يستطع العدو التقدم ولا خطوة واحدة إلى الامام .

كان الكومسمول بقيادة منظمات الحزب في الطليعة وفي كل مكان .

أياً كان في مدينة ستالينغراد ، وحتى في تلك الأيام القاسية المرعبة التي مرت بها المدينة ، كان يقدر الدور الذي لعبه في المعركة المحاربون الشباب من الكومسمول ، الذين كانوا يتحلون بأعلى الفضائل المعنوية والعسكرية .

ونحن الجنود القدامى الذين تنشقنا رائحة البارود عدة مرات . كنا سعداء بأن نرى ونعرف بأن هؤلاء الجنود والضباط لا يستسلمون أبداً . وكانوا في هذه المعارك القاسية يتحلون بالشجاعة والدم البارد وبسالة الجنود القدامى ، نحن فخورون جداً بأن شبيبتنا المحاربة لم تظهر فقط الجدارة الموروثة للتقاليد البطولية التي يتمتع بها الجيل القديم بل استطاعوا تطويرها .

إن الكتابة في موضوع المحاربين الشباب في معركة ستالينغراد ، هي الكتابة في موضوع الشبيبة جميعهم ، الذين غطوا بصدورهم في زمن الخطر القاتل الفولغا ووطنهم الأم ، هي الكتابة في موضوع القلب الوفي والبذل للشبيبة السوفيتية بحبهم ، الحب دون حدود لوطنهم وحزبهم الشيوعي هي الكتابة في موضوع الطابع ، الذي إتصف به جيل بأكمله ويملؤه الفخر وإرادة لا تلين . في بسالة هذا الجيل وروحه الكبيرة ، وأخوة السلاح التي لا تهتز .

لقد صمد الكومسمول بشرف لتجربة النار والدم ، وهناك عمدوا وتعلموا علم القتال وفن النصر على العدو .

هوجمت إحدى سرايا المشاة العائدة لفرقة روديمتسيف من قبل مدرعات العدو . وكانت تحتل قطاع المحطة ، وفي غمرة المعركة الضارية ، التي نشبت حدثت بعض البلبلة عند ظهور دبابات العدو في صفوف السرية . ولكن أمين منظمة الكومسمول فيدول ياكوفليف ، لم يضعف مطلقاً وانطلق حاملاً قنبلتين يدويتين مضادتين للدبابات بقامته الطويلة وهو يصرخ « لا تراجع أيها الرفاق » وقذف بإحدى القنبلتين تحت دبابة الرأس ، والتهبت الدبابة ثم إن ياكوفليف استعد لقذف القنبلة الثانية ، ولكن طلقة معادية أردته قتيلاً وقد استفز عمله هذا حمية المحاربين وصدوا بقنابلهم اليدوية هجوم الفاشيين ، وبعد القتال وجد الجنود في مدالية ، كانت على جسم ياكوفيلف ورقة صغيرة مكتوبة باليد ، وقد أعطى الكومسموليين عنواناً لهذه الأشعار ، التي لم تكن فنية بقدر ما كانت صادقة هو قسمي .

★ ★ ★

نحن أبناء الوطن ،
الوطن هو أمنا
أبونا لينين هو العزيز
علينا ،
في المعركة لا نتراجع
ولا خطوة
اعرفوا ذلك جميعكم
أصدقاء وأعداء

★ ★ ★

هاجمت ثماني دبابات عدوة في قطاع بلدة الطيارين دبابة سوفيتية يقودها غسان يامبيكوف . وقبل هذا التحدي ، ودمر أربع آليات ، ولكن دبابته أحرقت بقذيقة تحوي زرنيخ ، وأحاط به جنود العدو من حملة المسدسات الرشاشة ، وانتظروا خروج السدنة من الدبابة ولكن المحاربين السوفييت صمموا أن لا يستسلموا ، وظلوا يقاتلون حتى آخر قذيفة و آخر طلقة ، وعندما بدأ اللهب والدخان يدخل إلى غرفة القتال في الدبابة . استطاع جهاز الراديو في إحدى الفرق المدرعة أن يلتقط الموجة ، التي كانت تعمل عليها الدبابة ، وسمع صوت قائد الدبابة يامبيكوف الذي كان معروفاً من قبلهم وهو يقول : « الوداع أيها الرفاق لا تنسونا » كما التقطوا نغم الأغنية « انهضي يا بلادنا الواسعة ، انهضي للقتال حتى الموت أو النصر » هكذا كان رجال دباباتنا يغنون ، وهكذا يموت الأبطال البواسل وملؤهم الفخر . من المحاربين السوفييت غسان يامبيكوف السائق الميكانيكي أندريه تربانوف ، عامل الراديو فاسيلي موشيلوف الرامي سيرغي فيدنكو .

أتى أبناء الكومسمول اللينيون إلى جدران قلعة الفولغا من كل أرجاء الاتحاد السوفيتي . وأظهروا الجدارة التي يستحقها أطفال الوطن السوفيتي .

ولن ننسى الرقيب الشاب جاكوف بافلوف ، سيد بيت (بافلوف) المشهور ، ولا الملازم الشاب تيموفه سيماشكو بطل معارك موكرايا ميتشنكا . لقد أصبح الكومسموليون في المعركة روح مجموعات الانقضاض المشهورة والتي أرعبت العدو ، ولعبت دوراً كبيراً في حرب الشوارع .

ونحتفظ الآن كبقايا مقدسة ، ببطاقات الكومسمول ، المطرزة بدماء المدافعين عن المدينة والتي وجدت في ساحة القتال .

وها هي البطاقة رقم ١٣١٤٥٧١ التي مزقتها شظية لغم ، فمع هذه البطاقة التي كانت في جيبه ، سار للهجوم أحد الكومسموليين من ساراتوف ، الجندي ذو التسعة عشر ربيعاً نيقولاي بورودوشين ، وقد مات ميتة الأبطال .

وهذه بطاقة كومسمول أخرى ، وهي محروقة من جوانبها وتعود لسدين دبابات أوكراني هو بيوتر فلاسنكو وانضم هذا الجندي الشاب لصفوف الكومسمول قبل بضعة أيام من مماته ، كانت بطاقته مرمية في ساحة القتال في الاشتباك العنيف مع العدو حيث أحرقت دبابته . لقد قاتل فلاسنكو حتى النهاية حول دبابته وأسقط عشرة قتلى فاشيست .

الكومسمولي من كازاخستان قاسم عمانجلوف ، احتفظ ببطاقته كتعويذة مقدسة ، وقد قتل بطلقة من العدو ، وكان يضغط بيده القوية على بطاقته التي كانت علمه ، وقاتل وقتل وهي معه .

وأيضاً البطاقات التي ثقبتها الطلقات وتعود لفاسيلي بوتوف ، والكسندر اولينتشيف وقتل هذان الكومسموليان في ساحة دزيرجنسكي ، وكانا في صفوف المحاربين الأوائل الذين قاموا بالانقضاض على مصنع تراكتورني ، وفي المعامل التي كان رماة المسدسات الرشاشة الفاشيون يكمنون فيها .

لم يكن هناك في مرحلة المعارك على ضفاف الفولغا . عشرات ومئات بل الآلاف من العسكريين الشباب الذين رفعوا إلى درجة قواد ألوية ، أفواج سرايا ، أفواج مدفعية وسرايا ، هذا الكادر من القادة الشباب أعطى القوة للقوات المدافعة . وكان هؤلاء الشباب الشيوعيون زهرة الكومسمول .

ولكن من أين أتت هذه البسالة الخارقة ، هذه الصلابة التي لا مثيل لها التي أدهشت العالم كله ؟

إن الشجاعة والصلابة والفضائل المعنوية العالية للشبيبة السوفيتية هي وريثة تقاليد الحزب البلشفي ، وقد صهرت خلال سنوات الخمسينيات في المعاناة المفعمة بالتضحية في ورشات دنيبروغيه ـ كومسموليسك على ضفاف نهر «الآمور» . مصانع الفولغا والأورال وأوكرانيا وسيبيريا في الشمال والجنوب .

لم يكن لدى الشيوعيين والكومسموليين في الجيش ٦٢ من الميزات بين المحاربين سوى ميرة واحدة ، هي أنهم كانوا الأوائل الذين قاتلوا كأفضل الجميع .

كانت الوحدة التي جمعت رفقاء السلاح ثمرة جهود الحزب ، الذي كان يعمل دون كلل أو ملل وبصمت عميق .

أحب المحاربون قادتهم ووثقوا بهم . كانوا يدافعون عنهم ويحمونهم . وكان القادة دائماً مع المحاربين فهم أنفسهم كانوا مقاتلين . ومثل هذه الأخوة في السلاح كانت تقوي الانضباط والنظام .

كيف يمكن أن يكون خلاف ذلك ؟ لقد إنحدر الجنود والضباط السوفييت من نفس المنبت والوسط . وهذا لم يكن يفهمه مع الأسف المؤرخون البرجوازيون المعنيون بالدرسات عن أسباب هزيمة ألمانيا في الجبهة الشرقية .

كنا معزولين عن الأرض الكبيرة بالنار والماء . ولكننا كنا مرتبطين بالقلب والروح بكل الشعب السوفيتي . وتهزنا عنايته السرمدية بنا ، ولا يوجد يوم إلا وكنا نرى أثراً لانتباهه لنا ، كنا نتلقى الرسائل ، الطرود وأجهزة الراديو وغيرها . دون التكلم عن الذخيرة والسلاح . ولدت هذه العناية لدى محاربي الجيش ٦٢ الشعور بالقيام بالمآثر البطولية ، فالجنود كانوا يعلمون أن أعمالهم الرائعة ستبقى إلى الأبد في ذاكرة الشعب .

وستبقى هناك .

فعلى قمة كورغان ماماييف شيد النصب التذكاري لتكريم المدافعين عن ستالينغراد ، الذي أصبح محج ملايين الأشخاص القادمين من كل أنحاء العالم .



لقد تكلمنا عن الجوهر في القوى المحركة للنضال ضد الغزاة ـ عن الوطنية ، وحب الوطن الاشتراكي . والتفاني للأفكار الشيوعية . رسوخ العقيدة الحزبية لدى الجندي . وهذه كلها لم تكن لتلعب دورها فيما لو لم نكن قد إكتسبنا خلال النضال ، السيطرة على فن القتال ، الذي جعلنا ـ بقوة أقل من التي كانت لدى الخصم ـ نصمد أمام ضرباته وإيقافه ثم طرده نحو الغرب .

وبالرغم من ظروف المناورة التي كانت بالغة الصعوبة كانت قوات الجيش ٦٢ تتحرك رغم ذلك خلال الليل . وكانت تعزز النقاط الضعيفة . لذلك عندما كان الألمان يعودون للهجوم على هذه النقاط التي لم تكن شيئاً البارحة . كانوا يواجهون دفاعاً صلباً وحتى هجمات معاكسة .

وهكذا إنهار تماما تكتيك الجنرالات والضباط الألمان في معركة المدينة . وكذلك تكتيكهم في قتال الشوارع . وكانت نقاط هجومهم تتحطم وتتلاشى .

لم يقدم لهم تفوقهم العددي في العتاد والطيران بخاصة . النجاح الحاسم على العدو في حرب الشوارع . فالحساب الذي بموجبه ، كان الطيران يدمر كل شيء ويفتح الطريق أمام القوات الأرضية لم يكن صائباً . كانت مجموعات الانقضاض تقترب من العدو حتى مسافة رمية القنبلة اليدوية مما يجعل الطيران الهتلري يدخل في المتاهات . فكيف يمكنه القاء قنابله على الروس ، دون إصابة جنوده ، وغالباً ما كان يحدث عندما كانوا يغارون على مجموعات الانقضاض أن تتساقط قنابلهم على رؤوس الألمان .

هذا مثال عما حدث في قطاع الجبهة الذي تحتله فرقة سميخوتفوروف حيث خنادق الطرفين متقاربة جداً ، وبقرب بيت مهدم كان القتال يدور بالقنابل اليدوية . واستدعي الطيران الألماني وأخذ يقذف مواضعنا ومواضعهم . وعندما وجد الطرفان صعوبة في معرفة خطوطهم وخطوط الآخرين ، لكي يلتجئوا إليها للحماية من الغارات الجوية . التجأ المقاتلون السوفييت والهتلريون على حد سواء إلى أقبية نفس البيت . وظلوا لمدة عشرين دقيقة يجلسون مرة ، ويتمددون مرة أخرى لكي يحموا أنفسهم من القنابل والشظايا والطلقات . وعندما إنتهت الغارات أخذوا يتناقشون من هو أسير الآخر ، وبنتيجة النقاش استطعنا إقتياد سبعة عشر أسيراً منهم .

لقد فرضنا على الألمان تكتيكنا في حرب الشوارع الذي لم يكن منهجياً ، ولكنه وضع من خلال المعركة ، فتطور دائماً وتحسن .

والذي تعلمته وله الأهمية الكبرى على ضفاف الفولغا هو عدم التسامح مع المقلدين ، فنحن كنا دائماً نفتش عن طرقٍ جديدة لتنظيم وقيادة المعركة منطلقين من الموقف الواقعي الذي أمامنا .

لم تكن مدينة الفولغا ـ ككل المدن التي تعيش بسلام في بلادنا ـ مهيأة للدفاع العادي ، فبالأحرى لم تكن مهيأة للنضال الطويل في حالة الحصار ، فلم يشيد فيها مطلقاً أية تحصينات دفاعية في شوارع المدينة ، لذلك وجب علينا إقامة هذه التحصينات منذ بداية المعارك . وبهذه تكمن إحدى خواص الظروف التي كان يعمل فيها الجيش ٦٢ .

كانت مراكز المقاومة التي تمثلت بنقاط الاستناد . المباني السكنية وأكثر

الأبنية صلابة وبخاصة المبنية من الحجارة والآجر . والمجهزة للدفاع والمرتبطة مع غيرها من المباني ، بالخنادق والممرات المحفورة وكانت الفرج بين نقاط الاستناد محمية بنيراننا ، وبالحواجز الهندسية .

وعلى العموم هدئت بعض العمارات أو مجموعات الأبنية الواقعة في الاتجاهات الرئيسية لتكون نقاط استناد . وكانت الأفضلية تعطى للأبنية الحجرية وبخاصة التي كانت قد أحرقت . فهنا لا يستطيع العدو إشعال الحرائق فيها مرة ثانية قبل بدء انقضاضه ، وإثارة الدخان على المدافعين .

كان يدافع عن كل نقطة استناد حسب مساحتها وأهميتها زمرة أو فصيلة أو سرية وأحيانا بفوج ، كما هيئت نقاط الاستناد للدفاع الدائري وإمكانية الصمود فيها مستقلة في المعركة خلال عدة أيام .

ولم نكن نستغل في بادىء الأمر منشآت المصانع المبنية تحت الأرض كالأقبية والمجاري وممرات المياه لأننا لم نكن نعرف بوجودها . ولكن خلال المعركة تم الإتصال مع إدارات المصانع ومع منظمات الحزب فيها وفي الضواحي ، واستطعنا استخدام كل هذه المنشات للنضال ضد العدو .

ولكي نجعل مناورات العدو صعبة في المدينة سدت الشوارع والساحات بالحواجز من كل الأنواع . ووضعت جميعها تحت رمايات متشابكة من أسلحتنا المتمركزة في الأبنية المجاورة جبهياً وجانبياً ومن نقاط الرمي الخاصة الموضوعة على شكل رقعة الشطرنج .

تحوي المجموعات التي تتشكل فيها حاميات نقاط الاستناد ومراكز المقاومة ممثلين عن كل الأسلحة معززة بقاذفات اللهب ، والرشاشات الثقيلة وذات العيارات الكبيرة . بنادق ضد الدبابات ، مدافع هاون ، ودبابات ، وتدعمها نيران قطع المدفعية المستترة ، دون الحديث عن القنابل اليدوية الحارقة والمضادة للدبابات ، والتي كنا نعمل بتجهيز كل محارب بها . ولكل هذه الحاميات رماتها المهرة . ونقابوها (رجال الهندسة) ، وكيمائيوها . ووجود ممثل عن الخدمات الصحية إجباري وكان عليه توفير الدواء بكثرة .

وأن قادة وحدات المشاة ، هم قادة نقاط الاستناد ومراكز المقاومة ، وتكون مراكز مراقبة (رصد) المدفعية التي ترمي من مرابضها المستترة قريبة منهم .

وتتغير وسائط النيران في بناء بحالة الدفاع حسب قوتها ، وموقعها في

المدينة . وفي الابنية ذات الطوابق المتعددة ، كان الدفاع ينظم على مستويات مختلفة . ومراكز قيادة النيران الموجهة على طول الشوارع كانت تتمركز في الطوابق الأولى التي ترتفع قليلاً عن الأرض والطوابق الداخلية أما مصادر النيران التي كانت مهيأة لضرب الدبابات والشوارع والمساحات والأبنية المجاورة والأهداف البعيدة فتتمركز في الطوابق العليا أو مخازن الغلال العالية للابنية أما قطع المدفعية المخصصة للرمي المباشر ، وقسم من الرشاشات الثقيلة بما فيها ذات المسافات القصيرة فتتمركز في الطوابق الداخلية وأحيانا كانت الرشاشات الثقيلة للرمي على المسافات البعيدة ، وكذلك الرشاشات ذات العيارات الكبيرة فتتمركز في الطوابق العليا ، وكان الرماة ينتشرون في مختلف أنحاء البناء . وأما قطع المدفعية المخصصة للرمي المباشر ضد الدبابات . والرشاشات المكلفة بالدفاع عن حوافي البناء وجوانبه والفرج بين الأبنية ، فكانت تتربض في الخارج بأنساق دائرية أو على الجوانب .

لقد جعلت خواص القتال في المدينة ، ضرورة تجهيز وحدات المشاة بالأسلحة الأوتوماتيكية والقنابل اليدوية والزجاجات الحارقة . كما تحضر شبكة من الرمايات في المواضع الاحتياطية والمؤمنة لكل أنواع الأسلحة ، بشكل يكون لديها المجال للمناورة بالنار في كل الاتجاهات .

ومن الضروري عند تشكيل جهاز الرمي أن تهيأ لوسائط إمكانية استخدامها بشكل واسع للرمي المباشر ، وعلى مسافة قصيرة ليس لأسلحة المشاة فقط بل يتعداه إلى قطع المدفعية وغالباً للهاونات ، التي يمكنها أن ترمي زيادة على ذلك من الخنادق العمودية .

وللدفاع المضاد للدبابات في المدينة خواصه أيضاً . فالنضال ضد الدبابات يجري على مسافة قصيرة ، وقد أعطي دور رئيسي لقناصة الدبابات المسلحين بالزجاجات الحارقة . والبنادق والقنابل اليدوية المضادة للدبابات . والتكتيك الأكثر استخداماً هو الرمي من الكمين ، وتستخدم لهذه الغاية الثغرات في الأسوار والجدران والدهاليز ، الأبواب ، والشبابيك في البيوت ...الخ .

يؤمن الدفاع الدائري المضاد للدبابات لنقاط الاستناد ، ومراكز المقاومة بتهيئة موضع لقطع الرمي المباشر على الدبابات بشكل تستطيع معه صد الهجمات التي تقوم بها الدبابات العدوة من كل الاتجاهات ، وحتى من الخلف . وعند عدم وجود المدفعية يؤمن الدفاع الدائري عن طريق تسهيل عدد من

الممرات الكافية من أجل مناورة المجموعة المتحركة في الخنادق والتي سيدافع عنها بسدود الألغام والبنادق المضادة للدبابات ، وسيجهيز مواضع الرمي لقطع المدفعية المنفردة مثل تجهيزات نقط الاستناد للدفاع المضاد وستشكل من هذه النقاط والتي تغطي نفس المحور الخطر الصالح لمرور الدبابات قطاعاً مضاداً للدبابات .

تجهز مقرات الأركان بما فيها أركان الجيش . ومراكز القيادات . مرابض رمي المدفعية وكأنها نقطة استناد . وبكلمة واحدة . كان الدفاع منسقاً في كل نقطة من الخطوط الأمامية حتى شواطىء الفولغا . وكل تشكيلات المؤخرة والخدمات المساعدة تعتبر جزءاً من الوحدات المحاربة ، ولديها منطقة دفاعها الخاص بها .

يجري الاستطلاع ، من قبل الضباط أنفسهم ومن مختلف الرتب . وللاستطلاع أهميته الكبرى من أجل تنظيم الدفاع . فقائد لواء المشاة يستطيع بفضل الاستطلاع ، الذي يقوم به بنفسه وأن يحدد أهمية الأعمال الضرورية لزيادة صلابة الدفاع في الاتجاهات الهامة . وعليه يقع عبء التنسيق بين النيران وإقامة المتاريس أمام الخطوط الأولى ، التي يحددها هو بنفسه ، وكذلك داخل منطقة الدفاع ، وتغطية الفرج بين الأفواج ، ومراكز المقاومة ونقاط الاستناد . وهو الذي يحدد اتجاه الهجمات المعاكسة ، والاحتياط والتدابير التي تحقق المناورة .

يقوم قادة الأفواج وسرايا المشاة بأنفسهم بالاستطلاعات حول دفاع نقاط الاستناد . ومراكز المقاومة والفرج بينهما ، كما كانوا يوجهون عمل الحاميات على أطراف نقاط الاستناد ، وينتخبون مواضع الرمي على مسافات قصيرة ، للرشاشات وقطع المدفعية ، وهم الذين يختارون اتجاهات الهجوم المعاكس ويهيئون الطرق والسبل من أجل المناورة ، ويحددون لمهرة الرماة قطاعاتهم ومهماتهم .

أخذت التنظيمات الدفاعية تتحسن خلال المعارك وتتطور وكل هدوء في المعركة كان يستخدم لتدعيم السدود وتحسين أنظمة الرمي .

كنا نعطي أهمية خاصة للدفاع ، كما كنا نعمل على إزالة نقاط العدو التي كانت مفروزة بين مواضعنا بمهاجمتها بالنيران والهجمات المعاكسة ، والتي كانت تصل بشكل عام مباغتة على أجنحة ومؤخرات المهاجمين .

كانت هجماتنا المعاكسة تكبد العدو عادة خسائر كبيرة ، وغالباً ما كان العدو يضطر لإيقاف هجومه على المحور الذي انتخبه ، ويخسر الوقت في التفتيش عن النقاط الضعيفة في دفاعنا . وبهذا الشكل تتباطأ وتيرة هجومه .

وتعتبر الضربات التي كنا نوجهها من الجانب أو مجابهة على مجموعة العدو كشكل من أشكال نشاطنا ، حيث تكون كلها مهيأة للهجوم . والهدف الذي كنا ننشده من هذه العمليات هو تكبيد العدو خسائر فادحة ، كما كنا نستهدف بهجومنا المباغت الذي تقوم به وحدات من المشاة والدبابات تدعمها المدفعية والطيران ، هو فتح ثغرة في مواضع إنطلاق العدو وتشتيت تنظيماته القتالية ، وإحباط هجومه وكسب الوقت .

عندما كان العدو ينجح بتحقيق الاختراق ، كان يصطدم بترتيب قتالي متكامل ، يسمح لنا بتوجيه الضربات إليه في العمق ـ طيلة الوقت الذي تجري فيه المعركة وذلك على نقاطه الضعيفة وأجنحته المكشوفة أثناء تقدمه .

لم تكن قواتنا تخشى مطلقاً ترك دبابات العدو تندفع في عمق دفاعنا . وذلك لأن النسق الثاني كان محضراً بشكل جيد ويحوي على مواقع دفاعية قوية وحواجز ضد الدبابات . ولكن على القوات التي تترك الدبابات المعادية التي تسمح باختراق دفاعها ، أن تقوم بنفس الوقت بفصل مشاة العدو عن اللحاق بالدبابات وتثبيتها في الأرض أمام الخطوط الأولى ، أما الدبابات التي كانت تنجح في الخرق العميق فكان الرماة ، وقانصو الدبابات يتولون أمرها وأحياناً كانت تسقط هذه في جيوب المقاومة ، وتصطدم بالنوى الدفاعية المضادة للدبابات ومرابض المدفعية المطمورة والمحضرة لهذه المهمة .

يكمن تفوقنا بأننا كنا نتمركز في تحصينات قوية ومغطاة في حين كان العدو يسير في العراء في الشوارع حيث يصبح هدفاً جيداً لقواتنا .

وعندما كان العدو يتمكن من احتلال المباني والانشاءات الأخرى ، كانت الانساق الثانية والاحتياط تتولى إخراجهم منها بالهجمات المعاكسة ، التي كانت تعيد تثبيت الموقف .

توزع الأنساق الثانية في نقاط الاستناد في عمق منطقة الدفاع بشكل تستطيع معه أن تعترض العدو على محاور هجومه المحتملة ، وتكون مستعدة دائماً للهجوم المعاكس بقسم من قواتها أو كلها .

عندما يكون هناك نقص في القوات . والوسائط للقيام بالهجمات المعاكسة من

الواجب تنظيم تشكيل القتال بشكل يجعل الاحتياط يحتل ويتمركز في الأبنية القوية والهامة .

أما في الظروف غير الملائمة فتوضع الأنساق الثانية (الاحتياط) في نقاط الاستناد التي تكون مهيأة للدفاع في الاتجاهات الخطرة .

تحضر الأنساق الثانية (الاحتياط) في نفس الوقت ، أرض المعركة أي الأرض ، التي تكون على محور الهجوم المعاكس إما في حدود قطاعها أو لتقديم المساعدة لغيرها ، ويتطلب هذا التحضير تنظيم العمليات المشتركة ، وتسهيل الطرقات للمناورة - يعني - تنظيف الأنقاض والركام التي تسد الطرقات ، وتعترض المرور وغيرها ، وكذلك فتح الثغرات في الجدران المتبقية في الأبنية . وتجهيز أماكن للمراقبة وقيادة رمي المدفعية وكذلك مناطق مرابض المدفعية .

وتختلف الهجمات المعاكسة التي تقوم بها الأنساق الثانية والاحتياط في المدينة عن الهجمات المعاكسة التي تجري خارج المدن وفي الأماكن المكشوفة .

ولقد ظهر واضحاً منذ بداية المعارك ، في مركز المدينة أن طرق قيادة المعركة خارج المدن لا يمكن تطبيقها داخل المدن . فتحصينات العدو المتعددة في البيوت المبنية من الحجارة ، وكثافة النار تجعلان من الصعب القيام بهجوم معاكس دون خسارة كبيرة .

وخلال الهجمات والهجمات المعاكسة تكشف أجنحة الخصمين وتتبعثر تشكيلاتها القتالية بسبب الأبنية المحصنة .

في مثل هذه الظروف يعني الدفاع النشط هو القيام بالهجمات المعاكسة التي غالباً ما كانت قواتنا تلجأ إليها منذ الأيام الأولى للمعركة . وكان يقتضي إما أخذ الأبنية التي كان يتحصن فيها الهتلريون في داخل ترتيبنا القتالي ، وإما مهاجمة الأحياء ، التي حولها العدو لنقاط استناد أمام خطوطنا الأولى .

ولقد ظهر بوضوح منذ بداية المعركة أن الذي كان يحرز النجاح ، هي الأقسام الصغيرة التي تنفذ في الفرج بين نقاط الاستناد ، ومراكز المقاومة العدوة ، فهي التي كانت تثبته ، وتتسرب في داخل الأحياء . وتنقض على الأبنية التي كانت تتهيأ للدفاع بسرعة .

لم يكن باستطاعة الأقسام الصغيرة في المدينة ، من قوات المشاة أن تتغلب على كافة الحواجز ، بوسائطها الخاصة . أو أن تبطل نيران العدو . ومن جهة

أخرى كانت رمايات المدفعية التي تنفذ من المرابض المطمورة قليلة الفعالية ، ولهذا السبب فلكي تدمر الأبنية والجدران ، التي ركز فيها العدو وسائط نيرانه كان يلحق رجال الهندسة (النقابون) والكيميائيون بوحدات المشاة والمدفعية والدبابات ، ومن أجل فتح الثغرات في الجدران والسدود . والقضاء على العدو في نقاط الاستناد . وبهذه الصورة كانت تتشكل هذه الوحدات أي مجموعات الانقضاض المعدة للقتال في الشوارع . وتتشكل مجموعة الانقضاض عادة من فصيلة أو سرية مشاة (٢٠ ـ ٣٠ بندقية) معززة بقطعتين أو ثلاث قطع للرمي المباشر . وبزمرة أو زمرتين من رجال الهندسة (النقابون) (والكيميائيون) ، ويسلح الجميع بالمسدسات الرشاشة (الرشيشة) والقنابل اليدوية .

تشكل عمليات مجموعات الانقضاض النشطة أساس قوتها الدفاعية ، وهي التي تجعل العدو دائماً مشدود الأعصاب ويضطر تحت ضرباتها . لترك الأبنية ونقاط الاستناد التي يحتلها .

وغالبا ما تنفذ هذه العمليات دون تمهيد المدفعية . ويتم اختيار لحظة الهجوم حسب تصرف العدو .

ويكون ذلك أيضا حسب أوقات الراحة وأوقات تناول العدو لطعامه ، وأثناء التبديل وبفضل هذه التكتيكات كنا غالباً ما نأسر حاميات كاملة في الأقبية .

أظهرت التجارب أن مجموعات الانقضاض ونقاط الاستناد . لعبت أهم دور في دفاعنا . لقد خرجّت قوات الجيش التي كانت تصد هجمات العدو وتقوم هي نفسها بالهجوم ، رجالاً جسورين ، استحوذوا على المداهمة وأصبحت ملك أيديهم ، ومن هنا تكمن قوة محاربينا في أن جميع المدافعين كانوا مهاجمين أيضا .

لعبت مجموعات الانقضاض أيضاً دوراً كبيرا في مرحلة القتال الهجومي بضرباتها الجريئة والمباغتة . وكانت تنتزع من العدو الأبنية والأقسام التي احتلها من المدينة .

وللانقضاض على هذا الهدف أو ذاك.. كانت وحدات الجيش ٦٢ تعين مجموعة صدمة (هجوم) ومجموعات دعم واحتياطات حيث تنفذ هذه التشكيلات القتالية الثلاثة مهمة واحدة فقط . ومن مجموع الثلاثة كانت تتشكل مجموعة الانقضاض للقتال في المناطق السكنية .

إن تشكيل وتنظيم قوى كل مجموعة يكونان حسب الهدف من العملية ،

وقائدها هو الذي يحدد ذلك أثناء التحضير للعمل ، على ضوء المعطيات التي تقدمها عناصر المخابرات عن طابع الهدف وقوة الحامية .

وتعد مجموعة الصدمة عادة من عشرة إلى اثني عشر رجلاً . وهي تشكل النواة لكل مجموعات الانقضاض . ومجموعة الصدمة هذه هي التي كانت تقوم بالغارات على البيوت والتحصينات ، وتدير معركة مستقلة في الداخل . ولكل مجموعة مهمة جزئية ، حيث تكون مجهزة بأسلحة خفيفة مسدس رشاش (رشيشة) قنابل يدوية ، سكاكين ، رفوش ، ويدير هذه المجموعات قائد واحد لديه لهذه الغاية صواريخ إشارة ملونة ومضيئة ، وأحيانا تلفون .

تقسم مجموعات الدعم هذه عادة إلى عدة أقسام تقوم بالغارة ، جميعها بآن واحد . في البيوت ومن مختلف الاتجاهات ، وتقوم بعملها بعد مجموعات الصدمة وبعد إعطاء الإشارة ، وفي المرة التي تستولي فيها على وسائط نارية ، تحضر في الموقع مباشرة دفاعها الخاص ، وتوجه رمايتها على العدو ، وتعمل على إحباط كل المحاولات التي يقوم بها العدو لنجدة الحامية ، كما يمكن أن تجهز مجموعات الدعم بالأسلحة الثقيلة : رشاشات ثقيلة ، بنادق مضادة للدبابات ، هاون ، مدافع م/د أذرعة حديدية ، متفجرات . وتتألف كل مجموعة عادة من رماة مهرة . ومن جنود لديهم اختصاصات مختلفة قادرين على استخدام اختصاصاتهم بدقة ضد العدو .

كان الاحتياط يستخدم لتعزيز مجموعات الصدمة ، والتصدي للهجمات المعاكسة التي يمكن أن يقوم بها العدو من الجوانب . كما كان الاحتياط يشكل عند الحاجة مجموعة حصار ، وكذلك تشكيل مجموعات صدمة إضافية عند الضرورة .

لقد اقنعتنا التجارب بضرورة تشكيل مجموعات الانقضاض من رجال يعودون إلى نفس الوحدة وليس إلى وحدات مختلفة . كانت مجموعات القتال تشكل على حدة في السرايا أو الأفواج ، فكل فصيلة . أو حضيرة ، وكل محارب يجب أن يتقن هذا النوع من القتال .

إن اختيار الوقت . والمباغتة هما عاملان رئيسيان في نجاح مناورات مجموعات الانقضاض وعلى كل رئيس ، يكلف بمهمة القضاء على نقطة الاستناد ، أو مركز مقاومة ، عليه قبل كل شيء ، أن يعرف استخدام عامل الوقت ، وعامل المباغتة ، ففي القتال القريب وفي قتال الشوراع ، ولأسباب قوية

تعتبر هذه العناصر دائماً ذات أهمية حاسمة .

والقنبلة اليدوية هي السلاح الذي لا يمكن الاستغناء عنه للمحاربين الذين يقومون بالانقضاض ، فهي غالباً ما تحدد مسافة الانطلاق ، فكلما كان موقع الانطلاق للهجوم قريباً من العدو كان ذلك أفضل . ومن وجهة النظر هذه فنجاحات مجموعات الانقضاض في الجيش ٦٢ يعود إلى الاقتراب والزحف المستتر نحو العدو .

ولقد أظهرت التجارب التي اكتسبها المحاربون السوفييت أن الزمن والمباغتة ستكونان بجانبهم ، بتقربهم زحفاً واستخدامهم للثغرات التي فتحتها القذائف ، ثم الانقضاض . وبحفرهم الخنادق ليلاً وتخفيهم نهاراً . وبتكتلهم سراً دون ضجة قبل وثبة القتال . الرشيش في العنق وعشرة إلى ١٢ قنبلة يدوية . وبهذه الصورة سيكون الوقت والمباغتة بجانبهم .

لقد بني تكتيك مجموعة الانقضاض على السرعة في العمل ، الاندفاع ، الشعور القوي بالمداهمة والجرأة ، لكل محارب ، وأني أورد هنا معادلة هذا التكتيك على الشكل التالي :

يجب أن تنقض على البيت ، وكأنك مع القنبلة اثنان ، وثيابكما خفيفة : أنت دون حقيبة ظهر ، وهي (القنبلة) دون مسمار الأمان ، قم بالغارة على البيت ، القنبلة أمامك وأنت خلفها . تجول في كل البيت ، وبنفس الشكل القنبلة أمامك ، وأنت خلفها تخرج منه .

المعركة في بيت محتل من قبل العدو مليئة بالحوادث غير المتوقعة ، هنا تدخل في اللعبة هذه القاعدة التي لا تتبدل : اعرف كيف تعود . الخطر يرصد الجندي في كل خطوة يخطوها . لا تفقد التفكير ، ارم قنبلة في كل زاوية من الغرفة وتقدم إلى الأمام . رشة من مسدسك الرشاش على ما تبقى من السقف . وإذا لم يكف ذلك ، فقنبلة يدوية أخرى إلى الأمام . وفي الغرفة التالية . قنبلة . وفي العودة قنبلة أخرى . كنس بالمسدس الرشاش ، لا تتأخر كثيراً . وحتى في المرة التي تكون فيها في الداخل يمكن أن يقوم العدو بهجوم معاكس . لا تخف ، فالمبادرة ما زالت بين يديك . اعمل بشدة أكثر بالقنبلة اليدوية ، وبالرشيشة ، والسكين ، والرفش ، فالمعركة داخل البيت هي معركة حامية كن مستعداً للشيء غير المنتظر ولا تقف وقفة البلهاء .

وهذا ما أصبح كقاعدة في وحدات الجيش ، فحتى ولو كان العدو قد ركز كل

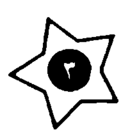
وسائط نيرانه داخل البناء ، وحوّله إلى نقطة استناد ، فالانقضاض يجب أن يتم مباغتة دون تمهيد مدفعي .

كانت مجموعات الانقضاض تتلقى بنفس الوقت الدعم من بضعة مدافع دبابات ترمي رمياً مباشراً ، عبر الفتحات لتدمير البناء بالنيران . وبذلك تقرب لحظة الانقضاض وتجعلنا أكثر قوة ومضاءً أيضاً .

أما الهجوم عبر الحفر والممرات تحت الأرض فكان فعالاً جداً ، وكان يستعمل عندما كان التقرب من البناء بالوسائل الأخرى يؤدي إلى خسائر فادحة .

ساعدنا استخدام مجموعات الانقضاض والأشكال الأخرى ، ووسائط قيادة المعركة على الصمود والنصر ، سار الجيش ٦٢ وهو يقاتل من الفولغا حتى برلين ، وهاجم عدداً من المدن والمواقع والمناطق المحصنة ثم برلين ، ولزاماً عليَّ أن أقول بأن كل معاركه لم تكن متشابهة إلا بالاسم وهي مختلفة عن بعضها بمفهومها وتحضيرها وتنفيذها ، فالقتال في ستالينغراد لا يشبه القتال الذي حدث في زاباروجيه ، وأوديسا وبرلين ومدن أخرى ، ولا يشبه أيضاً ما جرى في قلعة بوزنان والقطاع المحصن ميزيريت .

ولم يستحق الجيش ٦٢ لقب جيش الحرس الثامن من أجل احتلاله لهذه المدينة أو تلك أو ذلك القطاع المحصن ، بل علينا أن لا ننسى ستالينغراد،حيث نشأت مجموعات الانقضاض .



لي الرغبة بالحديث قليلاً عن دور المرأة في ستالينغراد .

كانت هناك وحدات كاملة في الجيش الأحمر يغلب عليها العنصر النسائي ، وكن يشكلن الأغلبية في مجموعات المدفعية المضادة للطائرات وألوية القاذفات الليلية OU . 2 ويعملن في طواقم وسدنة المدافع المضادة للطائرات وعلى أجهزة الأنوار الكاشفة ، ومن الواجب القول بأن هذه الوحدات أتمت مهماتها القتالية بإتقان لا يقل عما لو كانت الأغلبية من الرجال .

وعلى هذا الأساس فأغلبية جهاز الدفاع الجوي عن مدينة ستالينغراد ومنطقتها كان من النساء ، ويعملن كما ذكرنا كسدنة مدافع وطواقم الأنوار

الكاشفة وكن لا يتركن على الاطلاق مواقعهن ويتابعن الرمي ، وحتى ولو كانت تحلق في الجو عشرات القاذفات وتمطر على رؤوسهن عشرات القنابل ويصبح التسديد المحكم مستحيلاً وحتى إمكانية البقاء بجانب أسلحتهن .

سنحت لي الفرصة في تشرين الأول باللقاء مع خمس فتيات كن يعملن كسدنة للمدافع المضادة للطائرات كلهن لا زلن شابات ولكن عركتهن نيران المعركة ، ولن أنسى شعور الأسى والأسف على وجه إحدى الشابات التي تلفت النظر بشعرها الأشقر ، وذلك لأنها لم تستطع أن تسقط سوى طائرة واحدة من مجموعة قاذفات العدو المنقضة ، وحسب رأي رفيقاتها أنه كان بإمكانها إسقاط طائرتين أو ثلاث طائرات .

وفصيل الإشارة في الجيش ٦٢ هو الآخر، كان يتشكل بغالبيته من هؤلاء الشابات ، وعندما كنا نشاهد إحداهن في مقسم وسيط للإتصال الهاتفي كنا نستطيع القول بأن الإتصال مؤمناً ونحن متأكدون من ذلك . ومهما كان وضع مركزهن : إن كان يقع تحت نيران المدفعية والهاون وقاذفات الألغام أو تتساقط عليه قنابل الطائرات كالمطر المنهمر ، وحتى ولو حوصر من قبل العدو ، كن لا يتركنه دون أمر وحتى ولو كان الموت ينتظرهن .

وأعرف حالة وقعت في قطاع خط السكة الحديدية الفرعي في باسارغينو حيث لم يبق في المقسم سوى فتاة شابة ، هي عاملة المقسم واسمها ناديا كليمانكو بعد أن قتل كل رفاقها حولها ، أو جرحوا جراحاً خطرة ومع ذلك لم تترك ناديا مركزها وأخبرت قيادتها بكل التفاصيل ، وحتى آخر لحظة عما يحدث في ساحة المعركة . وهذه آخر كلماتها إلى مركز إتصال الجيش:« لم يبق أحد منا بقرب المركز وبقيت لوحدي والقنابل تنفجر حولي ، وأرى على يميني دبابات تحمل الصليب الحديدي على تصفيحها والمشاة تتبعها تتقدم باتجاهي ، لا أعرف مكاناً أذهب اليه : إنني وحدي على كل حال إنهم ينزلون بقرب المركز سأخبركم ، أصغوا إليّ.دبابة تقترب من مركزي . رجلان يقفزان منها اتجها نحوي ، أخذا ينظران حولهما ويبدو أنهما ضابطان ... »،وهنا إنقطع الإتصال معها .

صادفت في سنوات الخمسينات امرأة كانت تعمل سابقاً في سلاح الإشارة ، محاربة في الجيش ٦٢ ، وهي حالياً سكرتيرة اللجنة الحزبية في ناحية سميلانسك . الرفيقة رازومييفا ، وكنت تعرفت عليها لأول مرة في ١٣ أيلول ١٩٤٢ في كورغان ماماييف ، بعد أن دمر المقسم الذي كانت تعمل فيه بالقنابل

والقذائف ، ولكنها بقيت في مكانها بالقرب من الهاتف تنادي قادة الوحدات .
انخرطت رازومييفا في الجيش عن قناعة تامة ، وكرست كل قواها وإمكانياتها للدفاع عن الوطن ، وفي عام ١٩٤٣ دخل رازومييفا في الحزب الشيوعي ، وبعد إنتهاء خدمتها العسكرية إلتحقت في سلك التعليم ومنذ عام ١٩٤٨ وحتى الآن تعمل في منظمات الحزب .
كان أمامي امرأة متواضعة جدية ، تتكلم عن رفيقاتها في القتال ولم تتكلم عن نفسها إلا عندما ألقيت عليها أسئلة مباشرة تخصها ، وطلبت منها أن تتكلم عن نفسها بالتفصيل وبخاصة عملها خلال الحرب .
ـ أتكلم عن نفسي هل تتكلم عني ؟ وهزت كتفها مندهشة . لا بل سأتحدث عن بطولات غيري : « كان معي في كورغان ماماييف ، شابه صغيرة من كاميشين ومعها حفرنا في ١٢ أيلول ١٩٤٢ وتحت غارات متواصلة ملجأ لمقسم الإتصال الهاتفي والأخرى شوراشينا وكنت أتبادل معها المناوبة على المقسم . عندما كنا في المدينة ، وفي مكان آخر كانت معي تايافودوفينا . ليوباستوكالوفا . وكلافاريا شتوندا ولينا بيريتولشينا وأخريات كن أيضاً . وأني أتذكر يوم ١٣ آب ١٩٤٢ وفي منخفض لابلونيفايا الفتاة السمراء ذات الشعر الكستنائي المتماوج فونيا رازنيك التي جلست مع رفيقاتها في الخيمة بالقرب من جهاز الراديو،وفي أرض مكشوفة وقرب الخيمة ، كانت هناك حفرة صغيرة .
سمعت الفتيات صوت قاذفات العدو تقترب ولكنهن لم يتركن أماكنهن، فلديهن معلومات مستعجلة عن الهجوم الألماني حيث استطاعت دبابات عدوة اختراق مؤخرات إحدى وحداتنا ، كانت فونيا هي التي تجري الإتصال ورفيقاتها يجلسن بقربها فالقاعدة لدى الفتيات العاملات في الإشارة عدم ترك رفاقهن مهما كان نوع الخطر الذي يتهددهن .
كن يراقبن تحليق الطائرات ويصغين إلى زمجرة القنابل وكن يحددن تقريباً المكان الذي ستنفجر فيه القنابل الساقطة وبعد أن مرت الطائرات عادت ثانية تمر من جديد ، ولكنهن كن دائماً بعمل متواصل ويجرين الإتصالات وللمرة الثالثة عادت الطائرات للمرور مخلفة وراءها حفرة كأنها فوهة بركان في المكان الذي كانت فيه خيمة العاملات .
لم يكن لدينا الوقت لدفن رفيقاتنا ، فالأحداث كانت تدور في تلك الأيام مسرعة لذلك بقيت الشابات هكذا وللأبد في منخفض لابلونيفانا ، وسقطن شهيدات

الواجب محاربات مجهولات في صفوف الجيش الأحمر .

حدثتني رازومييغا أيضاً ، في نفس الليلة عن صديقتها الجديدة شوراتشيشينا :

ـ كانت تعمل قبل الحرب في بيت للأطفال وعندما علمت بأن مكتب التجنيد ، جند بضعة شابات من الكومسمول اللواتي أبدين الرغبة بالدخول في صفوف الجيش الأحمر ، اسمها الكسندرا تشيشينا ، وكنا نسميها شورا للسهولة ، ذهبت شورا فوراً إلى مدير بيت الأطفال وأعلمته برغبتها في الذهاب إلى جبهة القتال .

وصلت شورا مع خمس أخريات من شابات الكومسمول في ذلك اليوم الواقع في نهاية نيسان ١٩٤٢ إلى مكتب التجنيد وقمن بزيارته ، وكانت تشورا متدرجة في الحزب .

تم تنظيم كل شيء في يوم واحد ، وفي ٢ مايس رافقن الفتيات الذاهبات للجيش وبعد شهر من التدريب على دروس العمل الهاتفي في مدينة استراخان وصلت شورا إلى السرية الخاصة في المنطقة المحصنة ١١٥ وأخذت تعمل على مقسم الهاتف هناك في الدون بتاريخ تموز ١٩٤٢ ، ومنذ ذلك الوقت وحتى في أصعب الظروف لم تترك شورا مركزها .

استطعنا في ١٣ أيلول وفي كورغان ماماييف تأمين الإتصال بين قيادة المنطقة المحصنة والجنرال بوجارسكي ، رغم أنه في ذلك اليوم لم تكن هناك ولا دقيقة واحدة هادئة فنيران المدفعية والهاونات كانت صاخبة دون إنقطاع ومع هذه الصعوبات تم إجراء الإتصال وحققناه .

لم يبق في الساعة الثالثة بعد الظهر رجل واحد من عمال الإشارة في مركز المقسم فجميعهم ذهبوا لإصلاح الأعطال في ساحة الخطوط الهاتفية ، وعندما لم يبق أحد يمكن إرساله لإعادة إصلاح الخط المقطوع ، تطوعت شورا للقيام بذلك وطلبت الأذن من قائد السرية :

ـ هل تسمح لي بالذهاب لاصلاح الخط المقطوع ، فالمقسم يمكن أن يقصف إن كنت موجودة أو لا .

ـ وقد أجابها بأن النيران شديدة وكثيفة لا تمكنها من الوصول إلى مكان العطب .

ـ يمكنني ذلك أيها الرفيق الملازم ولا عليك إلا أن تعطيني الإذن بالذهاب وقالت ذلك بإصرار واضطر الملازم عند إصراراها بإعطائها الإذن بالذهاب ، تركت شورا المقسم باتجاه الخط المقطوع بعد أن داعبت (كعلامة وداع) زميلتها

التي كانت تعمل على جهاز المقسم .

أجرت شورا على الخط نفسه عدة إتصالات ، ويتذكر العدد القليل من الأشخاص الموجودين على كورغان ماماييف ، في ذلك الوقت كيف عاد الإتصال وقطع من جديد مرة ثانية ، ولكنهم لم يعودوا يسمعون صوت شورا .

كثيراً ما أتذكر الظروف التي كانت تعيش فيها فتياتنا عاملات الإشارة . فلم يقم من أجلهن إن كان في المدينة أو خارجها أي مخبأ أو مكان مغطى ، لذلك كن يحفرن بأنفسهن الخنادق الأرضية كل منهن لنفسها أو جماعياً بتغطية خفيفة لا تتحمل ضغط اليد ، وكن يقمن فيه شهوراً كاملة وغالباً ما ينمن في نفس المكان الذي كن يعملن فيه .

وعندما استطاع العدو في تشرين الأول تدمير كل مخابيء الأركان أصبحت الظروف قاسية بالنسبة لحياة النساء على الضفة اليمنى ، فكن يعملن في الأقنية الضيقة دون هواء ويسترحن تحت النجوم دون ستر ، ونسين طيلة شهور هو الماء الساخن .

كانت تمارا شمالكوف تعمل في فرقة باتيوك ، وكنت أعرفها شخصياً ، وأصبحت تمارا شهيرة لأنها كانت تنقل الرجال المصابين بجروح خطيرة من الخطوط الأمامية ، في الوقت الذي كان يبدو فيه أنه من غير الممكن رفع اليد فوق الأرض خوفاً من إصابتها بالنيران . في هذا الموقف كانت تمارا تقترب زاحفة من الجريح وتتمدد بجانبه وتضمده ، وحسب درجة الخطورة كانت تمارا تقرر ماذا ستعمل ، وإذا لم يكن بحالة تساعده على البقاء في المعركة كانت تمارا تتمدد تحته وتجمع كل قوتها وتحمله على ظهرها ، ويزن الواحد منهم في بعض الأحيان مرة ونصف من وزنها ، وعند عدم تمكنها من رفعه كانت تمدده على معطفها الواقي من المطر وتجره زاحفة نحو مكان أمين .

أنقذت تمارا شماكوف عدداً من الأنفس وكثيراً من الجرحى ظلوا أحياء بفضلها وعليهم شكرها ما داموا أحياء ، وكثيراً ما يحدث أن ينقذ جندي ما دون أن يعرف حتى اسم هذه الشابة التي أنقذته . وتمارا حالياً طبيبة في كورغان ماماييف .

لم تكن البطولات التي تماثل بطولة تمارا نادرة في الجيش ٦٢ فأكثر من ألف امرأة ظهرت أسماؤهن في لوائح الأوسمة في وحدات هذا الجيش من بين هذه الاسماء نجد اسم ماريا اوليانوفا ، التي ظلت منذ بداية الدفاع في بيت الرقيب

بافلوف حتى نهايته ، ثم تاليا باخوموفا التي سحبت من ساحة المعركة أكثر من مائة جريح . ناديا جاركيس التي أنعم عليها بوسام العلم الأحمر . الطبيبة ناديا فاليمدوفا التي ضمدت تحت نيران العدو جراح عدة مئات من الجنود والضباط و آخرين غيرهم ، وقتلت وهي غارقة بدمها والضماد بيدها بجانب أحد الجرحى مع الحامية التي كانت تحت قيادة الملازم دراغان ، حيث ضمدت هناك عشرات الجرحى .

أصبح الموقف صعباً في النصف الثاني من تشرين الأول ويزداد تعقيداً يوماً بعد يوم في المدينة فالمسافة بين خط القتال الأول والفولغا ضاقت تماماً مما أجبر المجلس العسكري لنقل بعض وحدات الخدمة إلى الضفة اليسرى للنهر لتجنب الخسائر ، وتقرر إرسال النساء في المقدمة . لهذا عمم على جميع الضباط ورؤساء الوحدات بإعطاء الأوامر للنساء بالإنتقال إلى الضفة اليسرى لأخذ قسط من الراحة والعودة إلى المدينة بعد بضعة أيام لاحقة .

وما أن وصل قرار المجلس العسكري لمختلف الوحدات في السابع عشر من تشرين الأول حتى وصل وفد عن العنصر النسائي في سلاح إشارة الجيش إلى مقر القيادة في اليوم التالي ، أي الثامن والعشرين من الشهر نفسه برئاسة فاليا توكاريف . وبعد استقبالي لهن طرحت فاليا علي بصراحة السؤال التالي :

ـ أيها الرفيق القائد لماذا تريد إبعادنا عن المدينة ؟ نحن نريد أن نموت مع الجميع أو قهر العدو البغيض ، لماذا تحدث تفرقة بين الرجال والنساء ، هل كنا سيئات في عملنا ؟ أنت كما تريد ، ولكن نحن لن ننتقل إلى الضفة الأخرى من الفولغا .

وبما أن هذه المناقشة جرت في يوم ١٨ تشرين الأول وهو اليوم الذي نقلنا فيه مجدداً مركز القيادة لذلك أجبتهن بأن الموقف يجبرنا أن لا نستخدم لقيادة المعركة سوى وسائط الإتصال الخفيفة ولا يمكننا حالياً تنظيم كل وسائط الإتصال وسنستخدم فقط أجهزة الراديو الخفيفة الحمل ، وهذا هو سبب إرسالكم للضفة اليسرى ، وما دمنا لا نستطيع تسهيل أماكن عمل لوسائط الإتصال الثقيلة .

قبلت رئيسة الوفد فاليا توكاريف الامتثال لقرار المجلس العسكري ولكنها ألحت على أن أعطيها كلمة شرف بإعادتهن إلى الضفة اليمنى عندما تتحقق الشروط الضرورية للعمل . وبهذا الأمل اجتزن الفولغا في ١٨ تشرين الأول ولكن في ٢٠ من الشهر نفسه أي بعد يومين وعندما كنا كريلوف وغوروف وانا

نتصل هاتفياً مع الضفة اليسرى لم يتركننا بسلام وكن يقلن لنا « لقد استرحنا أيها القائد » أو « أيها الرفيق القائد متى ستعيدوننا للمدينة ؟ » أو « أيها الرفيق القائد متى تفي بوعدك الذي قطعته على نفسك ، فنحن وفينا بوعدنا » وفي نهاية تشرين الأول عدن مع وسائط الإتصال للمخابىء التي أقمناها .

إني أتذكر دور الفتيات الكشافات اللواتي كن مميزات في ستالينغراد كماريا فيدنييفا وليزا جوريلوف وماريا موكورينا وأخريات غيرهن اللواتي كن يتسربن أكثر من مرة عبر حطام البيوت أو بواسطة المنخفضات وأنابيب المجاري ويجتزن خطوط العدو،وينفذن إلى ما ورائه .

كتبت إحداهن في موضوع عملياتها داخل خطوط العدو « عبرنا عن رغبتنا في أحد أيام أيلول أنا وليزا جوريلوف بالقيام بالاستطلاع طوعياً وراء خطوط الألمان ، لذلك استدعينا إلى مقر الأركان على ضفة الفولغا وتلقينا هناك تعليمات مفصلة عن طبيعة عملنا وبأي شيء سنهتم في مهمتنا هذه .

علينا الاهتمام بمعرفة أين تتمركز أركانات القوات الألمانية الموجودة أمامنا ؟ ومواضع الرمي ؟ وإلى أين يفكر العدو إخلاء سكان المنطقة التي يحتلها من المدينة ؟ ثم معرفة ما يجري في منطقة صوامع الحبوب وقطاع منخفض فيشنيوفا ... إلخ .

إني أتذكر خروجنا من بيت بافلوف في ليلة مظلمة من أيام أيلول . وبصحبتنا فولوديا بيغينوف دليلتنا التي دلتنا كيف نجتاز ساحة ٩ كانون الثاني التي اجتزناها بحذر شديد .

وصلنا إلى بيت بطابق مهدم ليس بعيداً عن فرع السكة الحديدية ، وهناك أمضينا ليلتنا في الخرائب القريبة .

ولتنفيذ المهمة ذهبنا في اليوم الثاني عن طريق المدينة وعند وصولنا إلى مقر القيادة الألمانية « كومنداتور » حيث تجمع حشد كبير في المكان علمنا أنهم يستعدون لإرسالهم إبى مدينة كلاتش على الدون ، رأينا في شارع بوشكين عدداً من السيارات أمام أحد البيوت حيث كان يدخل ويخرج عدد من الضباط الألمان ، وقد علمت أن ذلك البيت هو مقر أركان إحدى الفرق ، وفي نواحي حمامات سورسكايا علمنا أن الضباط الألمان يأتون إلى هنا يوم السبت ويسبحون فيها وكنا نشاهدهم بشكل عفوي .

وعلى طريق المحطة صادفنا بعض السكان وأخبرونا بأن الألمان يتهيأون

للقيام بهجوم اعتباراً من مساء اليوم الذي كنا فيه .

قررنا الذهاب للمحطة لنرى ما يحدث هناك ولكن الألمان لم يتركونا ندخل وعند وصولنا إلى روافع الحبوب علمنا من بعضهم أن الألمان يرسلون يومياً الحبوب بالقطار والسيارات إلى الغرب . ثم لاحظنا مواقع الرمي على طريق منخفض فيتشنيوفينا بالقرب من مدينة كراسني أوكتيابر ثم رأينا هناك عتاداً ، وكان جديداً علينا فعلى السكة الحديدية وليس بعيداً عنا وجدنا قطع المدفعية ذات الفوهات الست .

وفي كراسني أوكتيابر يوجد كثير من الألمان ولكنهم منعونا من دخول تلك البلدة .

وبعد أن جمعنا خلال يومين المعلومات المطلوبة عدنا ليلاً إلى ساحة ٩ كانون الثاني وبعد اجتيازها ، وصلنا إلى الطاحونة القريبة من بيت بافلوف وخرج الجميع فرحين بعودتنا ودعونا مباشرة للنزول إلى مخبأ الأركان تحت الأرض ، حيث استقبلنا من قبل القائد الذي أصغى إلينا بانتباه ووضع الإشارات على الخريطة » .

يقول بعضهم بأن مثل هذه المعلومات التي تأتي من مصدر واحد (من هاتين الكشافتين) ليس لها سوى قيمة تكتيكية ضعيفة ولا ترقى لمستوى العمليات ولا تعتمد على سبب استراتيجي قوي ، ولكن لدى الجيش ٦٢ عدة مصادر وأشكال أخرى من طرق الاستعلامات وكنا نسعى لمعرفة ما يجري في مؤخرات العدو لكي نعرف ماذا ينتظرنا غداً والأيام التالية فبالنسبة إلينا نحن المدافعون عن مدينة ممتدة عشرة كيلومترات على طول الفولغا ، وعمق ثلاثة إلى أربعة كيلومترات ، من الأهمية بمكان معرفة ماذا يجري في المؤخرات المباشرة ووراء خطوط دفاع العدو .

عندما كنا نحصل على نفس المعلومات من مصادر أخرى عندها تستطيع قيادة الجيش تحضير (طبخة) ضربة تشترك فيها المدفعية والهاونات والكاتيوشا لسحق العدو وإبادته وتدمير مواقع أركانات الألوية والفرق المعادية ، وتوجيه الرمي إلى مواضع رمي العدو وأنواعه المختلفة من هاونات ومدفعية وقواذف ، وتدمير مخازن العتاد والسلاح

وأخيراً توجيه طيراننا الليلي لضرب تجمعات العدو والوحدات التي تستعد للإنطلاق بالهجوم .

٤

يعتبر الإتصال الجهاز الأول المثير للأعصاب ، فبغيره وفي حالة الحرب الحاضرة من المستحيل قيادة القوات . وخلال معارك الفولغا ، كنا نعطي أهمية خاصة للإتصال ليكون عملها دقيقاً غير متقطع وعليه كان يتوقف مصير الدفاع عن المدينة .

يمكن في القتال خارج المدن إيصال التقارير والمعلومات خلال ساعة واحدة من الخطوط الأولى إلى أركانات الفرقة أو الجيش أما في القتال في ظروف المعركة داخل المناطق السكنية فهذا غير ممكن .

يمكن للعدو خلال ساعة واحدة من القتال خارج المدن وخلال الليل التقدم من ٢ ـ ٣ كيلومتر ، ومع ذلك لا يمكن اعتباره خرق جبهة الدفاع الاقليمي . ولكن في المدينة حيث عمق خطوط القتال يقاس في بعض القطاعات ببضع مئات من الأمتار فتقدم على هذا المستوى يعني ذلك الكارثة التي لا قيام بعدها ، لذلك كان من الضروري التحري مقدماً ومعرفة نوايا وتفكير العدو لكي لا نسمح له القيام بضربة مباغتة على خطوطنا يكون لها نتائج وخيمة ومن أجل ذلك يجب أن يكون سلاحنا مستعداً في أيدينا والقوات مستنفرة بشكل تستطيع معه الرد في كل لحظة والاشتباك مع العدو ومقاومته ، بعمل سريع متلاحق . فهل يمكن حل مثل هذه المسائل دون إتصال جيد مع مصلحة الاستطلاع والمخافر الأمامية ومراكز مراقبة المدفعية ومواضع الرمي ومرابض المدافع الموجودة في الضفة اليسرى من الفولغا ، ومع قادة وحدات وعناصر الاحتياط والتشكيلات والمصالح التي تسند وتغذي المعركة ؟

يمكن للإتصال الجيد غير المتقطع بالراديو والهاتف والإشارات الضوئية والمنظم بدقة تحقيق سيطرة قوية عملياتية على القوات المقاتلة ، والوقاية من خطر هجوم محضر من قبل العدو وغالباً ما كنا نضرب الهجوم بالقرب من مواقعنا وحتى في أماكن تجمعه وبخاصة عندما تكون قواته ووسائطه تستعد للإنطلاق وتخرج من مخابئها وتصبح في أرض مكشوفة ، فبدون إتصال لا يمكن قيادة القوات ولا قيادة الرمي أو توجيه الطائرات والوسائط الأخرى الداعمة للمعركة نحو القطاع المهدد وعلى العدو المنطلق للهجوم .

كانت مراكز قيادة الفرق والجيش موجودة على طول ضفة الفولغا اليمنى

وعلى مسافة تتراوح بين ٣٠٠ ـ ١٠٠٠ م من خطوط الدفاع الاولى . وقرب المنظمات القيادية بهذا الشكل يسمح لها وللقادة ، ولكل الأنساق متابعة سير المعركة ومعرفة التغيرات الطارئة على الموقف مباشرة واتخاذ القرارات في الوقت المناسب . لذلك فالإتصال المباشر يعتبر أفضل طريقة للتوجيه وأكثرها فعالية وسرعة . وهذا لا يعني رغم كل ذلك أن مراكز الراديو والهاتف فقدت أهميتها فعلى عكس ذلك كانت العناية بها متواصلة ، ولكن تنظيم عمل غير متقطع لشبكة الراديو والهاتف في تلك الظروف كان عملاً صعباً جداً .

في ظروف القصف الجوي المتواصل ، وبخاصة على مراكز القيادة والقطاعات في الخطوط الأولى يؤدي دائماً إلى احتراق الخطوط الهاتفية وانقطاعها . كما كان القصف يكبد وحدات الإشارة خسارات فادحة . لقد قطع الجيش إلى ثلاثة أجزاء حتى الفولغا نفسه . وأخذت قيادة الجيش تتحمل بأن واحد القتال في ثلاثة قطاعات منفصلة الواحد عن الآخر . وبسبب كثافة نيران العدو على مقر قيادة الجيش كان من المستحيل وجود جهاز راديو قوي الاستطاعة ، كما كان النهر خلف القوات يشكل هو الآخر حاجزاً قوياً أمام الإتصالات الأمينة .

كنت أرى علائم النرفزة والتوتر على وجوه كل من رئيس الأركان كريلوف ورئيس مصلحة الإشارة العقيد (ثم الجنرال فيما بعد) م . يورين،للذي كان يمضي الوقت منكباً على خرائطه ومخططاته يجري فيها التغييرات الطارئة على الشبكات السلكية واللاسلكية ، ويضطر إلى تغييرها في كثير من الأوقات لكثرة ما يجري فيها من تغييرات . وتخيل الجديدة منها فأركان الجيش غيرت أماكنها خمس مرات ، وهذا يعني أن الإتصال أعيد تنظيمه خمس مرات تحت قصف مدفعي وغارات من الطائرات لا تتوقف .

لذلك لم يكن غريباً إرتباط فرقتين أو ثلاث بالتوازي على خط واحد ، ولكي يجري إتصال أمين ودائم أكملت كل فرقة إتصالها عن طريق إقامة مركز مساعدة يتم الإتصال فيها وتدور في دارة مغلقة .

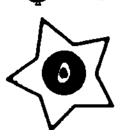
كانت فرق الاصلاح تعمل في المراكز الرئيسية للمراقبة ، وفي كل المراكز المساعدة وكقاعدة عامة كان بجانب شبكة الإتصال الهاتفية إتصال لاسلكي عن طريق (الراديو) . أما البحارة فكانوا يستعملون الأعلام كواسطة إتصال كما هو الحال في السفن الحربية .

جهز المركز اللاسلكي (الراديو) التابع للجيش بجهاز أرسال ولاقط باستطاعة ضعيفة موجود بقرب مقر القيادة ، ولكن كنا نعتمد على المركز المساعد الذي كان يحوي أجهزة ذات استطاعة قوية . ويتمركز في الضفة اليسرى من الفولغا على بعد عشرة كيلومترات من مقر أركان الجبهة وعن طريقه كنا نتصل بأركان الجبهة والطيران والمؤخرات .

ويعتبر الإتصال اللاسلكي دون ترميز أفضل أنواع الإتصال فعالية وسرعة ولكن من الضروري اتخاذ كافة وسائل الحيطة لئلا يكتشف العدو نشاطنا وندله على أماكننا . كما أن الإتصال بالراديو هو واسطة إتصال أكيدة وفي بعض الحالات كان هو الوحيد الذي نلجأ إليه وعلى سبيل المثال كان الإتصال مع الفرقة ١٣ يجري بالراديو فقط .

من الضروري التكلم أيضاً عن جزء من عمل الإشارة من المحتمل أن يكون أكثرها تعقيداً في الجيش ٦٢ وهو وضع خط إتصال هاتفي في سرير نهر الفولغا ، فلم يكن لدى الجيش أي عتاد خاص لهذه الغاية ، ورجالنا مجبرون لتأمين الإتصال بين مقر قيادة الجيش والضفة الشرقية للفولغا استخدام خط هاتفي عادي فعلى الضفة الأخرى الشرقية يوجد مركز أركان المؤخرات التابع للجيش التي كانت تتولى قيادة القوات الموجودة على الأجنحة ومع المدفعية والمؤخرات التموينية ، وعن طريق هذا المركز القيادي المساعد استطعنا ، وفي غمرة أقصى وأقوى المعارك التي وقعت في تشرين الأول تأمين قيادة القوات التي كانت تعمل في مركز المدينة وقطاع المصانع ومدن العمال .

يهبط الخط الهاتفي إلى قعر النهر إذا كان ثقيلاً نوعاً ما ، ولكن لا تمضي سوى فترة ثلاثة أيام أو أربعة حتى يضطر العمال لإنزال آخر جديد غيره،وبقينا على هذه الصورة حتى نهاية المعارك في المدينة .



ولنتحدث الآن عن رجال الاستطلاع فأي عمل أنجزه هؤلاء الشجعان . وكم من الصفحات المشرقة التي كتبت في لوحات الشرف السنوية الأسطورية للمدافعين عن ستالينغراد .

كان هؤلاء الرجال يعرفون كل شيء عن العدو ، مواضعه نواياه وقواه وإمكاناته

وهذا يعني تقديم تصور صحيح واضح لتطور المعركة ، والحصول على إمكانية اتخاذ قرار صحيح وملائم لكل حالة خاصة مما يؤدي إلى تحقيق النجاح في المعركة . وكان على مصلحة الاستخبارات هنا في ستالينغراد تجميع كافة المعلومات التي تسمح لنا بمعرفة نوايا العدو ومشاريعه ليس لليوم القادم فقط وما بعد أسبوع بل لأي لحظة كانت لئلا نؤخذ على حين غرة ، ولنكون لدينا الوقت الكافي لاتخاذ التدابير الوقائية الملائمة للعمل وإحباط مقاصد العدو ونواياه ، وللحصول على هذه النتائج في ظروفنا المعقدة لم يكن سهلاً بل كان تقريباً مستحيلاً نظراً لكثافة ترتيب العدو القتالي اللامعقول ، وانتشار القوات الهتلرية في مختلف المناطق من شرطة القرى إلى الجستابو إلى المراقبة الدقيقة المسلطة على سكان القرى والمزارع الواقعة تحت احتلال الهتلريين وكذلك في أحياء المدينة التي كانت بيدهم ، كل ذلك كان يشكل عناصر رئيسية تعقد بشكل خطير مهمة وعمل كشافينا في القطاعات التي كان يمسك بها العدو .

في مثل تلك الظروف من الصعب تنفيذ استطلاع أرضي ، ويفضل عليه الاستطلاع الجوي ، ولكن تفوق العدو الجوي لا يمكن تجاوزه . ولم يكن يسمح لطائراتنا الاستطلاعية بالتحليق فوق ترتيب قتال العدو وقطعاته وتكرار هذا التحليق وأية مبادرة في هذا المجال تنتهي غالباً بخسارة الطائرة وطاقمها .

يمر خط الجبهة في المدينة التي نشبت فيها المعارك لمدة خمسة أشهر تقريباً ، وفي نفس المكان عبر الأحياء السكنية وحتى عبر الطوابق والبيوت والسلالم وأقسام المعامل والمصانع ، لذلك كان من الضروري القيام باستطلاع خاص يختلف عن غيره .

كم كانت شاقة مهمة الكشافين الاستطلاعية ! ومع ذلك كانوا يجدون الطرق والأساليب التي تضمن لهم تقديم معطيات صادقة وأمينة وفعالة للقيادة . وفي هذا المجال علي أن أخص بالذكر قائد مصلحة الاستطلاع في الجيش ٦٢ العقيد غيرمن ومساعده السياسي فويكاتشيف وضباط مصلحة استخبارات الجيش الذين كانوا يعملون كفريق متكامل يملؤه حب التضحية والاندفاع وروح الجماعة ، وكانوا رجالاً جسورين ، والقدوة التي قادت كل كشافي جيشنا بما ضربوه من مثل شخصية وقدرة عالية على حسن التصرف والعمل .

سررت بالعقيد غورمن منذ لقائي به لأول مرة . وارتحت له ، وأعجبت بعقله المركز الرصين وبقلة كلامه ، ولكن كل كلمة كانت تصدر عنه كانت

موزونة ، ولا يقدم أي تقرير عن المعلومات التي حصل عليها عن العدو إلا إذا تحقق بنفسه من المعطيات ، وتأكد من صحتها .

لم يكن غورمن ينتظر مطلقاً التعليمات التي تصدر إليه لكي يعرف أين ومتى عليه تنظيم الاستطلاع ، فغالباً ما كان يقدم التقارير عن النتائج التي توصل إليها بمبادرته الخاصة ، ويقدم المعطيات التي تهمنا . وكان يتحرى عن كل المعلومات الضرورية للقيادة ، ويتابعها ويحصل عليها مهما كان الثمن . كان غورمن ضابط مخابرات كفءاً ، يعرف خواص فن العمليات ويتواجد دائماً ويطلع على مجرى الأحداث .

أحرز كشافونا نجاحاً كبيراً في العمل في المدينة وكانوا يستطيعون العمل فيها وينفذون على الأقدام إلى مؤخرات العدو وخلف ترتيبه القتالي ، يراقبون العدو ويجمعون المعلومات عنه وكل ما هو ضروري للقيادة ، وبسبب كثافة نيران العدو في خطوط دفاعه الأولى ، كان من المستحيل اجتياز هذه الخطوط بمجموعات كبيرة أو بدوريات . فباستطاعة العدو اكتشاف مجموعة تعد خمسة عشر شخصاً لذلك كنا نرسل إلى مؤخراته مجموعات من الكشافين لا يتعدى أفرادها الثلاثة وحتى الخمسة ، يتقدمون بجرأة سلاحهم المسدسات الرشاشة والقنابل اليدوية ويحملون معهم منظاراً مقرباً وجهاز راديو ، ويتسللون إلى ثلاثة أو خمسة كيلومترات في خطوط العدو مموهين جيداً ويراقبون كل ما كان يجري أمامهم .

كان هذا النوع من الاستطلاع يجري بشكل دائم فكان الكشافون ينفذون إلى مؤخرات العدو ليلاً عن طريق الأودية التي كانت تقود من الفولغا باتجاه الغرب وقد قدمت هذه الأودية ، التي حفرتها مياه نهر تساريستا خدمات جلى لنا ، فعن طريقها كانت تمر مجموعات الاستطلاع ولكن المرور فيها كان صعباً للغاية وبخاصة في الليل تحت نيران متواصلة من العدو . لذلك كان على المارين امتلاك القلب الصلب الجسور والسيطرة على النفس التي لا تهتز أمام الصعاب مع صفات أخرى ضرورية لهذا النوع من المهمات ، والتي كان يتحلى بها كل كشاف في الجبهة . وليس كل جريء يعبر عن رغبته في الذهاب للاستطلاع من الممكن إرساله إلى مؤخرات العدو . فالمنضمون لمجموعات الاستطلاع هم الأكثر جسارة وحسن تصرف ،

وأغلب هؤلاء كانوا من الكومسمول وأشخاص عقائديون عريقون أقوياء

الجسم والروح ، ينفذون بشجاعة مهماتهم بعيداً عن وحداتهم ورفاقهم وأقرب ما يكونون لقوات العدو التي تفوقهم بالعشرات .



كان تحت تصرف جيشنا خلال معارك المدينة من ثمانية إلى عشرة ألوية مدفعية فرقية وخمسة ألوية من المدفعية المضادة للدبابات واثنان إلى ثلاثة ألوية مدفعية من قاذفات الصواريخ (كاتيوشا) التابعة للحرس . والقسم الأكبر من المدفعية ذات السبطانة ، كانت موجودة خلال المعارك من أجل المدينة على الضفة اليسرى للفولغا .

ولم تكن قوة المدفعية ثابتة بل متغيرة حسب الخسائر التي كانت تتكبدها ووسطيا لدينا في قطاع المدينة عشرة مدافع وهاون ٨٢ مم في الكيلومتر الواحد من الجبهة

وكنا نسعى قدر الإمكان لجعل قيادة نيران المدفعية مركزية ،وكان يقوم كل من الماجور جنرال بوجارسكي وأركان حربه وعلى رأسهم العقيدخيجنياكوف بمجهود جبار في هذا المجال .

أظهر نيقولاي ميتروفانوفتش بوجارسكي بأنه حقيقة مجدد في مجال استخدام المجموعات الكبرى للمدفعية للدفاع عن المدينة وبخاصة هجماتها المعاكسة بالنيران وهو يعتبر الأول في خلق مجموعات الهاون القوية ، نجح بوجارسكي في تنظيم قيادة نار المدفعية بشكل يستطيع معه نقل قيادتها بحرية وسهولة من قائد فرقة إلى قائد فرقة آخر وتركيز كامل المدفعية للقيام بضربة على أكثر القطاعات خطورة وتهديداً ، وكان مقتنعاً بسبب خبرته بأهمية تأمين دعم المدفعية بعمليات مجموعات الانقضاض ، ولم يتردد في تجهيزها بقطع ذات عيار كبير .

أصبح لدى قيادة مدفعية الجيش الامكانيات التي تستطيع معها تركيز قيادة كل مدفعية فرق المشاة وألوية المدفعية المضادة للدبابات وألوية مدفعية الدعم ووحدات الهاون التابعة للحرس ، بيدها والسيطرة عليها ومثال ذلك ما حدث في نهاية شهر أيلول ، حيث أحبطت هجمات مدفعيتنا هجوماً معادياً كبيراً باتجاه المرتفع ١٠٢,٠ وكذلك هجومه على وادي باني وكان هناك ٢٥٠ قطعة مدفعية

من عيار كبير على جبهة طولها اثنان إلى ثلاثة كيلومترات اشتركت في العمل .

قامت خلال المعارك التي دارت في تشرين الثاني في قطاع مصنع (باريكادي) مدفعية ثمانية فرق مشاة مع لوائي مدفعية مضادة للدبابات وثلاثة ألوية دعم مدفعية ، بالإضافة إلى لوائين من مجموعة مدفعية الجبهة بهجمات مفاجئة بالنيران الكثيفة على العدو .

جمعت قيادة المدفعية بشكل تستطيع فيه مجموعات وألوية المدفعية أن تكون عند الضرورة تحت تصرف قيادة مدفعية الجيش بكاملها . ولهذا السبب كانت كل وحدات مدفعية الدعم على إتصال مع قادة مدفعية الفرق وباتصال مباشر بآن واحد مع قيادة مدفعية الجيش يضاف إلى ذلك كانت ألوية المدفعية الطويلة التابعة للجيش تدخل في مجموعة مدفعية الجيش بعيدة المدى والتي تستطيع في كل لحظة إسناد هذه الفرقة أو تلك على أي محور كان .

ومع تنظيم الأركان لمجموعة مدفعية الجيش وخلق قوة نارية ذات استطاعة هائلة كان استخدام مجموعة المدفعية منظماً بآن واحد بشكل لا مركزي ومحضراً أيضاً لتدمير مجموعات العدو وحتى الأهداف المنفردة العدوة .

ومثال ذلك استخدمت فرقة مشاة الحرس ٣٩ في المعارك من أجل مصنع كراسني أوكتيابر مدافع من عيارات مختلفة وصلت إلى عيار ٢٠٣ بالرمي المباشر وعلى مسافة ٢٠٠ ـ ٣٠٠ من الهدف وهذا ما حصل فيما بعد في مدينتي بوزنان وبرلين .

وتطلبت ظروف معارك الشوارع تقدماً جريئاً لكل جهاز المراقبة وقيادة الرمي التابعة للمدفعية الموجودة في السرايا والفصائل ، وهذا يعني أنها كانت مع مجموعات الانقضاض .

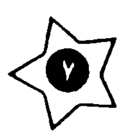
كما استخدمت قطع المدفعية ذات العيارات الثقيلة ومدفعية الألوية المضادة للدبابات بنجاح في الرمي المباشر ضد الأبنية وعلى الشبابيك والأبواب المغلقة وعلى الأسطحة والسقوف ، وكانت القنابل المتفجرة تشكل خطراً جدياً على الأشخاص أما القنابل الثاقبة والحارقة من عيار ٤٥ فاستخدمت لتدمير تحصينات العدو القوية داخل الأبنية .

خرجت من المعركة أعداد كبيرة من قطع المدفعية بسبب الغارات الجوية على الضفة اليمنى للفولغا وفي المدينة نفسها ، كما تكبدت خسائر كبيرة من

مدفعية وهاونات العدو التي تمركزت على الضفة اليسرى من الفولغا .

ومن المعلوم أن المدفعية هي دائماً وفي كل مكان ضرورية لذلك لم نترك احتياطاً من المدفعية في ستالينغراد نفسها سوى لواء مدفعية صاروخية ذات دفع ذاتي « قاذف صواريخ على سلاسل من عيار ٨٢ مم » وكانت تحت تصرف قيادة الجيش المباشرة وأدخلت عدة مرات في المعركة وبخاصة في اللحظات الحرجة لإيقاف الهجمات الهتلرية .

وبقرار من قيادة الجيش أبقيت المدفعية الفرقية طويلة المدى على الضفة اليسرى ، حيث تستطيع من هناك المناورة بالنار والحركة وبإمكانها التزود بسهولة بالذخيرة دون عبورها الفولغا .



وجد في ستالينغراد عدد كبير من الوحدات المدرعة وأركاناتها ولكنها كانت قليلة العتاد من الدبابات وغيرها . فظروف معارك الشوارع لا تسمح باستخدام العتاد المدرع بكثافة . ولم يكن لدينا الإمكانية لنقل العتاد الثقيل عبر الفولغا .

ومع ذلك فالدبابات التي كانت لدى الجيش استخدمت بكل مردودها . فالدبابات المعطوبة استخدمت كنقاط رمي ثابتة ، والتي لم تصب استخدمت كقوة صدمة في الهجمات المعاكسة ، وعلى المحاور الصالحة لمرور الدبابات كانت الدبابات تشكل مراكز للدفاع ضد الدبابات حيث تطمر في التراب وتموه وتوضع في أماكن لا تبعد سوى ٢٠٠ ـ ٣٠٠ م من الخطوط الأولى بحماية المشاة التي كانت هي الأخرى تطمر نفسها أو تتحصن في الابنية وتقاتل ضد المشاة التي تقترب من المدرعات المطمورة . وتعتبر نيران الدبابات المتربصة والتي تعمل بمجموعات في الشوارع والساحات وتطلق من مرابضها أو كمائنها أكثر النيران فعالية ضد العدو و آلياته ، وهكذا نجحنا في ١٤ و ١٥ أيلول في إيقاف قوى هامة من دبابات العدو ، التي كانت تحاول القيام بغارة قوية وبضربة واحدة لاحتلال المدينة . فقد استقبل هجوم العدو بنيران كثيفة قاتلة من الكمائن التي نصبت لها واضطرت لتغيير اتجاهها بعد تكبيدها خسائر فادحة .

قذف العدو في تلك الأيام بأكثر من ٤٠٠ دبابة من مختلف الأنواع ضد قطاع تدافع عنه ألوية مدرعة بقيادة العقيد كريتشمان والمقدم اودفيشنكو ولم يكن لديها

سوى ثلاثين دبابة ت ٣٤ ولوائي مدفعية مضادة للدبابات ، ومع ذلك ورغم التفوق المعادي عددياً من الدبابات لم تستطع هذه القوات أن تتغلب على دفاعنا وأن تنفذ للفولغا .

ولهذا ألغى العدو بعد الخسائر التي تكبدها في معارك نهاية أيلول هجماته بالدبابات بمجموعات كبيرة وأخذ يقذف في المعركة بمجموعات قليلة من الدبابات برفقة المشاة ودعم المدفعية والطيران . وحتى في هذه الحالة التي يتفوق فيها العدو ناضل المدافعون عن ستالينغراد بنجاح .

ومثال ذلك ما حدث في ١٩ أيلول عندما حاول العدو الاستيلاء على المرتفع ١٠٢,٠ (كورغان ماماييف) بمهاجمته بالدبابات من ثلاث جهات من الشمال والغرب والجنوب بمجموعات تعد الواحدة منها ١٥ دبابة واشتركت في الهجوم أكثر من أربعين دبابة ، ولم يكن لدينا في ذلك القطاع سوى ٥ دبابات ت ٣٤ وثلاثة ت ٦٠ .

اشتبكت دبابتنا الأولى مع العدو على المنحدرات الجنوبية الغربية من الكورغان بقيادة المساعد سميخوتفورف . وما كاد يرمي طلقة من مدفعه حتى قذفه العدو بوابل من نيران أسلحته كلها . انفجرت قذيفة معادية على بعد خمسة أمتار من دبابته ، ولكن سدنة الدبابة لم يفقدوا صوابهم ، وأطلقوا طلقة ثانية على الدبابة الألمانية المهاجمة ثم طلقة أخرى على دبابة ألمانية أخرى فتصاعد منها الدخان واضطر السدنة الهتلريون لفتح نوافذ دبابتهم والخروج منها وبذلك أصبحوا هدفاً جيداً لرشاشاتنا ، بعد ذلك غيرت الدبابات الألمانية اتجاهها وأصبح المشاة الذين كانوا وراءها دون حماية ، فتوقفوا ولم يتقدموا إلى الأمام .

وهذا مثل آخر للمعارك التي دارت في الشوارع .

تلقت وحدة من لواء أودوفيتشنكو مؤلفة من ثلاث دبابات وفصيلة من (١٨ شخص) المشاة ، أمراً بالقضاء على رماة العدو الذين تسربوا إلى بعض الأبنية في شوارع ريزبوبليكانسكايا وكيفسكايا . ويقود العملية قائد فصيلة الدبابات الملازم موروزوف ، وبدون أن يلفت أنظار العدو أنزل دبابته إلى السفح الشرقي من كورغان ماماييف وعلى ظهرها المشاة واندفع بسرعة كبيرة وهو يطلق النيران من المسير على مسافة ٨٠٠ م من تلك الأبنية وعندما وصلت الدبابات إليها ترجل المشاة أرضاً ، وبقفزة واحدة أصبحوا داخل البيوت حيث وقع في أيديهم جميع من كانوا فيها من الرماة الألمان المتمركزين فيها ، وبعد إتمام

المهمة تلقى موروزوف الأمر بالنفوذ بدباباته إلى الحدود الغربية لبلدة كراسني أوكتيابر للتصدي لهجوم معاد جديد .

ناورت دباباتنا في ذلك اليوم عدة مرات وتنقلت من موقع إلى آخر في ضواحي المصنع .

قذف العدو في السابع والعشرين من أيلول ضد مصنع سيليكات بفوجي مشاة تقريبا مع ست عشرة دبابة وكان يدافع عن المصنع سدنة دبابات الحرس بقيادة العقيد كرتشمان وسبق الهجوم غارة جوية قوية ، وبعد الغارة أشعل رجال دباباتنا بارودا بالقرب من دباباتهم ليعطي دخاناً ، وهنا إنطلت الحيلة على الألمان وظنوا أن النار تشتعل بدباباتنا لذلك اندفعوا بالهجوم . فتركهم رجال دباباتنا يقتربون إلى مسافة قصيرة وفتحوا نيران دباباتهم مع مدفعيتنا برمي مباشر على العدو المهاجم وأحرقوا إحدى عشرة دبابة عدوة .

كانت دباباتنا المعطوبة تصلح بسرعة وتعود إلى الخطوط الأمامية ولقد قدم عمال مصنع (تراكتورني) الذين كانوا في المعمل خدمات كبيرة لنا .

حدثني مساعدي قائد القوى المدرعة في الجيش فينروب والمكلف بإعادة اصلاح الدبابات المعطوبة :

« قطرت الدبابة ٢١٤ إلى مصنع كراسني أوكتيابر وهي مثقوبة من جانبها بقذيفة خارقة ومحركها معطل . واستعد فريق ماكاروف لتصليحها وفي الوقت الذي أنهوا فيه نزع تصفيحها الخلفي ، بدأت غارة جوية ألمانية على المصنع وأخذت الطائرات تغرق المصنع بطوفان من القنابل والرصاص واضطر الجميع للاختباء تحت الدبابة ، ولكن الغارات تتابعت الواحدة تلو الأخرى ولم يعد بالإمكان العمل ، وهنا نظم فريق الاصلاح المراقبة الجوية ولم يعد العمل يتوقف ، إلا إذا كان المعمل بكامله تحت التهديد المباشر ، حيث يذهبون إلى الملاجيء .

تم إصلاح أغلبية الدبابات عدة مرات فالدبابة ٢١٤ نفسها مثلاً أصلحت أربع مرات ، وعندما أرسلت إلى المصنع وللمرة الخامسة ، قال ماكاروف :

ـ أيضاً الدبابة ٢١٤ .

ـ أصبنا نحن بجروح فقط ـ أجاب قائد الدبابة معتذراً ـ وبمساعدتك سنعود للقتال غداً ، ولكننا استطعنا تدمير عدد من الدبابات الألمانية وجرحنا هذه المرة .

من الواضح أنه لا يمكننا التعويض عن الخسائر بإعادة إصلاح الدبابات

المعطوبة فقط ، ففي ٥ تشرين الأول وصل إلى الضفة اليسرى كوحدة دعم اللواء المدرع بقيادة العقيد بيلوف ، نقل إلى المدينة وبالمراكب في صباح اليوم الثاني خمس عشرة دبابة عبر الفولغا .

اتخذت الدبابات مواقعها في اليوم نفسه على طول خط السكة الحديدية وشارع سكولبتورفايا وزجت في المعركة قبل أن يتسنى لها الوقت الكافي لطمر نفسها بالأرض . ومع ذلك توجت هذه المعركة بنجاح لا مثيل له ، ففي الساعة الأولى من المعركة دمرت ثماني دبابات ألمانية وقتل عدد كبير من جنود العدو .

خف القصف الجوي في وسط يوم ٦ تشرين الأول ، وكذلك نيران المدفعية على النهر لذلك أخذت دبابات لواء بيلوف الباقية على الضفة اليسرى تستعد للصعود إلى المراكب . ولكن ما كادت أول دبابة تسير بمركبها نحو الضفة اليمنى وتصل إلى وسط النهر حتى ظهرت الطائرات الألمانية المنقضة ، وأخذت تدور فوق الدبابة على ظهر المركب وترمي قنابل من عيار صغير عطبت إحداها دفة المركب ومحركه وبدأ المركب ينجرف مع التيار ، ويقص المساعد بينوز زيبين قائد الدبابة حكاية مغامرته :

ـ أخذ السدنة في البداية يختبئون من الشظايا ونار الرشاشات تحت صدر الدبابة ثم تسمرنا جميعاً على أرض المركب ننتظر الغارة التالية ، ومن حسن الحظ كانت الرياح شمالية غربية فاتجه المركب بحمولته الدبابة ت ٣٤ إلى الضفة اليسرى ، بعد ذلك نزلنا إلى البر مجدداً وقدنا الدبابة إلى المعبر .

بعد اجتيازها النهر أخذت مدرعات العقيد بيلوف مكانها في الدفاع في الجوانب الشمالية الغربية لمصنع وبلدة باريكادي .

صمدت في السابع عشر من تشرين الأول فرق جولوديف وغوريشني وغوربيف . وطواقم دبابات بيلوف لمعارك قاسية ضد فرقتين من المشاة الألمان و ١٥٠ دبابة عدوة كانت تهاجم الجناح الغربي لمصنع باريكادي ، وصدت جميع الهجمات بعد أن ترك العدو في حقل المعركة ١٦ دبابة محروقة و ٩٠٠ جثة ، وفقدنا مقابل ذلك ثلاث دبابات مع طواقمها .

تعتبر المعارك التي وقعت بين ١٤ ـ ١٧ تشرين الأول أشد المعارك ضراوة وكانت الفترة أيضا أشد مراحل القتال خطورة وحدة . وذلك عندما رمى الهتلريون ضد مصنع باريكادي بمائتي مدرعة فتصدى لهم رجال دباباتنا وأخذوا

يقاتلونهم على طريقة الكمائن ويرمون من أماكنهم المحضرة سلفاً والمطمورة ، ومع ذلك لم يبق من مدرعات بيلوف سوى ٢٠ دبابة صمدت أمام قوى كبيرة بعد أن أعطبت ، وأحرقت عدداً من الدبابات الألمانية ولم تستطع كتلة الصدمة العدوة المشكلة من خمس فرق الانتشار والهجوم نحو الجنوب على طول الفولغا وعلى جناح القوات الرئيسية للجيش .

اندفع الفاشيون في الرابع عشر من تشرين الأول نحو مصنع (تراكتورني) وكان علينا منذ الآن فصاعداً تصليح آلياتنا على ضفة الفولغا وفي الأودية وبالوسائط المتوفرة الباقية لدينا وكانت الدبابات التي تنتهي من التصليح تتوجه حسبما تقتضي الضرورة تقتضي نقاط رمي قوية متحركة لدعم وحدات المشاة التي يزداد صمودها بالدبابات وتزداد ثقتها وصلابتها بدفاعها .

رغم تفوق العدو العددي بالدبابات إلا أنها كانت غالباً ضعيفة أمام دباباتنا وذلك يعود إلى استطلاعنا الجيد وتكتيكنا : فالدبابات التي لم تكن تستطيع الحركة تقطر بالدبابات الصالحة » .

عملت دباباتنا دائماً في الهجمات المعاكسة مع المشاة ورجال الهندسة وبنارها التي تطلقها على مسافات قريبة ، كانت تخرق الجدران وتعزل الأهداف المهاجمة عن جهاز الدفاع المعادي العام ، وعند إنتهاء المهمة كانت تعود إلى مواقعها المغطاة والمموهة جيداً أو تبقى في مكانها ويعاد تمويهها .

كنا في أيام الهجوم على المدينة نستخدم الدبابات بمجموعات صغيرة وأقصى حد لها خمس دبابات فقط ، وليس ذلك لعدم توفر دبابات كثيرة لدينا في ذلك الوقت ، ولكن ظروف قتال الشوارع وبخاصة في مدينة مهدمة، تجعل عملية استخدامها بالكتل لا فائدة منه .

يوجه المهاجم في المدن اهتماماً خاصاً للتعاون بين المشاة والدبابات . والوحدات الرئيسية للتعاون في القتال خارج المدن هي على مستوى الفوج أي مجموعة المدفعية التابعة للواء وسرية الدبابات في حين تكون في القتال داخل المدن وعلى الغالب مؤلفة من فصيلة مشاة وفصيلة دبابات وفصيلة مدفعية .

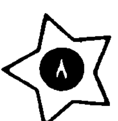
كان يشكل كل شارع وكل مكان في القتال في المناطق السكنية حقلاً صغيراً للمعركة،ويتطلب من القادة انتباهاً خاصاً ودقيقاً وتنظيماً قوياً للتعاون فالقوة وحدها لا تقرر كل شيء .

عندما كان الألمان يتقدمون من المدينة في أيلول كانوا يمتلكون التفوق

العددي في الرجال والعتاد بشكل ساحق . ولم يكونوا يشكون ، بأنهم في ضربة واحدة سيقذفون بنا إلى الفولغا وإني أعترف أنه في القتال خارج المدن ومع هذه النسبة المتفاوتة في القوى كان بإمكانهم تحقيق مخططاتهم واختراق دفاع الجيش ٦٢ بسرعة ما دام عمق هذا الدفاع بمجموعه لا يتجاوز ٣ ـ ٥ كم وفي القتال خارج المدن يكون احتواء هجوم معاد متفوق بعشرة أضعاف بالقوى وبدفاع متفاوت كالذي يستطيع أن ينظمه الجيش ٦٢ هو أمر مستحيل ، ولكننا صمدنا أمام القوى الرئيسية للعدو التي لم توقف ضرباتها طوال ثلاثة أشهر .

إذن ما هو السبب ؟

استوعب محاربو الجيش ٦٢ بسرعة أكثر من العدو قتال الشوارع وتعلموا وبسرعة أفضل من العدو استخدام الأبنية وأقبيتها وأقفاص السلالم ومداخن المصانع ، وفي الوقت الذي أصبحوا فيه أسياد فن قتال الشوارع ، أخذت قواعد الجيش وأركاناته والفصائل السياسية وخدمة المؤخرات تدرس وتنمي معارفها وتزيد في خبرتها في هذا النوع من القتال . ففن قتال الشوارع لدينا ، لم يكن يرواح في مكانه ، بل كنا نطوره ونحسنه . وكل جندي كان يفتش ويكتسب ويجد على العموم طرقاً جديدة للنضال تؤمن له النجاح .



لعب رجال الهندسة (النقابون) دوراً خاصاً ومجيداً في قتال الشوارع الذي دار في ستالينغراد فهؤلاء الأبطال من رجال الحرب المجهولين كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من قواتنا فهم لم يكلفوا فقط بإقامة المعابر وتثبيتها وتشغيلها ، بل كانوا يحاربون أيضاً في الصفوف الأولى المقاتلة في الجيش .

كان بيد رجال الهندسة سلاحان رهيبان هما البلاستيك والألغام ، فعندما كان يظهر لنا أنه لم يعد بالإمكان الاقتراب من العدو كان رجال الهندسة يصلون إليه ويدمرونه بمتفجراتهم وعندما يصبح الوصول للعدو غير ممكن بالطرق العادية كان رجال الهندسة يثقبون الأرض وتحتها وينفذون عن طريق الممرات التي تشبه ممرات المناجم إلى داخل تحصينات العدو ثم يفجرونها .

تبدو في أيامنا الحالية أن كلمات (دهاليز أو ممرات المناجم) أو كلمة (النقب) أصبحت من الماضي ، ولكن في النضال ضد العدو لم يتردد رجال

الهندسة أن يضيفوا لفائدتهم خبرة رجال المناجم الروس المعتزين بأنفسهم والذين دافعوا عن سباستبول في منتصف القرن الأخير .

عشرات الدبابات فجرت بفعل الألغام التي زرعها رجال الهندسة والذين كانوا يشكلون جزءاً متمماً لمجموعات الانقضاض .

ونورد هنا بعض الأمثلة :

عندما قام العدو بهجومه باتجاه الجزء الشمالي من المدينة ، استطاع فريق من رجال الهندسة (النقابون) التابعين لوحدة ج . فاتياكين زرع حقلين من الألغام في قطاع وادي مكرايا ميتشنكا . وفي هذا المكان تفجرت الألغام تحت ثماني دبابات عدوة .

جرب العدو في إحدى قطاعات فرقة الحرس ١٣ اختراق دفاعنا ليلاً ، وكان من الضروري التمسك بهذا القطاع ، وهنا قامت مجموعة من رجال الهندسة بقيادة الملازم أول ليفاندي بزرع ٤٠٠ لغم تحت نيران العدو ، وأدى هذا العمل إلى تكبيد العدو خسائر فادحة بسبب انفجار الألغام تحت المهاجمين ، وبفعل رماياتنا ، واضطر العدو أن يحول هجماته إلى قطاعات أخرى .

احتل العدو غرفة محول كهربائي يقع في إحدى مناطقنا الدفاعية وأخذ يستخدمه للمراقبة والرمي على مواقعنا ، وهنا تسلل خفية فريق من رجال الهندسة التابعين لفوج الحرس الثامن واقتربوا ليلاً من غرفة المحول،ونسفوا الغرفة بمن فيها من جنود العدو .

استطاع العدو ، إقامة نقطة استناد قوية ، في المنطقة التي كان يقوم فيها بناء نقابة البترول ومن هناك أخذ يضرب بنيرانه وادي (باني) على ضفة الفولغا ، وكان هناك ردم ترابي يمنع من تصحيح رماياتنا على البناء . بعد ذلك علم استطلاعنا بوجود أحد مستودعات البترول ، يقع في الساحة الداخلية لبناء النقابة وهو فارغ لا يحتله العدو ، لذلك قامت مجموعة من رجال هندسة فوج الحرس الثامن ، بحفر ممر تحت الارض من وادي (دولفوي) حتى أسفل المستودع ، حيث فتحت ثغرة في مقره بالمتفجرات ، نفذ منها الرماة وسهلوا مكاناً لنقطتي رمي ومرصد للمدفعية ، وكانت نيران المدفعية والهاونات التي جلبت لهذه الغاية تغطي عمل هؤلاء ، وبفضل احتلال المستودع تمكنا من إزالة نقطة استناد العدو .

حفر رجال الهندسة من أجل التحضير للانقضاض على معمل السباكة في

مصنع « كراسني أوكتيابر » بالمتفجرات في قطاع فرقة الحرس ٣٩ ، ممرات ساعدتهم على الاقتراب من العدو وقذفه بالقنابل اليدوية ثم قاموا بالهجوم على المعمل بنجاح ، واحتلوا نقطة استناد العدو التي كانت محصنة تحصينا قويا .

كما كانت في قطاع الفرقة ٤٥ نقطة رمي عدوة تضرب مواقعنا ، وتتمركز في شمال معمل كراسني أوكتيابر،وعلى حافة المرتفع ١٠٢,٠ وضع رجال الهندسة طنا من المتفجرات متصلاً بفتيل مشتعل ورموه من أعلى المنحدر فوق الهدف المعادي ، فأدى الانفجار،الذي دوى إلى تدمير نقطة الرمي المعادية ، وكل الهتلريين الذين كانوا فيها .

تمركز العدو في أقبية بناء ضخم مثلث الزوايا ، يمنع قواتنا من احتلال كل البناء ، عندها قام رجال الهندسة في مجموعة الانقضاض بقيادة الملازم ب . ايفانتسكي ، ونسفوا القبو بمتفجرات وزنها ٢٦٠ كيلوغراما .

وحسب قول الشهود من أسرى العدو ، أنه قتل أكثر من ١٥٠ هتلريا بسبب الانفجار .

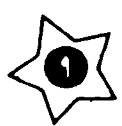
من الطبيعي أن يعمل جنود الهندسة في صفوف كل القوات،وكانوا يشكلون معهم وحدة قتالية واحدة وفي بعض الأحيان كانت بعض الوحدات مؤلفة كلها من المهندسين ، ولدى هؤلاء ظهرت قوة الابتكار والبراعة بأجلى معانيها مع حسن التصرف ، فلم يكن هناك أي موقف،لم يستطع هؤلاء أن يتعاملوا معه ويتغلبوا عليه .

كان المهندسون يؤمنون الممرات عبر النهر ، وينقضون على العدو المحتل للأبنية ويحصنون مواقع قواتنا ، ويبنون الملاجىء والمخابىء الأرضية وتحصينات الميدان .

ازدادت خطورة الموقف عندما اقترب الشتاء ، فالجندي المقاتل بحاجة للتدفئة ، والاغتسال ، لذلك ظهرت في المدينة الحمامات التي بناها المهندسون ، وكان المقاتلون يرسمون عبارات الشكر لزملائهم في السلاح وأصدقائهم المهندسين .

بعد صمت ضجيج معركة الفولغا الكبرى ، وبعد أن حوصر جزء من العدو ودمر ، والجزء الآخر سقط أسيراً . وخرج الجيش من المدينة ليستعد لمعارك جديدة ، ظلت الانفجارات تدوي زمناً طويلاً في المدينة ، عندما كان المهندسون يفجرون الألغام والقذائف وقنابل الطائرات التي لم تنفجر .

بدأ إعادة بناء المدينة المخربة وصناعتها منذ إنتهاء المعركة ، وقد أخذ المهندسون القسط الأول من هذا العمل العملاق بتنظيفهم المدينة من آلاف الألغام ، والقذائف الخطرة والنقابون (المهندسون) ، هم الذين هيأوا الظروف الأولية والضرورية للبدء مباشرة بأعمال البناء .



مر ثلاثون عاماً على النصر الكبير في الفولغا . وطيلة هذا الوقت ، ودائماً أعتبر نفسي مديناً للأبطال من رجال الأسطولين النهري والجوي الذين كانوا يصلون إلى الجيش ٦٢ في أحلك الساعات وأضناها . وبدونهم لم يكن بإمكان هذا الجيش أن يعيش أو يقاتل ، وقد قدم هؤلاء من بحارة الأسطول النهري وقادة طائرات *PO - 2* المساعدة القيمة لنا نحن الذين كانوا في الجيش ٦٢ بمدافعهم ورشاشاتهم وقنابلهم واستنزفوا العدو بضرباتهم وأنهكوا قواه ، وكان البحارة يخلون الجرحى وكذلك أركانات الوحدات التي كانت تعود إلى الضفة اليسرى لإعادة تشكيلها .

تكلمت مسبقاً عن الموقف الصعب الذي وجد فيه الجيش ، عندما أخذ الفولغا يحمل قطع الجليد الضخمة في طريقه إلى البحر . وكان الألمان يراقبون سير قطع الجليد . وعندما كانوا يلاحظون توقف بعض القطع ، والتي من الممكن أن تلتحم أو تلتصق مع غيرها بسبب الصقيع كانوا يفتحون النار فوقها بالهاونات ذات الفوهات الستة لكي تنفصل عن بعضها وتتابع سيرها دون أن تشكل قطعة واحدة يمكن السير عليها لنبقى معزولين عن قواعد تموينا . وكان يبدو كل ذلك وكأنه لا مخرج منه ، ولكنه في الحقيقة لم يكن كذلك ، فعندما كان النهر يحمل قطع الجليد الصغيرة كانت المراكب البخارية : أنجاتيز ـ بوغاتشيف ـ سبارتاك ـ فانيفلوف والمراكب المدرعة *cs - n* ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ٦١ ـ ٦٣ تصل إلينا نحن الذين في ستالينغراد بجهد كبير ، من قطاع أختوبا ، ومحطات التحميل في توماك متحدية الخطر ، ولكن عندما يأخذ الجليد بالتراكم ويصبح سميكاً ، تتوقف المراكب البخارية عن العمل والحركة . أما المراكب المدرعة ، فقد كانت تعمل ولكن بجهد كبير وتعب .

هل كانت هناك خسائر ؟ نعم بالتأكيد . وكانت كبيرة ، ولكن هذا لم يفت من

عزيمة بحارتنا البواسل ، وإني أحتفظ بذكرى ميخائيل ايفيموفتش سوروكين القائد القديم لمجموعة المراكب المدرعة ، وقد أنعم عليه بسبب اشتراكه في معركة الفولغا بوسام العلم الاحمر . والنجمة الحمراء ومداليات (الأهلية والكفاءة) و « الدفاع عن ستالينغراد »

في خريف ١٩٤٢ ، كانت المأساة تهدد بحارتنا البواسل من كل جهة فقد ركز العدو نيراناً محكمة من مدفعيته على مراكبهم الصغيرة التي كانت دون حماية ودون دفاع . والفاشيون الوسخون ينقضون عليها بطائراتهم ، كما كانت الالغام تتناثر من حولهم وتهددهم بأخطار قاتلة .

كان م . سوروكين يقود مجموعة المراكب المدرعة في ذلك الوقت . ورغم الظروف الصعبة من التجمد وسدود الجليد في النهر ، كان يفتح طريقه أربع مرات يومياً رغم نيران العدو ، وذلك في النصف الثاني من شهر تشرين ثاني ١٩٤٢ حتى الضفة اليمنى للفولغا وحتى ستالينغراد ، حاملاً معه الذخيرة والإمدادات ويعود حاملاً الجرحى .

ويتذكر سوروكين كيف عبرت النهر إلى ستالينغراد . ليل ١٥ أيلول فرقة الحرس ١٣ روديمستيف ، كل ليلة كانت المراكب تحمل مئات الجرحى ، ومئات الأطنان من الإمدادات . وكنا نصل في بعض الأحيان للصدام مع العدو بنيران مدفعية مراكبه ، فقد ركزنا في المركب ١٣ حاملة للصواريخ والتي كان الجنود يطلقون عليها بحنان (كاتيوشا).تربص المركب مرة في نقطة محددة من النهر خفية ومن هناك قذف الفاشيون برشقة قاتلة من قذائفه .

عندما احتل العدو في تشرين الأول مصنع تراكتورني ونفذ على الفولغا عزلت ثلاثة ألوية مشاة (١١٥ ـ ١٢٤ ـ ١٤٣) وجزء من قوى اللواء ١١٢ عن قوة الجيش الرئيسية . وكان من الضروري تقديم المساعدة العاجلة لهم لذلك كلفت مجموعة المراكب المدرعة بمهمة تأمين إيصال الذخيرة وإخلاء الجرحى للقوات المعزولة .

وكتب سوروكين « بالرغم من وجود قطع الجليد الكبيرة في الفولغا كانت المراكب المدرعة تنفذ إلى قطاع رينوك . وسباستانوفكا .. حيث كانت القوات المعزولة عن الجيش موجودة . وكنا نحمل إليهم الذخيرة . كان العبور صعباً للغاية لأن الألمان يوجهون على مراكبنا نيراناً غزيرة من كل الأنواع ، وفي إحدى المرات فتحت دبابات ألمانية تكمن على الضفة اليمنى النار علينا.وكنا في

طريق العودة.والجرحى جالسون ، أصيب مركبنا بعطب بفعل النيران الكثيفة وسقطت إحدى القذائف في قسمه العلوي ، فجرح الملازم الأول جيتوميرسك جرحاً بليغاً لوجوده في المكان ، وأصيب ساقه بفعل إحدى الشظايا ، وقتلت شظية ثانية (الجندية الأولى أ ـ ايملين) التي كانت متمسكة بالحاجز . ثم فقد المركب اتجاهه ، ولكن الملازم الأول جيتوميرسك نهض متغلباً على جراحه والدماء تنزف من ساقه والدماء تجري تحته وقاد المركب إلى محطة النزول » .

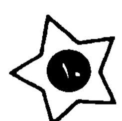
أخذت مكاني في إحدى المرات على ظهر أحد المراكب التي كان يقودها فاسيلي كورتنكو في يوم مظلم جداً . وكان المركب يقوم برحلاته العادية اليومية نحو الضفة اليمنى في قطاع مصنع تراكتورني مع غيره من المراكب ، كان الطقس ممطراً ومزيج من الثلج والمطر يتساقط علينا . ومدفعية المركب ورشاشاته كانت جاهزة للرمي . اقترب مركبنا ببطء من الشاطىء وكان في المقدمة . وعندما لامس الأرض قفز بحاران مسلحان بالرشيشات والقنابل اليدوية إلى الشاطىء للتعرف على الموقف وفيما إذا كنا في أرض صديقة أم عدوة ، وبعد بضع دقائق سمعنا النداء المعروف :« كل شيء جيد أنزلوا السلم » ، وهنا رأيت البحارة وبعض الجنود يحملون أحد الرجال ، ظننت في بادىء الأمر أنه جندي جريح ثم أسرع البحار ايفانوف ، وصعد السلم في الأول وقال لي : هل تقبل أيها الرفيق القائد هذه الهدية فنحن نحمل معنا أحد الفريتز .. » أمرت بوضعه في مركز طاقم المركب بحراسة شخصين مسلحين .

خلال ذلك أفرغ الجنود والبحارة حمولة المركب من الذخيرة والغذاء،وصعد الجرحى وعاد المركب أدراجه إلى الضفة اليسرى ، ولم يطلق العدو نيرانه علينا ، وقد نزلت إلى مركز الطاقم،وهناك علمت كيف استطاعوا القبض على هذا الرجل « ويطلقون عليه في هذه الحالة اللسان »،وكان ضابط صف وهذه قصته :

يجري عادة عندنا كما هو الحال لدى الألمان ، توزيع طعام ساخن على الجنود ليلاً . وكان التموين بالغذاء لدى الألمان سيئاً . ولدعم معنويات جنودهم كانوا يوزعون عليهم كميات كبيرة من مشروبهم الوطني (الشنابس) وبعد احتساء بعض الكؤوس يتعثر لسانهم ويدور رأسهم . ومن المحتمل أن الألماني إنجذب بالرائحة التي كانت تفوح من مطبخنا . ولا يعرف أحد في هذه الليلة

الظلماء كيف جاء ضابط الصف هذا ومن أين مر ؟ واقترب من مطبخنا وقدم قصعته إلى طباخنا وهو يتمتم ببضعة كلمات ألمانية ، ولم يضطرب الطباخ الروسي عندما وجد أمامه جندياً ألمانياً وأوهمه بتلبية طلبه وملأ ملعقة كبيرة بالأكل وضرب الألماني على رأسه بها . ظهر على الفريتز الانهيار لأنه ذهب ليطلب الحساء فوجد نفسه أسيراً . وكان يرتعش كلياً عندما شاهد الشرائط المتدلية من قبعات بحارتنا وأعتقد أنه سقط بين يدي المفوض الأسود أو الموت الأسود . كما كانت دعاية أجهزة الدكتور غوبلز تنعت بها بحارتنا .

يمكن الكتابة كثيراً وطويلاً عن مآثر بحارتنا على الفولغا ، حقق هذا الأسطول الصغير المستحيل تحت قيادة أمثال نائب الأميرال د . روكاتشيوف ، ب . فوروبيوف وضباط أمثال م . سوروكين،وكم من المرات أغلقت مراكب هذا الأسطول بنيرانها الثغرات في جبهتنا والتي كان من الممكن أن تسرب العدو من خلالها بين مواضع قتالنا المتقطعة . وقذفت مدفعية المراكب « اوسيكين تشابابيف ، شتشورمي ، كيروف ورودنيف آلاف القنابل على رؤوس الغزاة .



تبدأ الجبهة بالنسبة للطيارين حيث توجد قواعدهم . لأن العدو كان يهاجم دون توقف مطاراتنا في محاولة لاعتراض طائراتنا أثناء محاولاتها التحليق منذ أن تنطلق لمهمتها . وكانت تدور معارك جوية فوق مطاراتنا وعلى المسافة من المطارات حتى ستالينغراد وفوق ستالينغراد ، فالطيارون ليلاً ونهاراً هم في قتال ، ففي النهار يصدون الغارات الجوية على قواعدهم . وفي الليل يساعدوننا بحملهم الذخائر لنا،وفي الإغارة على مواضع العدو .

بعد الحرب تلقيت كثيراً من رسائل الطيارين الذين كانوا قد تعاونوا مع الجيش ٦٢ وأورد هنا إحدى هذه الرسائل :

« كان ذلك في تشرين أول ١٩٤٢ معارك متواصلة لا تنقطع بضراوة لا شبيه لها . كانت تهتز لها الأرض والسماء . ليس في النهار فقط ولكن في كل ليلة منذ غروب الشمس حتى ظهور النهار ، كانت طائراتنا تحلق دون إنقطاع ، وتقذف بحمولتها القاتلة رؤوس الغزاة . كان من الواجب قصف بعض الأحياء والشوارع ، بعض البيوت حيث كان الألمان يتمركزون وحيث تكون أركاناتهم

موجودة،كانت القوات الارضية تخوض معارك القتال القريب . وأقل خطأ من طواقمنا ، يمكن للقنابل أن تضرب قواتنا .

على الأرض كان هناك الجحيم.أصوات الانفجارات لا تتوقف ليلاً ونهاراً ، كانت سماء الليل فوق ستالينغراد تضج بطائراتنا وطائرات العدو ، والقنابل المضيئة التي كانت تشتعل ببطء في الجو ، تضيء كل ما حولها ، وفي مجالها الضوئي كانت الطائرات من كل نوع تجول في مختلف الاتجاهات وعلى مختلف السرعات . كم من المرات كان على الطيارين أن يناوروا لكي يتجنبوا بطائراتهم سحب اللهب المختلجة . مجتازين اثار غاز العادم المنطلق من طائرات أخرى ، كما كانت تحدث اصطدامات بين الطائرات في الليل . وعندما احترقت مستودعات البترول الضخمة على ضفاف الفولغا بفعل قنابل العدو ، أخذت ترسل إلى عنان السماء أعمدة اللهب والدخان حتى علو ألف متر ، وكان من الصعب التنفس والطائرات التي كانت تحلق في الجو كانت ترتفع في الهواء بفعل التيارات الصاعدة .

في ظلام إحدى ليالي تشرين الثاني تم إنتقال قواعد طائراتنا من نوع ou-2 من قطاع المجرى الأوسط لاختوبا إلى مطار أعد على عجل ، وبعد هبوط طائراتنا كنا نتجه بحذر نحو ومضات المصابيح الكهربائية التي كانت ترسل لنا إشاراتها لهدايتنا إلى الطريق السوي . هناك شيء غير عادي لفت أنظارنا سيارات نقل ذات حواجز عالية ، صناديق مغطاة بالأغطية تقترب من الطائرات . ولم تكن قنابل كما كنا نتوقع ، ولكن بعض الأشياء الطويلة المتراكمة . وبعد جهد كبير بذله الفنيون تمكنوا من تثبيتها في حاملات القنابل في الطائرة .

تبين لي بعد ذلك أن هذه الأكياس التي كانت بطول حوالي مترين وقطر متر ما هي إلا رزم من الألغام والقذائف والطلقات والأغذية ... إلخ وكان علينا إسقاط هذه الأكياس المعلقة في حاملات الطائرات من نوع ou-2 إلى سيارات نقل جوية . كانا كيسين يحوي كل منهما ١٠٠ كغ . لم تكن الحمولة كبيرة ولكن شبكتها وشكلها لا يوحيان بالثقة . فإذا ما فتح الكيس في الجو أو عند الإقلاع ستسقط الطائرة كأنها حجرة ، وكل المقومات الدافعة لطيران الطائرة ستنعدم .

بعد توثيق الحمولة جمع الطيارون في مركز القيادة في مخبأ نوعاً ما،تحت الأرض ويحتوي على أسِرّة في جوانبه وخرائط معلقة . ملّاح اللواء المقدم

موركوفكين . كان يجري الحساب ، وعلى مخطط المدينة توجد قطع ضيقة من الارض : ثلاثة مواقع عسكرية تقطع المدينة محددة بقلم رمادي .

حدد قائد اللواء المهمة : فعلى أصغر الاقسام يجب رمي أكياس الغذاء ويجب أن يكون مرورنا إعتباراً من جزيرة زايتسيفسكي ، وإسقاط الحمولة على ارتفاع ٦٠٠ م وستشتعل النيران في الحفر على الضفة المنحدرة للفولغا والتي ستكون كنقاط علام .

قمنا مرة ثانية بفحص أربطة الأكياس، فوجدناها كلها مربوطة جيداً. وباستطاعتنا الإقلاع . وبعد التحليق كان من السهل مسك الإتجاه فأمامنا بخط مستقيم كانت ستالينغراد المظلمة والتي يمكن تمييزها بلهب الحرائق البرتقالي .

صعدنا بعد الاقتراب من الفولغا حتى ارتفاع ٦٠٠ م . ها هو سطح النهر البلوري . كان كل إنتباهنا مشدوداً نحو الشاطىء المقابل من النهر ، وعلى الشريط الابيض الضيق بين الماء والشط ذي الذراع بجانب المنحدر ، أشعلت ثلاثة أضواء ترى فقط من النهر والضفة اليسرى ولا يستطيع العدو أن يراها . حلقنا فوق جزيرة زايتسيفسكي . ثم إنعطفت لكي أقود الطائرة إلى المكان الذي كان علي أن أسقط الحمولة فوقه ، كانت يداي موجودتين تتلمسان في غرفة القيادة أزرار الامن التي يجب أن أسحبها لفتح مزالج حاملات الاكياس . اجتازت الطائرة خط الشاطىء وتركت الفولغا وراءها والنار في بعض الاقسام كانت تحت الطائرة . ولكن لم نكن نرى النقطة حيث يجب إسقاط الحمولة عليها . والآن وعلى ارتفاع ٦٠٠ متر يمكننا فقط تقدير ، كم كان صغيراً هذا الشريط من الارض على طول الفولغا وعلى بعد قليل حيث كنا نشاهد اللمعان وانعكاسات النار . كانت الخطوط الاولى . والاكياس ؟ أين يجب إسقاطها ؟ لقد إعتاد ملاح الطائرة أن يسقط القنابل . وكم كان سهلاً في الوقت الحاضر لو كانت حمولتنا المعلقة على أجنحة الطائرة هي قنابل وسنصيب الهدف حتماً ، ولكن المعلق حالياً تحت الأجنحة كان أكياساً غير منتظمة، ولا شيء من الوسائط الفنية ، ومسألة سقوطها سيكون متعلقاً إلى حد كبير بسرعة الرياح وقد خلق العدد الكبير من الحرائق الاسطورية عدداً مضاعفاً من التيارات الجوية بحركتها المتقلبة . ومن الطبيعي أن لا تتوافق مع إتجاه الريح الذي على أساسه يمكن القيام بالحسابات وإسقاط الحمولة .

ـ ساشا ، لا تسقط الحمولة إنتظر قليلاً ، قلت للملاح ، سأنعطف نحو اليسار

وساعة اليد أمامي وهناك وعلى نفس ارتفاع الطائرة وعلى بعض النقاط غير المرئية كانت تتقاطع آثار شرارات ضوئية . في هذه اللحظة استطعنا أنا والملاح وفي قلب الحرائق تمييز الهيكل المعروف للطائرة ou-2 بشكل واضح ومرت لحظة ، وإذ نقطتين تنفصلان من الطائرة ، إنهما كيسان وفوقهما إنفتحت قبتان بيضاوان .

- أنظر هناك مظلات،صرخت بالملاح . ثم قمت بانعطاف حاد فوق الموقع وفوق النقطتين البيضاوين اللتين كانتا تهبطان بهدوء .

ولكن القبتين اجتازتا المنحدر ، ثم حلقتا بعيداً عن الشاطىء ثم غيرتا الاتجاه وسقطتا في الفولغا ، وبهذا لم تسقط تلك الأكياس لدينا ولا لدى العدو ، إنها رحلة دون فائدة .

- إذهب إلى هناك وانعطف نحو النيران - صرخ الملاح - واستعد . سنسقط الحمولة على ارتفاع مائتي متر . وسنضعها بالتأكيد فوق الهدف لدى جماعتنا . كان تحتنا وعلى الضفة العالية منحدر ، لم نكن في ذلك الوقت على ارتفاع مائتي متر ، ولكن على ارتفاع ١٥٠ م . هناك بعض النقاط المضيئة تتراقص نحو الطائرة . في الأسفل قطعة مظلمة من الأرض حفرتها القذائف . في الوقت المناسب إنتزع الملاح مفاتيح الأمن . وعندما تحررت الطائرة من الأكياس قفزت إلى الأعلى ولكنني أعدتها إلى وضعها ثانية.نحن الآن فوق خطوطنا وكلما قل ارتفاعنا أصبح من الصعب على العدو أن يصيبنا واتجهنا نحو الفولغا لقد نسي الملاح كل ما تبقى . ولم يركز إنتباهه على قبتي المظلتين اللتين كانتا واضحتين داخل الحرائق سقطت المظلة الأولى والثانية وراء بعضهما على الأرض المتماوجة من الضفة العالية غير البعيدة عن المنحدر « توقفنا ووضعناهما في الوسط » ، صرخ الملاح : « هكذا يجب أن يكون الإسقاط على مائة متر من الارتفاع » .

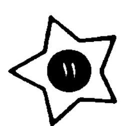
كانت الطائرة تحلق في ذلك الوقت فوق الهضبة المنحدرة من الضفة . وكنت أريد أن أحرر مقبض المكنسة لكي أنقض من الأعلى نحو الأسفل ، حتى صخرة الماء ، ولكي أتمم طريقي حسب المخطط . رأيت فجأة باقة من الطلقات الخطاطة ترمى من قمة الضفة في ساحة الإسقاط كان الألمان يرمون بخط مستقيم نحو الفولغا ، ماذا يجري هناك ؟ لماذا يرمون ؟ وعلى صفحة النهر المظلمة كانت هناك طائرة تحلق بخط مستقيم باتجاه نقاط النيران الثلاثة ، وعلى

مستوى منخفض جدا وبسرعة البرق اجتازت الشريط الأبيض من النهر . واختفت سريعا في الظلام ، وفي هذه اللحظة إنفتحت قبتا مظلتين بيضاوين ووصلتا بسرعة للأرض وتسمرتا بين النيران .

ـ أي شيطان هذا الذي أسقط حمولته على هذا المستوى المنخفض . من هو ؟ سألت الملاح . كانت هذه رسالة الطيار فوروبيوف وملاحه سافونوف .

يتتابع الجليد على الفولغا دائماً ودائماً وفي كل ليلة كانت طواقم الطائرات *ou 2* - تحلق عبر الفولغا لإسقاط الحمولات من الذخيرة والأدوية والغذاء . وكانت تسقط بمظلاتها بشكل جيد بالقرب من نيراننا .

وكثيرا ما كانت هذه الطائرات تعود وهي مملوءة بالثقوب . وفي المطارات كان يجري إصلاحها حالاً وتعود لمهامها الليلية . وقد إكتسب الطيارون بسبب إسقاطهم الجيد المهارة التي اتصف بها مهرة الرماة .



كان الألمان في هجوم صيف عام ١٩٤٢ يتمتعون بتفوق جوي واضح فحوالي ١٥ آب ركزوا باتجاه ستالينغراد ١٢٠٠ طائرة قتال . وقد كان لقوات الدفاع الجوي دور هام واستثنائي في صد هجمات هذه القوة .

لقد أحصينا أنه بين تموز وحتى تشرين الثاني ١٩٤٢ نفذ طيران العدو (١٣٣٠٠٠) طلعة طيران عبر الحدود العملياتية للدفاع الجوي وعلى طول الجبهة الألمانية ـ السوفيتية ، ومن بين هذا المجموع العام سجل (٦٦) ألف طلعة فوق قوى الدفاع الجوي في ستالينغراد ، أي نصف المرات التي تم فيها اجتياز الحدود العملياتية للبلاد .

تكون الأرقام في بعض الأحيان معبرة ، وحسب العدد المتزايد من طلعات طيران العدو يمكن معرفة شدة كثافة المعارك التي دارت أمام ستالينغراد وفي المدينة نفسها . في تموز نفذت ٢٤٢٥ طلعة باتجاه ستالينغراد في آب ١٤٠١٨ طلعة في أيلول ١٦٧٥٤ وفي تشرين الأول ٢٥٢٢٩ وفي تشرين الثاني ٧٥٧٥ طلعة .

كان عبء الدفاع الجوي عن ستالينغراد يقع على عاتق قوات قطاع فيلق الدفاع الجوي عن المدينة . وإلى وحدات ووسائط الدفاع الجوي للجبهة

والجيش . أما قوى القطاع فتتألف من فرقة الطيران المطارد (١٠٢) وتتألف من ٦٠ طائرة مطاردة ، و ٥٦٦ قطعة مضادة للطائرات ٤٧٠ رشاش مضاد للطائرات ١٦٥ جهاز للأنوار الكاشفة ٨١ بالون لعمل السدود الجوية .

أما الدفاع الجوي في المدينة فكان منظماً على شكل دائري ويركز على الأهداف ذات الأهمية كمصانع تراكتورني ، باريكادي ، كراسني أوكتيابر . المركز الكهربائي للمدينة ـ مستودعات البترول ـ قطاعات بيكيتوفكا ، وكراسنو أرميسيك .

قامت الطائرات الهتلرية بأول غاراتها الكثيفة على المدينة في ٢٣ آب . وكانت هذه الضربة توطئة للانقضاض على المدينة واستهدفت سحق مدفعيتنا المضادة للطائرات التابعة للقوات المدافعة ، وتدمير المدينة تدميراً كاملاً ظلت الطائرات الألمانية تحلق فوق ستالينغراد بشكل متواصل في الوقت الذي كانت فيه قوات فون باولوس تندفع من فيرتياتشي على التخوم الشمالية للمدينة أما قوات فون هوت فكانت تشق طريقها في الضواحي الجنوبية .

كان العدو يقصف بمجموعات ١٠ ـ ١٥ طائرة دون هوادة مصنع تراكتورني . وفي النصف الثاني من اليوم كانت أكثر من أربعمائة طائرة تغطيها المطاردات تنشر آلاف القنابل على مركز وجنوب المدينة .

وبعد الغارات أخذت أعمدة الدخان والغبار واللهب ترتفع في سماء المدينة وقد احترقت المعامل ـ المصانع ـ البيوت السكنية ـ المدارس ـ المستشفيات ـ المتاحف المسارح . الأبنية الخشبية . مئات من السكان المدنيين قضوا نحبهم تحت أنقاض المنازل وبسبب اللهب . كان العدو يريد محو المدينة من الوجود وأصبحت السماء مضاءة بكاملها في الليل .

في ذلك اليوم أسقطنا للعدو ١٢٠ طائرة في قطاع ستالينغراد . وبالرغم من التفوق العددي الكبير للطيران المعادي فقد اشتبكت مطارداتنا مع العدو بأكثر من خمس وعشرين معركة جوية بالمجموعات ، ولم يكن اليوم الثاني هادئا وظل الوضع على هذه الحال حتى ١٩ تشرين الثاني ، وهو تاريخ قيام قوات الجبهات جنوب ـ غرب الدون بهجومها الكبير الحاسم . ونستطيع أن نتعرف على ذلك عن طريق عدد الطلقات للطيران المعادي .

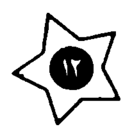
أخذ في أيلول يتزايد العبء الذي وقع على عاتق المدفعية المضادة للطائرات . فكان عليها حماية معابر الفولغا . ونقل قسم من بطارياتها إلى

الضفة الشرقية . وحسب تصاعد حدة المعارك في المدينة أصبحت مواقع سدنة الدفاع المضاد للطائرات هي نفسها مواقع دفاعهم الأرضي .

عندما نفذ الفيلق المدرع ١٤ المعادي في ٢٣ آب على الفولغا في قطاع لوتاشنكا . فالمدفعية المضادة م/ط هي التي صدت هجوم الدبابات . ودمرت سرايا اللواء المضاد للطائرات ١٠٧٧ بقيادة المقدم ف . غيرمان خلال معارك ٢٣ ـ ٢٤ اب حوالي ٨٠ دبابة ، من الدبابات التي كانت تحاول توسيع الثغرة نحو الفولغا ودمرت (١٥) سيارة نقل مشاة وأسقطت أربع عشرة طائرة .

ولما بدأت المعارك في ستالينغراد أصبحت مهمة المدفعية المضادة للطائرات مهمة معقدة حيث ضاقت نقطة مراقبة طائرات العدو من قبل مراكز الإنذار التابعة للمدفعية م/ط عند اقتراب طائرات العدو القادمة من الغرب والجنوب ومن ثم من الشمال إلى بضعة كيلومترات ، كما ضاقت أعماق خطوط القتال ولم تعد تغطي سوى ٥ ـ ١٠ كم في حين أن الجبهة امتدت إلى مسافة ٦٠ ـ ٧٠ كم وأن قيادة مثل هذا الدفاع واعتبارا من مركز واحد أصبح غير ممكن ، فطائرات العدو لم تعد تكتشف إلا في المشارف الغربية من القوات ولم يعد أي شخص يستطيع إنذار الدفاع م/ط قبل ظهور الطائرات بزمن كاف .

بعد أن ركز العدو إنتباهه في أيلول على معابر الفولغا ، اقتضت الضرورة تشكيل مجموعة خاصة من مدفعية م/ط لصد الغارات على محطات الإنزال والإركاب . وكذلك عن المراكب البخارية والقاطرات النهرية وعلى ضفاف النهر . وقد بذل العدو في نفس الوقت جهدا كبيرا لسحق مدفعيتنا المضادة وثلث القنابل التي كانت تتساقط على المدينة كانت موجهة لسحق المدفعية م/ط . ولم يكن من السهل الاحتفاظ برباطة الجأش عندما ترى عددا من الطائرات تنقض عليك وترش الأرض بطلقات رشاشاتها مع وابل من القنابل ، والطريقة المثلى والوحيدة للسلامة هي الرد على النار بالنار دون التوقف ولو ثانية ، ولقد أظهر رجال مدفعيتنا المضادة للطائرات أنهم بواسل وجنود مقدامون .



يصبح الدفاع عن المدينة مستحيلاً دون إتصال مع الضفة اليسرى،حيث منها تصلنا الذخيرة والغذاء والوسائط الضرورية لقيادة العمليات .

وفي مختلف الاوقات كانت الضفة اليمنى متصلة باليسرى عن طريق معابر ثلاثة :
١) ـ المعبر الأوسط (المركزي) : استخدمت فيه المراكب ذات المحركات ، وكان هو الأقوى من بين المعابر . ويصل محطة الإنزال المركزية للمدينة مع كراسنايا سلوبودا وهو أقصر الطرق ولكن العدو ـ مع الأسف ـ استطاع اعتباراً من ١٤ أيلول أن يجعل هذا المعبر تحت نيران أسلحته من كل نوع لذلك كان علينا اعتباراً من النصف الثاني من أيلول إلغاؤه والاستغناء عنه .
٢) ـ معبر اسكودرا ، ويخدم القطاع الشمالي من المعركة . وفي أوقات مختلفة كانت تمر من هناك الأطواف ، والمراكب المصفحة والبخارية ومن هناك كانت الحمولات تأخذ طريقها نحو قطاع رينوك ، وسبارتانوفكا ، وكذلك باتجاه محطات الإنزال التابعة لمصانع تراكتورني ، باريكادي ، كراسني أوكتيابر .
٣) ـ المعبر ٦٢ وهو المعبر الرئيسي لجيشنا ويتبعه في الضفة اليسرى مجموعة من محطات الإنزال في مصانع كراسني أوكتيابر ، وباريكادي . وعلى أرصفة هذه المحطات ، كنا نتلقى الحمولات القادمة من سكودرا وكوماك ومن موبين وأعالي اختوبا ـ وعندما اقترب العدو من منطقة المصانع لم يعد بإمكاننا استخدام هذه المحطات مطلقاً لاستقبال التيار الرئيسي للحمولات ، وإخلاء الجرحى إلا ليلاً لأن العدو أخذ يوجه عليها غاراته الجوية الكثيفة ورمايات مدفعيته . لذلك كنا نستخدم أربع محطات واقعة جنوب منخفض باني لاستقبال الامدادات والتعزيزات والحمولات ، ومن جهة أخرى لإخلاء المجموعة الرئيسية للجرحى .

سببت نيران مدفعية العدو وهاوناته المتواصلة وغاراته الجوية الكثيفة خسارات كبيرة في أفراد الطواقم الخاصة المكلفة بتحميل وتفريغ الحمولات والطواقم المنظمة للعمل . كما دمرت المحطات والوسائط العائمة ، خسر الفوج ٤٤ المختص بإقامة الجسور والذي كان يستخدم هذه المحطات بين ٧ ـ ٩ تشرين الأول ٣٦ عنصراً و ٩ مراكب بخارية و ٧ أطواف و ٣٥ مركباً مجهزاً بتجهيزات خفيفة ، وهذه الوسائط غرق بعضها واحترق بعضها الآخر علماً أنها لم تصب خلال عبورها وإنما أصيبت خلال توقفها للتحميل أو عند رسوها في المحطات النهرية .

نقلت في ٢٨ تشرين الأول قاعدة الأسطول النهري والنقطة الرئيسية للتحميل

إلى سريدنيايا اختوبا بعد خسارتها للوسائط الراسية قرب المحطات ، وقد خرج أغلب هذه المراكب من الخدمة بسبب تعرضها للألغام والقنابل ، ولكن أعيد إصلاحها كلها وأعيدت للعمل .

أجبرتنا السدود الجليدية في النهر في ١١ تشرين الأول على نقل النقطة الرئيسية للتحميل ، وقاعدة الأسطول إلى الذراع المائي الأيسر للفولغا (كوربانكا) قرب توماك .

وبهذا تم تغيير قاعدة المعبر الرئيسي للجيش ثلاث مرات على الضفة اليسرى من الفولغا مما كان له انعكاس سيء واضح على فعالية وعمل وسائط العبور .

وكانت تعمل بالإضافة إلى المعبر الرئيسي للجيش محطة المراكب المرتبطة بأركان قوات الهندسة في الجيش وكانت خدمتها مؤمنة من قبل طواقم تابعة لفوج الهندسة الآلي ١١٩ التابع للجيش على الضفة اليمنى للفولغا ومن فوج الهندسة ٣٢٧ التابع للجيش على الضفة اليسرى ، كما هيئت الطوافات لتقديم المساعدة على المعابر الرئيسية لنقل التعزيزات والذخيرة والغذاء وإخلاء الجرحى ، وكذلك للنقل في حالات الطوارىء عندما لا تستطيع الوسائط العائمة الآلية العمل .

قسمت طواقم الطوافات إلى خمس مفارز ، مفرزة لمهمات خاصة . ربطت بقيادة الجيش مباشرة تحت إشراف عضو المجلس العسكري للجيش غوروف ، الذي سمح باستخدام هذه الوسائط في الحالات الضرورية القصوى . واستخدم من أجل هذا النوع زوراق الصيد والزوارق المطاطية كما أقيم رصيف كان يعمل بشكل دائم لإخلاء من كانت جراحه خطرة جداً .

كما نظمت محطات للمراكب أيضاً في الفرق والألوية . وكان الجرحى يجتمعون عند هبوط الليل بالقرب من المعابر ، وقبل وصول الوسائط العائمة القادمة من الضفة اليسرى . وكانوا يوجهون إلى المحطات بالأفضلية .

قدم رجال الطوافات مساعدات قيمة في نقل الجرحى ففي ٨ تشرين الأول ١٩٤٢ مثلاً تم إخلاء ١٠٦٠ جريحاً ، وكانت كل طوافة تحمل ٣٦٠ منهم .

وبالإضافة إلى المعابر الموجودة ، قمنا في الأيام الأولى من شهر تشرين الأول ببناء ثلاثة جسور في قطاع المصانع : تراكتورني ، وباريكادي ، خصصت للمشاة بطول ٢٧٠ م ، وتربط هذه الجسور الضفة اليمنى للفولغا ،

تطويق القوات الألمانية امام ستالينغراد

ENCERCLEMENT DES TROUPES ALLEMANDES DEVANT STALINGRAD

FRONT DU SUD-EST جبهة جنوب-شرقية

FRONT DU DON جبهة الدون

FRONT DE STALINGRAD جبهة ستالينغراد

8e A. de chasseurs de tanks

3e A.R.

6e A.

4e a.b.

6e c.a.(f)

STALINGRAD ستالنغراد

Volga

Direction des efforts et objectifs des operations

1 jour اليوم الأول

2 jours اليوم الثاني

3 jours اليوم الثالث

4 jours اليوم الرابع

من ستالينغراد عبر أنهار دينجنايا فولوجكا إلى جزيرة زايتسيفسكي .

بني الجسر الأول في المنطقة الجنوبية من جزيرة زايتسيفسكي من عدد من الأطواف الخشبية المحمولة على براميل مرتبطةٍ مع بعضها بوسائط ربط حديدية وحبال من الصلب ولكن هذا الجسر لم يكنَ جيد الثبات كان يتماوج تماوجاً خفيفاً . وقد استبدل بعد شهر . ولكن خلال ذلك عبر عليه عدة آلاف من الرجال من جهة إلى أخرى والعكس. ولم يستطع العدو ، رغم الغارات التي لا تحصى والتي قام بها وانقضاض الطائرات عليه . والقصف المدفعي والهاونات أن يصيبه إلا إصابات خفيفة سهلة التصليح .

أما الجسر الثاني الذي كان مخصصاً أيضاً للمشاة، فقد بني إلى شمال الأول . ودام ثلاثة أيام حيث أصابت شظية قنبلة الحبل الحديدي الذي يربطه وانهار الجسر وجرفه التيار . وبني الجسر الثالث على نهر نينجايا فولوجكا من براميل حديدية مرتبطة مع بعضها ومثبتة بمراس عائمة .

كان العمل في هذه المحطات متعباً وخطراً لوجوده طيلة الوقت تحت نيران العدو ، فمثلاً في ٢٦ تشرين الأول فقط ، قذف العدو بمائة قنبلة طائرة و ١٣٠ لغما و ١٢٠ قذيفة مدفعية على محطة الإنزال في وادي باني .

وفي حديثنا عن معابر الفولغا ، وقوات الهندسة في المدينة ، لا يمكن أن يغيب عن ذهني دور قائد وحدات الهندسة في الجيش ٦٢ حالياً بطل الاتحاد السوفيتي الملازم جنرال فلاديمير ماتفيفتش تكاتشنكو .

وصل تكاتشنكو إلينا في النصف الثاني من شهر تشرين الأول في أقسى مرحلة من مراحل الدفاع . وكان ذا طبيعة متواضعة ، لا يحب أن يفرض أو يتحدث عن أعماله . في حين أننا كنا نلقي على عاتقه مهمات لتنفيذها كانت تبدو أنها تتجاوز حدود إمكانياته ، ولكنه كان دائما يجد حلولاً ملائمة ويعبىء لها كل ما كان تحت تصرفه من وحدات الهندسة ، وكان بشكل عام ينفذ مهماته بنجاح وفي الوقت المحدد .

لم تكن الصعاب التي يواجهها تكاتشنكو في إدارة المعابر سهلة وقليلة السوء وشيئاً فشيئا أصبحت مهمته صعبة وبخاصة عندما استطاع العدو تجزئة جبهة الجيش والنفوذ إلى الضفة في بعض القطاعات .

في تلك الفترة لم يبق تحت تصرف الجيش لتأمين العبور إلا القليل من الوسائط ، النظامية حيث كان عددها أقل من عشرة وهي مراكب مدرعة أنهكها

الاستخدام وعدة عشرات من مراكب الصيد بالمجاذيف . وحوالي عشرة مراكب من الأسطول النهري التجاري الذي لعب الدور الرئيسي في كمية التحميل .

بذل المهندسون في هذه الظروف مع عمال الجسور وطواقم المراكب جهوداً بطولية من أجل استمرار تموين المدافعين عن ستالينغراد وإخلاء الجرحى دون توقفات كبيرة ومن المناسب أن ننوه بخاصة بالمركب المدرع الأسطورة رقم ٦١ من الأسطول الحربي النهري الذي كان يخرج لتأمين العبور في أي ظرف من الظروف .

خضع العمال المهنيون الذين كانوا أكثر من غيرهم محبة للسلام للتجربة . وبرهنوا على بسالة كبيرة وبراعة نادرة ، وإني أورد هنا قسماً من مذكرات عامل الفضاء نيكولاي لوينوف :

- « كان يحمل مخفري الرقم ٤٤٣ لاحظت مرة وقت الظهر وبعد معركة جوية هبوط طائرة هبوطاً رأسياً مخلفة وراءها سحابة من الدخان من إحدى محركاتها ، ولم يكد جناح الطائرة يمس الماء حتى دارت على نفسها وسقطت بجانب الإشارة الحمراء من الجهة العليا من النهر ، توجهت نحوها بزورقي الصغير ، كان علي أن أنقذ الأشخاص الذين كانوا يسبحون بقرب الطائرة الغارقة وكانوا ثلاثة .

عندما كنت أجذف نحوهم سمعتهم يتكلمون بلغة أجنبية ما العمل ؟ لم يكن معي أي سلاح ، ولكن عندما رأيت أنهم قريبون من الغرق . قررت الاقتراب منهم بعد أن رفعت أحد المجاذيف ووضعته بشكل أستطيع بواسطته الدفاع عن نفسي عند الحاجة .

عندما أصبح اثنان منهم في الزورق ، أخذا يساعدان رفيقهما الثالث على الصعود . وكان هذا الأخير مصابا بجروح شديدة ، وبعد أن شعر الثلاثة بالأمن ، أعطوني إشارة التوجه نحو الشاطىء وفهمت أنهم يريدون النزول إلى الضفة والاختباء في الغابة ، ولكنني أشرت إليهم بأنه لا يمكن تحريك المجاذيف واستدرت ، أخذ المركب يتجه متتبعاً مجرى التيار وليس إلى الضفة وهذا يعني إلى أسطول الفولغا الحربي وبعد فترة قصيرة ظهر زورق نصف مسطح سوفيتي وهنا أخذ الأسرى يتمتمون ببعض الكلمات . ولكي أربح الوقت طلبت منهم تضميد جراح رفيقهم ، ومسكت بالمجذاف وأنا في حالة الاستعداد للقتال ، عندها فهموا أني أنتظر إقتراب الزورق أخذوا يصرخون علي وواحد منهم رفع

مسدسه ، وكان يحمل هو ورفيق آخر صليبين حديديين وفي تلك اللحظة وصل الزورق وهو على اتم استعداد ، ووجه بحارته مسدساتهم الرشاشة نحو ركابي . وبالإشارة أمرت الألمان الثلاثة بتخفيض أسلحتهم للأسفل ورفع أيديهم في الهواء وهكذا استطعنا نزع سلاح ثلاثة طيارين فاشيين ، كانوا يعملون كما علمت فيما بعد في سرية استطلاع جوي خاصة » .

يجب أن أسجل قبل إنهائي هذه الفقرة عن المعابر بعض الأرقام : ففي النصف الثاني من تشرين أول وحتى تجمد النهر وظهور السدود الجليدية تم عبر النهر نقل ٢٨ ألف شخص ، وثلاثة آلاف طن من الذخيرة . وحمولات أخرى وعلى الفولغا المتجمد ، اعتباراً من لحظة تماسكه حتى نهاية العمليات مر على الجليد فوق النهر ١٨ ألف سيارة و ٢٦٣ آلية ذات سلاسل (جرار - دبابة) و ٣٢٥ قطعة مدفعية و ١٧ ألف عربة



تشكلت الخدمات الصحية في الجيش ٦٢ مع تشكل الجيش في ربيع عام ١٩٤٢ . وكان يصل إلى المؤسسات الطبية للجيش والأقسام والوحدات الكبرى طاقم صحي من الشباب ، دون تجربة خاصة ودون خبرة عسكرية كافية . كما وصلت الأغلبية الساحقة من الرجال الذين كانوا يعملون في المجال الصحي ، والأعوان من الاحتياط . ولم تكن المراكز الطبية التابعة للأقسام والوحدات الكبرى والمؤسسات الطبية للعلاج والصحة التابعة للجيش مجهزة تجهيزا كافيا بالطواقم الضرورية ولا حتى بتجهيزات المنامة ... إلخ

لذلك كانت الخدمات الصحية في الجيش بحاجة إلى كل شيء وتنقصها كلياً وسائط النقل الصحي ، ولم تكن توجد في الجيش سرية دعم طبي ، ولم يكن لدى مؤسسات الإخلاء والتمريض في الجيش سوى ٢٣٠٠ سرير نظامي .

كانت الخدمات الطبية للجيش تحت قيادة رئيس القسم الصحي العقيد في الخدمة الصحية ميخائيل بروكوبيفتش بويكو .

تعرفت عليه في المدينة عند أحد معابر الفولغا بعد وصوله للجيش مباشرة ، متوسط القامة متحفظ في كلامه ولقد أعطاني حالاً إنطباعاً جيداً عنه . ومن مكانه على المعبر كان يقود عمل الممرضين المكلفين بإخلاء الجرحى للضفة

الاخرى من الفولغا ، وعندما كنت أراقب نشاطه تبين لي أنه رجل يتمتع بإرادة حديدية مستعد فى كل لحظة للقيام بهجوم معاكس بالقنابل والرشيشات ، منظم جيد يعرف عمله ويتقنه إنه شيوعي منضبط . كان ذلك أول إنطباعاتي عن بويكو ولم يتغير ذلك حتى نهاية الحرب .

وعلى العموم توجد في الحرب دائما أشياء ناقصة وأشياء غير كافية ، بويكو يعرف ذلك تماما ويعرف الموقف بدقة أفضل من رؤساء الخدمات الآخرين ولم يتذمر أبدا من الصعاب التي كانت تعترضه .

في إحدى المرات ونحن في غمرة أشد المعارك ضراوة في قطاع المعركة حيث كانت حياة كل جندي محسوبة . أخذ يحثني بالحاح وإصرار على ضرورة إعطاء الاوامر لقادة الفرق والالوية بتهيئة المخابيء المغطاة والملاجيء المدفأة للمراكز الطبية . كان ذلك في أيلول والطقس معتدل بل حار ولم يكن هناك من يفكر بالبرد ، لذلك أخذنا نبني الملاجيء المدفأة منذ ذلك الوقت . وساعدتنا هذه الملاجيء المغطاة والمدفأة في تشرين الثاني وكانون الاول على إنقاذ حياة آلاف الجنود .

كتب رئيس الإدارة الطبية الرئيسية في وزراة الدفاع العقيد الجنرال (الطبيب) و. سميرنوف بخصوص عمل خدماتنا الطبية في الجيش في كتابه « مسائل طبية عسكرية » .

« جعل وجود حاجز مائي كبير كالفولغا بين خطوط القوات من الصعوبة بمكان تأمين العناية الطبية وإخلاء الجرحى إلا في الليل . وتحت نيران حامية من هاونات ومدفعية العدو . وكانت الخدمات الطبية العائدة للجيش تعمل ليس فقط تحت نار الهاونات والمدفعية العدوة . ولكن تحت رمي مباشر من أسلحة الرماة الألمان .

من غير الممكن التكلم في هذه الظروف عن حالات البطولة والبسالة والشجاعة الفردية . لأنها كانت في الواقع بطولة جماعية وشجاعة أظهرها كل العمال الأطباء في الجيش ٦٢ بخاصة » .

كرسنا كل جهودنا لإقامة تنظيم أفضل لخدمة إخلاء الجرحى . فوزعنا النجدات الطبية للحالات العاجلة في مستشفيات الميدان المتنقلة . فكل الجرحى والمرضى عدا الذين لا يمكنهم الإنتقال ، نقلوا إلى المؤخرات وهناك كانوا يتلقون عناية طبية ممتازة .

أما الجرحى والمرضى الذين يحتاجون لعناية طبية طويلة الأمد فقد نقلوا إلى استراخان عن طريق الفولغا وإلى لينينسك وايلتون عن طريق سكة الحديد .

أنجز العمال الأطباء في مستشفى الميدان المتنقل رقم ٥٤ عملاً متعباً وتحملوا مسؤولية جسيمة .

كنا عمليا نتلقى الجرحى القادمين من مختلف الاتجاهات ، وكذلك المرضى القادمين من الجبهة .

كل ذلك كان يجري مع غارات الطيران المعادية المتواصلة ، وقد دمر قسم كبير من مركز الإخلاء رقم ٥٤ والمستشفى الميداني المتنقل رقم ٨٠ وقتل أربعة عشر من رجال المستشفى رقم ٨٠ وجرح اخرون وأصيبوا برضوض .

كان على الخدمات الطبية للجيش الأخذ بعين الاعتبار خواص الموقف العسكري ، وتشكيل مجموعات ومفارز الانقضاض فالخدمة الطبية للجيش كانت مجبرة للتفتيش عن شكل جديد من النجدة الطبية ، وتكون أقرب ما يمكن من مواضع القتال . لذلك كُرس انتباه زائد وخاص للاعتناء بالكوادر الطبية في الانساق الدنيا من الخدمة الصحية : الفصائل ـ السرايا ـ الافواج وتجهيز هذا النسق بالتجهيزات الضرورية . وألحق أشخاص مساعدون في مجموعات ، ومفارز الانقضاض ، لكي يتم إخلاء الجرحى من الحاميات المعزولة الصغيرة مباشرة بعد تقديم العناية الأولى في مكان المصابين . لهذا السبب كان الممرضون والموجهون الصحيون موجودين دائما في تشكيلات القتال وفي الحاميات ومجموعات الانقضاض ونقاط الاستناد .

لقد هيأ مساعدو «الأطباء في الأفواج» ، مراكز للنجدة الطبية وراء خطوط الفوج في مختلف المخابىء والتحصينات ، والملاجىء تحت الأرض ، والأقبية ... الخ لتقديم العناية الأولى للجرحى .

تمركزت في المخابىء في أسفل ضفة الفولغا العالية خدمة استقبال وتوزيع المرضى والجرحى ومراكز العمليات والتضميد . وحجزت أماكن خاصة للذين لا يمكن نقلهم ، ولتركيز المجموعة الجراحية لفرقة المشاة ٣٩٠ استخدمت سراديب المناجم ، وقد حضر ممر مغطى من أجل فصيل المستشفى التابع للمجموعة الجراحية لفرقة الجنرال روديمتسيف . وربما يكون أشد الأجزاء صعوبة في عمل الخدمات الطبية العائدة للجيش هو إخلاء الجرحى للضفة الأخرى من الفولغا ، لأنه لم يكن لدينا وسائط خاصة ، وكنا نستعمل على

العموم سفرات العودة للأسطول النهري ، الذي كنا نؤمن عليه وصول الأشخاص والذخيرة والحمولات الأخرى للمدينة .

شكلت الأفواج الصحية في بداية أيلول ، ولم يكن لدينا الامكانيات لتأمين إخلاء تام ، وغير متقطع للجرحى ، إلا بعد أن وجه تقريبا كل رجال الخدمات الطبية والصحية التابعة للجيش للعمل على المعابر ، ولم يبق مهمة أخرى لهذه الأفواج الصحية إلا تأمين خدمة المعابر بواسطة مراكب الفرق .

حسب اقتراح العقيد بوبكو أوكل المجلس العسكري في ١٧ أيلول ١٩٤٢ لمدراء مراكز الاخلاء ٤٥ والمستشفى الميداني المتنقل رقم ٦٨٩ خدمة معابر الفولغا فقط .

كان مركز الاخلاء يحتل أقبية ومطعم محطة التفريغ المركزية على الفولغا ، وكان يستقبل القسم الأكبر من مجموع الجرحى بعد أن أخذ عددهم يتضخم ساعة بعد ساعة ، ولكن عندما بدأ العدو هجومه على محطة الإنزال المركزية وعلى مراكز الإخلاء أصبح مركز هؤلاء حرجاً جداً ، فقد ركز الألمان بالقرب من تمثال خولوزونوف ، على طريق المحطة المركزية رشاشاتهم ، وتحصن الرماة من حملة المسدسات الرشاشة في غرفة المحول الكهربائي وفي منازل المهندسين ، وهكذا أصبح مركز الاخلاء محاصراً . ولم يعد بإمكان الجرحى والعناصر الطبية خلال عدة أيام الخروج من القبو لكي يصلوا إلى الرصيف .

أرسلت في الخامس والعشرين من أيلول المراكب المدرعة لنجدة مركز الاخلاء وفتحت طريقها وهي تقاتل نحو الرصيف . وأبعدت العدو عن الضفة وأخلت الجرحى الذين كانوا لاجئين إلى القبو .

كما أرسل الجنود من مختلف مراكز القتال لنجدة العناصر الطبية ونقلوا الجرحى الخطرين إلى المراكب .

تم في هذه الظروف إخلاء (٧١١) شخصاً من المطعم في ٢٥ أيلول و ٥٥٠ في ٢٦ أيلول وفي ليل ٢٧ وصل العدو تقريباً وأصبح بتماس مع بناء المطعم ، وتحت تغطية من نار المراكب المدرعة ، أخلي آخر الجرحى والعتاد من المطعم ، كما نقل مركز الاخلاء في نفس السفرة إلى الضفة اليسرى ، وبعد ساعتين احتل رماة المسدسات الرشاشة الألمان المطعم .

كان رجال مستشفى الميدان المتنقل رقم ٦٣٩ قلة ، ويعملون في ظروف

صعبة جدا يستقبلون ويخلون يومياً بين ٦٠٠ ـ ٨٠٠ جريح إلى الضفة اليسرى من الفولغا ، وعندما دمر العدو بغاراته قسم العمليات ، أقام الجراحان كيرفونوس ونانتشكنو مركزاً مؤقتاً ، تحت سقف مقلوب لبراكة كبيرة ، حيث وضعا تحته الطاولات وكانا يجريان عليها العمليات الجراحية المستعجلة .

إني أتذكر مستودع المياه القريب من شاطىء الفولغا جنوب منفذ وادي باني . ففي أحد الأيام كنت ماراً على الضفة ووراء حائط أحد الأبنية المهدمة ، شاهدت مجموعة من الجنود والضباط يحشرون أنفسهم وراء الحائط . أدركت وأنا اقترب منهم أنهم من الجرحى ذوي الجراح الخطرة ، كان كثير منهم يجرون أنفسهم وبعضهم كانوا محمولين من قبل الممرضين على المحفات . ولكن لماذا هم هنا وراء الحائط ؟ ألا يوجد مكان في القبو ؟

فتحت الباب ونزلت القبو بسلم حديدي ضيق . وفي جو خانق مفعم برائحة الاتير وبأنين الجرحى ، وفي أسفل السلم وفي مكان سعته عشرة أمتار مربعة تقريباً . وعلى الأرض الاسمنتية كان الجرحى يتحركون ـ عشرة أشخاص يقفون على صفين .

اقتربت من الباب أو بالأحرى من ستارتين تغطيان الباب ، وراء ذلك يوجد مصباح يشع نوراً قوياً . كانت هذه غرفة العمليات . كان هناك جريح ممدد على الطاولة وثلاثة أشخاص بأرديتهم البيضاء ينحنون عليه ، وعلى طرف الغرفة وعلى عارضة من الحديد المدبب ، كان هناك موقد لتسخين المياه الموجودة في القصعة .

كانت أردية الأطباء فيما مضى طبعاً بيضاء ولكنها الآن أصبحت مغطاة ببقع بنية والياقات فقط التي كانت لا تزال محتفظة ببياضها .

وعلى طاولة صغيرة بقرب الحائط يوجد دفتر كبير . كان هو السجل الإحصائي للعمليات ، وآخر رقم مسجل كان بأرقام ثلاثة .

ـ من قام بعمل كل هذا ومتى ؟ طلبت منهم مظهراً العدد بأرقامه الثلاثة . وهذا يعني عدد العمليات التي أجريت .

ودون أن يجيب ، وجه الطبيب نظرة نحو الممرضة التي كانت بقرب الطاولة ، كان ذلك واضحاً تماماً . لأنني عندما ركزت انتباهي على الخط وجدت أن كل الأرقام مسجلة بخط يد واحدة .

كان ذلك الطبيب ، هو رئيس جراحي مستشفى الجيش الميداني الجراح

ايزنبورغ مع مساعديه الاثنين ، وهو الذي نظم الخدمة ، وقام بعمل أكثر من مائتي عملية جراحية .

وقد قرر المجلس العسكري للجيش منح الأوسمة لكل مجموعة ايزنبورغ .

في بداية تشرين الأول تم إخلاء الجرحى على جسر مبني من المواد المتوفرة في جزيرة زاتيسيفسكا حيث كانت متمركزة المجموعة الطبية للفوج الصحي رقم ١١٢ ، والمجموعة الثانية من مركز الاخلاء رقم ٥٤ ، أما الجرحى الخطرون فكانوا ممدين على المحفات فوق رصيف المراكب الواقع على بعد ٢كم وقد تم إرسالهم إلى المؤخرة .

وفي زمن تجمد النهر نقلت أمكنة الأرصفة المخصصة لاخلاء الجرحى في مختلف القطاعات حسب حالة وقوة الجليد ، وقد نظمت أيضاً ممرات « طائرة » لإركاب الجرحى ، كان يتم في الأماكن التي تستطيع فيها الزوارق المدرعة أن ترسو بقربها على الشاطىء .

نظم أيضاً في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني ، مركز استقبال وتغذية وتدفئة للجرحى في محطة الإنزال توماك ، على الضفة الشرقية لنهر الفولغا . وهناك قسم من المستشفى ٦٨٩ مع غرفة عمليات وتضميد للاعتناء بالجرحى والمرضى الذين لا يمكن نقلهم .

قدم مركب محطم للجليد ، خدمات كبرى لنقل الجرحى إلى الجهة الأخرى من الفولغا ، ولكن بعد عطبه أصبح غير صالح ، حلت محله مراكب مقطورة .

من الصعب جدا في ذلك الوقت إخلاء الجرحى من عناصر فرقة ليودنكوف ، التي عزلت عن مركز الجيش وكانت تدافع عن مساحة صغيرة من الأرض في قطاع مصنع باريكادي .

وغالبا ما تضطر المراكب المدرعة أن تقاتل حتى يتسنى لها الاقتراب من مواقع الفرقة ، وكثيرا من الأوقات لم تكن تستطيع الوصول إلى الهدف . وكان على سطح كل مركب مكلف بفتح طريق نحو الفرقة طبيب مساعد . أو ممرضة أو ممرضتان لحمل المحفات ، وكانوا يقومون بإركاب الجرحى والمرضى في المعبر ويقدمون لهم العناية الضرورية أثناء الطريق . ولكي يبقى الجرحى ينعمون بالدفء يوجد دائما على السطح أغطية ومدافىء حرارية .

عين الطبيب العسكري من الدرجة الثانية سيرديوك لتأمين إخلاء الجرحى بالفولغا في زمن تجمد النهر والإتصال مع الخدمات الطبية للعناصر والوحدات .

رأيت الرفيق سيرديوك لأول مرة عندما احترقت مخابىء القيادة المغطاة وعندما كان البترول الملتهب يهدد المراكب المخصصة للإخلاء بالتهامها استطاع سيديوك فصل المراكب عن الأرصفة الملتهبة وقادها خارج مجال النار .

كما تم فصل المعديات الخمسة بجرأة ، وكان سيرديوك بصوته الناعم الصلب يعطي التعليمات والأوامر . ولأول وهلة ظننته القائد الجديد لمحطة الإنزال ، وقد سررت لذلك ، ولكن القائد ذهب لإعادة النظام في أرصفة الركاب والتفريغ وعندما اقتربت منه شاهدت على ياقته إشارة الطبيب .

شاهدني سيرديوك وقدم نفسه :

ـ الطبيب العسكري من الدرجة الثانية سيرديوك ، أعطى أوامري على المعبر .

وقد صافحته وهنأته من كل قلبي قائلاً له :

ـ أيها الشجاع ، كن دائماً هكذا كطبيب ، وكرجل !

في تلك اللحظة ارتفع حاجز من تراب ورمل بسبب انفجار الألغام الألمانية قرب الأرصفة .

ظل سيرديوك في مكانه دون حراك ، كان رجلاً ذا إرادة حديدية ـ كما أظن ـ مشى سيرديوك من الفولغا إلى نهر سبريه ، وأنهى الحرب في برلين .

عندما غطى الجليد الفولغا أصبح بالإمكان تكليف الأفواج الصحية بالاعتناء الاول والاخلاء للفرق التي كانت تتحمل بنفسها طريقة الإخلاء للجرحى على قاعدة مستشفيات الجيش .

اما الجرحى الذين كانوا يتطلبون اعتناءاً خاصاً وطويلاً فقد كانوا يرسلون إلى مستشفيات الجيش الميدانية أو إلى مستشفيات النسق الاول على بعد ٤٠ ـ ٦٠ كم .

وقد ساعد إخلاص الأطباء العسكريين الذين كانوا في الخطوط الأولى الجيش ٦٢ على تحقيق مهمته القتالية .

☆☆☆

معركة « كان » القرن العشرين

١

عندما كانت المعارك الضارية تدور في ستالينغراد . كانت القيادة السوفيتية تنجز عملاً ضخماً ، وهو التحضير للهجوم المعاكس الذي ستقوم به قواتنا . ويعود الفضل في نتائج هذا التحضير للقيادة العليا ، وكما كتب مارشال الاتحاد السوفيتي فاسيليفسكي:« قدم في ١٣ تشرين الثاني مخطط دقيق من قبلنا « ا . فاسيليفسكي ، و ج . جوكوف لاجتماع المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب وإلى الستافكا وخلاصته باختصار « زج العدو بالقوات الرئيسية لكل من الجيش السادس والجيش المدرع الألمانيين ـ كما هو الحال في السابق ـ في معركة طويلة في قطاع المدينة ».

وعلى أجنحة هذه القوات « يعني على محور جهدنا الرئيسي » بقيت القوات الرومانية تعمل . ولم يلاحظ في المدة الأخيرة ، وصول أي احتياط معادٍ « قل أو كثر » ، قادم من المؤخرات البعيدة باتجاه المدينة ، كما لم يلاحظ هناك أي تجمع جديد لقوات العدو ، حتى ولو كانت أهميتها قليلة للعمل في ذلك الاتجاه وبشكل عام ، وحسب المعلومات الموجودة تحت تصرفنا ، فقوى الطرفين كانت متساوية في بداية الهجوم باتجاه ستالينغراد ، وعلى محور الجهد القادم لجبهاتنا ، وبفضل وصول احتياطات الستافكا . وإضعاف المحاور الثانوية من الممكن تشكيل مجموعة صدمة قوية تتمتع بتفوق كاف في القوى تستطيع معه التوصل إلى إحراز نصر أكيد محقق .. وقد استوعبت قواتنا مهماتها القتالية بدقة ، وتنفيذها عملياً وضع قيد العمل كل في موقعه .

يتوقع في نهاية اليوم الثالث أو الرابع من العملية ، إتصال القوى المدرعة والآلية لجبهتي جنوب ـ غرب وستالينغراد في قطاع كلاتش . ويجب أن تحكم هذه العملية نطاق التطويق على مجموعة القوى الرئيسية للعدو في قطاع ستالينغراد .

يمكن أن تبدأ جبهات جنوب ـ غرب والدون هجومها بين ١٩ ـ ٢٠ من الشهر ، أما جبهة ستالينغراد فيمكن أن تبدأ في ٢٠ تشرين الثاني »

« بعد مناقشة الستافكا لعدد من المسائل ، تمت الموافقة النهائية على خطة العمليات والمهلة المحددة .

وقد تلقى ج . جوكوف بعد ذلك مهمة تحضير عملية إشغال على جبهة كالينين ، وبريانسك . وقد كلفتني الستافكا بتأمين تنسيق الأعمال باتجاه ستالينغراد ، أثناء تنفيذ الهجوم المعاكس . وقبل عملية من أكبر العمليات العسكرية في تاريخ البشرية التي لم يبق على بدايتها إلا بضعة أيام .

كانت نسبة القوى والوسائط بين الطرفين في بداية الهجوم المعاكس باتجاه ستالينغراد حسب الجدول التالي :

القوات المشاركة	عدد الأشخاص بالآلاف	المدافع والهاونات	الدبابات ودبابات الانقضاض
(١) في منطقة جبهة جنوب-غرب			
-قوات سوفييتية	٣٩٩,٠	٥٨٨٨	٧٢٨
-قوات معادية	٤٣٢,٠	٤٣٦٠	٢٥٥
النسبة	١ : ١,١	١,٤ : ١	٢,٨ : ١
(٢) في منطقة جبهة الدون			
-قوات سوفييتية	٢٩٦,٧	٤٦٨٢	٢٨٠
-قوات معادية	٢٠٠,٠	١٩٨٠	٢٨
النسبة	١,٥ : ١	٢,٤ : ١	١ : ١
(٣) في منطقة جبهة ستالينغراد			
-قوات سوفييتية	٤١٠,٤	٤٩٣١	٤٥٥
-قوات معادية	٣٧٩,٥	٣٩٥٠	١٤٠
النسبة	١,١ : ١	٢,٤ : ١	٣,٢ : ١
(٤) النسبة العامة			
-قوات سوفييتية	١١٠٦,١	١٥٥٠١	١٤٦٣
-قوات معادية	١٠١١,٥	١٠٢٩٠	٦٩٥
النسبة	١,١ : ١	١,٥ : ١	٢,١ : ١

كما يظهر في هذا الجدول كان التفوق بين القوات السوفيتية وبخاصة في المدفعية والدبابات وكان لهذا أهميته الكبرى الحاسمة في الهجوم المعاكس .

استطاعت القيادة العليا السوفيتية أن تحشد بنجاح الاحتياط الضروري الذي كان مفاجأة للعدو .

كان عدد الطائرات لدى المعسكرين متقاربة تقريباً . ولكن خلال أشهر أيلول وبخاصة تشرين الأول السابق نفذت تماماً موارد العدو من السلاح الآلي وبخاصة المحروقات ، وكان وضع الطائرات السوفيتية في هذا المجال أفضل عما هو عليه لدى الألمان .

أما بالنسبة للجيش ٦٢ ففي ٩ تشرين الثاني كان عمق ترتيبه القتالي لا يتجاوز كيلومتر،فمن الخلف الفولغا ومن الأمام العدو وبينهما منطقة ضيقة من خرائب المدينة ، وفيها خندقت وحداتنا .

وعلى الجناح الأيمن لكبد الجيش كانت تعمل فرقة ليودنكوف المطوقة والمحشورة على الفولغا وتحتل قطاعاً دفاعياً أقل من كيلومتر مربع .

وعلى الجناح الأيسر كانت فرقة مشاة الحرس ١٣ تحتل شريطاً ضيقاً على طول الضفة بعمق مائتين إلى ثلاثمائة متر ، أما أركان الجيش فكانت موجودة في نقطة إتصال فرقة الحرس ١٣ وفرقة المشاة ٢٨٤ على بعد ٨٠٠ ـ ١٠٠٠ متر من الخطوط الأولى ، أما مرصدنا فكان هو الآخر قريباً جداً ويقع على الخط الحديدي الذي يلف كورغان ماماييف من الغرب تماماً ، أمام أنف العدو . لقد كانت جبهة قتال الجيش البالغ طولها نحو خمسة عشر كيلومتراً تقع كلها تحت نيران العدو ومدفعيته وأي مكان في عمق مواضعنا القتالية يمكن أن (يكنس) بطلقات الرشاشات . لذلك فالحياة في هذا الموقع الضيق كانت أيضاً معقدة بسبب أن قمة كورغان ماماييف الذي كان يسيطر على المدينة وأكثر تحديداً مستودعات البترول والمرتفع ١٠٧,٥ جميعها كانت بيد الأعداء .

فمن هناك بالاستطاعة رؤية كل مداخل الفولغا من الجهة الشرقية يعني أنه لم يعد بالامكان إيصال الذخيرة والتجهيزات والغذاء إلى المدينة إلا في الظلام .

من الطبيعي عدم إمكانية تدبير مثل هذا الموقف حتى الأخير . وقد فرض على الجيش أن يقوم في المقام الأول بمهمتين : تحقيق الإتصال مع فرقة ليودنكوف وذلك بتدمير العدو الذي نفذ على الفولغا ، واحتلال كورغان ماماييف والمرتفع ١٠٧,٥ بشكل يستطيع معه بعد تعريض منطقة الدفاع التي كانت

مساحتها أربعة كيلومترات ونصف ، طرد العدو من مراكز مراقبته وأماكن اقترابه من الفولغا .

وللقيام بهذا العمل كان من الضروري تأمين القطعات بالرجال والذخيرة الضرورية وتجهيز الجيش بالدبابات .

خلال المعارك الضارية في المدينة رفضت الستافكا وقيادة الجبهة أن تعطينا شيئاً قبل الهجوم المعاكس ، ويفهم من هذا أنهم لن يمدونا بقوات جديدة أو دبابات ، كما أصبحنا نتلقى القذائف والألغام والطلقات بكميات محدودة .

من الضروري إذن تعبئة كل الموارد المتوفرة ، والقيام بخاصة بعملية تعبئة الصفوف عن طريق الجزحى المعافين الذين يريدون الالتحاق بوحداتهم والعودة إلى مدينتهم ، فالاحترام الذي يتمتع به الجيش ٦٢ جعله محبوباً من كل الرفاق القدامى .

وعلينا أيضاً عدم الإلحاح بإيصال الذخيرة وإرسال التعزيزات بالدبابات فعقبات كثيرة كانت تعترضنا كالسابق بالنسبة لنقل الحمولات عبر الفولغا وسيظل النهر مغلقاً بقطع الجليد بين ١٢ تشرين الثاني حتى ١٩ كانون الأول . وفي بضعة الأيام التي تلت لم يعد بإمكان زورق مدرع أو بخاري فتح طريقه عبر الجليد .

كان الضباب يغطي المنطقة صباح ١٩ تشرين الأول ، ومن المحتمل أن يكون ذلك اليوم أكثر الأيام صعوبة لعمليات العبور فلا يمكن لأي شخص أن يصل من الضفة الأخرى .

لم نكن نستطيع أن نقوم بأي عمل أو حتى أن نكّون فكرة حسب نشاط الطيران - كالعادة - عما يفكر به العدو .

لقد خرجت من المخبأ من الساعة المحددة بالأمر للهجوم ، ولم يكن لدي أي أمل أن يصل دوي المدفعية إلينا ، كان الجو مظلماً أيضاً وكل شيء كان غارقاً في مستنقع من الضباب البني الكثيف .

الساعة السابعة وعشرون دقيقة :

انتظار مضني وخانق ، على الأقل بعض الاشارات ... وبعض الايضاحات عما يجري وسيجري ؟

تأخر ارتفاع الفجر : الضباب الكثيف لم ينقشع - فأل سيء - وبخاصة كان الضباب باتجاه الهجوم لا يزال الضباب يلقي بكلكله ،ومن الصعب القيام بتمهيد

المدفعية على أهداف منتخبة ولا يمكن للطيران العمل .

بدأ الضباب ينحسر في الظهر ويتوسع حقل الرؤيا شيئاً فشيئاً والجليد في نهر الفولغا يدور ويتلاطم محدثاً ضجة كبيرة وهو ينحت الشاطىء المتجمد .

ظهرت اشارات تدل على أن الأمور لا تسير نحو الأفضل لدى العدو ولا توجد في السماء أية قاذفة ألمانية إلا طائرة إحكام تسديد المدفعية ، حلقت لبعض الوقت فوق مواقعنا وعادت ، والظاهر أنها استدعيت هي الأخرى .

ولكن ماذا أيضاً ؟ من الضروري أن نفي بالتزاماتنا ، بدأنا بتحضير الاحتياط للقيام بنجدة فرقة ليودنكو ، وتكثيف أعمال مجموعات الانقضاض .

رن في المساء الهاتف.كان من قيادة الجبهة . لقد أبلغني « ايرمنكو » أن الهجوم بدأ،ولكن ظل التاريخ المحدد لهجوم جبهة ستالينغراد على حاله دون تغيير وهو ٢٠ تشرين الثاني ..

أخذت اللحظة التي ستبدأ فيها قواتنا هجومها الكبير المنتظر تقترب بسرعة .

وكما كان مقرراً ففي الساعة ٧,٢٠ من ١٩ تشرين الثاني ، وضعت المدفعية والهاونات التي حشدت على مختلف القطاعات التي تقرر فيها الاختراق وعلى جبهة طولها الكامل ٢٨ كم بحالة الاستعداد وفي الساعة ٧,٣٠ أعطيت إشارة فتح النار وبذلك بدأت ٣٥٠٠ فوهة مدفع وهاون تفرغ على العدو آلاف الأطنان من الحديد والمتفجرات خلال ساعة كاملة لرمي التدمير وعشرين دقيقة لرمي الابطال .

ولأول مرة خلال الحرب الوطنية الكبرى قامت قواتنا بضربة بمثل هذه القوى وبهذا العنف .

لقد كبدت نيران المدفعية العدو خسائر رهيبة أطارت صوابه .

وفي الساعة ٨,٥٠ إندفعت بالهجوم فرق المشاة التابعة للجيش المدرع الخامس والجيش ٢١ تدعمها دبابات المرافقة التابعة للمشاة .

حققت المجموعة المتحركة من الجيش المدرع الخامس المؤلفة من الفيالق المدرعة ١ و ٢٦ في منتصف اليوم الأول من الهجوم خرق الدفاع التكتيكي للعدو (المخطط رقم ٣) ، واندفعت في الثغرة المفتوحة قوات الخيالة التابعة لفيلق الخيالة الثامن ، وأخذت المعارك تدور في عمق دفاع العدو ، وبعد أن تمكنت القوات السوفيتية التغلب على مقاومة العدو بدأت بتطوير هجومها بنجاح تام .

كيف استقبل أركان فون باولوس ذلك اليوم ؟

لقد شن فون باولوس أيضاً هجوماً بتاريخ ١٨و ١٩ تشرين الثاني على ستالينغراد ، وفي كتابه « معركة ستالينغراد » كان هانز دوير شاهد عيان على ما تم في ذلك اليوم في الجيوش الألمانية ويقول دوير :

« لم يكن الجيش السادس الألماني في ذلك اليوم (١٩ تشرين الثاني) مقتنعاً حتى ذلك الوقت بالخطر الداهم الذي أخذ يحيط به ، لذلك لم تر قيادته فائدة من إتخاذ أية تدابير حاسمة ، وعلى العكس فقد أعلنت قيادته أن لها رغبة في متابعة نشاط عناصر الاستطلاع في ستالينغراد اعتباراً من ٢٠ تشرين الثاني ، وقد ظل الوضع على حاله حتى الساعة ٢٢ من نفس اليوم عندما وصل أمر قائد مجموعة الجيوش (B) البارون فون ويشز .

جدد فون ويشز أمره على الشكل التالي :

« نحن مجبرون ، نظراً لتطور الموقف على جبهة الجيش الروماني الثالث على القيام بتدابير جذرية لتحرير القوى الضرورية لتغطية جناح الجيش السادس بالسرعة الممكنة ، وتأمين تموينه عن طريق سكة الحديد في قطاع ليخايا « إلى الجنوب من كامنسك ـ شافتنسكي وتشير » .

لذلك آمر بما يلي :

١ ـ إيقاف كل العمليات الهجومية فوراً في قطاع ستالينغراد عدا أعمال عناصر الاستطلاع العادية الضرورية لتنظيم الدفاع .

٢ ـ يفرز الجيش السادس فوراً من قواته ، وحدتان آليتان ، وفرقة مشاة ـ وإذا أمكن ـ وحدة آلية مساعدة تلحق بأركان الفيلق المدرع ١٤ ، تدعمها أكبر كمية ممكنة من وسائط الدفاع المضاد للدبابات . وتتمركز هذه المجموعة على أنساق وراء جناحه الأيسر بهدف القيام بضربة باتجاه الشمال الغربي والغرب » .

حسب شهادة ـ شاهد العيان هذا ـ أن الجيش السادس حتى صدور أمر فون ويشز ، لم ينذر ، ولم يدرك الجنرالات الألمان ، حتى ذلك الوقت أن نهايتهم بدأت تدق ساعتها .

كان الليل يمر والساعة التي ستقوم بها جبهة ستالينغراد بهجومها أخذت تقترب .

ولكن على الفولغا والسهوب الممتدة على شاطئيه كان الضباب ينتشر من جديد بشكل كثيف بعد ليل تفاوتت فيه درجة البرودة من حالة التجمد إلى درجة

أقل منها ، كما أخذ الثلج يتساقط مع ظهور الفجر ، ومرة أخرى لم يكن باستطاعة طيراننا دعم الهجوم .

كان على جبهة ستالينغراد زج قوات جارنا الجيش ٦٤ والجيش ٥٧ في المعركة ، وكان على الجيش ٥١ الهجوم على الجناح الأيسر مع الفيلق المدرع الثالث عشر بقيادة العقيد تاناستاشيشين ، أما الفيلق المدرع الآلي الرابع بقيادة جنرال المدرعات فولسكي فكان عليه تطوير الهجوم مع عمق العدو ، هو وفيلق الخيالة الرابع بقيادة الجنرال شابكين ، الذي كان يتألف جميعه من فرسان جمهوريات اسيا الوسطى قازاق ، قيرغيز ، أوزبك ، تاجيك وتركمان .

لم يبدأ الضباب بالانحسار حتى الساعة العاشرة صباحاً ، مما اضطر قائد الجبهة ايرمنكو لتأجيل بداية تمهيد المدفعية عدة مرات .

وفي الساعة التاسعة والنصف فتحت المدافع والهاونات أفواهها وانطلقت النيران .

كانت الضربة الموجهة للعدو بعيدة حوالي ٦٠ ـ ٧٠ كم عن مركز قيادة الجيش ٦٢ في قطاع بحيرة ساريا ، وقد دارت في المدينة أيضاً معركة حامية قامت بها مجموعاتنا المنقضة .

ظلت قيادة الجبهة بين ١٩ ـ ٢٠ مهتمة جدا بتصرف العدو ، وكانت تسأل فيما إذا كان يسحب قواته من المدينة ؟

وهنا عليّ أن أقول بأنه ولو حاول فون باولوس إتخاذ مثل هذا القرار فمن الصعب عليه تنفيذه ، فعليه فك الاشتباك مع الخصم والتخلص بانسحاب منظم مسبقا والمعركة في شوارع المدينة شيء مختلف عن غيره بالإضافة إلى ذلك ، فالمواقع في المدينة كانت متشابكة ، ونقاط استنادنا الدفاعية ، ونقاط استناد العدو كانت متقاطعة فيما بينها كرقعة الداما .

لم يكن هناك ما يسمح بتحديد تصرف العدو حتى منتصف نهار ٢٠ تشرين الثاني .

أظهرت الوثائق التي وقعت بين أيدينا بعد الحرب أنه لم يكن لدى أركان الجيش السادس حتى بعد مساء اليوم الذي صدر فيه أمر فون ويشز ، وحتى منتصف يوم ٢٠ تشرين الثاني القناعة باتساع وعظم الكارثة المرتقبة ، ولم يكن لدى فون باولوس الوقت لإلغاء الهجوم الذي كان مزمعاً القيام به في ٢٠ تشرين الثاني وفعلاً قام بالهجوم .

زج الفيلق الآلي الرابع في الساعة ١٣ في الثغرة المفتوحة ، ثم إندفع في الساعة ١٦ الفيلق المدرع الثالث عشر في عمق دفاع العدو المعادي أمام قطاعه الخاص ، ثم إنطلق في الساعة ١٢ فيلق الخيالة الرابع عشر أثر الفيلق الآلي الرابع لتطوير الهجوم باتجاه الغرب .

جمع فون باولوس في النصف الثاني من يوم ٢٠ تشرين الثاني أركانه تحدث عن الخطر الجدي الجديد الذي يحيق به ، وتوقع تدهور الوضع وظهور موقف حرج أمام قواته ورغم ذلك ظل حتى ذلك الوقت متحفظاً ولم يتوصل الجنرالات الألمان إلى معرفة وتقدير ما يحدث ، ضمن هذه البلبلة بعد إنقطاع خطوط الإتصال والمواصلات ، وفي هذه الظروف التي لم يعتد عليها هؤلاء .

بدأت في مساء ٢٠ تشرين الثاني تصل إلى فون باولوس الأخبار عن تراجع كامل للوحدات الرومانية مع قوات الاحتياط الألماني أيضاً .

ورغم أن فون باولوس غيّر مكان قيادته ، إلا أنه اضطر في ليل ٢١ ـ ٢٢ تشرين الثاني للتفتيش بسرعة على مكان أكثر هدوءاً وأمناً .

لم يكن لدى أركان الجيش ٦٢ حتى مساء ٢٠ تشرين الثاني معلومات دقيقة عن الموقف في مناطق هجوم قواتنا واكتفت القيادة بإرسال نشرة تقول فيها بأن الجميع أي (جميع القوات السوفيتية المهاجمة هي بحالة الحركة) ، وقد شددت القيادة على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار خطر تسرب المعلومات إلى الخصم .

لم يبق لدينا شيء للعمل سوى تثبيت العدو في المدينة بقواتنا الضعيفة ، وكنا ننتظر وصول القوات المهاجمة من الشمال .

مر يوم ٢١ تشرين الثاني دون أي تغيير في المدينة .

تتابعت حالة التجمد في الفولغا . ولم تعد المعابر تعمل مطلقاً : وضباب كثيف ينتشر في كل مكان مع تساقط الثلوج من حين إلى آخر ولم يعد طيران العدو يظهر فوق مواقعنا حتى في الأوقات التي تزداد فيها درجة الرؤيا بين فترات تساقط الثلج كـ ا تتابعت المعارك بنفس الحدة ، ولم يلاحظ كشافونا أي تجمعات للعدو لتعزيز نشاطه .

لم نكن نستطيع عن طريق هذه الإشارة إلا أن نحكم على أن هجومنا كان يتطور بنجاح .

في نفس الوقت كان فون باولوس قائد الجيش السادس يتنقل بسرعة من مركز قيادة إلى آخر من غلوبنسكويا إلى نيجنه ـ تشيرسكايا وثم في قطاع غومارك .

وفي أركانه أخذ التوتر يتبع الهلع .
نحن نعلم الآن أي في ـ الوقت الحاضر ـ أنه في وقت متأخر من مساء ٢١ تشرين الثاني ، عندما كانت أركان الجيش السادس تنقل مركزها بسرعة إلى نيجنه تشيرسكايا حيث توجد مراكز الراديو التابعة للأركان الألمانية . وصلت برقية تلغرافية من هتلر ، جاء فيها « أمر إلى قائد الجيش بالذهاب إلى ستالينغراد مع أركانه وأمر إلى الجيش السادس بأن ينتقل إلى الدفاع الدائري وانتظار تعليمات لاحقة » .
وإذا كان فون باولوس قد أدرك الآن حجم الكارثة التي أخذت تطبق عليه بسبب قوة ضربات قواتنا ، إلا أن هتلر من مقر القيادة العليا الألمانية البعيد لا زال يعلل نفسه مع قناعته بعدم إمكانية قهر الفيرماخت .
كان فون باولوس في ضيق شديد .
حتى ذلك الوقت لم تكن القوات السوفيتية قد أغلقت طوق الحصار عندما أرسل فون باولوس في ٢٢ تشرين الثاني الساعة ١٨ البرقية التلغرافية إلى أركان مجموعة الجيوش (ب):« الجيش محاصر الاحتياط بالمحروقات لن يلبث أن ينفذ والدبابات والمدافع الثقيلة ستصبحان في هذه الحالة عديمة الحركة . الموقف بالنسبة للذخيرة حرج أيضاً.بقي من الغذاء ما يكفي لستة أيام » .
طلب فون باولوس وبالنظر للموقف الذي كان موجوداً فيه الجيش السادس أن يعود إليه الأمر بتقرير موضوع ترك ستالينغراد .
كان رد فعل هتلر الفوري على هذه المبادرة من فون باولوس إرسال الأمر التالي « على الجيش السادس أن يتخذ موقف الدفاع الدائري ، وانتظار الهجوم من الخارج الذي سيخلصه » .
في نهاية يوم ٢٢ تشرين الثاني تلقينا عدداً من المعلومات تؤكد بأن الهجوم يتطور بنجاح .
وتم الإتصال في ٢٣ تشرين الثاني الساعة ١٦ بين وحدات الفيلق المدرع الرابع من جبهة جنوب ـ غرب بقيادة الرائد جنرال كرافتشنكو والفيلق الآلي الرابع لجبهة ستالينغراد تحت قيادة الجنرال فولسكي في قطاع قرية سوفيستكي . كان في الجيب بعد أن أغلق نطاق التطويق : الجيش السادس الالماني وقسم من قوات الجيش المدرع الألماني الرابع ، أي ٢٢ فرقة وبمجموع عام ٣٣٠ الف شخص .

٢

جرى بعد الحرب العالمية الثانية جدل نظري حول الأحداث التي إنتهت بتطويق جيش فون باولوس ، وكذلك حول تقييم ما حدث في الأيام الأخيرة لشهر تشرين الثاني ١٩٤٢،وهناك اختلاف في وجهات النظر حول هذا الموضوع ويقدم بعض المؤرخين حتى الوقت الحاضر وعلى رأسهم القادة الهتلريون السابقون مختلف العروض والتوقعات عما كان سيجري لو أن هتلر ترك حرية العمل لفون باولوس ، واستطاع فون باولوس الخروج بجيشه من التطويق وليس لمثل هذا الجدل النظري أية قيمة ولا يستحق الإجابة ، إلا إذا كان وراء ما يقدمه هؤلاء من عروض نظرية هو رد الإعتبار لمدرسة الحرب البروسية ، ورد الاعتبار لأنفسهم ، وذلك بإلقاء كل مسؤولية الهزيمة على هتلر وتزمته وتشبثه برأيه .

قالوا أن هتلر لوحده كان يتمتع بالسلطة المطلقة التي لا حد لها . وهي التي أدت إلى تورط الجيوش الألمانية في القتال في سهوب الدون ، والوصول بأي ثمن إلى ضفاف الفولغا ، وعندما حلت الكارثة لم يجد هتلر الحل الأمثل لها ، ورفض كافة المقترحات المعقولة التي عرضت .

لا أظن أبدا أن الجنرالات الهتلريين حتى الآن قدموا حججاً معقولة ، والواقع أن أفضل العروض التي كان عليهم أن يقدموها لهتلر هي عدم دخول الحرب ضد الاتحاد السوفيتي ، لذلك بني كل شيء على مخطط لا معقول وإجرامي ليس فقط أمام العالم أجمع ، ولكن أمام شعبهم نفسه أيضاً .

فهل من المعقول إبتعادهم عن قواعد تموينهم الرئيسية في ألمانيا ، آلاف الكيلومترات وإطالة خطوط مواصلاتهم بهذا الشكل ، ثم الشروع بآن واحد بهجومٍ على القوقاز والإنقضاض على المدينة،فقررنا الدفاع عنها بكل قوانا ؟ وهل من المعقول تورط جيشهم في معارك الشوارع التي لا نهاية لها ؟ والقيام بالهجمات المتوالية التي تكبدوا فيها أفدح الخسائر ، في الوقت الذي أهملت فيه حماية الأجنحة ؟ وحتى زمن متأخر لم يرسل فون باولوس البرقيات التي تنم عن القلق ، ولم يخبر قيادته عما حصل في تشرين الثاني ، ولا الذين حضروا للدفاع عن ستالينغراد في شهري آب وأيلول ، ولا عن المعارك الدموية العنيفة التي وقعت في الشوارع في شهر تشرين الأول . وإلا كان بإمكانهم منذ السابق

تصور الإنعطاف الذي كانت ستأخذه الأحداث فيما بعد .

لقد حضر الهجوم المعاكس الذي قامت به قواتنا على الفولغا من قبل كل الجيوش الموجودة باتجاه ستالينغراد ، ومن قبل كل البلاد بقيادة الحزب الشيوعي .

ولنعد إلى تسلسل الأحداث في أيام تشرين الثاني الحرجة .

بدأ هجوم الجبهات جنوب ـ غرب الدون في ١٩ تشرين الثاني ، ومع ذلك لم يدق فون باولوس جرس الإنذار ، وكان يستعد أيضاً للهجوم في ستالينغراد .

لم يتوقع القادة الألمان حتى ١٩ تشرين الثاني ، ولم يفكروا بالهزيمة التي ستحل بهم .

بالرغم من أن خطة القيادة السوفيتية ظهرت بوضوح ، عندما إنتقلت جبهة ستالينغراد في ٢٠ تشرين الثاني إلى الهجوم مستهدفة تطويق كل مجموعة القوات المعادية في ستالينغراد على شكل كماشة . ومع ذلك لم يفكروا أيضاً لا بالتطويق ولا بالكارثة ، وكانوا لا يعتقدون بأننا تعلمنا طريقة دحرهم حتى في مسارح العمليات الكبرى .

ظل فون باولوس وقيادة المجموعة (ب) على إعتقادهم أنه باستطاعتهم الخروج من هذا المأزق بإمكاناتهم الخاصة ، ولم يكن حتى ذلك الوقت ، قد وصل أمر هتلر بالإنتقال إلى الدفاع الدائري . لذلك زج فون باولوس بسرعة باحتياطيه بالمعركة ، في الوقت الذي كانت فيه الدبابات السوفيتية تحكم الحصار عليه بقوة .

وأخيراً أرسل فون باولوس في ٢٢ تشرين الثاني برقيته اللاسلكية معلناً عن الكارثة ، بعد فوات الأوان فقد أحكم الحصار عليه في ٢٣ تشرين الثاني وانتهى الأمر .

ما العمل إذن ؟ والجواب الطبيعي هو إخلاء ستالينغراد من قواتهم وفك الحصار .

ولنستأذن ونلقي هذا السؤال:كيف يمكنهم مواجهة تراجع قواتهم في ظروف الوضع في ستالينغراد وظروف قتال الشوارع ؟

كان على قوات فون باولوس للقيام بهذا الانسحاب أن تترك كل عتادها المتحرك ، وكل أسلحتها الثقيلة وكل مدفعيتها ، وكنا سنتركهم يمرون ولكن خلال شبكة نارية لها من الكثافة ، ما لا تسمح إلا لعدد قليل منهم بالخروج من

المدينة الخربة .

لم يكن كل جيش فون باولوس محشورا في المدينة ، فقد كان لديه كثير من القوات حولها ، وكان بإمكانه تركيزها على قطاع ضيق من الجبهة ، والقيام بضربة في ٢٣ أو ٢٤ تشرين الثاني للاختراق ، وإذا سلمنا بإمكانية تحقيق الاختراق ، تاركا كل عتاده ومدفعيته ، وخارجاً من المعركة وهو يقاتل ، لأن محروقاته كما اعترف هو بنفسه وصلت إلى نهايتها .

ماذا سيحدث للجيش السادس وهو يتراجع في مثل هذه الظروف الجوية : الثلوج ، العواصف والصقيع الذي يغطي الأرض . لقد فقد نابليون جيشه قبل أن يصل إلى نهر البريزنيا ، أما فون باولوس فسيفقد جيشه حتماً في السهوب .

وعوضا عن هذا القرار ، طلب هتلر من جنرالاته ومن فون باولوس الانتقال إلى الدفاع الدائري والتمسك بمواقعه حتى النهاية ، وبذلك ثبت هتلر قواته التي كانت تعد ثلث مليون شخص في دائرة حصار خمس جيوش من قواتنا من مختلف الصنوف ، وكانت هذه الجيوش الخمسة تستطيع في هذه المساحات العملياتية الواسعة أن تدعم هجومنا بقوة ، وتقدم لنا الإمكانيات للقيام بضربة على روستوف والدون وتقطع كل مجموعة الجيوش (A) في القوقاز وحصرها في جيب عميق أيضا كالجيب المحاصر فيه فون باولوس . لقد صمد جيش فون باولوس من ٢٣ تشرين الثاني حتى ٢ شباط . وفي السهوب شتت وحطم وأسر في بضعة أيام . لذلك لم يكن هتلر لوحده المسؤول ولكن أيضا جنرالاته . فجميعهم كانوا مسؤولين عن المآسي والتعب الذي أصاب الجنود الألمان في ستالينغراد .

لن أعطي لنفسي مهمة إعطاء جدول كامل عن الهجوم المعاكس السوفيتي في قطاع ستالينغراد وكيف تطور . فقد تكلم عنه الذين اشتركوا في الهجوم ولكن سأتكلم بشكل عام عن الأحداث التي جرت هكذا .

بعد أن أغلقت دائرة الحصار الداخلية على مجموعة العدو في ستالينغراد . قررت القيادة السوفيتية فوراً تشكيل جبهة تطويق خارجية لتطوير الهجوم الذي بدأ .

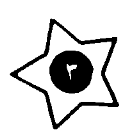
تمركزت في نهاية يوم ١٣ تشرين الثاني وحدات المشاة من جيش الحرس الاول والجيش المدرع الخامس لجبهة جنوب - غرب ، بعد أن نفذت على مجاري الأنهار ، كريوشا وتشير ، على خط دفاعي قوي .

كما تقدمت وحدات الجيش ٥١ و فيلق الخيالة الرابع ، التابع لجبهة ستالينغراد إلى الأمام ، على خط غروموسلافكا ، لاكساي ، أومانتسيفو إلى الشرق من سادوفوي . وبفضل هذه الأعمال تمت عملية تطويق العدو بقوة من الطرف الغربي مثل ما هي في الجنوب .

توقعت ستافكا القيادة العليا أن يقوم العدو بمبادرة لتخليص القوات المطوقة لذلك أخذت تدابيرها قبل وقت ، وعززت الاتجاه الخطر المتوقع أن تأتي منه الضربة التي ستقوم بها مجموعة الجيوش الجديدة (الدون) التي شكلها العدو بسرعة .

لقد أحبطت مبادرة تخليص فون باولوس ، ولقيت مجموعة الجيوش الجديدة (الدون) الهزيمة وظل التطويق محكماً بصلابة .

وهكاذ كانت معركة (كان) القرن العشرين تتويجاً لفن الحرب .



ولنعد إلى الأحداث التي وقعت على جبهة الجيش ٦٢ .

قلت فيما سبق أننا ابتعدنا عن الضفة اليسرى ، وهذا ما أنهكنا ومنعنا من أن نستعيد نشاطاتنا .

وإني أورد هنا بعض المقتطفات من بلاغات الجيش ٦٢ الموجهة إلى أركان الجبهة .

٢٤ تشرين الثاني لم تصل حتى الآن الوسائط القادمة إلى تمامها وقد تعرقل مخطط النقل لمدة ثلاثة أيام والامدادات المتوقعة لم تعبر النهر ، تعاني الوحدات من نقص خطير بالذخيرة والغذاء ، وقافلة المراكب التي إنطلقت من توماك (رصيف تحميل على الضفة اليسرى من الفولغا) مع عناصر من لواء المشاة ٩٠ لم تستطع فتح طريقها عبر النهر وعادت من منتصف الطريق . لقد قطع الجليد كليا المواصلات مع الضفة اليسرى .

أغلقت في ٢٧ تشرين الثاني قناة الفولغا إلى الشرق من جزر غولودني ، وسبارينيسكي بطبقة سميكة من الجليد بشكل تعطل معه معبر توماك ، ولم يعد يعمل ولم تصل أية مراكب بخارية أو مصفحة ، لذلك أوقفت أعمال إرسال الذخيرة وإخلاء الجرحى .

أصبح الفولغا في ١٠ كانون الأول كله مجمداً ، كما أصبح العبور بالمراكب عبر الجليد ينفذ بصعوبة بالغة. ففي ٢٤ ساعة، تم نقل ٢٠ طناً من الذخيرة و ٢٧ طناً من الغذاء فقط للضفة اليمنى .

أخذت قيادة الجبهة تقوم بتنظيم إيصال الذخيرة وبخاصة للغذاء عبر الفولغا عن طريق طائرات P.O2، ولكن لم يكن باستطاعة هذه الطائرات، القيام بعمل كبير بسبب صعوبة رمي الحمولة على شريط أرضي لا يتجاوز عرضه مائة متر ، وأقل خطأ في الحساب يجعل الحمولة تهبط إما في الفولغا أو لدى العدو .

لذلك بدأت حمولات الذخيرة والغذاء تخف شيئا فشيئاً ، ومن يوم إلى آخر ، وقطع الجليد كانت تنزل بشكل متواصل مع مياه الفولغا ولم نعد نرى نهاية لذلك ـ كما يبدو ـ.

وأخيرا جاء الفرج ففي الساعة الرابعة صباحاً ، من السادس عشر من كانون الأول ، سمعت ضجة مدوية فوق العادة وأصوات تكسر الجليد الحادة واصطدامه بالشاطىء ، جذب انتباه الجميع . وكنا نحن أعضاء المجلس العسكري للجيش نتناول في ذلك الوقت طعامنا في ملجأ كنا نستخدمه كناد ميداني (بوبوت) . وعندما سمعنا هذه الضجة الداوية ، ركضنا نحو الضفة ، ورأينا كتلة من الجليد عظيمة الاتساع ، تتقدم وراء جزيرة زايتسيفسكي وتحطم كل شيء أمامها ، وكانت قطع الجليد تتلاطم منها ما كان يتفتت ، ومنها ما كان يكبر ، بالالتصاق مع غيره ، وكان المشهد أخاذا ، فهذه الكتلة السميكة من الجليد كانت تمتد على عرض النهر كله ، وتسير ببطء حاجزة وراءها قطع الجليد . وكنا نتطلع بانتباه لرؤية فيما إذا كانت تسير في طريقها أو تقف ، وفيما إذا كنا سنرى جسرا طبيعيا يصلنا بالضفة اليسرى ، أو فيما إذا كنا من جديد سنعود للمراكب والصراخ على الفولغا، ونداءات النجدة التي كان يطلقها الغرقى أو المطمورون بالجليد .

وأخيرا توقفت القطعة الكبيرة من الجليد أمام ملجئنا ، واستقبلت بفرح عام من الجميع .

استدعيت مباشرة ضباط الهندسة ، وأمرتهم بتحضير فريقين أو ثلاث فرق من الجنود وتجهيزهم بالرفوش والحبال ، وجعلهم يمرون إلى الضفة الأخرى من الفولغا .

كانت المهمة بسيطة وهي الذهاب والإياب على الجليد للضفة الأخرى وعندما

ذهب الفريق كانت الظلمة سميكة . لذلك أخذ جميعنا ينتظر عودتهم بفارغ الصبر ، واضطر كل منا للذهاب إلى الضفة عدة مرات للإصغاء إلى أي صوت ينم عن تحرك جديد والعودة للحركة في مجرى النهر .

ولم يلبث أن عاد فريق المهندسين الأول في الساعة التاسعة مساء حيث أتم رحلة الذهاب والإياب دون عائق ، وشعرنا بأن كل شيء قد سكن وأصبحنا أخيراً بإتصال مباشر مع أرضنا الكبيرة .

وظهرت إضافة في نشرتنا لليوم الثاني ، وهي كما يلي « اعتباراً من الساعة ١٧.١٢ صباحاً يؤمن تنقل المشاة عبر الفولغا عبر طريقين من الصفائح الخشبية الممدودة على الجليد .

أوقف الوضع العصيب والمعقد الذي نحن فيه تنفيذ المهمة الملقاة على عاتق الجيش ، ومع ذلك كنا نغتنم كل فرصة ملائمة أو ظهور عثرة لدى العدو لتوجيه ضرباتنا إليه واستعادة أرضنا ومسقط رأسنا متراً بعد متر .

معلوم أنه لم يكن باستطاعة الجيش تدمير العدو الذي نفذ على الفولغا في قطاع مصانع باريكادي بهجمات من الوية المشاة التي لم يكن لديها دبابات أو قوات احتياطية أو طائرات .

ولكن ما العمل ؟ وكيف سنقوم بنجدة فرقة ليودنكوف ؟

وهنا أيضاً كانت مدفعيتنا المتمركزة على الضفة اليسرى من الفولغا ذات فائدة كبيرة لنا . لذلك قررنا إنهاك العدو بنيرانها ، ولكن لتحقيق ذلك هناك صعوبات من الواجب تذليلها قبل الرمي ، ومن الضروري تنفيذ الرمي بدقة متناهية على كل نقطة للعدو لذلك يجب أن يكون المدفعيون ورماة الهاون والمسددون مهرة في الرماية ويوجد لدينا من هؤلاء عدد كبير ، ولكن تسديد الرمي من الضفة اليمنى كان صعبا ، لان الإتصال الهاتفي عبر الفولغا كان معرضاً للانقطاع الدائم بسبب الجليد ، والإتصال بالراديو كان سيئاً أيضاً لذلك أخذنا نفتش عن وسيلة عملية .

لاحظنا على الأرض المحتلة من قبل العدو - من الشمال والجنوب اعتباراً من الفولغا وحتى الخطوط الأمامية نقاط علام مرتبة جيداً من الضفة اليسرى للنهر ، وعلى هذا الأساس واعتماداً عليها حددنا ممراً عرضياً من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ متر يتمركز فيه الفاشيون وكان رجال مدفعيتنا يرون جيداً الممر من الضفة اليسرى ، وبإمكانهم تصحيح رماياتهم من هناك دون خطأ على نقاط

رمي العدو .

لقد غدا تسديد الرمي محكماً وذلك بتواجد ضباط كانوا يراقبون ويصححون إنحراف أي هدف ليقع في مساره الصحيح . وينقلون كل عناصر الرمي إلى مرصد المدفعية الذي كان ينقلها بدوره إلى مرابض المدفعية .

كانت وحدات المشاة التابعة لفرق ليودنكوف وغوريشني تتابع تأثير رمي المدفعية التدميري على العدو وتقترب شيئاً فشيئاً منه حتى مسافة رمي القنبلة اليدوية وعن طريق الإشارات الضوئية ، كانت المدفعية توقف الرمي وعندها كانت مجموعات الانقضاض وبوثبات قصيرة وسريعة تنقض على العدو المتمركز في تحصيناته الفردية وأقبية المنازل . وبعملياتنا هذه بدأت قواتنا تقدمها إلى الامام ، ولكن الصراع كان طويلاً ومريراً ، ولكي نعطي فكرة عن طبيعة هذه المعارك سأورد هنا بضع فقرات من نشرة الجيش .

٢١ كانون أول واصلت فرقة ليودنكوف منذ الساعة الخامسة صباحاً الهجوم باتجاه الجنوب الغربي وبالرغم من المقاومة العنيفة التي أظهرها العدو احتلت قواتنا أربعة بيوت على الجناح الأيمن للعدو وتقدمت ١٠٠ ـ ١٢٠ متراً وصدت ثلاث هجمات معاكسة واستولينا على خمسة رشاشات وأخذنا أسيرين من لواء المشاة ٥٧٨ وفرقة المشاة ٣٠٥ .

«أخذت فرقة غوريشني تهاجم منذ الساعة الخامسة صباحاً باتجاه الشمال الغربي وتغلبت على المقاومة العنيفة للعدو ، وطوقت وأبادت بضع حاميات ، وبعد اشتباك جسم إلى جسم (مع استعمال واسع للقنابل اليدوية) احتلت هذه القوات غرفة المحول التي جهزها العدو لتكون نقطة دفاع ثابتة لها وأصبحت سيدة البناء الذي كان يحوي على ستة ملاجىء مغطاة وبلوكوسين وتواصل القتال ، ثم حاول العدو تثبيت الموقف وقام بهجمات معاكسة صدت جميعها بنجاح » .

« الغنائم : ثلاثة رشاشات ستة مسدسات رشاشة (رشيشة) ٣٥ بندقية ٣٠٠ قنبلة يدوية ، تدمير أربعة تحصينات (بلوكوس) ميدانية وترك العدو في ملاجئه أربعين جثة » .

« ٢٣ كانون أول واصلت فرقة ليودنكوف الهجوم باتجاه جنوب ـ غرب وأبدى العدو مقاومة ضارية ، قام بهجومين معاكسين بقوى متفوقة من سريتين ولكن هذه الهجمات صدت بحسارة فادحة تكبدها الخصم » .

« استعدنا عمارتين وترك العدو في إحداهما ثلاثين جثة وقد واصلت حضائر

الانقضاض القتال للسيطرة على عمارة كبيرة مربعة على ضفة الفولغا » .

« تابعت فرقة غوريشني الهجوم باتجاه الشمال الغربي وبالرغم من المقاومة الشديدة واصلت القوات تقدمها قليلاً قليلاً ، وتم الإتصال المباشر مع فرقة ليودنكوف » .

وبموجب أمر ستافكا القيادة العليا الذي وصل في صباح الرابع والعشرين تم فيه نقل الفرق وبخاصة المنهكة منها في المعارك المستمرة « الفرقة ١١٢ ايرمونكين ١٩٣ سميخوتفوروف فرقة الحرس ٣٧ جولوديف ، ولوائي مشاة من الجيش وألحقت جميعها بالاحتياطي العام ليعاد تشكيلها .

وفي مثل هذه الحالة وكقاعدة عامة يحضر قواد الفرق الألوية ، وحتى الكتائب إلى مقر قيادة الجيش لأخذ الإذن قبل إنسحابهم للضفة اليسرى من الفولغا .

كان الفراق شاقاً بين الأصدقاء ، وبخاصة رفاق السلاح ، وعندما كنا نتبادل الوداع كنا نستعيد تجاربنا المشتركة ، ونتذكر كل معركة وكل هجوم معاكس .

أثار في نفسي مغادرة هؤلاء الرؤساء ، الذين عشنا معهم عيشة مشتركة وأياماً صعبة وذكريات مريرة ، وعندما كنت أودعهم استرجع بذاكرتي ، كيف كانت قواتهم تأتي للدفاع عن المدينة باستعداد كامل ، وتفتخر بالمهمة التي كلفت بها بسرعة وحرم ، وتدخل في القتال حال وصولها إلى معابر الفولغا .

كان المجلس العسكري يتلقى كل صباح لائحة عن الجرحى الذين نقلوا إلى الضفة الأخرى من الفولغا والوحدات التي كانوا ينتمون إليها ، لكي نحصي مفقوداتنا من جنود المشاة ورماة الرشاشات وسدنة الهاونات والدبابات والمدفعية ، ورجال الإشارة التابعين للجيش . وبهذا كان الجيش ينقص عددياً كل يوم بسبب هذه الخسائر ، ولكن هذا النقص لا يعني ضعفاً في قدرته القتالية ، بل كان على العكس يزداد قوة أكثر من أي وقت مضى ، فهو بعد صده أي هجوم تقوى ثقته بنفسه ، وبسلاحه ، ويكتسب الخبرة القتالية .

إني أتذكر الفرقة (١١٢) أ . سولوغوب التي بدأت القتال في وقت مبكر على ضفة الدون الأخرى ضد الغزاة الألمان ثم على نهر تشير وكانت في ذلك الوقت قسما من الجيش ٦٤ ، وقد صدت هذه الفرقة هجوم الفيلق ٥١ من جيش فون باولوس ، عندما قام بهجومه على مؤخرات الجيش ٦٢ ، ولم تتراجع خطوة واحدة للوراء ثم قاتلت ببسالة على شاطىء الدون ، حيث سقط قائدها العقيد

إيفان بيتروفتش سولوغوب كبطل .

كنت أشاهد دائماً ذلك القائد بقامته الطويلة وطلعته البهية ، كان الابن المخلص للشعب السوفيتي ، الذي لم يحنِ رأسه أبداً أمام قذائف الفاشيين .

وتعود بي الذاكرة إلى يوم صيفي حار في نهاية تموز ١٩٤٢ عندما كنت وسولوغوب على المرتفع ١١٦,٦ في شمال بلدة ريتشكوفسكي على الضفة اليمنى للدون وكنت أعطيه مهمة فرقته ، وبغتة اكتشف العدو ، دون شك وجودنا ، وفتح النار بمدفعيته عيار ١٥٥ على المرتفع ، ثم أخذت الشبكة النارية تضيق علينا وكنا نرى اقتراب القنابل المتجهة نحونا والتي ستنفجر بالقرب منا أو على قمة المرتفع ، وعندها اقترحت على العقيد أن يذهب للأركان ، نظر إليَّ قائلاً :

ـ وأنت هل ستبقى ؟ كيف علي أن أنسحب قبلك من هذا المرتفع ؟

هدأته قائلاً ليس هذا تراجعاً ، ولكن عودة القائد من الاستطلاع نحو قواته لكي يوجهها إلى الأمام .

كان السير في هذه السهوب المكشوفة والمسطحة كالطاولة تحت نيران مدفعية العدو الثقيلة ليس بالعمل المستحب . ولكن سولوغوب سار أمامي دون أن يحث خطاه . ثم أصيب أحد أركان فرقته الذي كان برفقته ، وجرح بفعل قنبلة إنفجرت بقربه . واقترب سولوغوب منه بهدوء ، وحمله تحت ذراعه ، وبدأ الاثنان بالنزول معاً من المرتفع . ولحقت بهم في الوادي حيث وجدت قائد الفرقة سولوغوب يضمد جراح معاونه .

وجدت مع الفرقة مرة ثانية في ١٢ أيلول على شاطىء الفولغا بعد أن أصبح قائدها العقيد سولوغوب .

أ ـ ايرمولكين . كانت الفرقة تناور في المدينة من كورغان ماماييف إلى وادي فيشينوفايا إلى مصنع تراكتورني . ونقاط أخرى . حيث كان العدو يفكر بالهجوم علينا . وقد اشتركت بأكثر من مائة اشتباك ، وأكثرها كانت على المحور الرئيسي للهتلريين .

٤

كانت وحدات وأقسام فرقة الحرس ٣٩ غورييف تعمل في منطقة مصنع كراسني أوكتيابر ، وفي الرابع والعشرين من كانون أول بدأت بهجومها على

المصانع التي كان يحتلها الفاشيون .
واستطاعت في نهاية النهار حضائر الانقضاض من الفرقة المذكورة تنظيف معامل العيارات والسحب ومعامل الصناعات الميكانيكية من الفاشيست ونفذت على المحيط الغربي للمصنع وبذلك استطاعت إنهاء التطويق المعادي لها ، وقد أظهر العدو مقاومة ضارية جداً ورافضاً الانسحاب من المصنع نحو الغرب ، حيث البيوت الخربة والسماء المفتوحة .
وبعد استراحة قصيرة عاد جنود الحرس في ليل ٢٥ كانون أول للهجوم .
وتتابع القتال وكان يدور على الغالب وجهاً لوجه وبالقتال القريب بالقنابل اليدوية حتى الصباح . وعادة لا يستطيع الهتلريون في القتال القريب الصمود أمام مهارة وخفة حركة وصلابة حضائر الانقضاض ، لذلك لم يكد يرتفع الضوء حتى كان المصنع ، قد تحرر تماماً من الغزاة .
لم يستطع الهلتريون أن ينجحوا بالتمسك إلا في بناء الإدارة الرئيسي الذي تحول إلى نقطة دفاعية منيعة ، ولكن خلال بضعة أيام طوق البناء ، وأزيل المدافعون عنه من قبل حضائر الانقضاض التابعة للفرقة ٤٥ سوكولوف .
كانت الفرقة ٤٥ بقيادة المقدم سوكولوف ومساعدة المفوض السياسي اللواء غلامازاد ، الذي كان يقود عمل الحزب بكفاءة لتنفيذ المهمات القتالية .
زجت ألوية وأفواج هذه الفرقة في القتال حال عبورها الفولغا دون تأخير . لأن الموقف لم يكن يسمح بغير ذلك ولم يكن هناك وقت للاستطلاع أو التجمع ... إلخ ، ولكن الأعمال التي جرت فيما بعد أظهرت استعداد هذه الفرقة الجيد من جنودها إلى ضباطها . وقائد الفرقة فاسيلي بافيلوفتش سوكولوف الذي وصل إلى ستالينغراد في نهاية تشرين الأول برتبة مقدم ، ترك ستالينغراد برتبة رائد جنرال كما حصل ضباط آخرون على مثل هذه الترقيات .
وبعد أن حقق سوكولوف إتصاله مع فرقة ليودنكوف . احتل مصنع كراسني أوكتيابر ، وأصبح الفولغا الهادىء المغطى بالجليد وراء ظهره . وأدى ذلك إلى تمكن الجيش من المناورة بحرية أكثر ، وتحضير ضربات أعنف للعدو .
وللتبادل مع العناصر والوحدات الموضوعة في احتياط الستافكا ، شكلت منطقة ميدانية محصنة تحوي على إدارة للعمليات وبعض التشكيلات المجهزة بوسائط نار قوية والحقت بنا ، ولم تكن مهيأة للعمليات الهجومية ، بل كان بإمكانها أن تنفذ ممهمتها في الدفاع .

كانت هذه الفرقة تمتلك فن المناورة والفضل يعود بالطبع إلى قائدها وأركانها ، لذلك كانت تصل دائماً في الوقت المناسب وفي أشد الحالات ضراوة لصد ضربات عدو متفوق بالعدد .

تعرفت أيضاً على الفرقة ١٩٣ بقيادة سميخوتفوروف في الجيش الأول الاحتياط في آذار ١٩٤٢ عندما كانت لا تزال قيد التشكيل . ومنذ ذلك الوقت تعرفت على الجنرال فيدورنيكاندروفتش سميخوتفوروف . وفي التمارين التكتيكية التي كنا نقوم بها في قطاع تولا . وقد قدم سميخوتفوروف البرهان على معرفته بالقتال المعاصر وسرعة البديهة .

كلفت هذه الفرقة بعد وصولها إلى ستالينغراد بمهمة الدفاع عن مصنع كراسني أوكتيابر ولم تتح لها فرصة المناورة ، ولكنها صدت عشرات الهجمات العدوة المتفوقة كثيراً عليها . إن جنود هذه الفرقة وضباطها ، وعلى رأسهم الموجهون السياسيون ، الذين كانوا لا ينظرون إلى ورائهم مطلقاً . وإذا كان الهتلريون قد نجحوا في احتلال شارعين أو ثلاثة في أسبوع ، إلا أنهم تكبدوا خسائر فادحة ، وحتى في أكثر الأيام رهابة لم يظهر قائد هذه الفرقة أية إشارة تدل على الضياع . كان صوته متزناً وهادئاً ولا يزال يرن في أذني حتى الآن . في تلك الأيام حيث كانت الطائرات المنقضة تحلق فوق الغرفة . وكان الهواء يهتز من كثرة انفجارات القنابل والقذائف ، وعندما كنا نسمع بسماعة التلفون زمجرة أصوات الطائرات المنقضة الفاشيستية كان سميخوتفوروف يبدو في ذلك الوقت أكثر هدوءاً ، وكان يقود قتال ألويته وأفواجه من مقره الواقع على بعد بضعة مئات من الأمتار من الخطوط الأولى .

تمسكت فرقة سميخوتفوروف مع قائدها بمواقعها حتى الموت وشتت الألوية والفرق الهتلرية ، ولم تتراجع مطلقاً ولم تترك المدينة ، حتى عندما طوقها العدو ولم يعد بإمكانها الهجوم ، وأصبحت بوضع المدافع .

في ذلك اليوم ودعت أيضاً الجنرال فيكتور غريغوريفتش جولوديف

كان الهتلريون قد احتلوا مصنع تراكتورني واستطاعوا تحقيق الخرق عبر فرقة جولوديف ، ولكن هذه الفرجة التي فتحت، كلفت العدو غاليا بالأشخاص والعتاد مما جعله لا يستطيع متابعة الهجوم ، ولم تستطع فرقة أو فرقتان هتلريتان الخرق عبر ألوية الفرقة ٣٧ بل خمس فرق منها فرقتان مدرعتان.

تمركزت القوات المذكورة في بادىء الأمر على جزر الفولغا سبورني ،

زايتسيفسكي و غولودني . ثم حلت بعد ذلك محل وحدات ليودنكوف وروديمتسيف .

كانت مهمة محاربي هذه المنطقة المحصنة عدم ترك العدو الاقتراب من الفولغا فيما إذا جرب الخروج من التطويق نحو الشرق عبر النهر .

قرر المجلس العسكري للجيش فوراً احتلال كورغان ماماييف والتمسك به بقوة ثم استخدام المدن العمالية . لكي يتم القضاء عليها بعد بعد تجزئتها إلى مجموعات صغيرة .

كان بإمكان الجيش استخدام فرقة باتيوك لاحتلال كورغان ماماييف وفرقة سوكولوف وغوربيف ولواء مشاة البحرية شتريفول ، لطرد العدو من مرتفع ١٠٧,٥ .

كما كان على فرقة غوريشني بسيرها باتجاه مدينة باريكادي تغطية العمليات من الجهة الشمالية .

وقع على عاتق فرقة روديمتسيف تأمين الجناح الأيسر للجيش بعمليات نشطة في القسم الاوسط من المدينة .

أما فرقة ليودنكوف فقد وضعت بالنسق الثاني لأنها كانت بحاجة لإعادة تنظيمها .

كنا نعرف أن مجموعة الجيوش الهتلرية المطوقة تعد أكثر من عشرين فرقة ، والحقيقة أنها كانت تعد ٢٢ فرقة أي أكثر من ٣٠٠ ألف جندي وضابط وجنرال ، وقد وجدت هذه المجموعة القوية نفسها مطوقة ومحاصرة بين فكي الكماشة الحديدية لسبعة جيوش بما فيها جيشنا الـ٦٢ .

من بين هذه الفرق المطوقة ست فرق مشاة هي (٧٩ ـ ٩٤ ـ ١٠٠ ـ ٢٩٥ ـ ٣٠٥ ـ ٣٨٩)ـ بقيت في مواجهة الجيش ٦٢ وعززت بخمسة أفواج هندسة مستقلة ، أرسلت من قبل هتلر للانقضاض على ستالينغراد في تشرين الأول .

ولكن لماذا ثبت فون باولوس نفسه أمام الجيش ٦٢ وكتل أمامه قوى كبيرة . لذلك اصطدمت قوتنا عندما قمنا بالهجوم على كورغان ماماييف ومن كراسني أوكتيابر ضد المرتفع ١٠٧,٥ ليس فقط بمقاومة ضارية من جانب الهتلريين ولكن بهجمات معاكسة وشرسة .

يضاف إلى ذلك استخدام العدو بفعالية ، أقوى العمارات وأقبية المنازل السكنية وحولها إلى نقاط استناد ، نتيجة للتجربة المرة والقناعة بأن القتال على

جبهة متصلة بالمدن كان مستحيلاً إن كان في الدفاع أو الهجوم ، وذلك حسب القواعد التكتيكية للقتال خارج المدن ، وقد سببت نقاط الاستناد هذه تعباً كبيراً لنا .

ولكي يتم تدمير نقطة الاستناد العدوة التي كانت في مبنى الإدارة في مصنع كراسني أوكتيابر ، بذل رجال أحد حضائر الانقضاض من فرقة سوكولوف جهداً كبيراً لإحداث خرق في أحد الجدران القوية بواسطة مدفع قذاف من عيار ١٢٢ ، جيء به مفككاً إلى الجزء المحتل من قبلهم ، ثم أعيد تركيبه في المكان . وأدخلوه في العمل . وبعد عدة ضربات قوية فتحت ثغرة في الحائط وهكذا إنتهى وجود الحامية الفاشية .

كانت الشوارع والساحات في المدينة ـ كما هو الحال في السابق ـ خالية . فلا نحن ولا العدو باستطاعتنا التحرك بشكل مكشوف . وكل من يظهر رأسه دون حذر ، أو يجتاز الشوارع راكضا ، سيتلقى حالاً طلقة من أحد الرماة المهرة أو يصاب برشة مسدس رشاش .

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش ٦٢ محشوراً على ضفة الفولغا ، ويعمل لتحسين مواقعه بعد إتصاله بالفرقة المعزولة ليودنكوف ، كانت المعارك الضارية تدور خارج ستالينغراد ضد القوات المعادية التي حاولت فتح طريق من الجنوب . والجنوب الغربي باتجاه القوات المطوقة غرب ستالينغراد . وقد شكلت القوات السوفيتية جبهة تطويق خارجية في الاتجاهات المحتملة لتخليص القوات المطوقة التي كانت مؤلفة من وحدات الجيش السادس وقسم من الجيش المدرع الرابع ، وتعود القوات السوفيتية المذكورة إلى جبهتي جنوب غرب وستالينغراد الاولى على بعد ١٦٥ كم ، والثانية على بعد ١٠٠ كم والمسافة بين جبهتي التطويق الخارجية والداخلية كانت متغيرة . وهي بحدود (١٠٠) كم على جبهة جنوب ـ غرب و ٢٠ ـ ٨٠ كم على جبهة ستالينغراد .

كان من الضروري إزالة المجموعة المطوقة بأسرع ما يمكن مع التمسك بجبهة التطويق الخارجية . ولتحقيق ذلك كانت هناك حاجة لفترة من الوقت لإيجاد قوة إضافية ، وفي التقرير الذي رفعه رئيس الأركان العامة .

ا ـ فاسيليفسكي إلى القيادة العليا ، قدم تقييماً صحيحاً للموقف : « سيخسر الهتلريون دون شك قطعاتهم المحاصرة في ستالينغراد رغم جميع التدابير التي اتخذوها ، وما يمكن أن يقدموه ، وأقصى ما يمكن أن يحصلوا عليه من

مساعدات ... » ... « وستتابع قوات الجبهات الثلاث المتمركزة على جبهة التطويق الداخلية اعتبارا من ٢٤ تشرين الاول عملياتها النشطة لإبادة العدو المحاصر رغم عدم وجود أي تجميع للقوات أو أي تحضيرات مكملة لتلك العمليات.. » .

تابعت قوات الجبهات الثلاث ـ في الواقع ـ تنفيذ مهماتها بين ٢٤ ـ ٣٠ تشرين الاول ولكن دون أن تنجح بتفكيك أو تجزئة القوات المحاصرة إلى أقسام »

كان هناك خلاف في الرأي في الاوساط العليا للفيرماخت ، هل يجب سحب قوات فون باولوس المحاصرة نحو الجنوب الغربي أو تركها في مكانها . ولكن هتلر وضع حدا نهائيا لهذه الإقتراحات : « يبقى الجيش السادس في مكانه الموجود فيه حاليا ، ويشكل حامية قلعة ، وواجب المدافعين عن هذه القلعة الصمود للحصار أطول مدة ممكنة » .

شكلت القيادة الألمانية مجموعة جديدة سميت مجموعة « الدون » بمهمة فك الحصار عن قوات فون باولوس ، بين مجموعة الجيوش (A) ومجموعة الجيوش (B) وتتألف من المجموعة المختلطة الجرمانية ـ الرومانية (هوليدت) وما تبقى من الجيش الروماني الثالث ووحدات ألمانية . ومجموعة من القوات المشتتة أعيد تشكيلها على شكل مفارز مسير ، ومجموعة جيوش (هوت) المؤلفة بشكل رئيسي من أقسام الجيش المدرع الرابع التي نجت من التطويق ثم من فلول الجيش الروماني الرابع ، وكان جيش فون باولوس السادس من ضمن مجموعة جيوش الدون ، ويدعم هذه المجموعة الجيش الجوي الرابع ويحوي على أكثر من ٥٠٠ طائرة . وكان على رأس مجموعة (الدون) الجنرال فيلد ماريشال (مانشتاين) . وقد كلف بقيادة العمليات التي تستهدف تخليص قوات فون باولوس من الحصار .

كانت مجموعة جيوش الدون تعد في اليوم الأول من كانون أول (عدا قوات فون باولوس المطوقة) أكثر من ثلاثين فرقة ، منها ست فرق مدرعة وواحدة الية ، وكانت تعمل ضد جبهة ستالينغراد مجموعة جيوش هوت ، التي كانت أقوى المجموعات الالمانية في الجنوب بين الفولغا والدون حيث تكتلت قواتها الرئيسية في قطاع كوتلنكوفو .

أكد غورينغ لهتلر أن الطيران الالماني يمّون جيش فون باولوس بكل ما هو ضروري وبحاجة إليه .

قررت مجموعة جيوش الدون ، لتخليص المجموعة المحاصرة تحميل الجهد الرئيسي للمجموعة الصدامية (هوت) ، التي كانت تضم وحدات الجيش المدرع الرابع ، وعدداً من الفرق استدعيت من القوقاز في الشمال . ومن أمام فورونيج وأورال ، كما وصلت تعزيزات من ألمانيا من بينها دبابات تيجر (النمر) التي كانت مصفحة بسماكة ١٠٠ مم ومسلحة بمدفع من عيار ٨٨ . وفي بداية الهجوم المعاكس ، كانت مجموعة فون هوت مؤلفة من أربع فرق مدرعة ، وفرقة مشاة ، وثلاث فرق جوية ميدانية ، ومفارز وأقسام مختلفة من احتياط القيادة العليا ، ومهمتها الهجوم إلى الشرق من الدون على طول الخط الحديدي كوتلنكوفو ـ ستالينغراد وفتح الطريق حتى الجيش السادس ، وقد حددت بداية عملياتها في ١٢ كانون الأول .

كلفت القيادة العليا السوفيتية الجبهات مهمة توسيع الدائرة الخارجية للطوق من ١٣٠ كم ـ ٢٠٠ كم باتجاه الغرب ، لكي تستغل النجاح الذي حققته في هذه الفترة . كما أعطي الأمر أيضاً لقوات جبهة جنوب ـ غرب . والجناح الايسر لجبهة فورونيج بتحضير وتنفيذ هجمات باتجاه روستوف وليخايا . وتقرر خلال هذه العملية ، التي أعطي لها رمز (ساتورن) تدمير الجيش الإيطالي الثامن والوحدات الألمانية ، التي كانت تتراجع باتجاه نهري تشير والدون . وكان من المتوقع البدء بهذه العملية في منتصف شهر كانون الأول . كما تلقت جبهات الدون وستالينغراد بدورها توجيها بالعمل على تفكيك مجموعة العدو المطوقة في قطاع ستالينغراد . ومن ثم إبادتها ، ولكن لم يكن بالامكان القيام بهذا العمل فورا . لأن قواتنا كانت خائرة القوى بسبب المعارك السابقة التي خاضتها ، ولم نكن حتى ذلك الوقت متأكدين من قوة وعدد القوات المحاصرة في جيب ستالينغراد ، أما فون باولوس فقد دفن نفسه وقواته في الخنادق ، وأخذ في تقوية مواقعه الدفاعية وعلى هذا فقد بدأت ستافكا القيادة العليا بنقل جيش الحرس الثاني بقيادة الرائد جـرال مالينوفسكي من احتياطها ، على جناح السرعة لمساعدة جبهة ستالينغراد . وكان من الضروري تأجيل عملية تفكيك مجموعة فون باولوس إلى وقت آخر ، بعد أن أخذت الأحداث تتجه اتجاها آخر .

هيأت مجموعة جيوش العدو « الدون » ضربتين باتجاه ستالينغراد ، الضربة الأولى انطلاقا من كوتلينكوفو والضربة الثانية انطلاقا من تورموسين .

ومن الإنصاف أن ننظر بعين التقدير والإعجاب بالنشاط العملياتي الذي قام

به خصمنا حيث وجه ضربة قوية إنطلاقا من قطاع كوتلنكوفو ، منذ الثاني عشر من شهر كانون الأول ، واستغلت مجموعة العدو تفوقها على قوات الجيش ٥١ التعبة ، وأخذت تتقدم باتجاه ستالينغراد ، وكما هي العادة فقد استخدم العدو الثنائي الطائرة ـ الدبابة إلا أنهم لم ينجحوا بخرق الجبهة ، ورغم أن فرق الجيش ٥١ تخلت عن الأرض ، إلا أنها قاومت العدو وكبدته خسائر فادحة .

شعرنا نحن الذين كنا في ستالينغراد بأن القوات المحاصرة أخذت تستعيد شجاعتها ، وعلمنا من الأسرى أن قيادة الجيش السادس كانت تنتظر بين لحظة وأخرى بداية الهجوم واللقاء مع القوات التي جاءت لنجدتها وفك الحصار عنها .

استطاع الهتلريون رغم الخسائر الفادحة التي تكبدوها وأعداد الجثث التي تركوها ممدة على الأرض ، والعتاد المدرع الذي دمر ، التقدم بهجومهم ، واجتياز نصف المسافة إلى ستالينغراد خلال أربعة أيام وعبروا ، مجرى لاكسايا . ونفذوا على نهر ميشكوفا .

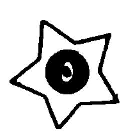
كنا ننتظر هجوماً جديداً إنطلاقاً من تورموسين بين ساعة وأخرى ، واتخذت قيادتنا العليا في الوقت المناسب التدابير الضرورية لذلك ، فقد أعادت توجيه قوات جبهة جنوب ـ غرب ، والجناح الأيسر لجبهة فورونيج بشكل لا يجعل الهجوم يسير بوضوح نحو الجنوب باتجاه روستوف ولكن نحو الجنوب ـ الشرقي مغلقاً مجموعة الجيوش العدوة في موروزوفسكايا وتورموسين وبذلك تقدم هجومنا عن الهجوم الألماني من تورموسين ، ثم زجت القيادة قوات الجبهتين . جنوب ـ غرب وفورونيج في ١٦ كانون الأول ، ودخلت في تاريخ الفن العسكري كعملية باسم (ساتورن الصغرى) .

استطاعت قوات الجبهتين بعد تحطيم مقاومة العدو على تشير والدون . وباندفاع ساحق ضرب الجيش الايطالي الثامن والمجموعة العملياتية (هوليدت) ، التي كانت تغطي الجناح الأيسر لمجموعة الجيوش (الدون) ، ووصلت في اليوم الثاني إلى تاتسينسكي وموروزوفكا ، مغلقة الجناح من الغرب ومشرفة على مؤخرات مجموعة الجيوش (الدون) . ولكي ينقذ مانشتاين الموقف ويتفادى هزيمة كاملة ، زج من جناحه الأيسر مجموعة الجيوش تورموسين ، وسحب من خط نهر ميشكوفا الفرقة المدرعة السادسة والتي كانت تعمل مع مجموعة كوتلنكوفو ، وبذلك خف الضغط على جبهة الجيش ٥١ .

نجح مانشتاين في الرابع والعشرين من كانون الأول في تثبيت الوضع لوقت

قصير في قطاع موروزوفكا ولكنه في قطاع ميشكوفا جعل قواته معرضة لهجوم قواتنا .

أجلت القيادة العليا السوفيتية بعض الوقت تدمير القوات المطوقة في قطاع ستالينغراد ، وقامت بنقل الجيش الثاني للحرس على جناح السرعة إلى خط ميشكوفا لصد مبادرات مجموعة جيوش « هوت » لفك الحصار . ودخل جيش الحرس الثاني مباشرة في العمل مع فرق الجيش ٥١ وأوقف هجوم الألمان على ميشكوفا وأعطى للقيادة السوفيتية الإمكانية لجلب قوى جديدة لهذا القطاع من الجبهة . وفي نفس الوقت الذي أوقف فيه مانشتاين الهجوم السوفيتي على موروزوفكا في ٢٤ كانون الأول ، قامت قواتنا بهجوم على /كوتلنكوفو/ بقوات جيش الصدمة الخامس وفيلق الحرس الآلي الثاني والفيلق المدرع السابع ، والفيلق الآلي السادس . وفي ٢٩ كانون الاول لم يعد لمجموعة كوتلنكوفو المعادية وجود ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى روستوف ، وبدأ مانشتاين ، يقاتل وهو يتراجع لكي يتجنب تطويقاً جديداً . وذهبت محاولات القيادة الألمانية لتحرير قواتها من الحصار في ستالينغراد سدى . وقد ارتد النطاق الخارجي ، للجبهة إلى مسافة ٢٠٠ ـ ٢٥٠ كم من ستالينغراد اثر العمليات في كانون الأول . أما مجموعة الجيوش (A) التي كانت تعمل في القوقاز فقد أصبحت مهددة هي الأخرى بكارثة ، بسبب تقدم قواتنا باتجاه روستوف الذي يمكن أن يمنع تراجعها من القوقاز لذلك أخذت بالتراجع على جناح السرعة بأمر هتلر ، وهكذا دنت لحظة إبادة مجموعة جيوش فون باولوس المطوقة .



أظهر الجنود الهتلريون مقاومة ضارية في أيام الحصار الأولى . فقد كان الضباط والجنرالات الألمان دون شك يخفون بعناية وصول الأخبار إلى الجنود عن الكماشة السوفيتية التي أغلقت عليهم في كلاتش وعلى كل حال عندما علم الجنود الألمان بالموقف أخذ هؤلاء يؤكدون لهم أن قوات مجموعتي مانشتاين وهوت القويتين تتجهان لنجدتهم وعاشوا بالأمل حتى نهاية كانون الأول وهم يقاتلون بيأس .

أخذت معنويات القوات المحاصرة تهبط بشكل محسوس بعد هزيمة مجموعة

مانشتاين ، وبعد أن طردت قواتنا الغزاة باتجاه خاركوف ولوكانسك وروستوف على الدون . وقد توقف الأمل بالخرق والتمرير ولم يقتصر ذلك على الضباط والجنود بل تعداهم إلى الجنرالات أيضاً .

وفي إذاعاتها الموجهة للجنود الألمان أخذت المنظمات السياسية تحدثهم عما ينتظرهم بعد فترة قليلة جداً ، وقد علم الجنود أن تموين مجموعة الجيوش المطوقة التي تعد ۳۰۰ ألف شخص بالغذاء لا يتم إلا عن طريق الجو . ولكن من أجل حماية الطائرات الناقلة للغذاء والذخيرة والمحروقات كنا نقول في إحدى إذاعاتنا أن ذلك يحتاج إلى عدد كبير من الطائرات المطاردة ، التي هي في الوقت الحاضر ضرورية لهتلر في القطاعات الأخرى للجبهة « لهذا السبب . أيها الجنود والضباط الألمان ، ستهبط عاجلاً مخصصاتكم اليومية إلى ۱۰۰ غ من الخبز وعشرة غرامات من اللحم » .

لقد ساعدنا الشيوعيون الألمان ولجنة ألمانيا الحرة ، كما تحدث فولتير أولبرخت شخصيا في ستالينغراد إلى الجنود والضباط المطوقين عن حقيقة ما يجري في الجبهة وفي ألمانيا .

وصل إلى مركز قيادة الجيش في الأيام الأولى لشهر شباط قائد جبهة الدون كونستانتين روكوسوفسكي ، وعضو المجلس العسكري للجبهة رائد جنرال تيليفين وقائد مدفعية رائد جنرال كازاكوف بعد أن اجتازوا بالسيارة الفولغا على الجليد الذي يغطيه .

أخذ روكوفسكي منذ نزوله من السيارة بقرب مخبأ أركان الجيش يستوضح طويلاً ، كيف ؟ وأين كنا أثناء فترة المعارك والحرائق .. عندما كانت القوات الالمانية خلال هجومها تمطر المدينة بآلاف و آلاف القنابل ؟

وعندما أصبح قائد الجبهة في المخبأ جلس على مقعد من تراب وأمامه طاولة من تراب ، وأخذ يشرح لنا باختصار خطة إبادة مجموعة العدو المطوقة . ويعرض المهمة التي كلف بها الجيش . فمن أجل تفكيك هذه المجموعة سيوجه الجهد الرئيسي نحو الغرب من قبل جيوش الجنرال باتوف وتشيستياكوف ، وبآن واحد من الشمال : تقوم بالهجوم جيوش الجنرال جادوف وغالانين ومن الجنوب تقوم بالهجوم جيوش شوميلوف وتالبوخين . وقد تلقى الجيش ٦٢ مهمة جذب قوات العدو إليه بعمليات نشطة من الجهة الشرقية . وعدم تركه يصل إلى الفولغا فيما إذا جرب التخلص من التطويق عبر الفولغا المتجمد .

كانت المهمة واضحة . وقد طمأنت قائد الجبهة بأن المهمة ستنفذ وأن فون باولوس لن يسحب من المدينة ولا فرقة واحدة حتى بداية الهجوم الكبير الذي ستقوم به القوات الرئيسية للجبهة .

ثم كرر بعدها بعض ضباط أركان الجبهة نفس السؤال عدة مرات :

- هل تستطيع قوات الجيش ٦٢ أن تتحمل صدمة العدو وهجمات قواته الضاربة من الغرب فيما إذا حولت هذه كل جهدها باتجاه الشرق .

أجاب نيقولاي كريلوف :

- إذا كان فون باولوس لم يستطع في الخريف والصيف أن يرمينا في الفولغا . بالرغم من أنه زج بكل قواته ضدنا . فالهتلريون الجياع الآن والنصف متجمدين من البرد ، لن يتمكنوا من التقدم عشر خطوات نحو الشرق .

ثم طرح الجنرال مالينين رئيس أركان الجبهة نفس السؤال . فأجبته بأن الهتلريين في عام ١٩٤٣ ليسوا هم الذين كانوا عام ١٩٤٢ ، فقد أصبح جيش فون باولوس حاليا غير موجود ، ولم يعد جيشاً بل أمامنا معسكر من الأسرى المسلحين .

كانت وحدات الجيش ٦٢ تهاجم العدو منفذة المهمة التي كلف بها من قبل قيادة الجبهة عن طريق مجموعات الانقضاض ، وكان يحسن مواضعه يوماً بعد يوم ، حتى بداية هجوم جميع قوات الجبهة أي حتى العاشر من شهر كانون الثاني . وفي كل يوم كانت تسقط في أيدينا عشرات من نقط الاستناد وتحصينات القتال . ونتيجة لذلك تثبتت أمام مواقع جيشنا ست فرق عدوة من أصل ٢٢ فرقة وخمسة أفواج من المهندسين .

تحملت مجموعات الانقضاض التابعة لفرقة باتيوك العبء الأكبر وقامت بأوسع نشاط في تلك الأيام . حيث ثبتت تلك الفرقة في المعارك للإستيلاء على كورغان ماماييف عددا من الألوية المعادية واحتلت مراكز مراقبة العدو المتقدمة ، وحرمت الجنرالات الألمان من مراقبة مجموعة قواتنا في المدينة .

دارت معارك طاحنة اعتباراً من النصف الثاني لشهر أيلول حتى ١٢ كانون الثاني حول خزانات المياه ، ولا يعرف أحد كم من المرات تبادلت الأيدي قمة مرتفع ماماييف . كما قاتلت عناصر فرقة روديمتسيف في الدفاع عن المرتفع المذكور وكذلك جميع فرقة غوريشني ، والفرقة ١١٢ ايرمولكين ، وقاتلت فرقة باتيوك أكثر من الجميع وقلدت الأوسمة أربع مرات .. ووصلت هذه الفرقة في

٢١ أيلول للضفة اليمنى للفولغا ودخلت القتال في ٢٢ على خط منخفض دولفي ثم ثبتت أقدامها (جذورها) في مرتفع مامايف ، وفي الأراضي المتعرجة حول المرتفع ظلت تقاتل حتى النهاية ، عندما تم إتصالها في ٢٦ كانون مع فرق تشيستياكوف .

هناك بعض الكلمات التي نوردها هنا تتعلق بقائد هذه الفرقة نيقولاي باتيوك .

وصل باتيوك إلى المدينة برتبة عقيد . وترك المدينة بعد هزيمة فون باولوس برتبة جنرال . وكانت تتجمع فيه ثلاث خصال لا تقدر . صلابة القائد والشجاعة والاستقامة . كان يعرف كيف يكون قاسياً وعادلاً . كانوا يخافونه ويحبونه ، وكان غالبا موجوداً أمام أعين الجنود ويحصل في أغلب الأوقات أن لا يتمكن من السير بسبب ساقيه المريضتين . ولكنه كان لا يبقى منزوياً في مخبئه ، يزور الخطوط الأولى والمراصد في الليل مستندا على عصاه وعلى كتف أحد مرافقيه لئلا يراه شخص ما ، كان باتيوك يخفي مرضه قدر استطاعته . ولم أعلم بذلك حتى كانون الثاني . عندما لم يعد بإمكانه التنقل دون مساعدة ولم يكن يتحرج أن يقول لأي رئيس أو مرؤوس الحقيقة أمام عينيه مهما كانت مرة . وكانت تقاريره لا تتطلب أي دقة إضافية أو تحقق ، بل كانت دائما صادقة .

حازت فرقة باتيوك على سمعة جيدة في كاستورنايا قبل وصولها إلينا . وذلك بصدها الرائع لهجوم معاد كثيف . وقد هيأت مقاتلين معروفين ، ليس من قبل سكان ستالينغراد ، ولكن من قبل كل البلاد .

سارت كتيبة الضباط والموجهين السياسيين التابعة لهذه الفرقة طريقها من كاستورنايا إلى ستالنغراد - زاباروجيه - أوديسا ، ومن ليوبلين حتى بوزنان وأنهت معاركها المنتصرة في برلين .

لم يصل الجنرال باتيوك معنا حتى برلين ، فقد توقفت حياته في أوكرانيا بالقرب من رولافيانسك ، ودفناه بالقرب من نصب أرنيم على ضفاف الدونتز الشمالي . وقد نقلنا بقاياه إلى ستالينغراد على كورغان مامايف ، لأنه كان روح المعركة التي دارت من أجل الكورغان ومن أجل المدينة ، ومن أجل الفولغا .

في العاشر كانون الثاني ١٩٤٣ قامت كل جيوش جبهة الدون بهجومها بآن واحد من أجل تفكيك مجموعة جيوش الصدمة العدوة المطوقة ، وقام الجيش الثاني والستين بدوره بالحركة من الشرق باتجاه الغرب للقاء مع الجيوش المهاجمة ،

ودارت معارك عنيفة وبخاصة في قطاع كورغان ماماييف ، وهذا يظهر كم كان تقدير العدو صائبا في تقديره لأهمية هذا المرتفع التكتيكية . وكان هجوم فرقة باتيوك اعتبارا من الكورغان يصدم دائماً وطوال الوقت حتى ٢٤ كانون الثاني بالهجمات المعاكسة التي كان العدو يقوم بها حيث كان يستجمع كل قواه ليتمسك بمواقعه هناك .

لم يتراجع العدو في قطاعات الفرق الاخرى ولكنه لم يكن يقوم بالهجمات المعاكسة كما هو الحال في كورغان ماماييف . ففي حمى تحصيناته كان يدافع غالبا حتى آخر طلقة .

أخبرني في ٢٣ شباط قائد الفرقة سوكولوف عن حادث واقعي ، فعندما وصلت قواته إلى الحدود الغربية من بلدة كراسني أوكتيابر . طوقت هذه القوات نقطة استناد قوية للأعداء ولتفادي إهراق الدماء دون فائدة ، عرضوا على الحامية الاستسلام ، وبعد لغط طويل طلبوا خبزا من جنودنا ، فأعطوهم بعض القطع بدافع الشفقة لأنهم جياع . وبعد أن أخذ الهتلريون الخبز وتحسنت حالتهم أخذوا بالشروع بالرماية .

وبعد نوع من المحادثات الدبلوماسية إتصل جنودنا برجال المدفعية الذين جلبوا معهم بعض القطع ، وأخذوا يرمون نقطة الاستناد بالمدافع رميا مباشرا . وعندما سقطت النقطة وجدنا بعد التحقيق أن الحامية كانت مشكلة من لصوص من كل نوع ، وجميعهم يحملون على صدورهم عدة أوسمة هتلرية .

أشرف الجيش ٦٢ في الخامس والعشرين من كانون الثاني على تخوم مدن المعامل ، وأخذنا نشعر باقتراب قواتنا من الغرب .

وصدت فرق غوريشني وسوكولوف ، وليودنكوف ، وغوربيف ، وروديمتسيف اتجاهاتها والتلاقي في الشمال لكي تقوم بتدمير مجموعة الشمال من القوات الفاشية ، في قطاعات المعامل والضواحي العمالية ، أما فرقة باتيوك فقد اتجهت نحو الجنوب ضد مجموعة العدو الجنوبية .

وأخيرا وصل يوم ٢٦ كانون الثاني . وهو اليوم الذي انتظرناه طويلاً والذي سيتم به اللقاء بين الجيش ٦٢ ، وجيوش باتوف وتشيستياكوف المهاجمة من الغرب .

ولنرَ كيف تم هذا اللقاء .

تلقينا في الفجر من المرصد . أن الهتلريين يتشتتون والهلع يسودهم . وقد

سمعنا ضجيج المحركات . ورجالا يظهرون أمامنا بلباس الجيش الاحمر . وشاهدنا دبابات ثقيلة مكتوب على تصفيحها كولخوزيون من تشيليابنسك « معدنيون من الأورال » ، وتقدم منهم جنود الحرس التابعون لفرق روديمتسيف وغوربيف . وباتيوك و آخرون إلى الأمام بسرعة وهم يحملون العلم الأحمر ، وقد حدث هذا اللقاء السعيد والمثير في الساعة ٩,٢ صباحاً في قطاع مدينة كراسني أوكتيابر وقد أهدي النقيب غوشتشين لممثلي قوات جيش باتوف ، علماً كتب على قماشه الاحمر « ذكرى لقاء ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٣ » .

لمعت دموع الفرح على وجوه الجنود الخشنة الذين مروا بكثير من التجارب ، وقد زار النقيب من الحرس اوسنكو الجنرال روديمتسيف ، وأبلغه بأنه تلقى العلم من أيدي جنود الحرس الأمجاد .

ـ انقل إلى رئيسك ـ أجابه الجنرال روديمتيسف ـ أن هذا اليوم هو يوم سعادة لنا بعد خمسة أشهر من نضال ضار وقاس ونحن مبتهجون بهذا اللقاء .

كانت الدبابات الثقيلة تمر أمامنا كقلاع من حديد ، وكان سدنتها يخرجون رؤوسهم خارج البرج ويرسلون لنا تحيات الصداقة . عندما كانت الآليات الضخمة تتابع طريقها نحو المصانع .

ثم التقى ممثلون من تشكيلات أخرى من الجيش ٦٢ بوحدات جيوش باتوف وتشيستياكوف وشوميلوف .

لم يستطع هؤلاء الشجعان الذين ظلوا أحياء رغم المعارك العديدة القاسية التي خاضوها ومروا ببوتقة التجارب الكبيرة أن يمسكوا دموعهم وأخذوا يبكون .

لقد ظل العدو يقاوم . ولكن يوما بعد يوم أخذ الجنود والضباط الالمان يستسلمون بأعداد كبيرة . وهناك بعض الحالات التي أسر فيها بضع جنود سوفييت مئات الاسرى الهتلريين .

وفي الواحد والثلاثين من كانون الثاني أسر جنود الجيش ٦٢ الجنرال فيلد مارشال فون باولوس قائد الجيش السادس وكل أركانه . وفي نفس الوقت أوقفت مجموعة الجنوب من القوات الألمانية كل مقاومة . كما إنتهت المعارك في القسم الأوسط من المدينة . وفي مساء اليوم نفسه أسر محاربو الجيش ٦٢ أركان فرقة المشاة الألمانية ٢٩٥ مع قائدها الرائد جنرال كورفيه ، وكذلك قائد الفيلق الرابع الملازم الجنرال المدفعي بفيفر ، وقائد الفيلق ٥١ الملازم جنرال سيدلينر كورزباخ ، ورئيس أركان الفرقة ٢٩٥ . وبعض الضباط القادة من الأركان

الذين كانوا معه .

أسر هؤلاء القادة من قبل ثلاثة من محاربي الجيش ٦٢ وعلى رأسهم سكرتير منظمة الكومسمول من لواء الإشارة فيماتيل بورتر ، وله من العمر ١٨ عاماً . وقاتل قبل وصوله إلى شواطيء الفولغا في اوديسا وسباستبول وكيرتش .

قررنا مساء الواحد والثلاثين من كانون الثاني : غوروف وكريلوف وأنا استجواب الضباط القادة الألمان في مخبئي . وكانوا متوتري الأعصاب وجائعين وقلقين عل مصيرهم . وقد أمرت بتقديم الشاي لهم ودعوتهم للفطور . وكانوا كلهم بلباسهم الرسمي مع الأوسمة . وبعد أن أمسك الجنرال أوتو كورفيه كأس الشاي والشطيرةبيديه ، قال :

ـ ما هذا ؟ هل هذا يدخل في نطاق الدعاية ؟

أجبته :

ـ إذا كان الجنرال يعتقد أن هذا الشاي وهذا الفطور هو من الدعاية فنحن لا نصر بخاصة على إجباره على أخذ هذا الغذاء الدعائي . وقد شجع هذا الجواب قليلاً الأسرى ، وطالت محادثاتنا حوالي ساعة ، وقد تكلم الجنرال كورفيه أكثر من الآخرين . أما الجنرال بفيفر والجنرال سيدليتز فقد التزما الصمت ، وذكرا بأن ليس لهما معرفة بالشؤون السياسية .

لقد عبر الجنرال كورفيه أثناء المحادثات عن الفكرة بأن هناك شيئا مشتركاً بين ألمانيا الحالية وألمانيا في زمن فريدريك الكبير وبسمارك ، وكان يقدر بأن بسمارك لا يتفوق على هتلر لا بتفكيره ولا بمنجزاته ومن الواضح أنه كان يريد أن يقول بأن النكسات التي أصيب بها كل من بسمارك وفريدريك لم تؤثرا على عظمتهما . وهزيمة هتلر على الفولغا لا يعني إفلاس الهتلرية . وألمانيا بقيادة هتلر ستتجاوز هذه الخسائر وستفوز بالنصر في النهاية . وقد ظل كل من الجنرال بفيفر ويسدلينز ساكتين . وكانا يلفظان من وقت إلى آخر بكلمة نعم (يافول) أو (ناين) لا ، وهما يبكيان .

وأخيراً قال الملازم جنرال فون سيدليز ـ كوزباخ

ـ ماذا سيكون مصيرنا في التالي .

لقد أخبرتهم بشروط إعتقال الأسرى ، وأضفت لهم بأنه باستطاعتهم أن يحملوا إذا رغبوا بشارات رتبهم وأوسمتهم ، ولكن عدا الأسلحة .

ـ ها هي الاسلحة ؟ استوضح الجنرال بفيفر وكأنه لم يفهم ، ونظر إلى سيدليتز .

وقد كررت لهم بأن الجنرالات الاسرى ، يجب أن لا يحتفظوا بأي سلاح معهم. وهنا أخرج سيدليتز من جيبه مطواة صغيرة ووضعها أمامي. فأوضحت له بانه من الطبيعي أن لا نعتبر هذا النوع من السلاح هو سلاح ممنوع .

وقد سألني الجنرال بفيفر .

ـ أين كنتم موجودين أنت وأركانك (الجيش ٦٢) خلال معارك المدينة حتى ١٩ تشرين الأول؟

وقد أجبته بأن مقر قيادتنا وأركان الجيش كانا طيلة الوقت في المدينة على الضفة اليمنى من الفولغا ، وآخر مكان لمقر القيادة والأركان هو الذي أنتم موجودون فيه .

عندها قال الجنرال بفيفر :

ـ خسارة كنا لا نصدق مصلحة مخابراتنا ، وكان باستطاعتنا محوك من الوجود أنت وأركانك .

وبعد استجواب الجنرالات الاسرى أرسلناهم إلى أركان الجبهة ، وقد تمنينا عليهم أن يدرسوا ويتعرفوا عاجلاً عن الحقيقة السوفيتية ، لكي يتخلصوا من أخطائهم ، ومن ضبابية الهوس الهتلري .

من السابق لأوانه في ذلك الوقت أن أقول بأني التقيت فيما بعد بالجنرال أوتوكورفيه عام ١٩٤٨ في برلين . وكان في ذلك الوقت عضوا نشيطا في جمعية الصداقة الألمانية السوفيتية . وقد التقينا كمعارف قدماء . وكنت في ذلك الوقت رئيس لجنة المراقبة السوفيتية . وقد ساعدنا كثيراً أصدقاءنا الالمان للنهوض باقتصادهم الذي خربته الحرب . لقد عمل الرائد جنرال أوتو كورفيه الآنف الذكر كثيراً لتنمية الصداقة بين الشعوب الألمانية والسوفيتية . ولم يكن أوتوكورفيه لوحده ، فقد أخذ عدد من القادة والضباط والجنود الألمان يناضلون بعد تعرفهم على الحقيقة من أجل السلام والصداقة .

٦

بعد إزالة مجموعة الجنوب الفاشية الألمانية ، تابعت مجموعة الشمال مقاومتها أيضاً . وكان واضحاً أن إزالتها الكاملة يتطلب عمل بضع ساعات .

ذهبت في صباح ٢ شباط ١٩٤٣ مع غوروف إلى المرصد الواقع في خرائب مكتب إدارة مصنع كراسني أوكتيابر ولم يكن بعيدا عن مراصد القادة ليودنكوف ، سولوكوف ، غوريشني ، و اخر ضربة من الجيش ٦٢ وجهت نحو مصانع تراكتورني وباريكادي ، والضواحي العمالية وقد اشترك في الهجوم على مجموعة الشمال المعادية فرق غوريشني . سوكولوف ، وليودنكوف ، وغورييف ، وروديمتسيف ولواء ستريفول ، وقامت أيضا في نفس الوقت بالهجوم الجيوش المجاورة من الغرب والشمال الغربي ، وقد بدأ الهجوم في الساعة الثانية عشرة .

قامت المدفعية بتنفيذ قصير لنيران التمهيد ووجهت النيران بالرمي المباشر على أهداف مرئية فقط ، وكنا نرى بوضوح الفاشيست يعملون بفوضى بين الأنقاض ، وبعد ذلك بدأ هجوم وحدات مشاتنا والدبابات حالاً .

لم يصمد الهتلريون الأحياء طويلا أمام الهجوم الأخير ، وأخذوا يرفعون أيديهم في الهواء ، كما أخذوا يرفعون الخرق البيضاء على حرابهم .

وهنا تشكلت أمامنا قوافل من مئات الآلاف من الأسرى ، واتجهوا بطريقهم نحو الفولغا وإلى ما وراء الفولغا ، وتابعوا سيرهم لمدة ستة أشهر تقريبا ، ومن بين الأسرى كان هناك إيطاليون وهنغاريون ، ورومان ، وكل الجنود والضباط كانوا منهكين وعلى حافة السقوط ويعشش في ثيابهم القمل والبراغيث وكان لباسهم سيئا بشكل مخيف ففي درجة حرارة ٣٠ تحت الصفر كان هناك جنود يسيرون حفاة ، ومظهر الضباط كان أفضل بكثير فكان منهم من يحمل في جيوبه اللحم المقدد وأنواعا من الأطعمة ، ومن المحتمل أن يكون ذلك من آخر توزيع للتموين لديهم .

اجتمع في آخر مرصد لنا في خرائب بناية الإدارة في كراسني أوكتيابر كل المجلس العسكري وقادة الفرق ، وبعضا من قادة الالوية وأخذوا يهنئون بعضهم بعضا بالنصر مع إحيائنا لذكرى الذين لم يعيشوا إلى ذلك النهار .

وأخيرا اضطر هتلر الذي وعد أيضا في كانون الأول ١٩٤٢ بتحرير القوات المطوقة إلى الإعلان عن الكارثة رسميا ، وأمر بإعلان الحداد مدة ثلاثة أيام .

كان الجيشان السادس والرابع المدرعان اللذان طوقا وأبيدا على ضفاف الفولغا يعتبران جيشي صدمة ويضمان في صفوفهما ٢٢ فرقة ووسائط دعم قوية مما يساوي أو يشكل جبهة بكاملها .

كما زها هتلر بقوة وفعالية وصدمة الجيش السادس . وبقواته جنوداً وضباطاً . وأغلب فرق هذا الجيش مؤلفة تقريباً من الآريين ذوي الدم الصافي ، فالفرقة ٧٩ مشاة مثلاً شكلت في آب ١٩٤٢ تقريباً كلها من الشباب بين ٢٠ ـ ٢٧ عاماً . وقد ذكر الأسرى أنفسهم أن واحداً من بين كل خمسة أشخاص من هذه الفرقة كان عضوا في الحزب النازي .

ويمثل كل من قائد الجيش السادس فريدريش فون باولوس . والعقيد جنرال فون هوت الطبقة التقليدية للقادة الألمان ، كان عمر فون باولوس في مرحلة الهجوم الألماني على الفولغا ٥٢ عاماً . أمضى ثلاثة وثلاثين عاماً في صفوف الجيش الألماني ، وكان في الحرب العالمية الأولى ضابط ميدان ، وأصبح في نهاية الحرب ضابطا في أركان الحرب العليا . وبعد هزيمة الجيش الألماني عام ١٩١٨ لم يحل على التقاعد ، وبقي طويلاً في وزارة الدفاع ، وبصفته رئيس أركان إدارة القوات المدرعة اشترك بقسم فعال في التحضير للحرب العالمية الثانية .

تميز وصول هتلر إلى السلطة بترفيع فون باولوس إلى رئيس أركان الجيش الذي كان يقوده جنرال فيلد مارشال فون رايشنو . ومع هذا الجيش جال فون باولوس في خريف عام ١٩٣٩ بولونيا . واشترك في عام ١٩٤٠ بمعارك فرنسا . وفي أيلول ١٩٤٠ سمي فون باولوس نائباً لرئيس الأركان العامة للفيرماخت (الجيش الألماني) ، في كانون الثاني ١٩٤١ أصبح جنرالا للقوات المدرعة ، وفي فترة الاعتداء على الاتحاد السوفيتي لعب دوراً فعالاً من بين القادة الألمان .

وفي أواخر أيام الجيش السادس المطوق على الفولغا . أنعم هتلر على فون باولوس بوسام الصليب الحديدي ، المكلل بأوراق الغار ورفعه إلى رتبة جنرال فيلد مارشال .

هذا هو الجيش السادس الذي كان يُكلف بأكبر المهمات التي تتطلب الثقة ، فهو أول من غزا الحدود البلجيكية في ١٠ مايس ١٩٤٠ بأمر من هتلر ، وتغلب على كافة المقاومات البلجيكية على قناة ألبرت ، واندفع هذا الجيش في طول البلاد حاملاً العبودية لشعب حر . لقد تركت فرق الجيش السادس آثارها الدموية في عدد من البلدان الاوروبية ، لقد دخل بروكسل ثم باريس ، واشترك في معارك يوغسلافيا وفي احتلال اليونان .

دفع هتلر بالجيش السادس في عام ١٩٤١ نحو الشرق ضد الاتحاد السوفيتي واشترك في المعارك التي دارت في قطاع خاركوف وكذلك من أجل عدد من المدن الأوكرانية ، وفي عام ١٩٤٢ اتجه قاصداً نهر الفولغا ـ ليلعب الدور الرئيسي في معارك ذلك العام ، ويحتل قلعة الفولغا في الجنوب .

حاول هتلر إخفاء الهزيمة التي لحقت بمخططاته الستراتيجية . وذلك بخلق هالة حول نصر مصطنع لجيش مدمر ، وضمن هذا الاتجاه نشر المقر العام لهتلر بلاغاً خاصاً ، قال فيه : اقترح الروس على جنود الجيش السادس الاستسلام ولكن جميع هؤلاء دون استثناء تابعوا القتال في مكانهم ، ولكن في اليوم الثاني أصدر المقر نفسه البلاغ التالي : «استسلم عدد من الجنود الألمان والحلفاء أحياء للقوات السوفيتية » . ولكن ضمن هذا العدد القليل من الأحياء كان يوجد (٩١) ألف جندي ، ولم يذكر هتلر شيئاً عن مصير ٢٥٠٠ ضابط و ٢٤ جنرال ، والجنرال فيلد مارشال فون باولوس الذين أصبحوا أسرى .

أباد الجيش السوفيتي في شبه الجزيرة بين الدون والفولغا إحدى أقوى المجموعات العسكرية الفاشية مجموعة الجيوش *B* ثم مجموعة الدون ، وبعد تدمير هذه المجموعة لم يبق في مدينة ستالينغراد وضواحيها أحد عدا ١٥٠ ألف جثة كان علينا دفنها ، وكلف الهجوم على ستالينغراد القيادة الألمانية بحدود مليون رجل بين قتيل وجريح وأسير .

٧

جرى في صباح مشمس من يوم ٤ شباط اجتماع في ساحة الأبطال القتلى . جنود ومدنيون من السكان أخذوا يسيرون في شوارع المدينة البطلة التي فلحتها القنابل والقذائف وجمدها الطقس البارد ، وإني أتذكر وكأني أراها اليوم ، عربات القطار المحروقة وهي على خطوطها الحديدية ، حافلات الترام التي أصبحت كالغربال لكثرة ما أصابها من الطلقات وشظايا القنابل والألغام . أنقاض العمارات الضخمة والشوارع المزدحمة ببقايا الآليات الحربية العدوة ، الطائرات القاذفة المحطمة في وسط المدينة ، جدران المخازن العامة والمركزية المتفحمة . ركام أبنية البريد وبقايا بيت الكتاب .

قبل ثلاثة أيام من ذلك التاريخ دارت المعارك العنيفة ضد بقايا الجيوش الفاشية ، وتركت الساحة ملأى بالحفر التي سببتها القنابل والألغام . وتجمع في

هذه الساحة في ذلك اليوم القادة السوفييت، من الحزب في المدينة والأطراف ، جنود ، ضباط موجهون سياسيون ، السكان الذين اشتركوا في المعارك البطولية ، وفي رئاسة الاجتماع كان يظهر عضو المجلس العسكري للجبهة ن . خروتشوف وجنرالات الجيوش ٦٢ و ٦٤ ك . غوروف ، ا . روديمتسيف ، م . شوميلوف وأنا وعن قادة الحزب في المدينة والمنطقة ا . تشوياتوف ، ا . بيكسين ، د . بياكليف ، فودولجين و آخرون غيرهم .

كما اجتمع في الساحة جنود وضباط وسكان المدينة وكان جميعهم فرحين بالانتصار وكانوا يتبادلون التهاني المشتركة .

افتتح الاجتماع رئيس سوفييت المدينة د . بيفالايف الذي شكر بحرارة باسم عمال المدينة ، الأبطال الذين اشتركوا في معركة ستالينغراد إذ قال :

لقد مضت أقسى أيام المعارك وأقسى التجارب ، النصر الأبدي لأبطال ستالينغراد ، فبدمائهم حصلنا على النصر والفخر لجنودنا وضباطنا البواسل والفخر لحزبنا الشيوعي .

ثم أعطي الكلام لي ، وإني أعترف بأني وضعت في موقف يصعب التكلم فيه . وقد تشتت فكري من الانفعال ، عندما كنت أنظر إلى صفوف المقاتلين المتراصة ، والذين عشت معهم مائة وعشرين يوما وليلة من النار ، لذلك لم أجد ما أبدأ به كلامي سوى هذه العبارات :

ـ لقد أقسمنا على القتال حتى الموت ولا ندع المدينة تسقط بيد العدو ، وها نحن صمدنا وتمسكنا بقولنا الذي أعطيناه للحزب .

وما تبع ذلك من قولي فلا أتذكره مطلقاً ، إذ إنني تناولت بعض جوانب المعركة وقلت للحاضرين في الاجتماع أن ستالينغراد لم تكن سوى أزهار وورود لما لاقاه الألمان حتى الآن ، ولكننا سنتابع تصفية الحساب معهم .

وقد حيا الماجور جنرال روديمتسيف الاجتماع بهذه الأقوال الحماسية .

ـ صمد جنود الحرس لصدمة عدو متفوق عليهم بالعدد ولم تحطم عزائمهم ، وتفت بعضدهم وصلابتهم القنابل والقذائف والهجمات المعادية الشرسة ، ستبقى أسماء جنود الحرس بدفاعهم المجيد الذي لم يتزعزع عن قلعة الفولغا مسجلة في حوليات معركة ستالينغراد الكبرى ومنحت فرقة الحرس ١٣ اليوم وسام لينين مخلدة ذكرى مرور ١٤٠ يوماً على وجودها على ضفة الفولغا اليمنى ، من المرعب النظر إلى هذه المدينة الشهيدة ، حيث أن كل بوصة من أرضها وكل

حائط يحمل اثار فظائع الحرب .

صعد الجنرال شوميلوف إلى المنصة وقال إن قوات الجيش ٦٤ قاتلت ضد الألمان على المشارف الجنوبية للمدينة ، وفي جزئها الجنوبي ولم تترك العدو يصل إلى الفولغا .

قال شوميلوف سمعنا في ٢ شباط آخر طلقة نار على ستالينغراد ومع استسلام مجموعة الشمال المعادية إنتهت عملية عسكرية لم يشاهد التاريخ مثلها ونفذت حسب مخطط القيادة العليا . لم يترك جنودنا العدو يصل الفولغا وأوقفوه وقد أصبحت ستالينغراد قبرا للغزاة الألمان .

بعد سكرتير اللجنة الاقليمية للحزب أ . تشوديانوف ، تكلم عضو المجلس العسكري للجبهة ن . خروتشوف ، وبعد إنتهاء الاجتماع عاد كل جندي إلى مركزه ليتحضر للمعارك الجديدة القادمة .

بقينا حوالي شهر في القرى الواقعة على أختوبا ، وخلال ذلك إنصرفت الفرق للراحة التامة وإكمال الصفوف ، وتلقي أسلحة جديدة ، والاستعداد للركوب باتجاه الغرب لتلحق بالجبهة التي تقدمت بعيدا إلى الأمام .

لقد كافأ الوطن بكرم كل الوحدات والفرق التي دافعت عن ستالينغراد ، فرفعت تقريبا كل الفرق والألوية إلى درجة وحدات الحرس ، وتغير اسم الجيش ٦٢ ليصبح اسمه جيش الحرس الثامن ، وتدلت شارات الحرس على صدور الجنود والضباط .

بدأت بعد ذلك قطعات الجيش بركوب القطارات والانطلاق باتجاه الغرب نحو الجبهة ، ونقلت إلى قطاع كوربيانك الواقعة على نهر الدونتز شمالا . ثم ركب أركان الجيش القطار في محطة فوروبونوفو ، وبعد زيارة نهارية إلى كل المحطات التي كانت الوحدات التي أصبحت جزءا من الجيش الثامن تستعد منها للركوب ، عدت قبل حلول الليل إلى محطة فوروبونوفو .

وأخيرا دوت صفارة القطار ، تتبعها الحركة المعهودة والضربات الايقاعية لعجلات القطار ، وكل منا يسر في خلده .

ـ وداعا يا نهر الفولغا ، وداعا أيتها المدينة البطلة ستالينغراد ، وكنت على حافة الهلاك ، متى وبأي هيئة سترينا ؟ وداعا يا زملاء السلاح الذين بللوا الأرض بدمائهم ودماء الشعب ، نحن ذاهبون إلى الغرب ، فمن الواجب متابعة قتال العدو البغيض ، وتحرير الأرض السوفيتية المقدسة من الغزاة الغرباء .

الفهرست

هذا الكتاب

★ سطرت معارك ستالينغراد صفحة خالدة في تاريخ النضال ضد قوى الفاشية الهتلرية.

★ يروي مؤلف هذا الكتاب الحقائق الكثيرة عن مجرى المعارك ويدعمها بالوثائق والأرقام.

★ أثبتت نتيجة المعارك التي خاضها المدافعون عن ستالينغراد أن صاحب الحق لا يقهر وسينتصر حتماً، مهما بلغت قوة الجيوش النازية.

★ من خلال الوثائق والحقائق التي يرويها المؤلف يطلع القارىء على أروع صور التضحية والفداء في الدفاع عن أرض الوطن.

★ المعلومات الواردة مسجلة بأسلوب صادق، بعيداً عن أية مبالغة.

★ يفيد الكتاب مختلف أوساط القراء، ويغني مكتبة الشعوب المناضلة من أجل الحرية والاستقلال، والعيش بحرية وسلام.

السعر - [illegible] ل. س.